د. م. دنلوب

تاريخ يهود الخزر

نقله الى العربية وقدم له
الدكتور سهيل زكار

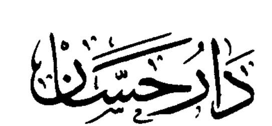


د.م. دنلوب

تاريخ يهود الخزر

نقله إلى العربية وقدم له

الدكتور سهيل زكار



الطبعة الثانية

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

دار حسان للطباعة والنشر

مد الهادي حرصوني - دمشق - ص.ب ٣٢١٨

هاتف : ٢٢٣٧٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب ترجمة كاملة لكتاب

The History of the Zewish Khazars

by

D. M. Dunlop

New-York 1967.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المعرب

يلاحظ المتتبع لأخبار الفتوحات العربية أنها بدأت أولاً على جبهتين هما : الشام والعراق ،ضد عدوين هما: الامبراطورية الساسانية والروم البيزنطيين،وقد ظهرت معالم تغير هذا الحال بعد النجاحات الحاسمة في اليرموك والقادسية وإثر مؤتمر الجابية الذي عقد برئاسة الخليفة عمر بن الخطاب سنة ١٧ هـ / ٦٣٨ م، فقد توزعت جيوش الشام الآن على ثلاث جبهات هي : مصر ، آسيا الصغرى ، ما وراء الجزيرة-أرمينيا وما تلاها. وانقسم جيش العراق إلى قسمين: أحدهما تولى فتوحات المشرق في ظل مسؤولية البصرة والآخر اتحد بجيش الشام لما وراء الجزيرة وعمل في ظل قيادة الكوفة وبمشاركة شامية مستمرة .

وقد تمكن جيش جبهة مصر من فتحها ، وبعد مصر صارت الجبهة هي الشمال الأفريقي ، وبعد ما كملت أعمال الفتوح في الشمال الأفريقي تحولت الجبهة إلى الأندلس وظلت الفتوحات مستمرة حتى توقفت إلى أبعد الحدود إثر معركة بلاط الشهداء ، هذا من جهة وسعى من جهة أخرى جيش جبهة آسيا الصغرى نحو فتح القسطنطينية فأخفق ، ولهذا قال الباحثون الأوربيون لقد حمت بواتيه وأسوار القسطنطينية أوربا من التوغل العربي .

ودون الدخول في تفاصيل مناقشات هذه المقولة والمواقف المتخذة حيالها أود أن أبين أنه كان هنالك منفذ ثالث الى أوربا عبر جبهة ما وراء

الجزيرة ـ أرمينيا وقد دعيت هـــذه الجبهة في العصر الأموي باسم جبهة الخزر وذلك نسبة إلى شعب الخزر التركي .

لقد خاض العرب معارك قاسية جداً ضد الخزر ، والحقوا بهم عدة هزائم ، لكن لسوء الحظ تواءمت انتصارات العرب الحاسمة مع تفجر أحداث الفتنة الثالثة التي أودت بحياة الخليفة الوليد الثاني واعتلاء يزيد الناقص العرش الأموي وما تلا ذلك من أحداث قادت إلى سقوط الخلافة الأموية .

وكان الخزر قد أسسوا امبراطورية كبيرة ، وقد اعتنقت الطبقات الحاكمة فيها الديانة اليهودية وباتت هذه الأمبراطورية تعرف بدولة يهود الخزر ،وعاشت هذه الدولة بضعة قرون ، وبعدما سقطت ظل يهودها يقطنون أوربا الشرقية كما هاجرت أعداد كبيرة منهم إلى بقية أجزاء أوربا ، ويشكل المنحدرون من يهود الخزز في أيامنا هذه ما ليس أقل من تسعين بالمئه من يهود العالم .

إن موضوع دولة الخزر اليهودية موضوع خطير جـــداً ، يرتبط من جانب بماضي العرب في العصر الأموي والعباسي ، ومن جانب آخر بحـــاضر العرب ومسألة الاحتلال الصهيوني لفلسطين ، وقد تناوله بالبحث عدد كبير من الباحثين كان أفضلهم على الاجمـــال المؤرخ م . دنلوب حيث تناول هــذا الموضوع بشكل أكاديمي موثق المعتمد على عـــدد كبير من المصادر بمختلف اللغات الوسيطة والمعاصرة .

وفكرت منذ عدة سنوات بترجمة هذا الكتاب وتيسيره للقارىء العربي ، وأعلنت عن هذه النية ، ونظراً لكثرة مشاغلي فكرت بنقل الكتاب بالتعاون مع أحد الأصدقاء ، ودفعت الكتاب أولاً إلى صديق تعاونت معه ونشرنا أكثر من كتاب ، وبقي لديه عدة أشهر ثم أعاده ، ذلك أنه وجـــد صعوبة كبيرة في التعامل معه ، وكان ـ حسب قوله ـ يحتـــاج إلى القاموس كل لحظة ، وأخذت

الكتاب، ثم حدث أن اتفقت مع صديق جديد على ترجمته، وغاب الكتاب لدى هذا الصديق أكثر من سنة ثم عاد إلي وبرفقته أوراق تتضمن نتائج ما بذل من جهد.

وكانت هذه النتائج مخيبة للآمال، ولهذا السبب عاد إلي الكتاب مع الأوراق هذه بالواسطة ولم أر صديقي صاحبها منذ ذلك الحين، أي منذ قرابة الثلاث سنوات، وأمام هذه المواجهة الجديدة شرعت بالعمل بالكتاب، وخلال عمل متقطع دام أكثر من سنة تمكنت أخيراً من نقله إلى العربية.

ولا أخفي أنني وجدت صعوبة كبيرة في الترجمة، لكن من قال إن الترجمة أسهل من التحقيق ومن التأليف؟! هنالك ضرورة مستمرة وحاجة دائمة للترجمة سواء أكان النص صعباً أم سهلاً، فالقضية ترتبط بأهمية الموضوع وبالشعور بالواجب وبالوفاء بالعهد.

لقد سألني صديق منذ أيام: كيف تستطيع أن تخرج كل عام عدة كتب؟ وجوابي لهذا السؤال هو: الساعة تشير الآن إلى منتصف الليل، ويومي هذا قد بدأته مثل غيره من الأيام في الصباح الباكر، فكل يوم أجلس وراء مكتبي ما لا يقل عن أربع عشرة ساعة، أجلس في قاعة فيها بضعة آلاف من المجلدات تحوي جلّ ما يحتاجه الباحث في التاريخ، وأملك الآن من خبرة البحث المستمر والعمل المتواصل ما عمره أكثر من ثلاثة عقود من السنين، مع همة وطموح أريدهما أن يرقيا إلى درجة عظمة ماضي العرب والاسلام، وثقة وإيمان راسخ بتوفيق الله وعونه، فهذا العمل خالص لوجهه وهو سبيلي إلى الجهاد الذي هو الآن فرض عين على جميع المسلمين....

إنني أؤمن بالعمل وأعتقد أن جوهر الانسان أكرم الجواهر كلما عرضته للصقل والشدائد ازداد توهجاً وبريقاً، والانسان كتب له العيش في هذه الحياة الدنيا مرة واحدة فلتكن كلها عطاء وجهد وفائدة.

إنها رسالة اخترتها عن طواعية وسأستمر في أدائهـا حتى يقضي الله تعالى أمره ، إنني اتعشق الكتاب وأجد فيه المتعة والفائدة التي لا يدانيها فائدة، فمن ذاق لذة المعرفة ، والكشف عنها هانت أمامه كل اللذات والأطايب والثروات، وحين أتعامل مع أي كتاب أعطيه كل ما يستحقه وما أقدر عليه ، وحين أفعل هذا أعرف مسبقاً أن ما أجهله أكثر مما أعرفه وأن العصمة لم تكتب إلا لنبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام، وقديماً كان السلف الصالح يقول : رحم الله عبداً دلنا على ، أو ردّ علينا أخطاءنا ومساوئنا .

رحم الله من فعل هذا وغفر له ، إنما بنية صالحة لا بسباب وتشهير لتغطية التقصير وعدم العطاء ، أنا من أمـة منها الجاحظ والطبري وابن عساكر وابن العديـم والمقريزي وغيرهم كثير ، ومن المعروف أن عصر ابن عساكر يشبه في كثير من مظاهره عصرنا هذا، وفي تلك الأيام ومع بشائر النصر وتحرير الأرض من الصليبيين كتب ابن عساكر فيما كتبه تاريخ دمشق في ثمانين مجلدة ، ولقد لاقى ابن عساكر العناية والرعاية والتشجيع من مسلمي دمشق والشام ومن نور الدين زنكي ومن بعده صلاح الدين ، وأقولها بكل صراحة أن التشجيع في أيامنا مصدره القارىء والقارىء فقط .

لقد رسم الله تعالى لبلاد الشام قدراً محدداً، وقدر هذه البلاد كان في الماضي تحمل أعباء أعمال الفتوحات العربية الكبرى ، فجند الشام هم الذين أوصلوا الاسلام إلى قلب أوربا وأعالي الفولغا والصين وكل مكان من دنيا الانسان وحين تعطلت إرادة الشام عـانى العرب مـن الانتكاسات ، والشام هي التي تحملت أوزار الحروب الصليبية وحولت مد الغزو المغولي إلى تيار معاكس ، والشام وحدها تقف الآن في وجـه الصهيونية ، فما قضى لم يتغير ولن يتغير أبداً .

من المتوجب أن يتماشى دور الشام الثقافي والحضاري مع دورها السياسي والعسكري ويتوائم ، فنور الدين بنى لابن عساكر أول جامعة « للحديث » من نوعها في تاريخ الاسلام وشجعه على تصنيف تاريخ دمشق وذلك في وقت كان يجاهد فيه الفرنجة ويسعى إلى طردهم ، وإلى التحرير والوحدة .

وما زلت أذكر أنني دخلت منذ سنوات (١٩٧٨) إلى حانوت لبيع الكتب في مراكش في المغرب الأقصى وبينما أبحث بين محتويات الحانوت دخل رجل وقام مثلي بالبحث ثم التفت نحو صاحب الحانوت فسأله : أما من جديد؟ فأجابه لا يا سيدي ، فعقب على إجابته بقوله : يبدو أن ينابيع المشرق قد نضبت ! فالتفت نحوه وقلت له : لِمَ لا تفجرون ينابيع الفكر هنا ؟ فأجابني بعدما عرف أنني من الشام : يا أخانا أنتم جعلتمونا نعتمد عليكم دائماً ، فأنتم جلبتم إلينا الاسلام والمعرفة والمدنية ولم تتوقفوا قط عن امدادنا بكل ما نحتاجه خلال القرون الطويلة الماضية لِمَ توقفتم الآن؟ لِمَ لا تصدرون إلينا شيئاً سوى الكتب المعاد طبعها في بيروت ؟ أين الجديد لديكم ؟ النظام القائم لدينا يعتمد على ما ترسلونه وليس من السهل تغيير هذا النظام وأخشى ما أخشاه أنكم إذا توقفتم عن العطاء أن نجد أنفسنا مضطرين إلى الاستيراد من أوربا، بعدما قاومنا ذلك وبعدما قطعنا أشواطاً واسعة في طريق التعريب .

لقد آن الأوان لتحول الجامعات من معاهد لتخريج المعلمين إلى معاهد للبحث والعطاء، وبات من المتوجب على الدولة أن تدعم القطاع الثقافي مثلما تدعم القطاع الدفاعي، بات عليها أن تدعم الكتاب سعراً وتداولاً مثلما تدعم الرغيف ، من المتوجب وجود مركز ثقافي في كل شارع في المدينة والقرية « فهذا سبيل يساعد على ايجاد المجتمع الواحد الموحد ، المجتمع الحضاري المعطاء ، مجتمع المواطنين الواعين الأحرار ، فبالأحرار من المواطنين يمكن تحرير الأرض وازالة الظلم

والفوارق وتحقيق الوحدة ، لا بد من التعجيل بذلك ، وإلا فاتنا الركب ، وآنذاك سلام على العرب والعروبة .

والحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبينا سيد العرب وقائدهم وعلى آله وصحبه أجمعين .

دمشق ١ جمادى الآخرة ١٤٠٦

٩ شباط ١٩٨٦

سهيل زكار

المدخل

اعتاد قراء جيبون على سماع اسم « ليو الخزري » ، امبراطور الامبراطورية البيزنطية في القرن الثامن الميلادي ، الذي كانت أمه أميرة خزرية تزوجت من قسطنطين الخامس . ولقد جاء ذكر الخزر مراراً وتكراراً لدى الكتاب البيزنطيين ، ومن الواضح أنه كان لهم وزنهم الكبير وتأثيرهم على الأجواء السياسية في تلك الأيام ، ومما يوضح هذا أن الرسائل التي كانت ترسل في القرن العاشر من عاصمة البوسفور إلى ملك الخزر الذي عرف باسم « الخاقان » حملت ختماً ذهبياً أوسع وأرشق من أختام الرسائل التي أرسلت إلى البابا في روما وإلى خلفاء شارلمان [1] .

ويحتل الخزر مكانة أخرى جديرة بعنايتنا واهتمامنا ، فلقد قامت أراضيهم فيما بين مجرى الفولغا الأدنى والسفوح الشمالية لجبال القوقاز ، وامتدت إلى الأراضي القائمة حول بحر آزوف ، وفي القرن التاسع إلى ما وراء غربي مدينة كييف ووسط الدينبر ، كل هذا في وقت مارست دولتهم فيه السيطرة والنفوذ على رجال القبائل في الشرق امتداداً حتى نهر جيحون ، ووقعت بلاد الخزر عبر الخط الطبيعي لتوسع العرب .

فبعد سنوات من وفاة النبي ﷺ (٦٣٢ م) اندفعت جيوش الخلافة شمالاً من خلال حطام الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ، اندفعت وهي تجرف كل شيء أمامها حتى وصلت حاجز جبال القوقاز العظيمة ، وكان بإمكان العرب ما أن يجتازوا هذا الحاجز حتى يصبح الطريق مفتوحاً أمامهم إلى أراضي أوروبا

---

(١) قسطنطين بروفي روغنتوس « الرسوم البيزنطية » تحقيق بون : ١/٦٩٠ .

الشرقية، والذي حدث هو أن العرب قد واجهوا على خط القوقاز قوى عسكرية منظمة تمكنت في النهاية من منعهم من مد فتوحاتهم في هذا الاتجاه .

وبناء عليه فإن الحروب العربية الخزرية التي دامت لمدة زادت على المئة سنة لها أهمية تاريخية كبيرة [1] ، وحدث على أرض تور أن تمكن فرنجة شارل مارتل من عكس تيار مد الفتوحات العربية ، وفي حوالي الوقت نفسه لم يكن التهديد الذي تعرضت له أوروبا الشرقية أقل حدة، ومن الواضح أن المنتصرين المسلمين قد تصدت لهم وأوقفتهم قوات مملكة الخزر.

وهكذا يمكن القول تجاوزاً في هذا الباب : كان الخزر مثلهم مثل الفرنجة أبطال الصليبية وحماتها ، علماً بأنهم انتموا إلى بداة - أو أنصاف بداة - وسط آسية وكانوا آنذاك شامانيين[2]، وقد تحولوا فيما بعد كما سنرى إلى اليهودية وهذه مسألة ليست أقل أهمية بالنسبة لهم ، ولا شك بناء على هذا أن بيزنطة معقل الحضارة الأوربية في الشرق ، كانت ستجد نفسها مطوقة من قبل العرب لو أن الخزر لم يكونوا في المنطقة الواقعة إلى شمال القوقاز، ولا شك آنذاك كانت صورة تاريخ المسيحية والإسلام قد أخذت - كما هو متوقع - شكلاً يختلف عما نعرفه.

والسؤال الذي يمكن أن نسأله هو: لماذا لم تجر حتى الآن أية محاولة لكتابة تاريخ الخزر، ما دام أنه يستحق التدوين وهنالك مواد كافية حوله ؟ في الحقيقة لقد قدم ج . ب بري J. B. Bury. ، وهو مؤرخ من كمبرج ، عرضاً تاريخياً متكاملاً عن الخزر في فصل من فصول كتابه « تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية » [3] ، ويمكن اعتبار ما جاء في هذا الفصل أفضل عرض متوفر حتى

---

(١) قلل من تقديره من قبل كافيغناك في « تاريخ العصر » الطبعة السابعة (باريس ١٩٣١) : ١٦٩ .

(٢) يؤمنون بالديانة الشامانية البدائية .

(٣) الفصل الثامن (لندن ١٩١٢) .

الآن حول الموضوع علماً أن هنالك بعض الأبحاث المتفرقة التي تناولت جوانب منه مع إشارات عابرة وردت في بعض الكتب الحديثة .

ويبدو أن السبب الرئيسي الذي حال دون معرفتنا بتاريخ الخزر لم يتعلق بإنعدام الاهتمام به ولا بقلة المعلومات حوله ، ولكن بصعوبة التعامل مع المصادر الموجودة حوله ، فهذه المصادر قد كتبت بعدة لغات هي الإغريقية والعربية والعبرية والسريانية والأرمنية والجورجية والروسية والفارسية والتركية وحتى في الصينية أيضاً ، أضف إلى هذا أن المعلومات المتوفرة في هذه المصادر التي لا يمكن أن نتوقع وجود إنسان يجيدها معاً ، هي متناقضة وغامضة ولا تقدم شيئاً محدداً ويقينياً .

ولقد ازدادت مصادر تاريخ الخزر مع ازدياد معارفنا ونموها حول تاريخ الشرق ، فلقد شهد القرن الأخير نشر عدد كبير من كتب الجغرافيا والتاريخ العربية التي تحوي الكثير من المعلومات عن الخزر ، كما ظهر إلى الوجود بعض المواد العبرية الثمينة [1] ، وهكذا عظم حجم المصادر حول الخزر وعبّر النقاد عن وجهات نظرهم حول تاريخ الخزر كما جاء في سلسلة أخرى من اللغات هامة وعظيمة ولا تقل شأناً عن المصادر الاصلية .

ومن المؤكد أن الوضع بات مختلفاً جداً عنه أيام بوكستروف Buxtrof. عندما لم يجد ما يفيد من المعلومات حولهم فربطهم بكسرى فارس ، إنما على الرغم من الإضافات العظيمة التي ازدادت بها معلوماتنا . إن محاولة تتبع آثار تاريخ الخزر ليست ــ كما سنرى في الصفحات المقبلة ــ عملية ابحار سهلة .

وكان قبل نشوب الحرب الأخيرة قد عزم كل من الأستاذ بول كاهل الذي

(١) أسهم اخراج محتويات جنيزا كنيس القاهرة القديمة إلى هذا وإلى مسائل أخرى، أنظر محاضرات بول كاهل بعنوان « جنيزا القاهرة » (لندن ١٩٤٧) : ١٤ ...

كان آنذاك رئيس قسم الأبحاث الشرقية في جامعة بون ، والأستـــاذ هنري غريفوري من جامعة بروكسل ، على العمل معا في إنتاج كتـــاب عن الخزر ، وكان من المتوقع أن يكون هذا الكتاب هاما وموثقاً ، لكن لسوء الحظ نشوب الحرب والظروف التي استجدت تدخلت بخططهما ، واقترح منذ عدة سنوات الأستاذ كاهل على تولي مهام هذا البحث ، وكنت مسروراً جداً لتلبية رغبتـه هذه ، وملكت أثناء القيام بالبحث مزية وفوائد القدرة على استشارة الأستاذ كاهل وقت الحاجة ، وأنا مدين له كثيراً في جوانب لا تعد ولا تحصى، فبدونه لم يكن بالإمكان كتابة الكتاب ، ولقد ترك لي حرية اختيار المواد وترتيبهـا وعرضها ، وفي الوقت الذي تأثرت فيه بآرائـه حول الموضوع ككل هو ليس مسؤولا عن وجهات النظر التي عرضتها ولا عن تقصيري وأخطائي التي اقترفتها في موضوع كهذا لا يمكن تجنب الوقوع في الخطأ فيه .

ولقد توجب علي العودة إلى المواد المتوفرة والعمل من خلالها على تكوين صورة متماسكة ورواية وافية لتاريخ الخزر ودولتها،وليس هنالك من جديد في نصوص المصادر المعروفة فيما عدا بعض القراءات المختلفة لبعض مواد مخطوطات الاصطخري والمسعودي التي أرسلها الاستاذ كاهل إلي مـــن أكسفورد ،مع أن كتبهما قد طبعت منذ زمن طويل ، وأدين للأستاذ كاهل ارساله لي برواية ابن سعيد الجغرافي الأندلسي حول الخزر .

هذا وهنالك نص غير متنبه إليه ورد لدى اليعقوبي قد أشار بـه إلى نظام الملكية المزدوجة لدى الخزر، كما وجدت رواية مفيدة عن بعض حوادث تاريخ الخزر في مخطوطة فارسية محفوظة في مكتبة جامعة لندن ، وأنتهز الفرصة هنا للتعبير عن شكري لسلطات هـــذه الجامعة ، وقد وقفت على إشارة للخزر وردت في الصينية ، لا أعلم أحداً وقف عليها من قبل وذلك في حدود معرفتي، كما لم أجد إشارة إليها من قبل المهتمين المعاصرين بالموضوع،وكان الاستاذ هالون،

لذي جاء موته خسارة شخصية لعدد من المستشرقين وللدراسات الاستشراقية، قد منحني مساعدات جمة في عملي هذا ، فلربما لم يكن بإمكاني الوقوف على النصوص الاغريقية عند سواه .

وسأعالج في ثنايا هذا الكتاب الموضوعات التالية : بدايات تاريخ الخزر ، وصلاتهم المحتملة مع الساسانيين قبل الاسلام ، والصلات الخزرية البيزنطية في مختلف الأوقات، والحروب مع العرب، وتحول الخزر إلى اليهودية، والمراسلات التي يقال أنها جرت بين الأندلس ودولة الخزر في القرن العاشر ، وعلاقات الخزر بالروس ، وأخيراً سقوط الخزر وزوال دولتهم من الوجود .

والخلاف حول بعض هذه القضايا شديد جداً ولا حاجة للقارىء للانزعاج لعدم التوصل إلى نتائج حاسمة لا سيما حول تاريخ التحول إلى اليهودية والسقوط النهائي ، فهنا سنتفحص مختلف الروايات ووجهات النظر المتباينة ، ونحن مدعوون أثناء العمل في الكتاب إلى تتبع آثار الخزر بعيداً في الغرب حتى الدانمارك وفي الشرق حتى الصين ، وأن نبحث فيما قيل : إنهم اعتنقوا في بعض الأوقات الاسلام والمسيحية أيضاً ، ذلك أن اعتناقهم لليهودية حقيقة لا ريب فيها ، وقد بذل المؤلف ما أوتيه من قدرة على توضيح ما جاء في الروايات الغامضة والتوفيق بين الاختلافات التي وردت في المصادر ، وهو يأمل أيضاً أن تكون ترجمته للنصوص العربية الهامة الواردة في الكتاب صحيحة ودقيقة .

ويقف بين حشد الكتب والمقالات التي عدت إليها كتابان متميزان ومثيران ، وأول هذين الكتابين قديم إلى حد ما ويختلف في محصلاته اختلافاً جوهرياً عما قيل في كتابنا هذا وهو كتاب ج . مرفوات .

[1] Osteruropaische und ostasiatische sterif zuge.

---

(١) ليبزغ ١٩٠٣ .

والكتاب الثاني من تأليف كوكوفتسوف .

[١] Evreisko-Khazar skaya perepiska, vx veke.

وهذان الكتابان متباينان في المنهج والعرض، والألماني منهما متداخل وصعب القراءة ، مع أنه يحتوي على فرضيــات ثمينة - وكثيرة تتعلق بالفترة التي نحن بصددها ، أما الأستاذ الروسي فقد عالج موضوعاً محدداً ، فقد كان أمامه نصف دزينة من الوثائق العبرية تتعلق بالمراسلات مع الأندلس ، ومنــاقشة محتوياتها قد شملت موضوع تاريخ الخزر بأكمله مع إثارة جميع الفرضيات المتناقضة حوله .

وقد عالج مؤلفنا هذا الموضوع بوضوح كامل واختصــار مفيد ، وينبغي أن نضيف إليهما رسالة ابن فضلان حول رحلته إلى بلغار الفولغــا بتحقيق الأستاذ زكي وليدي توغــان ، وتحوي حواشي المحقق وملاحقة مواد عن الخزر لم تنشر من قبل [٢] ، ولقد أمكنني استخدام هذا الكتاب بفضل الأستاذ مينورسكي ، وتحوي ترجمة الأستاذ مينورسكي لكتاب « حدود العــالم » عن الفارسية مع حواشيه معلومات جديدة وهامة [٣] ، ولا يمكنني أن أغفل ذكر البحث الرائع عن مصادر تاريخ الخزر الذي أعده فرع الدراسات السلافية في مكتبة نيويورك العامة ونشر من قبل أ. يارمولنسكي .A. Yarmolinsky في دورية المكتبة عام ١٩٣٨ ، وقد لفت انتباهي له الدكتور سيــل روث .Cecil Roth من أكسفورد .

وعلي أن أذكر باختصار الكتب الكبيرة لكل من أرتمونوف .Artamonov وبولياك .Poliak وزاتشاكووسكي .Zajaczkowski ، وهم جميعاً من عصر

---

(١) نشرت « مراسلات الخزر للقرن العاشر» من قبل الأكاديمية الروسية . لينينغراد ١٩٣٢ .

(٢) رسالة ابن فضلان أ . ك . م . ٢٤ / ٣ (ليبزغ ١٩٣٩) وقدمت خلاصة مفيدة مــع الحواشي مع ترجمة انكليزية لمواد زكي وليدي عن رحلة ابن فضلان وذلك من قبل روبرت ب . بليك مع رتشارد . ن . فراى بعنوان « ملاحظات حول رسالة ابن فضلان » في دوريــة بيزنطة ١ / ٢ / ١٩٤٩ ٧ - ٣٧ .

(٣) سلسلة ذكرى جب الجديدة : ١١ (١٩٣٧) .

واحد تقريباً ، وقد عالجوا مسألة الخزر من وجهات نظر مختلفة ، وظهر كتاب أرتمونوف Ocherkidrevneishei istori Khazar. [1] في سنـــة ١٩٣٧ ، وتماشياً مع العنوان والتزاماً به عالج هذاالكتاب التاريخالمبكر للخزر ، وتوقف مع تاريخ سنة ٢٧٣٨ ،وأوضح المؤلف في المقدمة أنهلايعرفاللغاتالشرقية ،وقال إنه يكتب كآثاري ،واهتم أرتمونوف بالخزر من باب علاقتهم بتاريخبلادهفقط.

ومن الواضح أن الكتاب في نطاق ما حدده عبارة عن بحث إيجابي ومفيد للموضوع ، ونشر أ.ن.بولياك كتـابه (بالعبرية) بعنوان « فزاريا » في مدينة تل أبيب في سنة ١٩٤٤ (ورأيت أولاً نسخة د . سيسل روث ثم تسلمت فيما بعد نسخة منه بوساطة مساعدة د.س موراغ من القدس) ، وقام هذا الكتاب الذي خطط له أن يكون الجزء الأول من بحث تاريخي مطول عن الخزر ، قام بتطوير نظرية سبق للمؤلف أن طرحها في مقالة نشرها عام ١٩٤١ في دوريـــة « صهيون » العبريه وذلك بعنوان « تحول الخزر إلى اليهودية » بيد أنه قدم هنا وثائق أكثر ثراء لاسيما مما جاء بالمصادر العبرية ، وقد تمت مناقشة نظرياته داخل كتابنا هذا .

فلقد كان هذا الكتاب موضع نقد كبير [2] ، وكتب كتاب زاتشا دووسكي
Ze studiow nadzagadnienien chazarskbim.
(١٩٤٧) من وجهة نظر لغوية تركية [3] ، وألقى المؤلف ، وهـو اختصاصي

---

(١) العنوان التالي « دراسات في تاريخ الخزر القديم » لينينغراد ١٩٣٦ .

(٢) إن مطالعـــة م. لاندو في Qiryath sepher . ٢١ (١٩٤٤) ١٩ – ٢٤ ، بالعبرية . لم أر أ. اشكولي في Moznaim : ٨ / ٢٩٨ ، : ٣٠٣٧٥ ، ٣٨٣ مـــع ردبوليا ، المصدر نفسه : ١٩ / ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ (تعود الإشارات إلى هـــذه الدوريات العبرية إلى د. موراغ) .

(٣) نشرت دراسات حول مسألة الخزر من قبل الاكاديمية البولندية ، كراكو . وهنالك. عرض عام مفصل في دورية « الاسلام » Der Islam . العدد ٢٩ (١٩٤٩) : ٩٦-١٠٣ . قدمه و. برتساك .

بالتركيبات معروف ، الضوء في كتابه هذا وفي عدد من المقالات على الأسماء الباقية مما له أصل خزري وذلك مما يمكن استخراجه من لهجـــة الحديث لدى اليهود « القرائين » في بولندا والقرم [1] ، وقد اعتبر هؤلاء « القرائين » الممثلين الرئيسين في هذه الأيام للخزر القدماء ، وهو يميل إلى التقليل من أهمية الوثائق العبرية بدلاً من المغالاة في ذلك ، وقام د . س . سليغا Dr. S. Seliga من جامعة سانت أندروز بتقديم تسهيلات كبيرة إلي وساعدني في دراسة هـــذه الأبحاث البولندية .

ويتوجب علي أخيراً أن أقدم الشكر إلى الاستاذ هـ . و . بيلي H. W. Bailley من كلية الملكة في جامعـــة كمبردج والاستاذ . و . مينورسكي والاستاذ س . ج . مولووير L. J. Mullaweir ، من جامعة شيكاغو الذي تفضل بقراءة مخطوطة كتابي هذا فقد انتفعت كثيراً وفي جوانب عدة من اقتراحاته ونصائحه ، كما علي أن أعبر عن شكري وامتناني للاستاذ فيليب حتي ولمؤسسة جامعـــة برنستون للطباعة .

د . م . د

---

(١) تتضمن المقالات الحديثة لزاجاتشوسكي مقالة بعنوان « مشكلة لغة الخزر » المجمع العلمي لبراسلو ١٩٤٦ . ومقالة بعنوان « الثقافة الخزرية وميراثها » My'sl Karaimska براسلو ١٩٤٦ .

الفصل الاول

ظهور الخزر

لو ثبتت صحة الاشتقاقات اللغوية المعروفة لكلمة أو كلمتين مألوفتين في اللغات الأوروبية لوجدنا أن « خزر » قد حظيت بانتشار أوسع مما يمكن أن يتبادر إلى الذهن ، فكلمة bussard تبدو أصلاً أنها كانت تطلق على الفرسان الهنغار غير النظاميين[1]. وكما سنرى إن العلاقة بين الخزر والاغيار Magyaro مؤسسو الدولة الهنغارية هي تاريخية مؤكدة ، كما أن كلمة Katzer [هرطقي] الالمانية قد اشتقت من اسم « الخزر » على افتراض أنهم يهود . ومن جهة أخرى إن اشتقاق اسم – الخزر – ومعناه غامضا تماماً ، ويقال عادة : إنه مشتق من « جذر » الفعل التركي «قز» ويعني «يتجول» أو «يتبدى» وبهذا يكون «الخزر» هم «البداة» [2] ، وقد يقبل هذا مؤقتاً .

---

(١) يعني كمصطلح عسكري، فقد كتب د. س. س. روسي من جامعة برمنغام بأن قاموس الجر ا Barczi قال : كلمة huszar مستعارة من الكلمة الصربية ـ كرواتية husar التي هي نفسها كلمة مأخوذة من الكلمة الاغريقية chosarios ، ويفترض أن هذه الكلمة هي كلمة Klosiarioi نفسها التي قدمها رسكي بشكل مشكوك فيه أنها شكل من أشكال كلمة خزر (قسطنطين بروفي. تحقيق بون: ٢ / ٦٧٥) وذلك بمعنى Latrones et sicarii وتظهر الكلمة بشكل ومعنى موحي به من قبل رسكي في Harmenopulos (قرن رابع عشر) . I, Tit, 4, 9

(٢) كذلك زاجاتشوسكي « مشكلة » ونقل عن : Gombocz Nemeth, Rasonyi وثانية في دراساته ومقالاته » ولم يتوقف زكي وليدي عند بعض التحديدات وتجاوزها في (ابن فضلان ٢٢٥) واقترح برتساك في عرضه للدراسات (در ـ اسلام : ٢٩ / ١٠١) بدائل في أن قزر هي (خزر) واعداً بتقديم تحليل لغوي .

هذا ونجد في اللغات السلافية عدة أشكال لكلمة خزر ، فيها حرف (O) الصوتي في الشطر الأول من الكلمة Khozar ، ويقودنا هـــذا إلى اشتقاقات أخرى من كلمة Koza الروسية ومعناها « ذيل الخنزير» Weltmanu 1868 ومن جذر كلمة Koz في العديد من الكلمات السلافية ومعناها « المـــاعز » Tzenoff 1935 ، ومن الممكن تجاوز هذه المحاولات والتخلي عنها ، طالما أن الاسم الأصلي ليس سلافياً .

ثم إنه ليس هناك من داع ولو كان بسيطاً للافتراض أن الخزر كانوا يرتدون « أذناب الخنازير » أو كانوا رعاة للماعز ، ومن الجدير بالذكر أن هـــذا الاسم يكتب باللغة العبرية بشكل عام مع حرف o - u الصوتي ويلفظ « كـُوزاري » Kuzari (ومنـــه جاءت كلمة Cozri التي استخدمها Buxtrof وجمعهـــا كوزاريم Kozarim . ومن جهة أخرى نجـــد في العربية كلمة « خزر » (لا يمكن أن تكون مشتقـة من « أخزر » التي تعني « ضيق العين » أو « ذي العين المائلة » (الحولاء) [1] ، ونجد في الاغريقية « خزاروي » Khazaroi (Khazareis) وأحياناً خوتزير Khotzer(Khotzir) وفي اللاتينية تشازاري Chazari وغازاري Gazari وفي الوثيقة العبرية المعروفة باسم « مراسلات الخزر »هنالك عبارة غير مضبوطة بالشكل يمكن أن تلفظ « كزر» أو «خزر».

وكما قيل من قبل من الممكن قبول التفسير الذي يقول بأن كلمة خزر تعني « البداة » ، ومع ذلك أشار بيلليوت Pelliot إلى الصعوبات المشمولة هنا ضمناً[2] (الفعل التركي قزماك Qazmak يستعمل دوماً بمعنى يجوّف وليس يتجوّل إلخ) وهو يشير هنا إلى ج – دني J. Deny [3] ،وهو أن اسم خزر يمكن أن

---

(١) اقتباس زاجا تشوسكي ، المصدر نفسه .

(٢) مقال خاص عن الخزر في Nomstures : ٢٠٧ - ٢٢٤.

(٣) مـــل . اميل بويساق في دورية معهد الفلسفة والتاريـــخ : ٥ (١٩٣٧) بروكسل ٢٩٥ - ٣١٢ .

يفسر بعبارات : Quz-ar. Quz-er . Quzar أو Qozar المشتقة من الجذر Quz ومعناه طرف الجبل المواجه لجهة الشمال ، وإذا زدنا عليه « eri » أو « er » يصبح المعنى شعب الشمال .

وإذا ما رجعنا رأي دني يمكننا القول :

(أ) أنه لم يقدم حتى الآن تفسيراً مقنع لحرفي (o - u) الصوتيين في بعض أشكال ذلك الاسم .

(ب) نجد في لغة أرمينيا القديمة ولغة جورجيا غالباً ما يشار إلى خاقان الخزر باسم ملك الشمال و « خزاريا » باسم « بلاد الشمال » الأمر الذي رده إلى معنى الاسم الأصلي ، لكن قبول التفسير يثير عدة مصاعب ، لأننا نجد فيما يعرف باسم وثيقة كمبردج المكتوبة بالعبرية والتي هي جزء من « مراسلات الخزر » عبارة Kazar (Kazari) كتبت بما يقرأ قزر Qazar ومن الصعب القول Quzar .

وأول سؤال يواجهنا هنا هو : متى ظهر الخزر ، ومتى ظهر اسمهم ؟ لقد كان هناك كمية من المناقشات وعدد من الآراء حول علاقة الخزر بقبائل الهون Huns من جهة وبالأتراك الغربيين من جهة أخرى ، وكان الرأي السائد لبعض الوقت هو أن الخزر قد صدروا عن الامبراطورية التركية الغربيـــة ، وتظهر الاشارات المبكرة إلى الخزر في الوقت الذي لم يعـد فيه ذكر للأتراك الغربيين وعلى هذا الأساس قيل أنهم انضموا بقواتهم إلى الامبراطور البيزنطي هرقل في حروبه ضد الفرس سنـــة ٦٢٧ م ، وأنهم ساعدوه فعلياً أثناء حصاره لمدينة تفليس .

والسؤال هنا : هل كان الخزر يخضعون آنذاك لسلطة الاتراك الغربيين ؟ وقد قام المؤرخ ثيوفانوس ، الذي روى هذه الأخبار (ت ٨١٨ م) بالحـديث عنهم على أنهم « أتراك قدموا الشرق يدعون باسم الخزر [١] » هذا من جهة ومن

(١) طبعة بون : ٨٥٥ .

جهة أخرى يظهر الاتراك الغربيون في الكتابات الاغريقية تحت اسم « أتراك » بشكل مجرد . دون إضافة أية سمة خاصة .

وقد أتى المؤرخون السريان على ذكر الخزر وربطوهم بأحداث تاريخها ابكر من سنة ٦٢٧ م ، فقد قام كل من ميخائيل السوري[١] وابن العبري[٢] بالحديث عن أخوة ثلاثة قاموا كما يبدو في عهد الامبراطور البيزنطي موريس (٥٨٢ – ٦٠٢ م) بالزحف من «سيزيا الداخلية » Inner seythia باتجاه الغرب مع جيش قوامه ثلاثون الف رجل ، وعندما وصلوا إلى حدود الامبراطورية البيزنطية عبر واحد منهم واسمه بلغاريوس (عند ابن العبري بلغاريس) نهر الدون ، واستقر في داخل الامبراطورية ، واما الآخران فقد احتلا بلاد اللان التي تدعى باسم « برساليا Barsalia » وان هؤلاء مع السكان الأصليين تبنوا اسم « الخزر » نسبة إلى « كزريغ » اكبر الأخوين سناً . وإذا صحت نسبة هذه الرواية – كما هو مرجح – إلى يحيى العربسوس[٣] John of Ephesus (توفي حوالي ٥٨٦ م) ، فالمعاصرة إذاً موجودة ، وتشير صراحة إلى ان الخزر قدموا إلى بلاد القوقاز من آسية الوسطى في حوالي منتصف القرن السادس م .

ونجد عند الكاتب الاغريقي ثيوفيلاكت سيموكتا Theophglact Simocatta (ت حوالي ٦٢٠ م) رواية حول الأحداث التي جرت الاتراك الغربيين ، من الصعب الا تكون ذات صلة بالرواية السريانية التي أتينا على ذكرها الآن[٤] ، فقد تحدث عن سفارة تركية قدمت إلى الامبراطور موريس ٥٩٨ م ، وتحدث بالمناسبة واصفاً كيف ان الترك قد تمكنوا في السنين الماضية من إيقاع

---

(١) تحقيق شابوت : ٣٨١ . فصل ١ سطر ٩ .

(٢) تحقيق بدج . الكتاب ٣٢ الفصل ١ السطر ١٥ .

(٣) كذلك بارتولد ، الموسوعة الاسلامية ، مادة « بلغار » .

(٤) طبعة بون ٢٨٢ ... شافانس ، الوثائق : ٢٤٦ ...

الهزيمة بالهون البيض (الهياطلة) والتغلب على الأفار والإيغور الذين يعيسون حول نهر إتل الذي يدعوه الاتراك باسم النهر الاسود [1]

ويذهب ثيوفيلاكت إلى ان هؤلاء الإيغور ينحدرون من زعيمين دعيا « فار » و«هوني» وانهم يشار إليهمفي الاماكن الاخرى باسم فارشونايت[2] Varchonites ، وقد هرب بعض هؤلاء الإيغور خوفاً من الاتراك ، وعندما ظهروا في الغرب اعتبرهم اولئك الذين قابلوهم بمثابة « افار » وقد لصق بهم هذا الاسم ، وباتوا يدعون به بشكل اعتيادي .

ويؤكد مصنف اغريقي آخر هذه الرواية ، فهو يذكر ان جستنيان قد استقبل بعثة تمثل الافار الادعياء ، الذين كانوا كما يبدو من الإيغور، وذلك في عام ٥٥٨ م [3] ، وأنهم تحولوا بعد هذا إلى النهب والعبث في أراضي شرقي أوروبة ووسطها . وإذا صح الاشتقاق ، فإن كلمة « أوغري » Ogre (الغول) في التقاليد الشعبية يعود تاريخها إلى هذه الحقبة .

ويخبرنا ثيوفيلاكت أيضاً أنه في حوالي التاريخ الذي جرت فيه وقائع السفارة التركية في ٥٩٨م. كان هناك هجرة لبعض النازحين من آسية إلى أوروبة ، شملت قبائل : تارنياخ Tarniakh وكوتزاغير Kotzagero وزبندر Zabender ، وشابه وصول هؤلاء وصول أبناء الغار والهوني ، من قبلهم ، وقد أثبتوا قرابتهم بهم بالتحاقهم بالذين عرفوا تجاوزاً باسم «الأفار» ، والذينهم

---

(١) غير محدد ، ويبدو أن تل مثل أتل إتل الاسم الذي أطلق على نهر « أتل » أي نهر الفولغا ، وينكر زيوس في (Die Deutschen 713 n) أن يكون الفولغا هو المقصود ، ويقترح مرقوارت ويوافقه شافانس (وثائق : ٢٥١) أن « تولا » دافعي جزية لأرورخونالذي وجد ثانياً كما يبدو في الشرق .

(٢) مناندربروتكتور ، تحقيق بون : ٤٠٠ .

(٣) مناندر ، المصدر نفسه : ٢٨٢ .

في الحقيقة كانوا من الايغور خاضعين لخاقانهم (الايغور) . وليس من الصعب ملاحظة أن هذه رواية أخرى مشابهة للرواية التي أتى على ذكرهـا كل من ميخائيل السوري ، وابن العبري ، ذلك أن الـ « كوتزاغير » كانوا بلاشك جماعة بلغارية [١] ، بينما ينبغي أن يكون اسم « زبندر » هو نفس اسم « سمندر » التي كانت مدينة خزرية هامة ومن ثم فهي تماثل « كزريغ » السريانية ، حيث يبدو من حيث الأصل أن اسم « سمندر » قد اشتق من اسم القبيلة المحتلة [٢] .

وهكذا يتبين لنا بشكل مؤكد أن الخزر قد وصلوا إلى أوروبة الشرقية أثناء فترة حكم الامبراطور البيزنطي موريس ، بعد أن كانوا قد احتكوا من قبل بالأتراك الغربيين ، وقد قدر لهم أن يحتكوا بهم ثانية فيما بعد .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى إن وجهة النظر القديمة تقول إن الخزر قد وصلوا إلى تخوم أوروبة قبل قيام الأتراك (حوالي سنة ٥٥٠ م) ، وتبعاً لهذه النظرية فان صلات نسب الخزر تنحصر بالهون ، فعندما تحدث برسكوس Priscus ، سفير أتيلا في عـام ٤٤٨ م عن الشعوب الخاضعة للهون ، من الذين يعيشون في « سيزيا تجاه بحر بنطس » يذكر أنه كان بينهم شعب عرف باسم الـ « أكتزير [٣] » وتعني هذه العبارة بكل بساطة الـ « أق — خزر » أي الخزر البيض ، وقـام جوردانس Jordanes الذي كتب في حوالي ٥٥٢ م بالإشارة إلى الـ « أكتزير » على أنها أمة محاربة لا تمارس الزراعة بل تعتمد في معيشتها على رعي القطعان والصيد [٤] .

---

(١) مرقوارت Streifzuge, 488 .

(٢) ومثل ذلك كما يبدو بلدة بلنجر التي كانت بلدة خزرية هامة أخذت اسمهـا من الجماعة التي سكنتها ، أنظر ما يلي .

(٣) برسكوس ، تحقيق بون : ١٩٧ .

(٤) تحقيق موسن : ٦٣ .

وانطلاقاً من قاعدة التمييز المطبقة بين الأتراك ، فانهم كانوا يطلقون إسم البيض على العشائر المتفوقة المتميزة بين الوحدات القبلية ، ويطلقون اسم السود على البقية .

ونقرأ عند الجغرافي العربي الاصطخري أن الخزر نوعـــان : نوع يدعى قرا ـ خزر (الخزر السود) والنوع الأبيض الآخر ، لا يسميه الاصطخري[١] ، لكن من الطبيعي أن نفترض أنهم الآق ـ خزر (الخزر البيض) . ويلاحظ أن عملية مطابقة الا « أكتزير » مع الا « أق ـ خزر » لم يقبل بـــه زيوس[٢] Zeuss ولا مرقوارت[٣] ، لكونها مطابقة مستحيلة لغويا . وزاد مرقوارت على ذلك قوله إنه من وجهه نظر تاريخيه نجد أن الا « أكتزير » عرق محكوم خاضع لسواه ، متطابق ـ بشكل مرجح ـ مع الخزر السود ، لذلك إن عملية المطابقة البديلة هي أن الا « أكتزير » معناها الأغشيري Agacherie ، لكن حتى في هذه الحالة ليس هنالك من فرق إذا ما أعتبرنا أن زكي وليدي محق في الافتراض أن العلاقة بين الأغشيري والخزر كانت علاقة وثيقه[٤] .

وهنالك حقيقة أو حقيقتان تؤيدان وجهة النظر القديمة التي لم تدحض كلياً ، فلو لم يكن للخزر أية علاقة مع الا « أكتزير » على اعتبـــار أنهم قد ظهروا لأول مرة كفرع من فروع الأتراك الغربيين في نهاية القرن السادس م ، إذاً كيف جاز أن يذكروا في النصوص الوثائق السريانية المصنفة في حوالي سنة ٥٦٩[٥] تحت اسم « زخويس ريتور » ؟ كما أن الشكل كزر / كزير الذي يأتي هنا في قائمة أسمـاء

---

(١) ترجمت رواية الاصطخري عن الخزر في الفصل الخامس .

(٢) Die Deutschen, 714 - 715 .

(٣) streifzuge, 41, n. 2. .

(٤) ابن فضلان : ٣١ .

(٥) روبن دوفال ، اقتباس شافانس ، الوثائق : ٢٠٠ رقم ٤ .

الشعوب التي تنتمي إلى المناطق المجاورة للقوقاز ، يشير إشارة واضحة للخزر ويتفق هذا الأمر وينسجم مع حقيقة وجودهم في نفس المنطقة قبل قرن من ذلك التاريخ ، هذا ولدينا شهادة شاهد آخر يعرف باسم جغرافي رافنا (القرن السابع ؟) يقول إن الأغزيري (الأكتزيري) لدى جورادنس هم الخزر أنفسهم [١] .

ومهما يكن من أمر ، ليس من الثابت في أي مكان أن الخزرهم الهون ، والسؤال الذي يواجهنا الان هو : ما دام الخزر كانوا قد أخضعوا من قبل الهون قبيل عام ٤٤٨ م بوقت قصير ، وذلك وفق رواية برسكوس فمنذ متى يا ترى كانوا موجودين من قبل ؟ هنا يتحتم علينا أن نأخذ بوجهة نظر زكي وليدي ، وهي وجهة نظر أقامها صاحبها اعتماداً على المصادر الشرقية حصراً ، وهي مستقلة عن جميع الاعتبارات المذكورة آنفاً .

ويعتقد وليدي أنه عثر على ما يشير إلى أن الأورغشيتي Urgeschichte للأتراك ليس في المصادر الإسلامية فحسب ، بل في المصادر الصينية أيضاً ، وترجع هذه المصادر الصينية إلى أسرة واي Wei (٣٦٦ – ٥٥٨ م) [٢] . ففي روايته هذه يقوم الخزر بدور رائد ، حتى أنهم يدعون أنهم أهل البلاد الأصليين [٣] .

وينقل زكي وليدي رواية ذكرها الكرديزي فيها أن الجد الذي ينتسب إليه القرغيز Kirgiz أقدم على قتل واحد من ضباط الرومان ثم هرب إلى بلاط

---

(١) تحقيق بندر وبارثي : ١٦٨ .

(٢) المعني « وي » الأخيرة (التاريخ من عند زكي وليدي) .

(٣) ابن فضلان : ٢٩٤ . اعتماداً على المصدر نفسه أيضاً كانت ديار الخزر بالأصل في حوض جيحون الأدنى . أنظر المصدر نفسه : ٢٤٤ ، ٢٦٦ .

خاقان الخزر ، ثم استأنف رحلته شرقاً حتى استقر أخـــيراً بشكل دائم على ضفاف نهر ينيسي Yenissei ، لكن بما أنه من المعتقد أن الكرغيز قد عاشوا في شرقي أوروبا في الأزمنة المبكرة واستقروا في جنوبي جبال أورال قبل بداية العصر المسيحي ، فإننا نجد زكي وليدي يمين تاريخاً لهذه الرواية مطابقاً لهذا التاريخ ، وهو على غير استعداد لأن يقبل بأن ورود ذكر الخزر في تاريخ مبكر مثل هذا التاريخ هو من الأخطاء التاريخية [١] . ولا شك أن هـــذه دعاوى عريضة بالنسبة لقدم تاريخ الخـــزر ، فالمصادر الإسلامية الأساسية التي يعتمد عليها زكي وليدي هي مصادر متأخرة إلى حد مـــا ، فالكرديزي توفي حوالي سنة ١٠٥٠ م ، والتاريخ المجهول للمؤلف المعروف باسم « مجمـــل التواريخ والقصص » [٢] جاء بعده (مع أن هذه التواريخ ترجـع بدون شك إلى ابن المقفع ، وهو من رجال القرن الثامن ، استقى معلوماته من مصادر فارسية تعود إلى ما قبل الإسلام) كما أن مصادره الصينية لا تأتي على ذكر الخزر بشكل واضح ، ومع هذا فإن وجهة النظر القائلة بأن وجود الخزر قـــد سبق وجود الهون لها ما يؤكدها ، لكن من جهات أخرى :

إن التاريخ الأرمني الذي يحمل اسم مؤلفه موسى كوريني Moses chorene (القرن الخامس) يحتوي على رواية تشير إلى الخزر في حوادث وقعت في العشرين سنة فيما بين ١٩٧ و ٢١٧ م [٣] . وتقول هـــذه الرواية بأن شعبين من شعوب

---

(١) المصدر نفسه : ٣٢٨ .

(٢) المصدر نفسه : ٣١١ .

(٣) التأريخ بالنص مضطرب يفيد بالتاريخين كليهما وبثالث متداخل بينهما . الموسوعـــة البريطانية (ط. ١٤) هناك التاريخ هو ١٩٨ . لا بد أن كارمولي في (رحلات القديسين ، بروكسل ١٨٤٧) يشير إلى الحادث نفسه عندما كان يتحدث عن جولوف الخزري الذي حكم سبـع عشرة أمة على الفولغا ، وكان يلاحق بعض القبائل الثائرة عندما اندفع إلى أرمينيا فيما بين ١٧٨ و ١٩٨ . إن مصدر معلومات كارمولي غير معروف بالنسبة لي .

الشمال وهما : الخزري والباسيليان Basiliane قررا بعد اتفاقهمـا على اقتحام ممر كور Chor في الطرف الشرقي من بلاد القوقاز ، وذلك «تحت لواء تقدمهما وملكهما فيناسب سرهاب » [1] Venasep Surhap ، وبعدما عبرا نهر كور Kur التقيا بفالارش الأرمني ، وكان على رأس جيش عظيم ، وقد تمكن من طردهما عائدين إلى الشمال وذلك بعدما دبت الفوضى في صفوفهما. وبعد فترة من الزمن تعرض هؤلاء الشماليون وهـم في موطنهم في القوقاز الى هزيمة منكرة ، وقد قتل فالارش في المعركة الثانية هذه ، وخلفه ابنـه وقام الأرمن ثانيه تحت قيادة ملكهم الجديد باجتياز القوقاز وذلك في قوة عظيمة ، وهزم الأرمن الخزري والباسيليان هزيمة كاملة وأخضعاهما لحكمهم واخذوا واحداً من كل مئة بمثابة رهينة ، وجرى بناء نصب تذكاري كتب عليه بحروف إغريقية ما يحكي أن هاتين الأمتين قد أصبحتا تحت السيادة الرومانية .

وتبدو هذه الرواية أنها صحيحة ، ويفهم منها أن الخزري هم الخزر أنفسهم ومهما يكن من أمر فإن التـاريخ الأرمني منسوب خطأ إلى موسى كوريني من القرن الخامس ، وينبغي تصحيح ذلك لأنه يعود إلى القرن التاسع أو على أبعـد الحدود الى القرن الثامن [2] ، وهذا لا شك يلقي ظلاً مختلفـاً على رواية الغزو الخزري ، فبدلاً من أن تكون الرواية شاهداً لا يشك بصحته على وجود الخزر أيام موسى كوريني نراها تتوافق مع الروايات الأرمنية (والجورجية ايضاً [3]

---

(١) يعتقـد كوتشيرا في ترجمـة وستون للقرن الثامن عشر : ٢ / ٦٢ (٦٥) « Sub duce acrege eorcem vena sepo snrhaco » أنـه عني ملكـا الخزر . (Diechasaren ، فينا : ١٩١ : ٣٨ .

(٢) من أجل وجهة نظر شاملة حول موسى الكيروني ، أنظر مقال أ. و. سركسين المجلة الآسيوية : ٦٠ (١٩٤٠) ٧٣ - ٨١ .

(٣) مثال رفضل عن الروايات الجورجية في بروست « النقوش الجورجية » الغ . م. و.أ (١٨٤٠) : ٣٢٩ .

التي تشير إلى الخزر في القرون الأولى للميلاد أو حتى قبل الميلاد ولا نرى لزوماً لنقلها هنا ، لأن هذه الروايات وإن كانت ممتعة في حد ذاتها ، لكن بالنظر إلى غموضها وعدم دقتها وافتقارها للتأكيد ولا يمكن الأخذ بها على اعتبار انها مادة تاريخية معتمدة .

ويزودنا الكتّاب المسلمون بكمية لا بأس بها من المواد الإخبارية التي يمكن أن تلقي الضوء على تاريخ ظهور الخزر ، فكما سبق وذكرنا نجد أن بعض هـذه الأخبار مستقاة من مصادر فهلوية جرى تصنيفها قبل قيام الإسلام وقبل الفتح العربي لبـلاد فارس ، هـذا وإن ما قاله الكتاب العرب والفرس عن الخزر يستحق التمحيص بدقة على أساس انه يحتوي على معلومـات موثوقة ترقى إلى العهود السابقة .

ولا عجب أن نرى أن هذه الروايات التي كتبت أثناء ازدهار دولة الخزر في شمال القوقاز تميز هؤلاء الخزر عن الأتراك الذين حاربتهم الأجيال المسلمة الأولى في آسية الوسطى ، لكن وجـود فقرة ـ كالتي سنوردها فيما يلي ـ فيها وضع الخزر جنباً إلى جنب مع الشعوب العظيمة آنذاك ، هو أمر يستحق النظر .

ففي مناظرة جـرت بين ابن المقفع الواسع الشهرة وأصدقائه ، كان الموضوع المثار هو تحديد أي الأمم أعقل ، وإنـه لأمر له مغزاه مسألة ترتيب الخزر في تلك المناظرة ، فقد جاء ترتيبهم بعد الفرس والإغريق (الروم) وأهل الصين والهنود ، ولا ندري أمردّ هذا إلى حالتهم الثقافية المتدنية آنذاك ، أم إلى نظرة العرب إلى الموضوع ؟ (توفى ابن المقفع عام ١٤٢ هـ / ٧٥٩ م) .

فقد اعتبر ابن المقفـع السود (الزنوج) أقل خلق الله شأناً ووضع الترك والخزر بعدهم ، وليس هذا هو المهم ، بل أنه شهد لهم بخصائص مختلفة تماماً عن

السودان حيث قال : « الترك كلاب مختلة والخزر بقر سائحة [1] وعلى الرغم من أن هذا الحكم ليس في مصلحة أي من الطرفين ، الا أنه يوحي لنا أن الخزر كانوا مجموعة عرقية (أمة) متميزة وحق هامة، إنما إلى أي مدى يتماشى هذا الوصف مع الحقيقة ليس لدينا ما يؤكد ذلك ، هذا ولدينا بعض الأراء التي تذكر أن الخزر لهم علاقة بالشركس على اعتبار أن بشرتهم باهتة اللون وشعورهم قاتمة وعيونهم زرق .

وعندما ننظر إلى البرساليين أو الباسليين الذين ورد ذكرهم من قبل السيزيين الملكين لدى هيرودوت [2] نجد أن الأمر يحتاج إلى تأمل وإنعام نظر كبيرين ، ويختلف الحال بالنسبة للروايات التي تصف الخزر السود ، على أنهم سمر البشرة كالهنود مع جمال ورشاقة في أجسامهم [3] .

هذا وإن الوصف الوحيد المتوفر لدينا لهذا العرق مما جاء في المصادر العربية الوصف التالي المنقول كما يبدو عن ابن سعيد المغربي في قوله : « أما بالنسبة للخزر فهم يسكنون إلى يسار (شمال) المسكونة تجاه الإقليم السابع ، يتألق فوق رؤوسهم برج الدب الأكبر ، وأرضهم باردة رطبة ، ولذلك فإن بشرتهم بيضاء وعيونهم زرقاء ، وشعورهم حمراء مسترسلة، وأجسامهم كبيرة، وطبيعتهم باردة ، ومنظرهم على العموم وحشي [4]، وواضح أن هذا الوصف وصف مألوف لأمة من الامم الشمالية ، وهو لا يقدم لنا أي مساندة للرأي القائل بوجود بعض وشائج النسب بينهم وبين الشركس .

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد . ط ١٣٣١ هـ : ٢ / ٢١٠ . وجرى التعليق على الحكايات من قبل روزنتال في بحثه « طرائق ومذاهب البحث العلمي الاسلامي » في الحوليات الشرقية : ٢٤ (١٩٤٧) / ٧٢.

(٢) ٤ / ٥٩ .

(٣) أنظر رواية الاصطخري عن الخزر في الفصل الخامس .

(٤) مخطوطة البودليان : ١ / ٨٧٤ ورقة : ٧١ . أشكر لحصولي عليها الأستاذ كامل .

وإذا ما اعتمدنا على عملية الاشتقاق اللغوي التي يقدمها لنا الخليل بن أحمد[1] فإننا نجد أن الخزر كانوا كالمغول عيونهم مائلة الخ ... ومن الجلي أنه ليس هناك رأي قطعي بالنسبة لهذه المسألة ، إذ يبدو أن بعض الخزر كانوا شقر البشرة ، وشعورهم قاتمة اللون ، وعيونهم زرقاء ، ولكن ليس هنالك من دليل على أن هذه الصفات كانت صفات غالبة منذ الأزمنة القديمة ، أو انها كانت تمثل بشكل عريض سكان بلاد الخزر في العصور التاريخية .

وهنالك مناظرة مشابهة حول فضائل الامم المختلفة نقلت إلينا من حقبة سبقت عصر النبي محمد (ﷺ) يتحدث فيها ملك الحيرة النعمان بن المنذر مع كسرى أنو شروان ، وقد أعلن الملك الفارسي بأنه يرى ان الاغريق والهنود والصينيين أرقى من العرب ، وكذلك الترك والخزر على الرغم من انخفاض مستواهم المعاشي ووضاعته ، ذلك ان الخزر والترك لديهم على الاقل منظمات ومؤسسات خاضعة لملوكهم .

ونلاحظ هنا ثانية ان الخزر قد جرى تصنيفهم جنباً إلى جنب مع الامم الشرقية العظمى[2] ، ويتوافق هذا الرأي مع الروايات التي تحدثت ان سفراء الصين والترك والخزر كانوا يتقاطرون دوماً على ابواب كسرى[3] أنو شروان إلى حد أنه كان يحتفظ في قصره على ثلاثة عروش ذهبية دائمة لا يجلس عليها أحد لانها كانت مخصصة لكل من ملوك الروم (بيزنطة) والصين والخزر[4].

(١) ياقوت ، معجم البلدان : مادة خزر .

(٢) ابن عبد ربه : ١ / ١٦٦.

(٣) الطبري : ١ / ٨٩٩ . وتبعاً لابن خرداذبه كان الأشخاص الذين يرغبون بزيارة البلاط الفارسي من بلاد الخزر واللان يحتجزون في باب الأبواب (المكتبة الجغرافية العربية: ٤ / ١٣٥).

(٤) ابن البلخي . فارس نامة (سلسلة ذكري جب) : ٩٧ .

وعلى العموم نجد أن المواد المستقاة من الكتّاب العرب والفرس بخصوص تاريخ الخزر في العصور القديمة تنحصر بثلاث مجموعات تقريباً، وهي تتمحور حول ثلاثة أسماء هي :

(أ) واحد أو آخر من رسل بني إسرائيل .

(ب) الاسكندر الكبير .

(جـ) بعض الملوك الساسانين وخاصة أنو شروان وخلفاؤه المباشرون .

ويقدم لنا اليعقوبي في تاريخه [1] نموذجاً شائعاً من الروايات يمثل الفئة الاولى قال فيها إنه بعدما اختلطت الالسنة في بابل ، اجتمع أبناء نوح إلى فالغ بن عابر ، وسألوه أن يقسم الارض بينهم » فقسم لهم ، فصار للولد يافث بن نوح : الصين والهند والسند ، والترك والخزر ، والتبت ، والبلغر (الفولغا) والديلم وما والى أرض خراسان ، ويقدم اليعقوبي في مكان آخر من كتابه تتمة لهذا الخبر جاء فيه أنه بعد ما قسم فالغ بن عابر الارض على هذه الشاكلة ، توجه ولد عامور ابن نوبل بن يافث سمت الشمال الشرقي ، وتوغلت جماعة منهم من ولد تاغوما نحو الشمال ، وتوزعوا في عدة بلدان ، وشكلوا عدة ممالك كان منها مملكة البرجان (البلغر) واللان والخزر والارمن [2] .

ويشابه هذا ما ذكره الطبري [3] من أنه ولد ليافث عدة أولاد كان منهم جامر (في الكتاب المقدس جومر) وموعج (الأصح موّغ أو مغوغ) وموادي (مداي) ويوان (جافان) وثوبال (توبل) وماشج (الأصح ماشخ أو مبشخ) وتيرش (ترس) [4] ، وكان من ولد تيرش الترك والخزر ، ويبدو هنا تشابه ممكن في الأسماء بينهم وبين التُرغش، وهم بقايا الترك الغربيين الذين هزمهم العرب عام ١١٩ هـ / ٧٣٧ م [5] ، حيث اختفى أثرهم كفئة حاكمة في ذلك القرن .

(١) تحقيق هوتسما : ١ / ١٧ .

(٢) المصدر نفسه : ١ / ٢٠٣ . مرقوارت : ٤٩١ .

(٣) ١ / ٢١٧ - ٢١٨ .

(٤) ch. Gen 10. 2.،

(٥) هـ. جب « الفتح العربي لآسيا الوسطى » لندن ، ١٩٢٣ : ٨٣ ... الفصل ٤/ ٩٦.

ويتابع الطبري روايته فيقول : « ومن ولد موعج : يأجوج ومأجوج ، وهم في شرق أرض الترك والخزر »، ولا شك أن هذه المعلومات تلقي ظلاً ثقيلاً على محاولة زكي وليدي في مطابقة « يأجوج ومأجوج » الوارد ذكرهم لدى الكتاب العرب مع النروجيين[1] وتبطلها، فهو قد ذهب إلى أن ماشخ ربما مفرد الكلمة الكلاسيكية « مسفيتاي » (مسفيت)[2] Massagetai ويلح أ. باشمكوف A.Bashmakov على وجود روابط بين الـ « ميشخ » والخزر ، وذلك ليثبت نظريته عن الخزر ، التي تقول إنهم ليسوا من الترك من داخـــل آسية بل مما دعاه « أبناء يافث » أو « الألارديين » alarodian وهي جماعة من جنوب القوقاز[3] .

ومن الواضح أنه لا يوجد شكل مسبق الصنع حول هذه العلاقة الأسطورية بين الخزر ويافث ، وقد جاء في تاج العروس أنه قد قيـــل بأنهم من ولد كاشح (ماشح أو ماشخ تصحيف ميشح ؟) بن يافث ، وقيـــل هم والصقالبة من ولد ثوبال (توبل) زد على هذا أننا نقرأ أيضاً عن بلنجر بن يافث عند ابن الفقيه[4] وعند أبي الفداء[5] ، وأن بلنجر هذا هو مؤسس مدينة بلنجر . ويقودنا هذا الاستخدام إلى الافتراض أن هذا يساوي إعطاء بلنجر شخصية عرفية منفصلة ، ومفيد أن نذكر أنه في العصور التاريخية كانت بلنجر معروفة كمركز من مراكز الخزر المشهورة حتى أن المسعودي يذكر أنها كانت عاصمة الخزر[6] .

ليس من الضروري الاستمرار في إيراد مثل هذه الروايات حول يافث، ذلك أن مصدرها الإسرائيلي واضح وبديهي ، ولقد لفت بولياك poliak الأنظـــار

---

(١) ابن فضلان : ١٩٦ ...
(٢) المصدر نفسه : ٢٤٤ .
(٣) مركيور دي فرانس : ٢٢٩ (١٩٣١) ٣٩ ...
(٤) B. Q. A, V, 289 .
(٥) تحقيق رينيود ودي سلان : ٢١٩ .
(٦) تنبيه : ٦٢ .

إلى نص عربي حول تقسيم الأرض جاءت فيه كلمتا شمال وجنوب بالعبرية [١]
ونجد في دوائر الحكايات الإيرانية تقاليد مشابهة ، فتبعاً لبعضها نجد البطل أفريدون يقوم بتقسيم الأرض بين أولاده : طوج (أحياناً طور الجد الخرافي للطورانيين) وسلم وإيرج ، وهنا أيضاً يظهر الخزر مع الترك والصينيين في الجزء المخصص لطوج ، الابن الأكبر [٢] .

وتربط بعض الحكايات بين الخزر وإبراهيم الخليل ، وقد نقل بولياك منها قصة المقابلة التي جرت في خراسان بين أبناء قطورا والخزر حيث جرى ذكر الخاقان من ابن سعدو الطبري[٣]وتظهر هذه الحكاية في مخطوطة مشهد من كتاب ابن الفقيه ، حيث أوردها كجزء من رواية رحلة تميم بن بحر إلى بلاد الايغور ، وفي الحقيقة تعود هذه الحكاية إلى هشام بن محمد الكلبي [٤]،ويميل زكي وليدي نحو الإلحاح على تأكيد صحة هذه الرواية ليتخذها دليلاً على وجود الخزر في هذه المنطقة في ذلك التاريخ المبكر [٥] ويشير الجاحظ أيضاً إلى أسطورة أبناء إبراهيم وإلى استقرار قطورا في خراسان لكنه لا يأت على ذكر الخزر [٦] .
ويذكر الدمشقي أنه جاء في إحدى الروايات أن الترك هم أبناء إبراهيم من قطورا ، التي كان والدها من العرب العاربة ، وأن من أبناء إبراهيم أيضاً الصغد والكرغيز الذين يعيشون في منطقة ما وراء نهر جيحون ، هذا ومن المفيد أن ننوه أن الدمشقي لا يؤمن بصحة هذه الرواية [٧]النسبية .

---

(١) « تحول » : ٣ .
(٢) طبري : ١ / ٢٢٩ .
(٣) خزاريا : ٢٣ ، ١٤٢ ، ١٤٨ . ابن سعيد : ١ / ١ / ٢٢. الطبري:١/١/٣٤٧.
(٤) هشام بن محمد ، وجاء في رواية ابن سعد : هشام بن لهراسب السائب الكلبي في نص ابن فضلان ، في ف. مينورسكي ، رحلة تميم بن بحر إلى الإيغور ، دورية معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية ، ١٩٤٨ : ١٢ / ٢ / ٢٨٢) .
(٥) ابن فضلان : ٢٩٤ .
(٦) فضائل الترك . ترجمة من قبل هارلي ولكر - المجلة الآسيوية الملكية-١٩١٥:٦٨٧.
(٧) تحقيق مهرن : ٢٦٢ .

ومن المجموعة الثانية المرتبطة بالاسكندر الكبير نجد أن الفاتح الكبير بعدما تقدم من مصر إلى شمال أفريقيه (القيروان) فالتقى بقنداقة – وهي من نفس نوع ملكة سبأ التي اشتهرت أيام سليمان – اتجه شمالاً إلى أرض الظلمات، وبعد رجوعه من هناك أسس مدينتين على حدود بلاد الاغريق، ثم عزم على الرجوع إلى الشرق لكن وزراءه حذروه من الصعوبات الكبيرة التي سيواجهها عند عبوره البحر الاصفر ذي المياه الآسنة، وعلى الرغم من تحذيرات الوزراء له، وعلى الرغم من المصاعب، اجتاز الاسكندر الأراضي الإغريقية، ووصل إلى بلاد الصقالبة، الذين دانوا بالطاعة له، ومن ثم تابع مسيرته شرقاً حتى وصل إلى بلاد الخزر، وخضع هؤلاء بدورهم له، ومن هناك استأنف مسيرته إلى أراضي الترك ثم إلى المفازة الواقعة بين أراضي الترك والصين، وهكذا الخ ... [1].

وأمام هذا النوع من القصص لا غرابة أن نسمع خبراً يتحدث عن علاقة بين الإسكندر والخزر، مثل الخبر الذي جاء عن وهب بن منبه، وفيه أن الفاتح وجد الخزر في منطقة مرو وهراة [2]، ونحن لا نقيم وزناً لهذا الخبر ولا نعتبره صحيحاً، هذا ويشير الطبري بشكل مماثل إلى ان المكان الذي التقى به الاسكندر مع ملك الفرس وهو خراسان، قرب حدود بلاد الخزر، فهناك دارت رحى معركة كبيرة [3]، ونحن سواء قبلنا هذا الرأي، أو اعتبرناه مفارقة تاريخية، فإنه ينبغي ألا تفوتنا أهميته واعتباره شاهداً على مدى اتساع نشاط الخزر إلى شرقي بحر قزوين في وقت من الأوقات، وبما أن معظم القصص الواردة حول الإسكندر هي بعيدة كل البعد عن الحقيقة لا نستطيع أن نستفيد أكثر من هذه الرواية في قليل أو كثير كي نعتمد عليها كمصدر له قيمته.

(١) الدينوري - الأخبار الطوال - تحقيق عورغاس وكراتسكوفسكي: ٣٧ ...

(٢) اقتباس زكي وليدي، ابن فضلان: ٢٩٤.

(٣) ١ / ٦٩٩.

ونستطيع القول دونما تردد إن كل ما ورد من إشارات إلى الخزر في عصر الإسكندر هو من نسج الخيال ، ومن البداهة بمكان أن هذا ينطبق على كتاب اسكندر نامه لنظامي ، حيث يورد المؤلف اسم الخزر مع الروس كأعداء للفاتح في الشمال [١] ذلك أن مجرد التعرض لذكر الروس هو مفارقة تاريخية ظاهرة للعيان ، ولا شك أن هذه الفكرة قد خطرت للشاعر لأنه كان يكتب في نهاية القرن الثاني عشر ، حيث أنه كان متأثراً بما كان يعرفه من أخبار غارات الروس على الفولغا عبر بحر قزوين [٢] ، ثم إنه لا شك أنه كان ملماً بالظروف المحلية في منطقة بحر الخزر [٣] ومن الواضح أن نظامي وضع بصماته الخاصة على قصة الاسكندر ، وفي اتجاهات أخرى [٤] فممارك الفاتح مع الروس لم يذكرها أي كاتب آخر غيره ، قبل هذا التاريخ ، وليس هنالك من شك في هذه الحقيقة .

وحتى الآن لم نتعلم الشيء الكثير من المصادر العربية والفارسية حول التاريخ القديم للخزر ، ويبقى لنا أن نفتش لعلنا نرى فيما إذا كان هنالك أي ضوء يمكن أن يلقى على هذه المسألة وعلى الخزر بصورة عامـــة ، وذلك بواسطة المجموعة الثالثة من المقتطفات التي قدمها الكتاب المسلمون الذين يذكرون وجود بعض الروابط بين الخزر وبين عدد من ملوك فارس ، وخاصة كسرى أنوشروان منهم.

ولدينا وصف لحملة عظيمة ضد الترك في أيام كي‌خسرو (قورش) الفارسي كانت تحت لواء أربعة من قادته ، زحف واحد منهم ضد الأعداء عبر طريق

---

(١) على سبيل المثال : قنطال مقدم الروس الذي جمع جيشاً مثل البحر أو الجبـــال من البرطاس واللان والخزر ، ويقول صاحب اسكندر نامه في مكان آخر : رأيت من جبل الخزر إلى بحر الصين أراضي جميـــع الترك ، وقال في مكان آخر : احتشـــد جيش الروس مـــع رجال الخزر .

(٢) جرت مناقشة هذه الأمور فيما يلي في الفصل التاسع .

(٣) كما كان الشاعر خاقاني ، أنظر الفصل ٩ .

(٤) نولدكه ــ الاسكندرنامه ــ أكاد ــ الكتاب ٣٨ . رقم ٥ / ٥١ ــ ٥٣ .

بلاد الخزر ، لكن كما هو معروف إن تاريخ حكم قورش أقدم بكثير من قصص الاسكندر ، لذلك إن التعرض لذكر الترك في زمنـــه هو واضح الغلط ، وعلى هذا يمكننا أن نعتبر الرواية التي ذكرها الطبري[1] وابن البلخي [2] هي محض اختراع متأخر .

وعثر على رواية اسطورية أخرى حول بـــلاط الخزر في نص من النصوص الفارسية موجود في مكتبة جامعة ليدن [3]، ويدعى مؤلف هذه الرواية محمدبن علي الكاتب السمرقندي ، وقد عاش في القرن الثاني عشر ،وكان قد أوقف كتابه على واحد من القرا ـ خانيه ، وعنوانالكتاب هو « أغراض الرئاسة » وقد ذكر حاجي خليفـــة الكتاب [4] ، كما وتحدث عنه بارثولد معتبراً إياه بمثابـــة مصدر تاريخي [5] ، أو بالحري ، كما قال : المصنف التاريخي الوحيد الذي كتب في منطقة ما وراء النهر،في ظل حكم الدولة القرا ـ خانية، هكذا قدر بارثولد الكتاب ، وهذا رأي شخصي ، ذلك أن الكتاب أشبه بالكتب الأدبية ، وضعت موضوعاته لخدمة الأمراء ولتكون بمثابة مرآة لهم ، والفقرة الوحيدة الوثيقة الصلة بما نحن بصدده تبدأ بأسلوب فخم وعبارات رنانة على غرار أساليب الكتابة الفارسية آنذاك يقول فيها : « إن خاقان ملك الخزر هو السلطان ، وهو النسر الذي استحوذ على مناهل السعادة ، والصقر الذي استطاع بحكمته

---

(١) ١ / ٦٠٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٥ .

(٣) فهارس أسماء المجموعات الشرقية - Acad Lcegduno - Batavae : ٣ / ١٤، رقم ٩٢٧ . أدين بهذا المصدر إلى الأستاذ . أ. م. هني مان من جامعة سانت أندروز .

(٤) ١ / ٣٦٨ .

(٥) تركستان (سلسلة ذكرى جب) ١٨.

التي زينت المملكة ورعتها إن يجعل من الطاووس فريسة له ، وهو الذي حاز على مراتب السيادة والسلطان في العالم [1] .

وبعد إيراده لبعض الملاحظات عن أحوال الملوك حكى : « أنه في أحد الأيام أقام الخاقان وليمة ، وجلس وحده ليس معه سوى زمرة من ندمـــائه المقربين المرحين ، وهنا دخل عليه واحد من ابناء الضحاك التمزي ، ومن الواضح أنه كان عربياً (يطلق اسم الضحاك في الأساطير الايرانية القديمة على البدوي ممن يمارس أعمال السلب) .

وبعدما قدم فروض الطاعة والاحترام للخاقان ، دعاه للشراب معه ، وحالما جلس الاثنان يشربان بدأت الموسيقى بالعزف ، ودار الحـــديث حول المسائل الموسيقية ، وجرى توجيه سؤالين متتاليين إلى الأمير العربي ، كان أولهما : ماذا تعرف عن السماع ؟ وثانيهما : لماذا ينجذب المستمع إلى الموسيقى وينفعل ويرتبك أثناء السماع ؟ وأجاب الأمير ، وأعجب الخاقان واقتنع باجابته ، التي دلت على رجاحة عقله ، واتساع معرفته فسأله سؤالاً ثالثاً هو : لماذا تعثرت أقدامكم أنتم العرب ، وقلبت لكم السعادة ظهر المجن ، بعد أن دانت لكم ملوك الأرض ، وسجدت على أعتابكم نجوم السماء ؟ . وأجاب ابن الضحاك بجواب مناسب . وقال : إن سبب ذلك عائد إلى سوء الحكم ، وتبع هذا الجواب بعض الحـــكم الأخلاقية ، حيث أوردها المؤلف قبل أن ينهي القصة .

وتبدو هذه القصة وكأنها حكمة ، ذات مغزى أخلاقي أكثر من كونها تاريخاً فالضحاك كما رأينا كان ينتمي إلى عالم الأسطورة ، وملاحظات ابنـــه حول

---

(١) تفضل الأستاذ مينورسكي بتقديم ترجمة المقاطع الصعبة .

السماع تعكس لنا نظريات ذلك العصر عن الموسيقى ، ويبدو أن المؤلف قد اخترع هذه القصة في القرن الثاني عشر بغية تثقيف مولاه [1] .

والذي يهمنا هنا هو معرفة الأسلوب الذي يقدم لنا السمرقندي الخزرفية ، فالمصادر الأخرى ، سواء العربية منها أم الفارسية تصف خاقان الخزر في عصر ما قبل الإسلام بأنه ملك عظيم يخوله مركزه كزعيم فئة هامة من البشر أن يكون في مصاف الحكام الساسانيين أو أباطرة الصين ، وليس هنالك أروع ولا أدق من هذه الفقرة التي تمثل هذا الخاقان لأنها تمتاز على جميع المصادر سواء الصحيح منها أو المشكوك بصحته ، فهنا يظهر الخاقان كرجل وثني ، أو على الأقل غير مسلم ، مدمن على معاقرة الخمرة ، كثير الاهتمام بالموسيقى ومباهجها ، تحيط به زمرة من رجال البلاط ، وذلك على عكس خانات العصور المتأخرة ، الذين روي أنهم كانوا يعيشون حياة عزلة .

وتروى القصة أن الأمير العربي عامل الخاقان بكل احترام ، وفوق هذا كله ، كان الخاقان واسع الاطلاع والمعرفة ، أنيساً دمثاً ، عذب المعاشرة ، يتحدث ببساطة الحكماء حول الشؤون الإنسانية ، ولا يمكننا طبعاً أن نتأكد أن هذه الصفات تتفق مع الواقع ، ومع الحقائق التاريخية ، فذلك من المحال معرفته تماماً .

وهنالك حادثة ربما كانت ذات دلالات أكثر إيجابية ، يذكرها المسعودي ويقول بأنها حدثت في بلاط شيرويه في القرن السابع ، لكنها تتحدث عن واقعة حدثت في فترة أقدم ، ويحكي المسعودي [2] أنه حدث أن سأل الملك شيرويه واحداً من رجال بطانته ، وهو ممتط ظهر جواده ، إذا كان يذكر

---

(١) هل كان للقراخانيين (الايلكخانيين) اهتمامات خاصة في بلاد الخزر . أنظر الفصل السادس . رقم ١٢٥ والنهاية .

(٢) مروج : ٤ / ١٢٤ ...

الخدعة الحربية الشهيرة التي قام بها جده أردشير بن بابك في حربه مع ملك الخزر وأراد رجل البلاط أن يطري الملك ويتملقه ويسليه فتظاهر بعدم علمه بتلك الخدعة ، وأخذ الملك يقص عليه ، فتظاهر بالاستغراق في الإصغاء إليه ، وإلى سماع تفاصيل الحكاية إلى حد أنه سمح لحصانه أن ينزلق في قناة صغيرة .

ومن الواضح أن المعلومات الواردة في هذه القصة يقصد منهـــا أن نفهم أن الخزر كانوا موجودين في زمن أردشير (٢٢٦ – ٢٤٠ م) ، ولكن ، أن العرب يشيرون بإيجاز لنشاطات أردشير في توجهاتهم [١] ، وخاصة لدى ذكرهم احتلاله لصول (دربند) المركز الهام في النهاية الشرقية لجبال القوقاز ، إلا أنه من الصعوبة بمكان أن نكتشف ما كان يعنيه المسعودي في قوله : « الخـــدعة الحربية الشهيرة » بسبب أننا لا نجد في أي مصدر من المصادر التاريخية الأخرى عدا المسعودي أي ذكر لأية علاقة صريحة لأردشير مع الخزر ، ولهذا لا نستطيع اعتبار رواية المسعودي هذه كدليل على وجود الخزر في القرن الثالث الميلادي.

ثم ما دامت هذه الظروف كانت معروفة وموثوقة بحسب رواية المسعودي فلماذا لم تذكر في كتاب « الكاناماك » وهو كتاب جاء بالفلهوية أوقفه صاحبه على تاريخ أردشير ، وقد ترجمه نولدكه ؟ [٢] ولهـــذا إن الاحتمال الأكثر قبولاً هو أن إشارة المسعودي هذه ما هي إلا لملك فارسي آخر ، وليس لأردشير ، كما سنرى .

وهناك إشارة موجزة للخزر ، جاءت بمثابة مفارقة تاريخية ، ذلـــك أنها تحدثت أن الخزر زحفوا ضد شابور بن أردشير في جيوش الأمبراطور جوليان [٣]

---

(١) أنظر ابن خلدون ، ط ١٢٨٤ هـ : ٢ / ١ / ١٦٩ .

(٢) : Betrage Zur Kunde der indogermanischen sprachon
٤ (١٨٧٨) ٢٢ ...

(٣) الطبري ١ : ١ / ٨٤٠ .

وتوقفت المصادر الإسلامية إثر هذا عن ذكر أي شيء عن الخزر لا في قليل ولا كثير حتى وقت متأخر نسبياً ، ويذكر الطـــبري [1] أن الأمبراطور فيروز بنى دفاعات من الحجر قرب صول [2] واللان وذلك بهدف حماية بلاده من الأمم الشمالية ، ويذكر المؤلف الاغريقي برسكوس أن الأمبراطور بيروزس (فيروز) قد أرسل في حوالي ٤٦٥ رسالة إلى كونخاس (قون – خـــان) ملك الهون القيداريين يقول فيها إنه يرغب في مسالمته ومحالفته ، وعرض علـيه أن يزوجه أخته ، ووافق كونخاس على هـــذا العرض ، ولكن أرسلت له امرأة فارسية أخرى بدلا من أخت الملك فيروز ، وعندما حل السلم بينهما أفشت هذه المرأة سر الخدعة إلى الملك القيداري ، وهنا أصر هذا الملك على استمرار زواجه منها ، لكنه شعر بالإهانة ، وأراد الانتقام من فيروز ، فطلب منه إرسال عدد من أعيان الفرس ، وعندما وصل هؤلاء إليه ، أعدم قسماً منهم ، وأعـــاد الباقين مشوهين إلى سيدهم [3] .

وبالنسبة إلى هذه الرواية ليس هناك من سبب يدعونا للشك في صحتها ، بما في ذلك الحل الوحشي الذي تتمحور القصة حوله ما دام برسكوس قـــد روى أحداثاً وقعت في عصره ، وكان يعيها ويعرفها تماماً ، ويمكننا أن نرى نفس القدر من الصحة في رواية أخرى تحدث بها عن شخص اسمه قسطنطينوس ذهب رسولاً من البلاط البيزنطي إلى فيروز في سنة ٤٦٥ م ، وقابله ، وهنا نجد قصة الخديعة الحربية الشهيرة لدى المسعودي التي مارسها ملك الفرس ضد ملك الشمال ، فهل يا ترى هذه منقولة عن تلك ؟

---

(١) ١ / ٨٩٥ .

(٢) هي الكلمة الاغريقية Tzour (تاريخ بروكوبيوس : ٨ / ٣ / ٤) من الأرمينية Tsur « باب » (: كور) .

(٣) طبعة بون : ٢٢٠ ...

وقبل أن نستمر في حديثنا ، نرى لزاماً علينا أن نسأل : من هم القيداريون؟ إن وجهة نظر برسكوس العادية تفيد أنه أراد بهم الهياطلة (الهون – البيض) الذين تسببوا أخيراً بموت فيروز ويلاحظ «بري Bury» أن القيداريين الأصليين هم الهون الذين استقروا فيما وراء بحر قزوين ، وهددوا ممر داريل [١] ، ويذكر برسكوس أيضاً أن الفرس احتفظوا بقلعة يوريوباخ [٢] ؟ Yuroeipakh عام ٤٦٥ م ، ويبدو أن هذه القلعة كانت واقعة في النهاية الشرقية لجبال القوقاز ، وجاء احتلال الفرس لهذه القلعة خلافاً لرغبات القيداريين ، وقد طلب الفرس من الرومان أن يساهموا في حمايتها .

ثم يذكر – برسكوس – في مكان آخر أنه عندما زحف شعب السرغور في عام ٤٦٨ م ضد الفرس قابل الحامية الفارسية عند دربند – بوابة بحر الخزر – المكان الذي سبق للفرس أن أوقفوا به زحف القيداريين من قبل [٣] ، وبعد أمد قصير من هـــذا جاء إلى القطسنطينية – في سنة ٤٧٢ م – سفارة فارسية أعلنت عن انتصار الفرس على القيداريين وعن سقوط مدينة « بلعم » التي من المحتمل أنها كانت واقعة شمال جبال القوقاز ، والاسم في صورته الحاليـــة هو مصحف بسبب أخطاء النساخ [٤] .

ومن هذا كله يفرض علينا السؤال التالي نفسه : هل نستطيع أن نعتبر قيداريي القرن الخامس هم الخزر أنفسهم يا ترى؟ إن الرأي القائل بوجود علاقة بين القيداريين والهياطلة لا يعارض هذا ولا يناقضه ، وذلك لأنه يبدو أن هنالك صلة نسب بين الهياطلة والخزر ، فلقد كانت عادة تعدد الأزواج التي اشتهرت في

---

(١) برى ، ثيودسيوس : ٢/٧ . رقم ٥ .

(٢) المصدر نفسه ١٥٩ مع الفار ، يورروساخ .

(٣) المصدر نفسه : ١٦١ .

(٤) المصدر نفسه : ١٦٥

بلاد الخزر ، أو على الأقل كانت مألوفـــة بينهم فقط ، انتشرت أيضاً بين الهياطلة [1] . وهنا نلاحظ إنه إذا لم تكن النصوص التي ذكرها برسكوس قد أصابها سقط أو ألم بها تصحيف فإن القيداريين يتميزون كليـــاً عن الأكتزير (الأكتثير – الأكتير) الذين أتى على ذكرهم ، وإذا كان القيداريون هم الخزر فمن الواضح أن الأكتزير ليس هم الخزر .

وإذا ما استأنفنا سرد الرواية نجد أن قباذ (٤٨٨ – ٥٣١ م) اهتم مثل أبيه من قبله بأمور الدفاع عن دربندة ولقد ذكر المؤرخون أكثر من مرة أنه بنى خطاً دفاعياً من الطوب في منطقة جبال القوقاز [2] ، ثم أرسل واحـداً من قادته على رأس حملة ضد الخزر الذين كانوا قـد احتلوا جورزان (جورجيا) وأرّان (ألبانيا) [3] إلى الجنوب من تلك السلسلة . وقد قيل بأن هذا القائد قد تمكن من انتزاع قسم كبير من تلك المنطقة منهم ، ثم ما لبث قباذ نفسه أن لحق بقائده ، فوصل إلى أرّان حيث بنى بعض المدن التي أصبحت لها أهميتها فيما بعد ، وهي بيلقان ، وبرذعة ، وقبله .

وتعزى هذه الرواية إلى البلاذري المعدود من الثقات في هـــذا المجال (ت بعد : ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م) . وهناك رواية أخرى يوردها اليعقوبي (ت ، بعد عام ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م) قال فيها : وكانت الخزر المتغلبة على عامـــة بلاد أرمينية ، وعليها ملك يقال له خاقان ، وله خليفة يقال له يزيد بلاش على الران وجرزان والسفرجان والسيسجان ، وكانت هذه الكورتسمى أرمينية الرابعة التي افتتحها

---

(١) مرقوارت – تاريخ غلوسن : ٢٠٠ . وانظر زكي وليدي – ابن فضلان : ١٣١

(٢) البلاذري : ١٩٤ . ابن خرداذبه : ١٢٣ . وامتدت تبعـــاً للبلاذري فيما بين بلاد شيروان (على بحر قزوين) وباب اللان (ممر داريل في وسط القوقاز) .

(٣) البلاذري : المصدر نفســه . أنظر ابن خرداذبه : ١٢٢ . كانت بلدان : أران ، وجوزجان وسيسجان من ولايات مملكة الخزر .

قباذ ملك الفرس ، ثم صارت إلى أنو شروان، إلى باب اللان ، مائة فرسخ، وفيها ثلاثمائة وستون مدينة ، وغلب ملك الفرس على الباب والأبواب (دربند) وطبرسران ، والبلنجر ، وبنى مدينة قاليقلا ، ومدناً كثيرة ، فأسكنها قوماً من أهل فارس ، ثم غلبت الخزر على ما كانت فارس غلبتهم عليه ، فأقام في أيديهم حيناً ثم غلبتهم الروم ، فملكت على أرمينية الرابعة ملكاً [1] .

ومن الواضح أن الجزء الأول من هذه الرواية يعود إلى زمن قباذ ، وهناك ما يؤكد لنا أن خليفة الخاقان الخزري ، أي « البيك » كما هو مفترض ظل مسيطراً على جزء من أرمينيا حتى هزمه الفرس ، وللوهلة الأولى ليس هنالك من سبب يحملنا نشك في صحة الرواية تاريخياً ما دام كل من البلاذري وابن خرداذبه يؤيدها. اما لقب خليفته أو اسمه فهو بالتأكيد اسم تركي شأن معظم الأسماء الخزرية التي نعرفها (محاولة هوتسما ـ محقق نص تاريخ اليعقوبي ـ لتصحيح الشطر الأول من الاسم يجعله « يزيد » ليس أمراً مرضياً) .

ويشير الشطر الثاني من الرواية إلى الوضع على الحدود الخزرية في فترة متأخرة قبل مجيء العرب بقليل ، ويتضح لنا من هذه الرواية أول ظهور الخزر وهم يقومون بغاراتهم أو يهاجرون هجرات جماعية إلى جنوب القوقاز ، كما سنقابلهم فيما بعد في مناسبات مختلفة ، وتاريخ هذه الاحداث لا يقل عن عام ٥٣١ (سنة موت قباذ) . وفوق ذلك كله إن هذه الرواية تذكر شيئاً عن وجود مؤسسة الخاقانية لدى الخزر ، لا بل أكثر من ذلك وجود الملكية المزدوجة في ذلك العهد .

إن هذا الموقف صعب ، ليس لأن الخاقان الخزري أو خليفته غير مذكورين بوضوح في المصادر المتوفرة لدينا حتى زمن متأخر فحسب ، بل لأن وجود

---

(١) التاريخ ، تحقيق هوتسما : ١/٢٠٣ - ٢٠٤ .

خاقان على رأس شعب تركي يفهم منه وصول هذا الشعب إلى مرحلة السيادة والاستقلال، وعندما يظهر اسم الخزر فيما بعد يظهرون بمثابة جزء من الاتحاد التركي الغربي الزاحف تحت زعامة تركية غربية . وبالاضافة إلى ذلك ، إذا ما وثقنا برواية اليعقوبي كما هي ، نجد الخزر ولهم خاقانهم وخليفته يظهرون بشكل كامل في وقت لم يكن قد قام به أي ذكر لاية امبراطورية تركية غربية بعد ، لا بل حتى قبل أن يظهر الاتحاد التركي الاصلي إلى الوجود في عام ٥٥٢ م .

ونحن إذ نعتبر أن الخزر لربما كانوا قد ظهروا في الغرب قبل هـذا التاريخ ويبدو من المؤكد بشكل عملي أن ظهورهم بمثابة قوة عظمى له صلة بالحطاط الترك الغربيين ،فحكم الفاغانات (الخاقانات) الاتراك الغربيين قد استمر حتى عام ٦٥٧ م أو ٦٥٩ م عندما جرى سحقهم من قبل الصينيين [١] ، وإنه ابتداء من هذا التاريخ فصاعداً يمكن للمرء أن يتوقع وجود خاقانية بين الخزر [٢] .

وأما أقوال اليعقوبي المفاجئة فيمكن أن نتركها للبحث في المستقبل الذي يمكن أن يؤكدها، وفي نفس الوقت من الممكن أن نقترح لها تفسيراً موازياً على أساس الخطوط التي نعرفها، فمضمون أقوال اليعقوبي تشير إلى أنساب الشعوب الشمالية التي لا تذكر المصادر أية شيء حول أصولها [٣] ، لكن هذه المعلومات تتصل بالانساب التي أوردها هشام الكلبي [٤] .

ومن المعقول أن نفترض أن الكلبي هو مصدر اليعقوبي، خاصة عندما يورد

---

(١) شافانس ، الوثائق : ٢٦٧ – ٢٦٨ .

(٢) يدعي زكي وليدي (ابن فضلان : ٢٩٣) أن تقاليد الخاقانية أقدم من أتراك الغرب وذلك على أساس إيغورية الترك (أنظر ما سبق) واللامح الطبقية في مؤسسات الخزر .

(٣) أنظر مرقوارت streifzuge : ٤٩١ .

(٤) على سبيل المثال الطبري : ١ / ٢١٨ .

هشام الكلبي أي خبر عن خاقان الخزر [١] ، وهذا ما يمنحنا ترتيباً تاريخياً معتمداً حول وجود الحكم الملكي المزدوج لدى الخزر . وكان المصدر الأساسي الذي اعتمده هشام الكلبي هو والده الذي توفي عام ١٤٦هـ / ٧٦٣ م . أما هشام نفسه فقد ظل حياً حتى عـــام ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م [٢] . وإذا ما أعتمدنا تاريخاً بقرب من ثلاثة قرون قبل هذا التاريخ ، نكون قد اعتمدنا تاريخاً مبكراً جداً، وعليه نجد من جهة أخرى ليس من قبيل الصدفة أن يذكر الخزر أثناء حكم قباذ وأنو شروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) فالعدد المتزايد من الأخبار المتواترة التي صدرت بهذا الشأن تبدو برهاناً ساطعاً على أنهم كانوا موجودين بالفعل على مسرح الاحداث [٣] .

ويروي لنا الطبري[٤] أن أنو شروان قسم امبراطوريته إلى أربع مقاطعات كبيرة أو « إصبهذين » وكان من بينها اصبهد أذربيجان وما والاهـــا من « بلاد الخزر » وقد كان منشغلاً في الحرب مع إحدى الأمم التي عرفت باسم « صول » وهم بالتأكيد سكان الأصقاع الشرقية القصوى لجبال القوقاز ، في أحواز ممر صول (دربند) ، وقهر أمة عرفت باسم بنجر [٥] ، وأمة عرفت باسم بلنجر ، وأمة أخرى لربما كانت هي الخزر[٦] ، (نظراً لورود ذكرها متميزاً عن الأمم

---

(١) أنظر supra ، الأرقام : ٥٣- ٥٤ .

(٢) التاريخ مأخوذ من بروكلمان (تاريخ الآداب العربية) : ١ / ١٣٠

(٣) هنالك مصدر بهلوي أصيل في « بوهمان يشت» تاريخه من حوالي الفترة نفسها. أنظر . هـ .و. بيلي « إيرانيات » في دورية معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية ٩/ /(١٩٤٣)١-٢.

(٤) ١ / ٨٩٤ - ٨٩٥ ، كما يبدو جزء من توجـــه إلى الحاكم الفارسي لأذربيجان وأرمينيا (أنظر المصدر نفسه ٨٩٢) وعلى كل حال من مصدر بهلوي (أنظر ما يلي) .

(٥) ربما يمكن قراءتها مع مرقوارت (streifz, 16) « برغار » وتمي صيغة بهلويـــة لكلمة « بلغار » أو أخذها كما هي لتدل على شعب اسمه « وندر » والمعنى في كلتا الحالتين هو نفسه . أنظر الفصل الثالث .

(٦) في طبعة ليدن من نص الطبري (نولدكه) « أبخاز » وأنظر أيضـــاً مرقوارت streifzuge, 16 والمصدر في رقم ٣ . المصدر نفسه .

الأخرى) عندمـــا غزت أرمينية ، ثم أسكن حوالي ١٠٠٠٠ من الذين بقوا أحياء في أذربيجان، وبنى باب الأبواب ـ التسمية العربية لدربند ـ وهو عبارة عن قلعة ومدينة استهدف منها أن تقف في وجهه موجات الغزو الشمالية ، وتبطلها، وقد قامت هذه المدينة بالدور الذي أسند إليها بنجاح في القرون التالية .

لقد جذبت شخصية أنو شروان اهتمام رواة الأخبار ، ونقرأ عنـد كل من قدامة [١] وياقوت[٢] أن أنو شروان كان يخشى عداء الخزر . فكتب إلى ملكهم يطلب منه الموادعة والمحالفة . ولتأييد هذا الطلب طلب إرسال أميرة خزرية يتزوجها وعرض مقابل ذلك تقديم ابنته ليتزوجها ملك الخزر، وقد وافق ملك الخزر على هذا العرض ، وبعد مدة استلم أنو شروان عروسه ، ولكن الفتاة التي أرسلها إلى ملك الخزر لم تكن من الأسرة الملكية ، وقد اجتمع الحاكمان فيما بعد في مكان يدعى برشلية ، حيث أولمت الولائم لعدة أيام ، وتظاهر الفريقان بالصداقة ، وبعدها تسبب أنو شروان في إحراق جزء من معسكر الخزري. وعندما شكا ملك الخزر ، أنكر أنو شروان معرفته بهذا العمل ، وفي اليوم التالي أمر أنو شروان بإحراق معسكره الخاص، وتوجه إلى الخزر وهو يتظاهر بالغضب ، وأعلن أنهم ـ أي الخزر ـ يشكون باخلاصه .

وأخيراً أعلن أنه على الرغم من وجود الصداقة بينه وبين أخيه ملك الخزر لا يمكن أن يكون هنالك أي سلم بين الجيوش . ولذلك اقترح بناء سور للفصل بين هذه الجيوش ، ووافق ملك الخزر ، وترك الفرس يحصنون دربند، لكنه علم فيما بعد أن أنو شروان قد خدعه في مسألة الزواج ، وأنه قد بنى السور ضده ، لكن على الرغم من عظيم غضبه لم يستطع أن يفعل شيئاً .

---

(١) المكتبة الجغرافية العربية : ٦ / ٢٥٩ ... النص موجود حرفيـــاً في البلاذري : ١٩٥ - ١٩٦ لكن بكلمة « أتراك » بدلاً « خزر » .

(٢) معجم البلدان ، مادة « باب الأبواب » .

يبدو من المحتمل بشكل واضح أن هذه الرواية ، أو ما يشبهها ، هي نفس حكاية الخدعة الشهيرة التي ذكرها المسعودي ، وهي قصة غير تاريخية فعلا . وإن الحادثة التي ذكرها برسكوس الإغريقي، وقال إنها حدثت في أيام فيروز، هي أساس الجزء الأول من هذه الرواية [1] . وقد تحولت هذه الحادثة إلى أنو شروان ، لأنه هو الذي تزوج ابنة قاغان الأتراك الغربيين سنجيبو (إستامي) [2] .

هذا ومن غير المشكوك فيه أن يكون أنو شروان كان مسؤولا عن بناء سور دربند وذلك كجزء من إجراءاته الدفاعية في جبال القوقاز ، لكن الظروف التي وصفت في القسم الثاني من القصة هي لاشك حوادث خيالية

ويظهر الفرق بين الأسطورة والحوادث التاريخية في رواية نقلها الطبري[3] جاء فيها : « وإن سنيجبو خاقان كان أمنع الترك وأشجعهم، وأعزهم وأكثرهم جنوداً، وهو الذي قاتل وزر ملك الهياطلة غير خائف كثرة الهياطلة ومنعتهم[4]، فقتل وزر ملكها وعامة جنوده ، وغنم أموالهم ، واحتوى على بلادهم إلا ما كان كسرى غلب عليه منها ، وإنه استمال (الخزر) [5] وبنجر وبلنجر ، فمنحوه طاعتهم ، وأعلموه أن ملوك فارس لم يزالوا يتقونهم بفداء يكفونهم به عن غزو بلادهم ، وإنه أقبل في مائة ألف وعشرة آلاف مقاتل حتى شارف ما والى بلاد صول(دربند) وأرسل إلى كسرى في توعد منه إياه واستطالة عليه أن يبعث إليه بأموال وإلى أبخز وبنجر وبلنجر بالفداء الذي كانوا يعطونه إياه

(١) أنظر ما سبق .
(٢) أنظر مرقوارت « التاريخ الكلاسيكي » : ١٩٩ .
(٣) ١ / ٨٩٥ — ٨٩٦ . تبع المصدر البهلوي المشار إليه في رقم ٩٤ .
(٤) أنظر شافانس ، الوثائق : ٢٢٦ .
(٥) النص « أبخاز » ، أنظر رقم ٩٦ .

قبل ملك كسرى ، وأنه إن لم يعجل بالبعثة إليه بما سأل وطىء بلاده وناجزه.
فلم يحفل كسرى بوعيده، ولم يجبه الى شيء مما سأله لتحصينه ناحية باب صول، ومناعة السبل والفجاج التي كان سنيجبو خاقان سيسلكها إليه، ولمعرفته بمقدرته على ضبط ثغر أرمينية بخمسة الاف مقاتل من الفرسان والرجالة ، فبلغ سنيجبو خاقان تحصين كسرى ثغر صول ، فانصرف بمن كان معه الى بلاده » .

ويشتمّ المرء من هذه الرواية رائحة الصدق ، الأمر الذي تفتقر إليه رواية قدامة ومن لف لفه ، ويمكن للباحث على أساسها أن يؤكد وجـــود بعض المجموعات الأخرى التي انتظمت داخـل الامبراطورية الخزرية . أو ربما قام الخزر أنفسهم بالأنضواء تحت لواء الترك الغربيين ضـد الفرس في الوقت الذي تحدد بانهزام الهياطلة أي حوالي سنة ٥٦٧ م[١]، وبموت سنجيبو عام ٥٧٥ أو ٥٧٦ م [٢] ، وبعد سنة من هـــذا التاريخ أرسل ابن سنجيبو قوة من الاتراك الغربيين لتنضم الى الايتغور الذين كانوا انذاك يحاصرون المدينة القرمية المسماة بوسبوروس[٣]. (بانتى كابيوم ، كيرتش)Panticapaeum.Kertch ومن الواضح أن الاتراك الغربيين كانوا في تلك الاونة يقومون بعمليات حربية واسعة النطاق في شمال القوقاز . لكن اجتماع أنو شروان في مدينة برشلية مع ملك الخزر أو الترك كما تصفه الرواية التي جاءت عند قدامة هو أمر لم تثبت صحته بعد .

وهنالك المزيد من الروايات عن أنو شروان ، إذ عندما تم بناء سور دربند نصب له سرير على أنف الجبل يطل على البحر ، وحـالما جلس أنو شروان على ذلك السرير ، إذا بوحش له موهبة الكلام يظهر له ويخاطبه معلناً أنه قد رأى

(١) شافانس ، النص نفسه .
(٢) شافانس : ٢٤٢ .
(٣) مناندربروت ، تحقيق بون : ٤٠٤ . أنظر شافانس : ٢٤١ .

منطقة الحدود هذه تغلق سبع مرات ثم تفتح سبع مرات أيضاً، لكن أنوشروان هو الرجل الذي قدر له أن يغلق الممر إلى الأبد .

كما ويلحق هذه الرواية رواية أخرى ليست أقل طرافة منها ، فيها أن أنو شروان ما أن فرغ من عمل السور حتى شرع يسأل عن طول ساحل بحر قزوين ، فقيل له إن البيضاء عاصمة الخزر تقع على مسيرة أربعة أشهر على طول الساحل ، فقرر أن يراها بنفسه ، ولم يثنه عن عزمه الأقوال التي كانت تؤكد له وجود تيارات (دوامات) مائية خطرة داخل بحر قزوين في مكان يدعى فم الأسد لا يمكن لأية سفينة أن تنجو من خطرها ، لكنه لم يصغ وأمر بنشر أشرعة سفينته وأبحر حتى وصل إلى موقع التيارات ، وهنا أصبح على وشك الهلاك ، لكنه نجا بأعجوبة ، ووصل إلى هدفه ، ثم عاد في الوقت المناسب سالماً [١] . ومن الواضح أن هذه الحكايات وضعت بأسلوب رومانسي شرقي هو الأفضل من نوعه بقصد إضفاء هالة حول حقيقة أن أنو شروان قد قام بتحصين ممر دربند وتبقى أسماء الأماكن فهذه أمور سنقابلها فيما بعد .

وخلف أنو شروان ابنه هرمز (٥٧٩ – ٥٩٠ م) ولم يكتف هرمز هذا بأن شارك بالحرب ضد سينجبو أيام أبيه [٢] ، لكن فيما بعد دعي وهو ملك لفارس للتصدي إلى ائتلاف عظيم من الأعداء كان يرأسه – كما قيل – شاهنشاه الترك ، ويحتوي على الخزر والاغريق [٣] . وكتب هرمز إلى الامبراطور الاغريقي يعرض عليه المسالمة مقابل أن يرد إليه جميع المدن التي سبق لوالده

---

(١) ابن الفقيه : ٢٨٩ .

(٢) الدينوري : ٦٩ ... ووضع ميرخوند الذي نقل عن الدينوري وصرح بذلك ، وضع اسم «خاقان الصين» بدلاً من «الخاقان سنجبو» (ترجمة ريهاتسك : ١ / ٢ / ٣٧٥) أنظر ما يلي .

(٣) الدينوري : ٨١ . ويضيف الطبري (١/٩٩١) أن العرب هاجموا في الوقت نفسه في الجنوب .

أنو شروان أن استولى عليها ، ولاقى هذا الاقتراح موضع القبول ، وبعد هـذا وجه هرمز قادة جيوشه ضدصاحب الخزر ،فأمكن طرده من الأراضي الفارسية وبذلك ملك هرمز الحرية للتفرغ للاهتمام بأمر الترك .

وأهم ما في هذه الرواية هو العلاقة بين الخزر والترك ، ففيها ظهر الخزر وهم يتحركون طبقاً لأوامر الأتراك ، وأنهم ينتمون بالفعل إلى الأمبراطورية التركية الغربية ، وهنا إنه مهما يكن من أمر ليس لدينا من سبب يدعونا لأن نفترض أن الخزر كانوا في هذا التاريخ يتمتعون بالاستقلال ، فالهجوم على بلاد فارس جرى تحديد تاريخه في السنة الحادية عشرة من حكم هرمز أي في حوالي سنة ٥٨٩ م .

وبوصول هرمز إلى الحكم نجد أنفسنا أنناقدوصلنا إلى نقطة بدأت الإشارات فيها إلى الخزر تظهر في مصادر أخرى على رأسها المصادر السريانية وخاصة كتابات ميخائيل (الكبير) وزكريا الواعظ [1] ، ولنقم اولاً بالقاء نظرة على ما قاله المؤرخ الإغريقي بروكوبيوس عن سكان الاراضي الواقعة ببلاد القوقاز في أيامه أي القرن السادس للميلاد ، وحسبما ذكر بروكوبيوس نجد أن اللان والابخاز الذين كانوا مسيحيين وأصدقاء للروم منذ زمن طويل قد عاشوا في هذه المنطقة جنباً إلى جنب مع الزجش (الشركس) وسكن وراء هؤلاء الهون السابريون الذين ورد ذكرهم بين أمم الهون الأخرى . ففي عهد الامبراطور أناستاسيوس anastasius(٤٩١ - ٥١٨ م) أمبازوك ambazuk الهوني كان على أبواب بحر قزوين (دربند) وإثر موته خلفه رجل عرف باسم كبد Kabad ويتحدث بروكوبيوس عن السابريين ويقول أنهم كانوا يعيشون في أحواز القوقاز

---

(١) أنظر ما سبق .

جداً بأعداد كبيرة ، وأنهم كانوا ينقسمون إلى عدد كبير من الفئات المستقلة [١].
أما بالنسبة للخزر فيبدو لنا أن بروكوبيوس لا يعرف منهم شيئاً .

قد يبدو للوهلة الأولى أن اسم السابريين جديداً في وسط مناقشاتنا ، لكن بروكوبيوس لم يكن الشخص الاول ولا الوحيد الذي تصدى لذكرهم . وطبقاً لما قاله برسكوس[٢] ظهر هؤلاء السابريون على تخوم أوروبا في القرن الخامس ، وبالتحديد قبل عام ٤٦٥ م ، وذلك بعدما أجبرهم الأفار على ترك اراضيهم في الشرق والتحرك نحو أوروبا ، ويشير جوردانس إليهم في القرن التالي ويقول بأنهم فرع من فرعي الهون [٣] الرئيسيين ، وقد أيد ثيوفانس ما قاله بروكوبيوس عنهم وذكر بأنهم قد مروا خلال أبواب بحر الخزر في حوالي عـام ٥١٤ م ، وغزو اكبدوكية وغلاطية [٤] .

وبناء عليه يمكننا اعتبار السابريين اعداء الفرس على طول حدودهم الشمالية الغربية وذلك قبل ظهور الترك الغربيين بمدة طويلة ، وحتى بعـد ذلك لكن لم نعد نسمع عنهم شيئاً كأمة مستقلة بعد النصف الثـاني من القرن السادس ، ومن المحتمل أنه في حوالي عام ٥٧٦ م هجر الاغريق قسماً منهم ، ولعل هذا القسم كان هو البقية الباقية منهم ، وأسكنوهم جنوبي نهر كور [٥] .

والرأي المطروح الآن هو أنه في حوالي تلك الفترة عزز الخزر زعامتهم في

(١) بروكوبيوس ، التاريخ : ٢ / ٢٩ / ١٥ ، ٨ / ٣ / ٥ ، ١ / ١٠ / ٩ – ١٢ ، ٨ / ١١ / ٢٣ .
(٢) طبعة بون : ١٥٨ .أنظر أيضاً د. سنيور« بحث عن هجرات الشعوب وتجوالها » المجلة الآسيوية : م ٢٢٥ (١٩٤٦ – ١٩٤٧) ٧٧١ .
(٣) غيتكا . تحقيق مومسن : ٦٣ .
(٤) ط. بون : ٢٤٩ .
(٥) مناندر : ٣٩٤ .

مناطق القبـائل القاطنة شمال القوقاز ، وبينما يحوم بعض الشك حول إشارة بعض المؤرخين القدماء إلى وجود الخزر في هذه المنطقة لم تصل الينا أية إشارات أخرى فيما بعده فالمسعودي (في القرن العاشر) يقول إن الخزر يدعون باسم الترك السابريين [1] ، ونرى هـذا التعريف واضحاً فيما كتبه محمود الكاشغري (القرن الحادي عشر) [2] ، بالاصل كانت الجمـاعتان مختلفتان [3] ، ولا يمكن تفسير اندماجهما إلا بالافتراض أن الخزر هم الذين خلفوا السابريين ، وحجبوهم عن الانظار .

وعلى كل حال يبدو أن تغييرات هامة في إعادة تركيب القبائل قـد وقعت بين بداة شمال القوقاز في نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع ، وهكذا لم يكن السابريون من اختفت أسماؤهم فقط بل هناك قبائل أخرى مثـل السرغور والاوتغور والسمندر وبلنجر وغيرهم ، ذلك أن المصادر توقفت عن ذكرهم بأسمائهم القديمة هذه ، ولا يمكننا أن نعتبر هذا كان وليد الصدفة ، أو جـاء اتفاقاً كيفما كان ، بل لا شك أن له عـلاقة وثيقة بازدياد نفوذ الخزر وارتفاع نجمهم .

أمـا بالنسبة لاخبار الحوادث التي قادت إلى اتصال الخزر بالامبراطور الاغريقي هرقل فقد وصلتنا من مصادر اغريقية ، وارمنية وجورجية ، ففي عام ٦٢٧ م ، كان هرقل في مدينة تفليس في إحدى حملاته ضد بلاد فارس، وهي حملة قام بها بهدف تحويل الغزو الفارسي لبلاده ، وهناك قابله الخزر الذين كانوا تحت لواء زعيمهم زيبل الذي كان في المرتبة الثانية بعد الخاقان ، واقتحم هؤلاء

---

(١) التنبيه : ٨٣ :

(٢) أنظر أيضاً ، زكي وليدي . ابن فضلان : ٢٠٣ .

(٣) « تشازيرك » و « سافيرك » متميزان تماماً في الجغرافية الأرمنية المبينة لموسى الكروني (مرقوارت : ٥٧ ...) .

الخزر أبواب بحر قزوين وتقدموا نحو معسكره للاجتماع به ، ويعطينا المؤرخ جيبون باسلوب منمق جذاب وصفاً رائعاً لاستقبال الخزر لهرقل[1] ، فقد قدم القائد زبيل إلى هرقل ومعه ٤٠,٠٠٠ رجل أوقفهم على خدمة الامبراطور وانسحب اثر هذا عائداً إلى بلاده .

ثم بدأ هرقل ومعه القوات الخزرية بالأنقضاض على الأراضي الفارسية ،ولكن ما أن حل فصل الشتاء، وشرع الفرس بالهجوم المعاكس بشكل حاد ضد هرقل وحلفائه ، حتى أخذ الخزر يتخلون عن جيش هرقل وينسحبون ربما لأنهم ضاقوا ذرعاً بالأسلوب الاغريقي البطيء في إدارة دفة القتال . لكن على الرغم من ذلك فاز هرقل ، وهزم عدوه وتابع الزحف متقدماً على رأس الفرقة العسكرية الامبراطورية حتى وصل إلى مسافة مسيرة ثلاثة أيام من طيسفون (المدائن) العاصمة الفارسية ، وعندها حدثت ثورة في بلاد فارس ، أطاحت بكسرى وسببت موته ، وبناء عليه أسرع ابنه إلى عقد معاهدة مع هرقل الذي بادر عندها إلى الانسحاب ، ورجع إلى بلاده في عام ٦٢٨ [2] .

وتختلف الرواية الأرمنية بعض الشيء عن هذه الرواية[3] وهي تحكي أنه في عام ٦٢٥ ، اقتحم الخزر بلاد أرمينية ، وبعد أن أصابوا عدداً عظيماً من الغنائم عادوا إلى بلادهم عن طريق دربند . وبعد ذلك قرر ملك الخزر أن يقود المعركة بنفسه في السنة التالية ، وهكذا صدرت الأوامر إلى جميع من كانوا تحت سيطرته ، من قبائل وشعوب ، من سكان الجبال إلى سكان السهول ،

---

(١) انحدار وسقوط الامبراطورية الرومانية : فصل ٤٦ .

(٢) ثيوفانس. ط. بون : ٤٨٥ ... أنظر أيضاً شافانس ، الوثائق : ٢٥٢ .

(٣) موسى الكاغان كيتوك (كالان كتوك) . أنظر باتكانين في المجلة الآسيوية : ٦ - ٧ (١٨٦٦) ٢٠٥ . شافانس ، المصدر نفسه . موسى كاغان قد كتب في القرن العاشر (مينورسكي ، حدود العالم : ٣٩٨) .

وإلى جميع من تظلهم قبة السماء الزرقاء ، سواء المحلقين شعورهم أم المقصرين،أن يستعدوا جميعاً للزحف عندما تصدر الإشارة بذلك .

وعندما أزفت ساعة العمل ، تحرك الخزر ، واستولوا على قلعـــة تزور Tzur (دربند) وهدموها ، وكان ملوك فارس قد بذلوا كل جهد ممكن في سبيل تشييد هذه القلعة ، ثم تقدم الجيش جنوباً فذبح رجاله السكان ، وسلبوا الثروات ، حتى وصلوا إلى تفليس ، حيث قابلوا هرقل كما ذكرنا انفاً . وهنا انضم الجيشان بعضهما إلى بعض ، وبادرا إلى العمل سوية ، في حصار تفليس ، التي كانت على وشك الاستسلام، لولا أن أتتها امدادات قوية ،نجحت فيالدخول إلى المدينة . وهنا قرر الحليفان أن ينسحبا بعد أن تفاهما على أن يستأنفا العمل معاً في السنة التالية .

وبعد ذلك في حوالي سنة ٦٢٦ ، كما يبدو أرسل الامبراطور واحـــداً من قادته يدعى أندرياس للتفاوض مع الخزر ، ولكي تتم مراسم الاتفاق بينه وبين الخزر وتقرر أن تتوجه مفرزة مؤلفه من حوالي/ ١٠٠٠ / فارس خزري إلى القسطنطينية لزيارتها ، وهنا يتبادر إلى الذهن : لو أن هذه المفاوضات كانت صحيحة وموثقه لوجب حدوثها قبل اجتماع تفليس . المهم أن ملك الشمال أرسل في السنة التالية –٦٢٧– الفرق العسكرية التي وعد بها ، أرسلها تحت قيادةابن أخيه الذي كان يدعى شاث (شاد) وقد أعمل هذا الجيش نهباً وتخريبـــاً في أران وأذربيجان .

وطبقاً لما جاء في الحكاية نفسها دخل الخزر في عـــام ٦٢٨ م إلى أرّان ، وكانوا قد استولوا قبل ذلك على برذعه ، لهذا توجهوا غرباً نحو تفليس ، وكانوا بقيادة الخاقان جيبو Jebu وابنه ، وأحاطوا بالمدينة الجورجيـــة ،وأحكموا الحصار حولها ، وسرعان ما وافاهم هرقل،وانضم إليهم ومعه جيشه الاغريقي

المنتصر حديثاً على الفرس ، لكن المدينة قاومت ذلك الهجوم المشترك، واضطر الجيشان إلى الانسحاب . وبعد مدة من الزمن استطاع الخاقان جيبو وابنه شاذ أن يستوليا على مدينة تفليس ، وعند سقوطها أتي باثنين من زعمائها ، وأوقفا أمام الخاقان جيبو ، الذي عاملهما معاملة قاسية ، إذ سمل عيني كل منهما ، ثم عذبهما عذاباً شديداً ، وأخيراً صلبهما على أسوار المدينة .

ويضيف المصدر نفسه أن ملك الشمال جبى الجزية من المتعاملين بصياغة الذهب والفضة ؟ ومن معدني الحديد ، وصيادي الأسماك في نهر كور ، وأنه في عام ٦٢٩ – ٦٣٠ م أعد الملك الخزري العدة لغزوة كبرى ، أرسل في مقدمتها سلفاً ثلاثة الاف فارس بقيادة القائد تشوربان طرخان ، وهكذا تم إنزال الهزيمة بعشرة الاف من عساكر الفرس ، وانتشر الغزاة في أرجاء أرمينية وجورجية وأران .

لا نرى أن هنالك ضرورة لمناقشة هذه الروايات،أو محاولة تمحيص توافقها، إذ أن ما يهمنا في هذا البحث هو تطابق أسماء القادة من الجانب الخزري. ذلك أننا نر أن المؤرخ ثيوفانس يقول بعد أن ذكر أن هرقل قد سعى إلى التحالف مع الأتراك من الشرق الذين يدعون بالخزر : اقتحم هؤلاء أبواب بحر قزوين بقيادة زعيمهم زيبل ، الذي كان الرجل الثاني بعد الخاقان في المنزلة.ولقد رأينا زيبل وهو يقدم ابنه وهو ما يزال شاباً أمرد ، إلى هرقل ، عندما كان هذا الأخير في تفليس ، ثم تشير هذه الرواية فيما بعد إلى الخزر باسم الترك فقط .

أما الرواية الأرمنية فتحكي أن ملك الشمال أرسل عساكره تحت قيادة ابن أخيه الذي كان يدعى شاث (شاد) ، وأنه بدأ بعد ذلك الخاقان جيبو وابنه شاث في أعمال السلب في جورجية وأران . وهنا نرى أن المقصود بزيبل هو جيبو ، وابن زيبل هو شاث (شاد) وأن ملك الشمال هو الخاقان الخزري.

ونظراً إلى أنه ليس هنالك من شك في أن جيبو (في الجورجية جبغو) [1] هو اللقب التركي يبغو، الذي يطلق على اخوة وأبناء الخاقان، يصبح زيبل هـو اليبغو الخزري.

لكن هنالك اعتراضات ذات شأن على هذا التفسير، منها: إنه إذا كان زيبل هو الرجل الثاني بعد الخاقان الخزري (الذي لم يتأكـد أمر وجوده حتى هذا التاريخ) يصبح هذا اللقب مطابقاً للقب الخزري «البك»، وهذا يعني أنه كان منتمياً إلى أسرة هي ليست أسرة الخاقان. فهذا ما تذكره المصادر العربية فيما بعد [2]، وهنا إذا جعلنا زيبل يتطابع جيبو خاقان، كيف يمكن للمرؤوس أن يصبح رئيساً؟ ونزيد فنقول: يبدو أن الرواية الأرمنية فقط هي التي تميز بين الخاقان جيبو وملك الشمال [3] ملك بلاد الخزر، لكن هذا لا يتماشى مـع رواية المؤرخ ثيوفانس الذي يذكر أن لقب زيبل/جيبو هو لقب يتلو في أهميته لقب الخاقان، فزيبل هكذا هو في الحقيقة ليس خاقان الخزر، ولا هو حامل اللقب الأدنى، أي بيك أو بيغو.

ولا يعرف لدى كاتب الرواية الأرمنية إلا زعيم واحد يدعوه جيبو خاقان (أي اليبغو) وهو يطابق بينه وبين ملك الخزر بشكل مغلوط، لأن يبغوخاقان كان لقب حكام الاتراك الغربيين [4] منذ أيام سنجنو (سن أو المولى يبغو)، وعليه يصبح زيبل هو حاكم الاتراك الغربيين، وهـو زعيم عالي المقام، لكن مرتبته أدنى من مرتبة الخاقان الاعظم لجميع الاتراك، وذلك طبقـاً لرأي

---

(١) يقدم المؤرخ الجورجيني رواية عن هذه الأحداث (في بروست، تاريخ جورجيا: ١ / ٢٢٧ - ٢٢٩) لكن ملاحظات مرقوارت (٣٩٤، رقم ٢) ثانوية.

(٢) أنظر الفصل الخامس.

(٣) أنظر شافانس، الوثائق: ٢٢٥، رقم ٣.

(٤) شافانس: ٣٨، رقم ٥.

ثيوفانس ، وهو لربما نفس خـاقان الاتراك الغربيين المذكور في المصادر الصينية باسم توأونغ تشي – هاو Tcong che-hou (تي أونغ بيغو) ، وكان مركزه الرئيسي في منطقة وديال تشو وطراز (تالاس) شمال طشقند [١] . فالوضع في عام ٦٢٧ م كان طبقاً لما كان سابقاً : الخزر يزحفون بقيادة الاتراك الغربيين ، وليس هنالك أي إشارة لوجود خاقان للخزر أوبيك .

وختاماً نلاحظ أنه بينما نرى أن لقب بيغو يمكن ارجاعه إلى هونغ ـ نو Hung-nu (الهون) نجده أيضاً عند الافـــار ـ فضلاً عن الاتراك الغربيين والامم التركية الاخرى [٢] قلما هو مستعملة لدى الخزر . هذا وإن الروايات العربية المتواترة التي تذكر تفاصيل الحروب التي جرت مـــع الخزر لا تذكر شيئاً يشير الى وجود هذا اللقب ، والمصدر الوحيد الذي يذكر البيغو بين الخزر هو مقطع ذكره المؤرخ الفارسي ميرخوند (القرن الخامس عشر) حيث قال في معرض الحديث عن ظهور السلاجقة : « ملك الخزر المسمى بيغو »[٣](تصحيف بيغو) وهذا لا قيمة له. فميرخوند لا يعد عمدة في هذا الباب، وفي رواية أخرى أقدم لنفس القصة نجد تقاف زعيم الغُزّ ـ وهو واحد من أجداد السلاجقة ـ يتشاجر مع بيغو ملك الترك [٤] ولا شك أن هذا كان رئيسه وسيده أي بيغو الغُزّ [٥] .

وهناك نقطة أخرى ذكرها الكاتب الارمني سيبونر أشار فيها الى استقبال خاقان الاراضي الشمالية ومعه قائده الملقب بلقب تشسيبتوخ (أي يبغو كماهو

---

(١) موقوارت : ٤٩٨ . شافانس ، الوثائق . ٨٢ .

(٢) بليوت ، أصل « تاو-كيو » « توانغ باو » ١٩٠٥ : ٦٨٨ رقم ٥ . زكي وليدي ابن فضلان : ١٤٠ .

(٣) اقتباس فون ستاكلبيرغ : W. Z. K. M. : ١٧ ٥٨ .

(٤) ابن الأثير : ٩ / ١٦٢ . حوادث سنة ٤٣٢ .

(٥) أنظر ما يلي الفصل التاسع .

واضح) شنستان (بلاد الصين) لبعض الارمن الذين مروا فيما بعد بدربند في طريقهم لمساعدة هرقل [1] ، ويبدو أن هذه الرواية جاءت كإشارة غامضه لحوادث عام ٦٢٧ م . ففي عبارة «شنستان تشيبتوخ» نرى نفس الشكل الاصلي الذي رأيناه في سنجيبو ، حيث يبدو لنا أن المؤرخ سيبوز قد فسر الجزء الاول من الاسم بـ « سن » أي « الصين » ، وهذا التفسير طريف في حد ذاته لانه يقدم لنا ايضاحاً لبعض النقاط المذكورة في كتاب « دربندنامه » حول خاقان التشين (خاقان الصين) الذي يقال أنه ساعد الخزر في حروبهم ضد المسلمين في حوالي عام ٣٢ هـ / ٦٥٢ م [2] لكن عدا عن هذين النصين ليس لدينا دليل حول وجود أي حاكم تركي باسم « سنجيبو » بعد القرن السادس ، وأما ما ذكر الاسم فيما بعد فسببه مفارقات تاريخية .

وفي محاولة لتلخيص نتائج هذا الفصل ، يمكننا القول : إنه من استعراض الادلة المتوفرة يثبت إنه ليس لدينا أي أثر ثابت فيه دليل على وجود الخزر قبل القرن السادس ، إذ أنهم لا يذكرون إلا في النصف الثاني من ذلك القرن ـ أي بشكل متداخل مع ظهور القوة التركية ـ فانذاك نسمع عن الخزر دونما أي لبس، وفي النصف الاول من القرن السابع نرى أن الخزر لا يزالون تحت سيطرة الاتراك الغربيين ، ونجدهم بعد ذلك لكن في نفس القرن يتمتعون باستقلال كامل للعمل فضلاً عن التدبير كما سنرى، إنما يظل أمر ارتباط الخزر بالاتراك الغربيين غير واضح ، لكن بالنظر لما طرح من الاراء ، لا يشك في أن الارتباط كان موجوداً ، مع أننا لا نستطيع تأكيد هذه العلاقة بثقة تامة من خلال الاكتزير مع الهون ، أو أن الصلات وجدت بشكل ملموس مع الهياطلة .

---

(١) باتكنين ، المصدر نفسه : ١٦٨ . أنظر أيضاً شافانس . الوثائق : ٢٥٥ رقم ٣ .

(٢) تحقيق قاسم بك ، وأعلن قاسم بك (المصدر نفسه : ٥٠١) إنه تبعاً للطبري قام الخزر بعد حوالي عشرين سنة بغزو أذربيجان وطلبوا آنذاك مساعدة امبراطور الصين ضد العرب ، وطبري قاسم بك عبارة عن نص تركي مأخوذ عن ترجمة البلعمي ، والنص موضوع المسألة هو نص يشير إلى حملة الجراح (بعد أكثر من عشرين سنة تلت)أنظر ما يلي الفصل الرابع.

الفصل الثاني

نظرية الأصل الايغوري للخزر

عرف اسم الأتراك أولاً عندما ظهرت تلك القوة العظيمة في القرن السادس ، وذلك حسبما ذكرنا في الفصل السابق ، وأصبح هذا الاسم يطلق على مجموعات منتمية إلى أسرة عرقية واحدة ظهرت في أوقات متباينة . ولهذا ليس هنالك أدنى شك في أن الخزر هم أتراك ، إذا اعتمدنا هذا المصطلح في إطاره العريض، أي هم ليسوا فلنديين (فينو ايغور) كما كان يظن [١] ، وهم ليسوا جافتيك Japhetic ولا قوقازيين [٢] ولا سواهم . فألقاب قادتهم ، ووجود الملكية المزدوجة عندهم لا يمكن تفسيره إلا على ضوء هذا الاعتبار . ولهذا أصبح واجباً علينا الان أن نستقصي ونسأل إذا كان هنالك شعب قريب أو شعوب قريبة يمكن أن يكون للخزر أية علاقة أو قرابة معها من أي نوع كان .

وهنالك شواهد عديدة تدفعنا إلى ربط الخزر بشعب الإيغور ، فهذا الشعب كان موجوداً قبل وبعد ظهور الامبراطورية التركية ، ووصلت المعلومات إلينا من السجلات الصينية ، ومن المنقوشات التركية القديمة ، ولدينا بعض المقاطع لدى الكتاب البيزنطيين تتحدث عن وجود الإيغور في الغرب [٣] .

---

(١) على سبيل المثال كلابروث في المجلة الآسيوية : ١ / ٣ / ١٦٠ ، وبعد ذلك أيضاً بكثير.

(٢) بشاكوف النص نفسه . أنظر أيضاً ن. سلوتشز في

Melanges H. Derenbourg.

ويرى إيفانوف :

(Weltgeschichte des Judischen Volkes Berlin, M. d, IV. 247).

أن الخزر قد جاءوا من جنوب القوقاز ، ومحقاً يعتبرهم أتراكاً .

(٣) كان الأستاذ هالون لطيفاً بما فيه الكفاية بتزويدي بالفعل بجميع المعلومات التالية حول المصادر الصينية .

ولهذا فمن المناسب أن نتفحص ما ذكرته بعض المصادر الصينيـــة أولاً وطبقاً لما ذكره جيبون ، فقـــد كان الصينيون يطلقون اسم كوسا Kosa على الخزر . ويستشهد على هذا القول الذي يبدو للوهلة الأولى مدهشاً بكتاب تاريخ الهون تأليف دي جوجنيز[1] De Guignes الذي اشتق المعادلة التالية : كوسا الخزر ، كتاب ون هسين تونغ كاو Wen-hsien Tunh-Kao الذي ظهرت أخر نشرة منقحة منه في عام ١٣٢٢ م .

ويحتوى هذا الكتاب على مقالة حول « الفورلين » أو الروم ، وأراد بذلك الامبراطورية البيزنطية ، وهذه المقالة منقولة بشكل حرفي من كتـــاب صيني أقدم اسمه تونغ – تين T'ung-ten قد كتب في الفترة ما بين ٧٦٦ – ٨٠١ م . والمصدر الذي اشتقت منه المقالة معلوماتها حول الفورلين أو الروم ، هو رواية عن رجل صيني يدعى تو–هوان كان قد سقط أسيراً في أيدي العرب في معركة طراز (تالاس) عام ٧٥١ م ، ثم عاد إلى الصين عام ٧٦٢ م [٢] .

وقد سمع تو–هوان كما هو مؤكد عن الخزر ، وقال : إنهـم جيران العرب الشماليون ، وقد أشار إليهم بوضوح باسم « كورساترك » وأشار إلى علاقتهم مع تشان [٣] (الشام– سوريا) وذلك فضلاً عن علاقتهم مع الفوليين [٤] (الروم). ويماثل هذا ما جاء في كتاب تانغ – شو Tang-shu الذي لدينا نشرتان منه

---

(١) انحدار وسقوط الامبراطورية الرومانية : الفصل ٤٦

(٢) هيرث وروخل – تشاوجو – كو : ١٦٨ ... بليوت ، الحرفيون الصينيون في العاصمة العباسية في ٧٥١ – ٧٦٢ . تونغ – باو : ٢٦ / (١٩٠٨ – ١٩٢٩) ١١٠ .

(٣) ون – هسين تانغ – كاو : ٣٣٩ . الكتاب ١٩ : تانغ – تين : ١٩٣ / ٢٤آ. وترجم الأستاذ هالون أن « بلادشان » قائمة على الحدود الغربية لبلاد تارشيه (العباسيين) .. وهي مصاقبة في الشمال « لكلو – سا » الأتراك وهنالك إلى شمال « كلو–سا » أتراك آخرون أيضاً .

(٤) ون – هيسن تنغ – كاو : ٣٣٩ ، ٣آ: تانغ – تين : ١٩٣ ، الكتاب ١١،وهو مترجم من قبل هيرث في كتاب « الصين وروما الشرقية » : ٨٣ .

ترجع إحداهما إلى عام ٩٤٥ م والأخرى إلى عام ١٠٦٠ ا حيث تحدث أن الكوسا-ترك كانوا مقيمين في شمال الامبراطورية البيزنطية [١] ، وخوارزم [٢] وبلاد فارس [٣] . ويلاحظ أنه بالنسبة لعبارة خوارزم أن هـــذا الاسم يظهر بتهجئة مختلفة مثلما ظهر اسم هوسا-ترك [٤] Ho-sa turks .

ولا يوجد في المصادر الصينية من شيء يؤدي بنا إلى الافتراض بأن العبارات التي ورد ذكرها من قبل مثل « تشنستان تشيبتوخ » وخاقان الصين لهـــا أي دلالة على وجود نشاط صيني في جوار بحر قزوين ، أو أنه من الممكن تفسيرها بالعكس ، وذلك بسبب المزج بينهما وبين سنجبو (سن-يبغو ؟ ولكن نعلم من هذه المصادر أن القبيلة السادسة من القبائل الإيغوريـــة التسعة الأولى ، كانت تدعى كوسا Ko-sa [٥]، فهل كو-سا هذه هي نفس كوسا K'osa الخزر؟ إنها لعمري معادلة مثيرة وجذابة .

ويرجع الفضل في تكوين هذه المعادلة إلى إي . هـ - باركر E. H. parker الذي تحدث عن كو-سا Ko-sa في إطارات الملاقات مع بعض الأتراك المدعوين باسم شادو - ترك ، حيث يقول : « يبدو أن هؤلاء قد هاجروا غرباً ، لأن تاريخ أسرة تانغ T'ang (يشير هنا إلى المقطع المقتبس عن تانغ شو T'ang-shu المذكور أعلاه) الذي يذكر وجود شعب الخزر شمال غرب العرب [٦].

---

(١) تانغ - شو : ٢٢١ . ترجمة هيث المصدر نفسه : ٥٦ .

(٢) تانغ - شو : الكتاب ٢٢١ / ٢٧ . ترجمة برتشندر « أبحاث » : ٢ / ٩٣ وشافانس، الوثائق : ١٤٥ .

(٣) تانغ - شو : الكتاب ٢٢١ / ٦٤ . ترجمة شافانس ، المصدر نفسه : ١٧٠ .

(٤) من الممكن أن هذا يشير إلى رواية مستقلة لـ « تو - هوان » .

(٥) شافانس : الوثائق : ٩٤ .

(٦) ألف سنة من سني التتر . ط ثانية : ١٩٨ .

ويمكننا أن نلاحظ أنه طبقاً لرأي باكر إن «الشادو – ترك» هـم الأتراك الغربيون [١] . وهناك رأي حديث أورده بول بلليوت Paul-Pelliot قـال فيه بصراحـة إن الاسم نفسه موجود لدى الخزر ولدى كوسا Ko-sa القبيلة الإيغورية ، وهو يستشهد هنا بمصادر أخرى موثوقة ، وحقائق وثيقـة الصلة بالموضوع [٢] .

ويتضح لنا من النقوش بأن الإيغوريين كانوا موجودين أيام الامبراطوريـة التركية ، ففي عام ٧٤٢ م ألفوا جزءاً من الإئتلاف الذي عمل على تفويض سلطة الأتراك الشرقيين ، واستلموا بعدها مقاليد الحكم والزعامـة على ضفاف نهر أورخون [٣] حتى عام ٨٤٠ م . ومن المؤكد أننا نجدهم مذكورين في سجـلات الشرق الأقصى في وقت أبكر من هذا التاريخ بكثير ، فقد كانوا يتزعمون الاتحاد التركي العظيم بقيـادة وي . Wei الأخير ، أو حتى في وقت أبكر من ذلك يعود إلى عصر وي الأول [٤] (٢٢٧ ٢٦٤) . وطبقاً لإحدى نسخ كتاب تانغ– شو يقال إنهم انحدروا من هونغ– نو [٥] (الهون) ، ويمكن ربط هذه الحقائق بما كان قد ذكره المؤلفون البيزنطيون .

وقد كنا أشرنا إلى المقطع الذي ذكره برسكوس حول ظهور السابريـين في حوالي عام ٤٦٣م . ففي ذلك الحين ظهر سفراء ثلاثة شعوب وهم السرغور والأونغور

---

(١) المصدر نفسه : ١٨٠ .

(٢) نومز ترك : ٢٠٨ رقم ١ .

(٣) مينورسكي ، حدود : ٢٦٤ .

(٤) شافانس ، الوثائق : ٨٧ – ٨٩ .

(٥) مرقوارت : ٤٥ .

(٦) شافانس ، المصدر نفسه .

وشعب آخر، ربما كان الإيغور [١] أنهم مهددون، وطلبوا المساعدة من الاغريق. ومن الواضح أن هذا يدل على أنهم كانوا في جوار بيزنطة، كما أنه من المفترض أنهم كانوا لا يزالون حيث هم بعد قرن من الزمان، وذلك عندما انحدرت عليهم القبائل من « فار » و«هوني» وكانوا يدعون أنفسهم « آفار » مع أنهم كانوا بالحقيقة من الإيغور الذين وصلوا لأول مرة من الشرق [٢] عام ٥٥٨ م، لأننا نسمع أن القادمين الجدد سببوا الذعر لدى ظهورهم بين البرسلت (البرساليين) والأونوغور والسابريين [٣] وفي رواية شبيهة يقال إنهم هاجوا قبائل الأوتغور والسابريين [٤].

ويمكن اعتبار هذا الوضع بمثابة حالة من حالات الهجرات المتتابعة لمجموعات من الإيغور ابتداء من قبل عام ١٦٥ م، نزحوا بها غرباً حتى اقتربوا من حدود أوروبا. ونحن نقرأ بالتأكيد عن قبائل إيغورية في غرب نهر الفولغا عام ٥٦٩ م [٥]، وعن قوة من الاتغور تحاصر البوسفور (كيرتش) عام [٦] ٥٧٦. وفي كلا الحالتين كان هؤلاء أتباعاً للأتراك الغربيين، ومن الواضح أن عمليات الانتقال والهجرة هذه لم تتم حتى عام ٥٩٨ م. عندما وصلت شعوب ورشونايتيه varchomites أخرى إلى أوروبا، كما رأينا سابقاً [٧].

---

(١) برسكوس، ط. بون: ١٥٨، أورروغوي عند أرتامونوف: ١٣٥ ثم أوغور لكنه يقرأها أورروغوي، ويبدو أنه من الشطط افتراض أن هذه القبائل هي أورغورية؟وليس إيغورية في وقت لدينا فيه « ساري إيغور » وعلى أطراف الايغور في الشرق الأقصى فيما بعد (أنظر على سبيل المثال مينورسكي، حدود العالم: ٢٦٤ - ٢٦٥، ٥٠٩).

(٢) أنظر الفصل الأول.

(٣) ثيوفيلاكت، ط. بون: ٢٨٤ (صحح سارسيلت).

(٤) مناندر: ٢٨٤.

(٥) المصدر نفسه: ٣٠١.

(٦) المصدر نفسه: ٤٠٤، أنظر أيضاً ٣٩٩.

(٧) من المفترض هنا أن أسماء مثل: سرغور وأنغور وأوتغور تشمل المجموعة نفسها ويمكن ترجمتها كما يلي: « الايغور الصفر » « الايغور العشر » « الايغور الثلاث ؟». أنظر زكي وليدي، ابن فضلان: ٢٧١.

ومن المؤكد أنه لم ينسحب جميع الإيفور غرباً ، ولكن هنالك أمر لا يخفى علينا ، وهو أنه كان هنالك شعب غريب يقطن ضمن الاراضي التي كانت تحت سيطرة الاتراك ، وربما وراءها ، وقد عانى هذا الشعب من هزائم ومذابح كان يتوق بسببها إلى الانتقام [1] ، ولم يكن من قبيل الصدفـــة أن تم القضاء على الاتراك الغربيين ما بين عامي ٦٥٢ - ٦٥٧ م ، وكـــذلك القضاء على الاتراك الشرقيين فيما بعد على يد ائتلاف كون الايغور جزءاً هاماً منه .

ونحن نعلم أن الخزر قد حلوا محل الاتراك الغربيين بالنسبة للسلطة بعـــد ذلك بقليل ، ويبدو أن الخزر كانت تدعمهم مجموعـــات أخرى مثل الزبندر (سمندر) والكوتزاغيريين [2] (البلغار) وأنهم أصبحوا الآن يسيرون بخطى حثيثة نحو إنشاء الامبراطورية [3]. ومن المفهوم أن فرض زعامة الخزر والإقرار بها قبل عام ٦٥٧ م أو بعـــده ما كان ليتم لولا أن هؤلاء الخزر كانوا يمثلون قبيلة

---

(١) ثيوفيلاكت : ٢٨٥ حيث يفترض أن اسم « كلخ » لا بد أنه يشير إلى زعيم الايغور كما رأى جيبون ذلك (انحدار وسقوط ، فصل ٤٢) وليس إلى أمة تركية غير معروفة-أنظر مرقوارت - التاريخ : ١٧٠ - شافانس - الوثائق : ٢٥١ .

(٢) أنظر الفصل الأول .

(٣) يبدو أن مشكلة خاقانية الخزر مرتبطة بخاقانية الأفار (الأفار - الأدعياء) الذين شرعوا منذ حوالي سنة ٥٥٨ باجتياح الأراضي الأوروبية وقد قيل إن « الفارشوناتيين » الذين قدموا في سنة ٥٩٨ قد التحقوا بخاقانية الأفار، لكن لم يفعلوا ذلك جميعاً ، وكان الحال إما أنه :
١ - كان هنالك أسرة حاكمة بين الخزر في الغرب منذ فترة مبكرة (من أسرة آخينا ؟ ، أنظر حدود العالم ١٦٢) أو : ٢ - ارتبطت الخاقانية الخزرية بالهجرة الثانية للفار من الأفار في ٥٩٨ . أو : ٣ - اخترع الخزر خاقانية (تقليداً للأفار ؟) ويبدو الاحتمال الثاني بين هذه الاحتمالات هو الأكثر قبولاً ، مع سمندر (زبندر) عاصمة أولى للخزر (أنظر نص المسعودي في الفصل السابع) وينبغي بدون شك تأخير تاريخ الخاقانية بدلاً من التقديم على حوادث سني ٦٥٢ - ٦٥٧ ، ومن جهة إن ما جاء عند اليعقوبي عن خاقان الخزر ونائبه من الممكن أنه يشير إلى السنوات التي سبقت قدوم العرب (حوالي ٦٤٢) وحيث أنه كما يبدو لم يكن هنالك خاقانية خزرية في ٦٦٧ - ٦٣٠ (أنظر الفصل الأول) فالمنصب قد قام في عقد ٦٣٠-٦٤٠ إن لم يكن بعد ٦٥٧ .

(كوسا) التي انتمت إلى شعب قديم حاكم ، لكن إذا اعتبرنا أن انتماءهم لله ، ورشونايتيين ، أمراً مشكوكاً فيه . فإن انتماءهم العرقي يصبح حينئذ مرتبطاً بأسلاف أقل أصالة وممتداً [١] .

إن الرأي الذي يقول أن الخزر من الممكن أن يكونوا هم كوسا - إيغور هو رأي يعوزه الإثبات والبرهان الحاسم ، ومع هذا نجد عدة اعتبارات تدعم هذا الرأي ، الامر الذي يجعلنا نتوقف قليلاً للنظر ما دام أن لهـــذا الرأى وزناً واعتباراً .

وربما نجد إثباتاً وتعزيزاً لوجود طور من أطوار النمو القديم للإيغور في المنطقة المدعوة ببلاد الخزر ، وذلك في قصة ذكرها ميخائيل السوري وابن العبري ، وجرى نقلها في الفصل السابق ، فقد كان هنالـــك شعب يدعى بوغوريا أو بانغوريا ، وهو أحد الشعوب التي يظن أنها احتلت أوروبا الشرقية قبل قدوم الخزر والبلغار ، لكن لا يمكننا أن نكوّن فكرة صحيحـة عن الاوضاع التي اتخذها هذا الشعب .

وقد بذلت عدة محاولات لإيضاح وجلاء غموض هذه القضية ، إذ أننا نجد ناشري كتاب ابن العبري الاوائل : برنز Bruns وكيرسش Kirsch يقدمان اسم « الهنغار » ، وأما ولس بدج Wallis Budge فيقدم اسم البنغوريين ؟ في حين يقترح ماركورت تعديلاً للنص بحيث يصبح شعب بلنجر [٢] » ويبدو أن هـــذا الرأي الاخير هو التفسير الاكثر معقولية وقبولاً . لكن بما أن ابن العبري يذكر كلمة مشابهة عند الاشارة إلى الايغور لذلك لا يسعنا إلا إثباتها [٣] هنا ، فقـــد

(١) أنظر شافانس ، الوثائق : رقم ٨٨ .

(٢) مرقوارت : ٤٩١ .

(٣) ابن العبري - تحقيق بدج - لوجه ١٢٦ و .

جاء فيها ما يعني أن الايغور هم الذين استقروا في أوروبا حسبما نجدهـــم في المصادر الإغريقية .

هذا واننا نجد بين اسماء الاعيان والشخصيات البارزة في دولة الخزر حامل لقب جاوشيغر ، وذلك طبقاً لما ذكره ابن فضلان . ومن المحتمل أن يكون اخر جزء من هذا اللقب هو « إيغور » ، وقد فسر هذا اللقب بـ « شاووش إيغور » الذي قد يكون معناه « مقدم الايغور » ، وهذا من التفسيرات البديلة الـــتي تبدو مصطنعة [1] بشكل مفرط .

وهنالك بعض التشابه بين المراسم المتعبة لدى خاقان الخزر كما يصفها ابن فضلان [2] ، وبين بعض القصص التي تروى عن ملـــك الطغز أوغز [3] ، التي سوف نقدمها هنا . فالمصادر العربية على العموم تجيز إطـلاق اسم شعب الطغز أوغز على الإيغور [4] ، وبصورة خاصة على إيغورتيان شأن الذين تعنيهم هذه القصص (منذ حوالي سنة ٨٦٠ م) [5] . فملكهم شأنه شأن ملك الخزر لا يحكم بنفسه بل «جميع شؤون مملكته كان يتم تصريفها على أيدي الوزراء والحجاب» وكان خاقان الخزر يمتلك ستين جـــارية ، أما ملك الطغز أوغز فكان يمتلك ثلاثمائة وستين جارية .

---

(١) اقترح زكي وليدي (ابن فضلان ٢٦١) أن « جاولي شغير » هي كلمة مركبة من « جاولي بك » « وجغري بك » وهما لقبان وجدا لدى القراخانية . ويفترض زاجاتشوسكي في دراسات : ٣٤ - ٣٥ ، ٩٧ ، أن « جرشغير » مأخوذة من « يرش » « جرش » التي هي شكل من الأشكال يتضمن « غير » التي تعني « محكم » أو « قاضي » .

(٢) أنظر الترجمة في الفصل الخامس .

(٣) من رسالة في الأقاليم - مخطوطة كوبرلو ١٦٢٣ - نقل عنها زكي وليدي في ابن فضلان : ٢٦٣ ، ٢٦٨ .

(٤) يتوافق رأي مرقوارت مع ما توصل إليه مينورسكي ، تميم : ٣٠٤ .

(٥) أنظر زكي وليدي ، ابن فضلان : ١٩٧ ، حاشية .

وكان ملك الطغز أوغز يظهر أمام شعبه مرة كل سنة أمـا خاقان الخزر ـ فطبقا لابن فضلان ـ كان يظهر لشعبه علنا كل أربعة أشهر ، وكان يتقبل عند ظهوره خضوع شعبه واحترامهم عندما يسجدون أمامه . كما أن شعب الطغز أوغز كان يسجد أيضاً . وإذا كان ما ذكرناه ممارساً حقيقة بين التبان شان ، ايغور ، علينا كما يبدو أن نعتبر أنه كانت هنالك علاقـــة وطيدة بينهم وبين الخزر .

أما إذا انتقلنا إلى العلاقات اللغوية بــين شعبي الخزر والإيغور ، فالمعالم الموجودة للهجات الإيغور لا تنير لنا السبيل ، إذ من المقبول بصورة عامة اعتبار انتماء اللهجات الخزرية إلى الفرع المنحرف الذي يدعى أحياناً باسم الفرع التركي الليري Lir الذي يقابله الفرع التركي شاز [١] Shoz وهو الذي يتمثل في جميع اللهجات التركية تقريباً . وتعرف اللهجة الإيغورية على أنها لهجة شازية [٢] ، وليس هناك أي شاهد على العكس ، ومن المفهوم أيضاً أن اللهجـــة التركية الليرية كانت واسعة الانتشار في أزمان قديمة جداً ، وإذا جاز لنا أن نتقبل وجود علاقات خزرية ـ إيغورية من نواح أخرى ، لاشك أن القضايا اللغويـة سوف لا تقف حائلاً دون تثبيت هذه العلاقات[٣] .

وأخيراً لا يمكننا أن نغفل ذكر وجهة النظر التي تقول إن الأسماء الوطنية عند شعبي البلغار والبشكير متشابهة [٤] ، ويماثل هـــذا الفروق بين ليروشاز

---

(١) أخذت المصطلحات المستقاة من المراسلات في نمط Sh(a)Z... l(i)R على أنها تمثل التغييرات الصوتية الرئيسة بين مجموعتين من اللغات . أنظر : زكي وليدي ، ابن فضلان ١٠٥ . ويعود الرئيسي إلى وامستدت . أنظر : ن. بوب « عوستاف جون رامستدت » في دورية هارفارد للدراسات الآسيوية : ١٤ (١٩٥١) / ٣١٩ .

(٢) على سبيل المثال ساموبلوفتش في الموسوعة الاسلامية ـ ماده : ـ ترك .

(٣) جرى بحث مسألة لغة الخزر في الفصول التالية .

(٤) نقل رأي مونكاس من قبل زكي وليدى في ابن فضلان : ١٤٧ .

التركيتين ، فكلمة بيل biel أو بل Bil في لير للتركية يقابلها باش في شـــاز التركية ، والجزء الأخير من كلا الاسمين ينتهي بـ « غور » Gur أو « غـير » Gir ، وهما عبارتان متشابهتان كلتاهما تفسران بـ« الأغور الخمسة» (إيغور) . وإذا كان هذا الاشتقاق القدم صحيحاً فهو يعطي إثباتاً ممتماً على صحة النظرية التي ناقشناها في هذا الفصل ، إذ لاشك أن العلاقة بين الخزر والبلغار كانت وثيقة في جميع الأوقات .

الفصل الثالث

توطيد أركان دولة الخزر
والحرب العربية ـ الخزرية الأولى
(٦٤٢ ـــ ٦٥٢ م)

عاش الخزر كما هو واضح حياة البداوة في أول الأمر ضمن حـــدود ضيقة نسبياً ، ولقد سبق وقابلناهم في القوقاز. وقد وردت إشارة في كتاب الجغرافيا الأرمنية تؤكد وجودهم في تاريخ لم يحدد تماماً ، فقد ذكر أنهم كانوا يقطنون في مراكز شتوية على نهر الفولغا ، وبذلك سببوا شيئاً من الذعر لدى البرسليين الذين كانوا قد تحصنوا في جزيرة في وسط النهر[١]، وقد مضى زمن حتى توطدت العلاقات فيه بين الخزر والبلغار[٢] .

ومن المعتقد أن شعب الخزر قد استوطن في رقعة من الأرض فيما بـين نهر الفولغا والقوقاز ، واحتل الأراضي الساحلية في تلك المنطقة ، بينما كان البلغار يتمركزون في المناطق النائية غرباً ، حيث كان مركزهم في وادي نهر كوبان ، لكن العلاقات بين هذين الشعبين لم تكن دوماً على مـــا يرام ، ويجب علينا أن نتطرق الآن إلى ذكر توسع الخزر على حساب البلغار ، هذا التوسع الذي حدث خلال القرن السابع ومهد للخزر إحراز السيطرة المباشرة على رقعة واسعة تمتد غرباً إلى ما بين نهري الدون و كوبان على الأقل .

وطبقاً لما رواه تيوفانس نرى وجوداً للبلغار (أونوغوندور) في منطقة نهر

---

(١) تحقيق سوكري : ٢٦/١٦ (اقتباس مرقوارت : ٥٧ ، ١٥٤) .

(٢) انظر حكاية ميخائيل السوري في الفصل الأول .

كوبان ، وقد تنظموا تنظيماً قوياً على يد حاكمهم وزعيمهم كوبارت، وقد ترك كوبارت ، عند وفاته في حوالي عام ٦٥٠ ، أملاكه لأولاده الخمسة ، وكان قد أمرهم أن يحافظوا على وحدتهم ، وألا ينفصل بعضهم عن بعض ، وألا يبحثوا عن ممالك منفصلة ، لكنهم لم يعيروا أذناً صاغية لهذه النصيحة الثمينة ، إذ بينما بقي الأخ الأكبر باتباياس في المملكة التي ورثها تفرق الآخرون ، فقد عبر الأخ الثاني المعروف باسم كوتراغوس نهر الدون ، واستقر مقابل أخيه باتباياس، أما الأخ الثالث واسمه أسباروخ فقد احتل الأراضي الواقعة غربي الدنيستر،في حين توغل الأخوان الرابع والخامس إلى ما وراء نهر الدانوب . في حين قام الخزر الذين يصفهم تيوفانس« بالأمة العظيمة» من داخل برزيليا في السارماشيا الأول، بالتقدم، واستحوذوا لأنفسهم على جميع الأراضي الممتدة حتى البحر الأسود ، وأخذوا الجزية من السكان الأصليين الذين تخلفوا في المنطقة [١]. وقد اكتملت هذه التغييرات على هذا الشكل حوالي عام ٦٧٩ م ، عندما عبر اسباروخ نهر الدانوب واستولى على ما نسميه الآن بلغاريا [٢].

ويتحتم علينا أن نلاحظ أن هذه الرواية تقدم قاعدة للرأي القائل إن اسم البلغار يعني الخمسة (ايغور ؟) وتبعاً لما ذكره قسطنطين بورفيروغنتوس جرى بعد تلك الحوادث التي ذكرت استبدال اسم أونوغوندور بالبلغار [٣] . ويوحي

(١) ثيوفانس ، ط. بون : ٥٤٤ ... نقفورس ، ط. بون ٣٨ ... بري ، الامبراطورية الرومانية المتأخرة : ٢/٣٣٢ ، إنه يرى هنا أن هذه الملاحظة تؤخر الحوادث كثيراً أي حوالي القرنين ، انظر أيضاً مرقوارت : ٥٠٥ ، ويبدو أنه من المستحسن الاحتفاظ بتاريخ القرن السابع وذلك مع مينورسكي ، حدود العام : ٦٧ ، انظر أيضاً ما ألمع إليه بري ، المصدر نفسه : ٣٣٦ .

(٢) تقول الجغرافية - معتمدة المصدر نفسه - (مرقوارت ، المصدر نفسه ، ٥٢٩) : أن أسبار - هروك (أسبـــاروخ) استقر أثناء فراره من بلاد الخزر في جزيرة بيوك على الدانوب (تحقيق سوكرى : ١٧/٥/٢٥/٢٥ . اقتباس مرقوارت ، إيران شهر)

(٣) Dethen . ط. بون : ٦٤ .

هذا أن التغيير قد بدأ متأخراً ، إذ من الواضح أن الأونوغوندور لم يتخذوا ذلك الاسم الجديد إلا بعد أن خضعت قبيلة أو أكثر من قبائلهم لحكم الخزر . أما البلغار فقد ورد اسمهم بوضوح حوالي ذلك التاريخ[١] ، اما الاسم الآخر فنقابله في رواية اخرى مستقلة عن الحوادث المذكورة ، وهو ربما كان اسماً بديلاً للأونوغور [٢] .

إن أقدم الأحداث المسجلة في محيط التاريخ الخزري هي التي وردت في (جواب يوسف) وهي وثيقة باللغة العبريه ، لها أهمية خاصة ، ولسوف نعنى بها فيما بعد ، ويمثل الحدث المذكور نصراً عظيماً أحرزه الخزر ضد شعب يسميه هذا المصدر ونتر W-N-N-T-R ،وكان الونتر هذا شعباً أكثر عدداً من الخزر ، ومع هذا فقد هزم أمامهم، ولم يستطع أن يقف في وجه هجومهم حين طاردوه ولحقوا به حتى نهر الدونا (أي الدانوب كما هو مرجح) وقد ظلت البقية الباقيه من هذا الشعب تعيش على ضفاف نهر الدونا قرب القسطنطينية ، بعيدة عن حكم الخزر ، في زمن كاتب هذه الرواية ، ولا شك أن هذه الرواية نسخة عما ذكره تيوفانس .

ومن نافلة القول أن نذكر أن تغيير الاسم من أونوغوندور إلى ونتر في الأحرف العبرية مناسب ومعقول، ما دام أن هناك شعب يدعى وندر W-N-N-D-R في القوقاز ، وذلك حسبما ذكره صاحب كتاب حدود العالم (القرن العاشر) ، ولا يمكن تفسير وجود هذا الشعب إلا بأنه من بقايا البلغار[٣] ، ويتصل بكلمة وندر

---

(١) عند زخرياسي رينور « برغاري » (مرقوارت : ٥٠٥) .

(٢) كذلك عند مورافسك « Ungarische Jahrbucher » : ١٠/ ٧٢ - ٧٣ نقل من قبل برتساك في استعراضه لدراسات زاجاتسكوتسكي في در - إسلام: ب ٢٩/ ١٠٢).

(٣) مرقوارت « Ungarische Jahrbucher » : ٤/ ٢٧٥ ، نقل من قبل زكي وليدي Volkerschaften : ٤٨ ، وقد وجد أن المحصلة موضع جدل كبير ، انظر المناقشة الطويلة لدى مينورسكي في حدود العالم : ٤٦٥ - ٤٧١ .

اسم آخر هو ننذر N-N-D-R ذكره الكرديزي [١] ، وربما كانت هـذه نفس كلمة وبندر التي ذكرها ابن الأثير [٢] ، وهي تقابل كلمة ننذرويه لدى حافظ ابرو [٣] ، وكلمة ولندر لدى المسعودي [٤] ، ويبدو أن بعض هـذه الكلمات أو جميعها تحتفظ باسم البلغار القديم .

ولا يقدم « رد يوسف » لنا إثباتاً يدل على المكان الذي كان به الخزر قبل مجيئهم للاستيلاء على البلاد التي احتلوها ، ويرى ثيوفانس أنهم تقدموا وهاجموا شعب الأونوغوندور كما سبق وذكر « من داخل برزيليا في السارماشيا الأول » وبالنسبة لبرزيليا نجد أن نقفوروس يطلق عليها اسم بيريليـا [٥] ، ولكن كلا الشكلين لهذا الاسم غير معروفين في الجغرافيا القديمة ، بيد أنه يمكننا توضيح هذا الاسم استناداً إلى المصادر الشرقية .

ويذكر التاريخ الأرمني اسم الباسيليين مع الخزر ، ويقول ميخائيل السوري إن الجد الأسطوري للخزر عمد إلى احتلال بلاد اللان التي تدعى برسيليـا . ويذكر قدامة في الرواية التي قدمها عن الجابهة التي حدثت بـين أنو شروان وملك الخزر (الذي يدعوه البلاذري باسم ملك الترك) أن هذه الجابهة قـد حدثت في « برشلية » ، وهذان الاسمان [٦] قريبان من برزيليـا التي ذكرها ثيوفانس والتي تبدو أنها ناحية من نواحي القوقاز ، ويوجد في الجغرافية الأرمنية

---

(١) تحقيق بارثولد : ٩٨ .

(٢) سنة ١٠٤ .

(٣) نقلاً عن دورن عن البلعمي : ٤٦٨ .

(٤) عرض النص مترجماً مع مناقشة فيما يلي الفصل السابع .

(٥) مرقوارت : ٤٩٠ رقم ٣ واقترح القراءة أن تكون بير (ز) يليا .

(٦) انظر الفصل الأول .

ذكر لمملكة الهون شمال دربند [١] ، وعاصمتها فرشان في الغرب [٢] .

أما البيروني الذي جاء في وقت تالٍ فقد ذكر مكاناً يقع بين باكوودربند اسمه « ورثان [٣] »، من المحتمل أنه نفس فرشان، كما أنه يبدو بصيغة « ورصان » في إحدى الروايات العبرية التي تصف تحول شعب الخزر إلى الديانة اليهودية [٤] ومن المحتمل بعد هذا أن تكون كلمة فرشان (ورثان) هي نفس كلمة برشلية وقد أيد مينورسكي هذا الرأي [٥] إنما نحن لا نعلم بشكل واضح كيف تحول هذا الاسم فأخذ شكلين باللغة العربيه ، ولعل كلمة ورثان هي اللفظة المحليه للكلمة التي تلفظ الارمنية فرشان ، في حين أن كلمة برشلية فيها محاولة لتطبيع هذه الكلمة مع ما جاء في لغة أخرى مثل برزيليا وبرسيليا ، ولا يسعنا هنا إلا أن نوافق على رأى زكي وليدي القائل بأن كل « فرش » و « برش » هما اسمان لقبيلة [٦] .

ومما يؤسف له أن تبدو الإشارات التي عثرنا عليها غامضة وهي لا تسمح لنا أن نحدد مكان برسيليا والبرسليين على أنه رقعة صغيرة من الأرض في الطرف الشرقي للقوقاز، وفيما عدا مدينة موجودة في منطقة الداغستان هنالك دليل

---

(١) تحقيق سوكرى : ٢٧/١٤ (اقتباس مرقوارت : ٥٨) .

(٢) يبدو أن « غرب » هو جنوب كما أن « شرق » هو شمال في المصادر (نهر اتل شرقي دربند) .

(٣) اقتباس زكي وليدي ، ابن فضلان : ٢٩٨ . وهنالك مدينة أخرى تحمل الاسم نفسه « ورثان » أو « ورثان » تقع في الجنوب على نهر أركس (مينورسكي ، حدود : ٣٩٥) .

(٤) انظر الفصل ٦ .

(٥) حدود : ٤٥٣ ، حاشية ١ .

(٦) ابن فضلان : ١٥٦ - ١٥٧ . وان « البلكنغ » (البلنـخ) الذي ورد ذكرهم في الجغرافيا الأرمنية على أنهم يشكلون شعباً منفرداً مع الخزر هم نفسهم (تحقيق سوكري : ٢٦/١٦ . مرقوارت : ١٥٤ وانظر أيضاً ٥٧) .

قاطع على وجود هذا الاسم على نهر الفولغـــا كما رأينا ، وقد اعتبر ميخائيل السوري أن برسيليـــا هي نفس « ألانيا » أي انها تقـع في ممر داريال في وسط القوقاز .

واقد سبب الأفار الادعياء في عام ٥٥٨ م الذعر للشعوب التي كانت تحتل الاصقاع الجنوبيه الشرقية من أطراف أوروبة، ونذكر من هؤلاء شعب السرسلت ويمكننا عندما نقرأ هذا الأسم (سرسلت) أن نربطه بثقـــة واطمئان بكلمة برزيليا ، ومن الواضح أن البرسليين قد وجدوا في اجزاء متناثرة من المنطقة التي دعيت فيما بعد بأسم خزاريا .

وإذا كان من الصعب علينا أن نقرر ما الذي كان يقصده ثيوفانس بكلمته التي ذكرها وهي «برزيليا» يمكننا أن نلاحظ أن الضوء قد ألقي على الأوضاع قبل تقدم الخزر ضد البلغار ، ويبدو أن الخزر قد أخضعوا في الواقع البرسليين في تاريخ أقدم، فلربما جرى إظهارهم في المقطع الذي جرى اقتباسه من الجغرافية الأرمنيه ، وهم على وشك الإقدام على التحرك لتنفيذ هذا الفرض ، ولا شك أن هـــذا يبدو تفسيراً مناسباً لعبارة أخرى وردت في نفس الكتـــاب ، حيث يلقب ملك الشمال بالخاقان أو سيد الخزر ، بينما تلقب ملكة الشمال بخاتون شعب البرسليين [١] .

لا يمكن أن يتطرق الشك إلى أذهـــاننا بالنسبة للحقيقة التي تؤكد تغلب الخزر على البلغار ، أو أهمية هذا الحدث بالنسبة لتطور البلغار بعـــد ذلك ، فالمصادر تكرر القول أن البلغار الذين قطنوا في حوض الفولغـا الاوسط كانوا خاضعين لخاقان الخزر في القرنين التاسع والعاشر [٢] ، ومع اننا لا نستطيع أن

---

(١) مرقوارت : ٥٨ ـ ٥٩ .

(٢) انظر الفصل الخامس .

نجزم متى حدث هذا بالضبط ، إلا أن ارجاع هذه الاوضاع إلى الحوادث التي ذكرناها ما هو إلا من قبيل الحدس المعقول .

وإذا كان بلغار الفولغا الهاربين القـــادمين من الجنوب (وهذا أمر شديد الاحتمال) فإنه من الممكن أن يكون قـد مرّ بعض الوقت قبل أن يضطروا للاعتراف بسيادة الخزر عليهم ، وهذا يقدم لنـا تعليلاً لاحتفاظهم بشخصيتهم المستقلة وهويتهم التي خسرها أقرباؤهم الذين ظلوا يسكنون في المنطقة الواقعة بين بحر آزوف والقوقاز (قبيلة الباتبايا كا) [١] .

ومن الواضح أن فتح سبل هذه الاراضي الجديدة أمامهم لا بد وأنه قد قدم للخزر فرصاً وإمكانات لم تخطر لهم على بال ، إذ أنهم بنفاذهم إلى البحر الاسود الامر الذي تم بسهولة بعد غلبتهم على البلغار ، دخلوا بكل يسر لاول مرة منطقة كان النفوذ البيزنطي هو السائد والمتفوق فيها ، ولا بد أنهم أخذوا حينئذ الطريق إلى شبه جزيرة القرم ، إن لم يكن ذلك قد حدث في وقت أبكر ، حيث سنسمع في القرن السابع بوجود حاميات خزرية قـــد تمركزت هنالك في تلك المنطقة بشكل ثابت [٢] وقد أصبحوا في شبه جزيرة القرم على اتصال مباشر مع الاغريق وهكذا تحسنت أحوالهم المادية والمعنوية في وضعهم الجـديد ، فضلاً عن أنهم – كما هو محتمل – تأثروا بالمظاهر العقلية والثقافية لحضارة كانت متفوقة على كل حضارة عرفوها من قبل [٣] .

بيد أنه قد ظهرت في تلك الآونة سلسلة من الاحـــداث في جزء آخر من العالم ، ففي عام ٦٤١ م ، أو حتى قبل ذلك كان العرب قد توغلوا بجيوشهم في

---

(١) من أجل الفوارق بين البلغار والخزر ، انظر رحلة ابن فضلان .

(٢) انظر الفصل السابع .

(٣) من الممكن أن الخزر أخذو يهوديتهم عن يهود خزر .

الاطراف الجنوبية المجاورة للقوقاز ، ومن المحتم أن غزو البلاد الواقعة في شمال المنطقة الجبلية ما كان ليتأخر طويلا ، آخذين بعين الاعتبار شدة اندفاع العرب في تقدمهم آنذاك .

ويبدو أن توسع الخزر العظيم ـ الذي أتينا على ذكره ـ باتجاه الغرب لم يكن قد حصل بعد ، لأنه من الصعب تصور النتيجة محصله حملة عام أو عامين ، وعليه يكون احتمال حصولهـا في الربع الثالث من القرن السابع أكثر من احتماله في منتصف ذلك القرن . ومهما يكن الحال من المؤكد أنه عندما تدفق الفاتحون المسلمون للمرة الأولى سنة ٦٤٢ على المنطقة الواقعة شمال باب الأبواب(دربند) كان الخزر باسطين سيطرتهم هنالك من قبل .

وإنه لمن الأهمية بمكان بالنسبة لحوادث التاريخ التالية ، أنه في اللحظة التي جلبت فيهـا انتصارات الاسلام العرب إلى حاجز القوقاز التقوا بالخزر الذين كانوا نشطين ويقومون بأعمال التوسع ومع أن سلسلة الجبال العظيمة كانت ستسبب صعوبات جمة للغزاة القادمين من الجنوب فقد كانوا سيتغلبون عليها عاجلاً أم آجلا ما لم تواجههم مقاومة شديدة حسنة التنظيم .

ولقد كان هذا ما واجهوه في الخزر ، لأنه على الرغم من أن جيوش المسلمين قد حاولت في المئة سنة التالية أن تزحف إلى ما وراء القوقاز ، ونجحت في ذلك في بعض الأحيان لم يتمكن العرب من توطيد أقدامهم في شمالي تلك الجبال . فعلى الرغم من جميع ما بذلوه من جهود جرى صدهم بشكل فعال ، فيما عدا مناسبة واحـدة ـ سيجري وصفها فيما بعد ـ ولذلك لم تسمح لهم الظروف باستغلال نصرهم استغلالا كاملاً .

وشابهت الأوضاع في جبهـة القوقاز في أيام الاسلام الاولى أوضاع خطوط المواجهة في جبال البرانس التي وصلتها جيوش الاسلام في فترة متأخرة بعض الشيء . فلقد كان الخزر مثلهم مثل الفرنجة يملكون من القوة ما فيه الكفاية

لكبح اندفاع الغزاة ، ولقد تقرر الامر في الغرب في معركة عظمى حدثت في سهل تور العظيم الذكر عام ٧٣٢ (بلاط الشهداء) بينما ظلت النتيجة في الشرق ضد الخزر مشكوكاً فيها فترة طويلة .

ومع هذا فإنه عندما تبددت طاقة الهجوم لدى الخلافة كانت دولة الخزر ما زالت قائمة ، فبعدما استولى العرب على الاراضي الفارسية السابقة وصولا حتى القوقاز برهنوا على أنهم غير قادرين على توسيع فتوحاتهم أكثر . فلقد زحفوا في عدة مناسبات داخل أراضي الخزر ثم أعادوا الزحف ، لكن دون الوصول إلى حل نهائي للصراع ، وبناء عليه قام فيما وراء القوقاز بعد سنين من الحروب المتوالية ، دولة خزرية مستقلة ، صحيح أنها كانت مقلقلة ، لكنها كانت تمتلك مساحات من الاراضي اكبر مما كانت تمتلكه عندمـــا ظهر العرب للمرة الاولى ، وتمتلك أيضاً احتياطياً من الطاقة سيظهر فيما بعد .

وصحيح أنه أمكن للاسلام الازدهار هنا [١] ، إنما كديانة متسامح معهـا (مثل المسيحية الخزرية) ولم يجر فرضها بواسطة الجيوش الفاتحة ، وكانت نتائج دفاع الخزر واسعة الانتشار . فكما لاحظنا من قبل لو أن هذه الامة كانت غير قادرة على الاحتفاظ بذاتهـا لاختلف تاريخ شرقي أوربا وخاصة تاريخ دولة روسيا اختلافاً كاملاً [٢] .

وكان أول القادة العرب الذين ورد ذكر ظهورهم في أحـــواز باب الأبواب (دربند) هو بكير بن عبدالله ، وكان قد أرسل من قبل في سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م [٣]

---

(١) أنظر النص مترجماً في الفصلين الخامس والسابع .

(٢) مع أنه لا مكانة « لو » في التاريخ . ولا شك أن انتصار العرب على الخزر ودخولهم أوربة الشرقية ، كان سيمكن ـ عدا عن الهداية إلى دين التوحيد ـ هذه البلاد من الدخول إلى ميادين الحضارة قبل عشرة قرون على الأقل ، ولا شك أن ذلك كان سيفيد الإنسانية جمعاء.

(٣) الطبري : ١ / ٢٦٣٥ ، ٢٦٦١ .

لى أذربيجان مع قائد آخر ، ووجه الخليفة في السنة التالية سراقة بن عمـــرو نحو دربند ، وكان على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعـة الباهلي ، وعندما وصل الباهلي إلى غايته وجد بكير قد سبقه معسكراً على مقربة من المدينـــة [١] ، وتبعاً لذلك التحق بسراقة وتسلم منصباً قيادياً تالياً .

والحادث الرئيسي الذي وردت أخباره أثناء سير الأحداث إثر وجـــود القوات العربية في القوقاز للمرة الأولى هو الحديث الذي جرى بين عبد الرحمن والحاكم الفارسي لدربند واسمه شاه براز ، حيث قيـل إنه عندما وصل عبد الرحمن إلى دربند طلب منه الفارسي الحماية ، وشرح شاه براز أثناء المقابلة لعبد الرحمن أوضاعه وبيّن أن ما من شيء يربطه بالبرابرة المحيطين به وأنه لم يقدم لهم المساعدة ضد العرب ، ذلك أن روابط القرابة يربط بين العرب وقومــه من الفرس ، لأنهما من أصل نبيل ، وبناء على هذا اقترح أن ينضـــم إلى المسلمين ، وطلب أن يعفى مع أتباعه من الجزية مقابل خدماتهم ، وعندمــا قام عبد الرحمن بإخبار سراقة بما جرى ، قرر سراقة إعفـاء الرجال الذين يشاركون بشكل فعلي بالزحف من دفع الجزية ، بينما يجب على الآخـرين الدفع ، ووافق الخليفة عمر على قرار سراقه ، وغدا ذلك إجراءاً معتمداً يمارس في الأجزاء التي يشتد فيها القتال [٢] .

ويبدو في الحقيقة أن النظام الفارسي قد تم تدميره بالكليـــة ، وتبعاً للبلاذري اقتسم الخزر والروم البيزنطيون أرمينيا [٣] ، وشكل هذا عودة إلى وضع سابق إذ كان الجزء الغربي فيه يحكم قبل قدوم الفرس من قبل حـــاكم

---

(١) المصدر نفسه : ٢٦٦٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٦٦٣ - ٢٦٦٥ ، وانظر أيضاً مقدمة ابن خلدون ، ط. بيروت ، القاهرة : ١٤٢ .

(٣) البلاذري : ١٩٧ .

بيزنطي ، في حين عادت الأمور في أران وجورجيـــا إلى الخزر [1] . وسواء أكان صحيحاً أم لا الحديث عن وجود الخزر في جنوب القوقاز في هذه المرحلة، فنحن نعتقد أن وضع الحاكم الفارسي في دربند كان غير مستقر نظراً لاحاطته بالأرمن وإن كانوا ضعفاء وتهديده من قبل أعداء أكثر قوة .

وهناك نص هام يحوي كـــلام شاه براز أورده البلعمي الذي تقرر الآن أن كتابه يمثل مجرد ترجمة مختصرة لتاريخ الطبري إلى اللغة الفارسية [2] ، فقد عبر شاه براز أو شهريار كما جاء ذكره هنا عن شكواه بأنه واقع في تلك الحقبة بين عدوين هما الخزر والروس [3] ، ومن الصعب أن نفهم الذي عناه هنـــا لا سيما وأننا سنتعايش مع قيام قوة الروس في قرن مقبل هو القرن التاسع لا القرن السابع ، ومن المفترض أن هـذا لا يعدو مجرد صدى للأحاديث التي ستأتي عن الروس فيما بعد ، هذا وإن الوضع الجغرافي المتصور هوبعيد عن الوضوح ايضاً ، ويرى زكي وليدي في نص البلعمي إشارة إلى أن الخزر كانوا يشتركون في حرب الفرس ، كما تحدث المسعودي عن ذلك في القرن العاشر [4] .

وينبغي الإشارة هنا إلى أن مرقوارت قد نفى صحة قصة شاه براز كلية ، ولعل ذلك جاء منه بشكل متسرع للغاية [5]، ذلك أن نص المعاهدة الذي اثبته الطبري وجـــاء فيه إعطاء الأمان لـ سكان أرمينية (المستوطنين الفرس ؟) والأرمن (السكان المحليين للبلاد ؟) قد شهد عليه عبد الرحمن بن ربيعة،وسلمان

---

(١) المصدر نفسه : ١٩٤ . أنظر الفصل الأول .

(٢) ط. دورن : ٥٠٠ .

(٣) ر. بارت ، الموسوعة الاسلامية . مادة طبري ، انظر أيضـــاً زكي وليدي . ابن فضلان : ٢٥٤ .

(٤) ابن فضلان : ٢٥٣ - ٢٥٤ ، Volkerschaften : ٥٤ - ٥٦ .

(٥) إيران شهر : ١٠٧ .

ابن ربيعـة ، وبكير بن عبد الله ، وكان هؤلاء الشهود من العـاملين في تلك المنطقةوكان سلمان بن ربيعة ، أو سلمان الخيل هو الأخ الاصغر لعبد الرحمن ابن ربيعة .

ويبدو أن قصة شاه براز فيها عناصر من المبالغة ، حيث قيل إن سلمان كان مع عبد الرحمن بن دربند لدى عودة رجل سبق إرساله لإستطلاع سد ذي القرنين حيث أخذ يصف لهما ما كان قد شاهده ، ومهما يكن من أمر يبـدو أن صورة الحاكم الفارسي في وضعه الحرج والمهدد من قبل السكان المحليين الذين ربمـا كانوا يتلقون المساعدات من الخزر في الجانب الآخر من القوقاز ، إن هـذه الصورة لا شك صحيحة [1] .

وبعدما جرى فتح الباب ، أرسل سراقة قادة جيشه في مختلف الاتجاهات ولدى إخبار الخليفة بما صنع والنجاحات التي حققها تملكته الدهشة وسره الخبر ولم يحقق قادة سراقة نجاحات كبيرة ، وقد مات سراقة بعد هذا بفترة قصيرة وحل عبدالرحمن بن ربيعة محله ، ولم نعد نسمع بأخبار بكير وكل مـا في الأمر أن الخليفة عمر وافق على ولاية عبدالرحمن وثبّته في منصبه وأمره بمتابعة الزحف شمالاً ضد الخزر [2] .

وروى الطبري خبر محادثة جرت آنذاك بين عبدالرحمن بن ربيعة والحاكم الفارسي السابق للباب ، حيث سأل هذا الحاكم عبدالرحمن عن وجهته ، فأجابه إلى « بلنجر » وكانت بلنجر مركزاً خزرياً هاماً [3] ، قائماً على نهر يحمل نفس

---

(١) الطبري : ١ / ٢٦٦٥ - ٢٦٧١ ، البلاذري: ١٩٨، ابن عبد البر، الاستيعاب: ٤٠٠ .
(٢) الطبري ، ١/٢٦٦٦ - ٢٦٦٧ ، ابن حجر ، الاصابة : ١٣٤/٢ .
(٣) المسعودي (التنبيه : ٦٢) حيث يقول إن بلنجر كانت عاصمة الخزر الأولى .

الاسم[1] ، على مسافة قصيرة وممر سهل من دربند [2] ، ومن المفترض أن شهربراز قال له : « (نحن الفرس) لنرضى منهم (البرابرة) أن يدعونا مزدون الباب » فأجابه عبدالرحمن حسناً : « لكننا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم ، وتالله إن معنا لأقواماً لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان لبلغت بهم الروم، قال : وما هم؟ قال : أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا في هذا الأمر بنية، كانوا أصحاب حياء وتكرم في الجاهلية ، فازداد حياؤهم وتكرمهم ، فلا يزال هذا الامر دائماً لهم ، ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم ، وحتى يلفتوا عن حالهم بمن غيرهم »، وهكذا زحف المسلمون للمرة الأولى – كما قيل – داخل بلاد الخزر [3] .

وروى الطبري أن العرب غزو بلنجر في هذه الحملة الأولى (٢٢ هـ/٦٤٢م) دون أن تلحق بهم أدنى خسارة ، حتى أن فرسانهم توغلوا حتى البيضاء على

---

(١) البلاذري : ٢٠٤ ، وقد حددها زكي وليدي على أنها « قوي – سو » .

(٢) من المحتمل أن بلنجر قد كانت حيث موقع خرائب « إندري » قرب « أندرييف » وذلك تبعاً لأرتمونوف (دراسات : ٩٣) ، وخطأ ما قاله أرتمونوف من أن بلنجر هي سمندر نفسها ، فلقد وصفت سمندر مراراً في المصادر العربية على أنها كانت بعيدة عن باب الأبواب (دربند) وهذا واضح بشكل مفصل في أخبار حملتي الجراح بن عبد الله ١٠٤/٧٢٢ ، ومروان ابن محمد ١١٩/٧٣٧ ، وهنا نجد أن بلنجر متميزة تماماً عن سمندر ، وصحيح أن المسعودي قد قال في مروج الذهب (انظر الترجمة في الفصل السابع) إن سمندر هي عاصمة الخزر القديمة وقال أيضاً في التنبيه إن بلنجر عاصمة الخزر القديمة – فقد ردد العبارة نفسها : دار مملكة – إن هذا لا يعني أنه أراد أن المدينتين مدينة واحدة ، ورأى مرقوارت في البداية (٤٩٢/١٠) إن بلنجر هي « فارشان » . انظر بلكنخ في الحاشية ٦ ص ٧٥ ، واستخرج أرتمونوف الذي اعتبر بلنجر هي فارشان ، الاسم الغريب « بلخ » من « دربند نامه » وهنالك مواد ذات صلة بذلك في ابن فضلان : ٢٩٨ – ٢٩٩ (الحواشي) .

(٣) الطبري : ١ / ٢٦٦٧ .

مائتي فرسخ من بلنجر [١] ، وهذا الجزء من الخبر موضع شك ، ذلك أن البيضاء اسم اطلقه العرب في هذه الفترة المبكرة على أتل (اتل الخزر) عاصمة الخزر على نهر الفولغا، حيث لا شك أنها المقصودة هنا فمما لا ريب فيه أن الخزر كانوا في ٦٤٢ قد استقروا هناك ، إنما بشكل مبعثر يصعب فيه الإدعاء بأنها كانت عاصمتهم [٢] .

ومهما يكن الحال أن الحديث عن توغل المسلمين إلى هذه المسافة في حملتهم الاولى فيه مبالغة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لا شك ان المقاومة الخزرية كانت بشكل غير متوقع خفيفة ، وهذا أمر مدهش بالقياس إلى مقاومتهم الشديدة فيما بعد ، ولقد وجد جيش العرب في هذه المناسبة خصومهم وقد تحصنوا في عدد من المراكز ورفضوا الاشتباك على أي مستوى كان .

ويروي مؤرخنا العربي ان الخزر توصلوا بسرعة إلى قناعات مفادها ان اعداءهم لا يموتون ، وإذا لم يكونوا كذلك فهم مخلوقات خارقة للطبيعة ، أو يتلقون مساعدة من السماء،ولا يشبه هذا النص النصوص التي استخدمت لوصف المنتصرين المسلمين في اماكن اخرى ولعلها تمثل ردة فعل شعب بسيط بدون تجارب سابقة ولم يسبق له أن نزل به ما نزل الآن ، وإذا ما اخذنا هذه الاوضاع بعين الاعتبار ، لا نستبعد قيام الغزاة بالتوغل إلى هذا العمق ، اي حتى الفولغا لا سيما وان المصادر مجمعة في تقديرها للمسافة التي قطعت [٣] .

---

(١) المصدر نفسه : ١ / ٢٦٦٨ .

(٢) وتبعاً للمسعودي (مروج : ٢/٧) جرى تحويل عاصمة الخزر من سمندر إلى أتل على الفولغا أيام سلمان بن ربيعة .

(٣) أنظر البلعمي : ٥٠٣ (في ترجمة زوتنبيرغ : ٣/٤٩٥ ، « إحدى وعشرون فرسخاً » حيث ليس هنالك نسخة مخطوطة معتمدة) ويقول حافظ أبرو (دورن ٥٨١) إن تركستان قد دخل بها مسافة مائتي فرسخ .

ويرفض مرقوارت ان يكون قد تم الوصول إلى البيضاء ، ويرى ان عملية الزحف على بلنجر قد ارخ لها الطبري بشكل خاطىء ، وانها حدثت كما يرى (مرقوارت) في عام ٣٢ هـ / ٦٥٢ م[١] ، وقد حدث ان قام بإعادة رواية الحادثة في اخبار سنة ٣٢ هـ ، هذا ويلاحظ من جهة اخرى ان البلاذري لا يذكر شيئاً عن قيام هجوم إسلامي على بلنجر في عام ٢٢ هـ / ٦٤٢ م . وبالمناسبة لا يقدم مرقوارت سبباً يؤيد رأيه في اختياره للتاريخ الذي هوجمت به بلنجر للمرة الاولى .

ونجد الطبري يذكر بكل وضوح ان عبد الرحمن كان يقوم بشكل مستمر بغزو بلاد الخزر ولم ينقطع عن الإغارة على بلنجر[٢] ، كما انه واضح تماماً لدى الطبري نفسه ان ما حدث لم يقتصر على هجوم عبد الرحمن على بلنجر عام ٢٢ هـ ، لكن الهجمات على بلاد الخزر ـ حيث كانت بلنجر الهدف الرئيسي ـ قد وقع مراراً وتكراراً في السنوات التالية ، وهكذا جرى تدوين اخبارها[٣] ، ونجد في مقابل هذا ان صمت البلاذري وشكوك مرقوارت غير المعللة ليس لها ادنى وزن .

والشيء الذي نختلف فيه مع المصادر العربية هو تأكيدها على ان العرب لم يصابوا بأية خسائر في حروبهم ضد الخزر حتى حدوث المعركة العظمى عند بلنجر ، وهي المعركة التي قتل فيها عبد الرحمن بن ربيعة ، وإن قبول ذلك هو بحدود المعقول ، ولقد تحدث البلعمي عن سفك بعض الدماء العربية في الحملة الاولى[٤] ، ولعل السبب الذي جعل الروايات تتحدث هكذا هو ان الحملات

---

(١) مرقوارت : ٤٩١ .

(٢) ٢/٢/١٣٨ .

(٣) الطبري : ١/٢٦٦٨ ، ٢٨٨٩ - ٢٨٩١ .

(٤) دورن : ٥٠٥ .

التالية كانت حملات صغيرة وبناء عليه كانت خسائر الغزاة لا قيمة كبيرة لها ، وعلى كل حال فإنه في هذه الرواية كما في روايات وأحاديث عربيــة اخرى بعض آثار المبالغة الوطنية .

وحدث بعد هــــذا بوقت قصير ربما في سنة ٢٤ هـ[١] ، أن جرى تعيــين الوليد بن عقبة ، أخو لأمه عثمان والياً على الكوفة ، وكان الوليد مثله مثل أبيه لا يتمتع بسمعة حميدة في الإسلام ، فلقد قيل بأن قوله تعالى في القرآن : «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا »[٢] ، قد نزلت بحقه ، وسبب ظهوره أثناء إمامته لصلاة الصبح ، أثناء ولايته ، وهو ما يزال سكران من كثرة مــا شربه في الليل أزمة كبيرة .

ويبدو أن عثمان قد أقدم على تعيين أقربائه على أمــل أن يمتن من قبضته على الكوفيين ، وكان الوليد يمكن أن يساعد في هذا السبيل ، وتحدث الطبري عن حملة قام بها الوليد داخل أذربيجان وأرمينية بعــــد وقت قصير من تعيينه ، ويروى أنه استدعى سلمان بن ربيعة ، من أحواز البــاب كما هو مفترض ، ثم أرسله من بعد نحو الحدود على رأس مقدمته . أما بالنسبة لعدد المسلمين الذين اشتركوا في هذه الحملة فنجد الطبري يحتفظ لنا بخبر يتعلق بهذه الفترة ، فيه أن الكوفة كان فيها آنذاك أربعين ألف مقاتل كانوا يغزون تقسيطاً على مدار أربع سنوات ولقد كان من عشرة آلاف المخصصة لكل عـــام بعض القوات الموزعة بشكل دوري على المناطق ، فقد كان هنالك ستة آلاف في أزربيجان بشكل دائم[٣].

ولا شك أنه عندما ترك الوليد الكوفة شخصياً ، قد جرى تجنيد المزيد من القوات من بين العسكريين من أهل الكوفة ، فلقد قيل بأنه أرسل كتيبة فيها

(١) الطبري : ١/٢٨٠٤ .

(٢) القرآن الكريم : ٤٩ / ٦ .

(٣) الطبري : ١ / ٢٨٠٥ .

أربعة آلاف رجـــل تحت قيادة واحد من قادته ، وكانت ذات قوة كافية للسيطرة على جميع أذربيجان، وعند نهاية هذه الحملة أعطى الوليد سلمان ابن ربيعة قوة مؤلفـــة من اثنى عشر ألف رجل للمضي على رأسها إلى أرمينية ، وكانت وظيفة سلمان كما يبدو جمع الجزية والخراج من السكان المتمردين ، ولم تتحدث الروايات عن أعمال ضد الخزر .

وروي أن حملة أرمينيا كانت ناجحة ، وأن سلمان التحق ثانية بالوليد حيث قام الجيش بأكمله بالانسحاب إلى أهواز الموصل ، ولم تكن أعداد القوات التي شاركت كبيرة جداً ، وحيث أن الروايات حول الحملة الأكبر ضد الباب وما وراءها لم تذكر أية أرقام لا يمكن عقد أية مقارنة في هذا المقام مع حملة الوليد ابن عقبة ، ويمكن على كل حال الافتراض أن قوات المسلمين في كلتا الحالتين لم تكن تختلفان كثيراً .

وتلقى الوليد لدى عودته رسالة من الخليفة يقول فيها بأن الروم البيزنطيين كانوا في الغرب يضغطون بشدة على المسلمين ، وأمره بإرسال ما بين ثـمانية إلى تسعة آلاف من عساكر الكوفة للتفريج عن المسلمين في الحـال ، والتقى الوليد برجاله وشرح لهم الموقف وانتدبهم للحرب ضد الروم ، فاجتمع له ثمانية آلاف في وقت قصير ، كانوا جاهزين بقيادة سلمان بن ربيعة للتوجه . وتوجه سلمـان مع قواته للالتحـاق بحبيب بن مسلمة ، قائد القوات الشامية ، وتابعت القوات جميعها زحفها ضد الروم [1] .

وليس من المستبعد أن تكون إمرة عبد الرحمن في الباب قد انقطعت بحملة الوليد لعام ٢٤ هـ / ٦٤٤ م ، ولكن ظهر في الأعوام التالية أنه قد نال مساعدات من الكوفة [2] ، وقام بغزو بلاد الخزر بشكل متواصل ، وأشار إلى هذه الفترة

---

(١) المصدر نفسه : ١/٢٨٠٧ ، انظر أيضاً ٢/٩٧٧ .

(٢) المصدر نفسه : ١ / ٢٨٩١ .

حفيد للوليد بن عقبة حيث تذكر أيام جده العظيمة عندما كان عبد الرحمن متسلماً للقيادة في الباب [1] .

ومن المحتمل أن سلمان بن ربيعة كان يعيش مع أخيه الأكبر خلال هذه الفترة ، وقد ذكر المحدث ابن عبد البر رجلاً اسمه شقيق بن سلمة ، روى أنه عندما غزا بلنجر تحت قيادة سلمان ، جرى منع الرجال بشكل دقيق أن يحملوا معهم أية غنائم على ظهر حيوانات الثقل ، أي كان بامكانهم حمل ما كان بإمكانهم حمله بأيديهم أو على ظهورهم [2] .

وقد أشار إلى هذه المناسبة أو مناسبة مماثلة زهير بن القين الذي كان مع الحسين في كربلاء ، فقد ردد آنذاك عبارات كان سلمان قد قالها أمام الناس قبل الاشتباك في حملة ناجحة ضد بلنجر ، وقد سأل سلمان أصحابه قائلاً « أفرحتم بما فتح الله عليكم ، وأصبتم من الغنائم ؟ » فأجابوه « نعم » فاستطرد سلمان يقول : « إذا أدركتم شباب آل محمد ، فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معهم منكم بما أصبتم من الغنائم » [3] .

ونجد سلمان ينقل عنه ثانية فيما يتعلق بردة فعل الخزر تجاه الهجمات العربية [4] ، لكن هذه العمليات كانت بلا شك على مستوى صغير ، ويبدو أن المسلمين كانوا في الفترة الممتدة فيما بين ٢٢ هـ / ٦٤٢ م و ٣٢ هـ / ٦٥٢ م مشغولين بما فيه الكفاية في حل مشاكلهم في أرمينيا وأذربيجان ، ولم يأت في الأخبار ، ما يشير بالتفصيل إلى عمليات خلال هذه السنوات في بلاد الخزر .

وذكر الطبري أنه جرى في سنة ٣٠ هـ / ٦٥٠ م إرسال حذيفة بن اليمان .

---

(١) المصدر نفسه : ٢٨٤٤/١ .

(٢) الاستيعاب : ٥٥٨ .

(٣) الطبري : ٢٩١/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٦٦٨/١ .

إلى أذربيجان ،وكان معسكراً آنذاك في الري[1] ،ويبدو أن عبد الرحمن الذي كان في الباب كان يعاني من المصاعب وقد احتاج إلى المساعدة ، أما بالنسبة لأوضاع المسلمين وأوضاع الخزر ، فهي لسوء الحظ غامضة .

هذا ونسمع من جانب آخر عن بداية نشوء بعض الخلافات بين العرب في هذه الجبهة ، ففي الوقت الذي كانت فيه القوات العربية نشطة في المناطق المجاورة للباب توصل حذيفة بن اليمان إلى قناعة بأنه هنالك حاجة ماسة إلى توحيد نص قراءة القرآن الكريم ، وذلك إثر رؤيته الخلافات بين المسلمين حول قراءة بعض الكلمات[2] .

وقام حذيفة فيما بعد بإقناع الخليفة للاقدام على اتخاذ إجراء بصدد هذا الموضوع ، ومن المقدر أن الجدل الذي ثار حول القراءة الصحيحة لنص القرآن الكريم لربما قاد إلى نتائج خطيرة لا سيما مع وجود صراع بين أهل الكوفة وأهل الشام .

ولقد كان الكوفيون غير راضين عن عثمان وحكومته وكانت شكواهم في ازدياد ، ولم يحدث الانشقاق في منطقة الباب إلا بعد فترة[3] ، لكن جاء في الروايات أن حذيفة أشار في عام / ٣٠ هـ / إلى أن الأوضاع كانت متوترة هناك ، الأمر الذي استفاد منه الخزر .

ولا توجد لدينا تفاصيل عن رسالة قيل أنها أرسلت في هذه الآونة من قبل يزدجرد ، حامل لقب فارس ، إلى « ملك الخزر »[4] ، وكان هذا الملك

---

(١) المصدر نفسه : ١/٢٨٥٦ .

(٢) ابن الأثير : سنة ٣٠ . نولدكه ، ستشاولي .

Geschichte des Qurans, 11, 47FF.

(٣) الطبري : ١/٢٨٩٣ - ٢٨٩٤ .

(٤) المصدر نفسه : ١ / ٢٨٧٦ .

الساساني الأخير قد قام قبل موته الغامض سنة ٣١هـ – وهو يعيش منفيا ويعاني من الذل – بمراسلة مختلف حكام الشرق طالبا عونهم ، لكن دونها فائدة . هذا وإن ما أورده كل من الطبري وابن الأثير وابن خلدون من أن ملك الخزر أبدى استعداده للقدوم ، هو أمر محتمل ، وقد كان الشـاعر الأندلسي ابن عبدون يعرف هذه الرواية حيث تحدث عن يزدجرد والخزر في قصيدته المشهورة التي نظمها حول سقوط بني الأفطس[1] (٤٨٥ / ١٠٩٢) .

ولقد جرت أخطر محاولة من قبل العرب لقهر الخزر في سنة ٣٢هـ / ٦٥٢ م. ونملك بالنسبة للظروف التي أحاطت بها معلومات شبه كاملة ، وجاءت المبادرة من عبد الرحمن بن ربيعة الذي لم يقم الاعتبار لتوصيات عثمان بعدم المخاطرة وقاد عبد الرحمن ما اعتبر قوة إسلامية مناسبة إلى داخل بلاد الخزر ، وكان هدفه المباشر ، كما كان الحال في المناسبات السابقة بلنجر .

وقد سبق لنا أن أتينا على ذكر حكاية أنهم كانوا لا يصابون بالجراح في اشتباكاتهم مع الخزر ، وذكرت الروايات أن الخزر قرروا كما هو واضح اختبار قوة أعدائهم للمرة الأولى فنصبوا كميناً لجماعة صغيرة من العرب وقتلوا بعضهم أو رجلا واحداً حسبما قالته الحكاية[2] ، وهكذا تشجعوا ، فغامروا بهجوم عام هزموا به المسلمين هزيمة كاملة ، وتشير تفاصيل أخبار الكمين ربمـا إلى إغارة مبكرة لكنها تحدث حدثاً من أحداث الحصار الذي خضعت له بلنجر حينئذ من قبل الجيش المهاجم ، ويبدو أن المدينة قاومت بشدة ، ومن الواضح أنها كانت محصنة في هذه الآونة ، لأننا نقرأ عن برج أنزلت منه أضراراً كبيرة بالمسلمين ، وقد ملك الجانبان المجانيق ، واستخدم المسلمون المجانيق والعرادات ويبدو أن الخزر قد امتلكوا العرادات فقط[3] ، ولهذا أهمية خاصة في ضوء

---

(١) ابن عبدون ، تحقيق دوزي : ١٤٠ .

(٢) الطبري : ١ / ٢٨٩١ ، انظر أيضاً ٢٦٦٨ . دربندنامه : ٤٩٤ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٨٩٢ .

نص لدى بروكوبيوس حيث أخبرنا عن السابيريين وهي جماعة مقاتلة شرسة من جماعات الخزر امتلكت منذ وقت قديم وهي مقيمة في بلاد القوقاز أسلحـــة خفيفة من إبداعها الذاتي ، وقد سمحوا للروم البيزنطيين بمشاهدة كيفية صنعهم لهـــا [1] .

ويتركز جزء معتبر من رواية الطبري حول مصير مجموعة من الكوفيين ، ذكر أسماؤهم من قبل بين حاشية ابن مسعود [2] ، وكان ابن مسعود المعارض الديني الرئيسي في الكوفة لعملية توحيد نسخ القرآن التي جرت حديثـــاً في عام ٣٠هـ ، وكانت معارضته حادة بشكل منفرد ، ومن الواضح أن وفاة هؤلاء الكوفيين كانت هامة لكن من الممكن أنها عرضت هكذا وكأن فيها تورية على عقوبتهم لعدم طاعتهم ، وجاء ذكر ثورة الكوفيين في دعاء عثمان عندما أخبر بالنازلة التي وقعت عند بلنجر ، هذا ونشهد تعابير مماثلة في أماكن أخرى [3] تشير إلى أن مجرد وجود القوات في بلاد الخزر كان ضد مـــا أمر به الخليفة .

والذي حدث أنه بعد عدة أيام من القتال حول المدينة قام الخزر من داخل المدينة بهجوم عام ، وتوافق هذا مع ظهور قوات نجدات خزرية كانت كما يبدو من الفرسان [4] . وكان هذا الهجوم المشترك حسن التوقيت ، ولهذا جاء ناجحاً بشكل مدهش ، مع أننا لا نملك معلومات حول تفاصيل ما حدث .

---

(١) ٨ / ٢٧/١١ ...

(٢) الطبري : ١ / ٢٨٩٦ .

(٣) المصدر نفسه : ٢٨٩٣/١، انظر أيضاً : ٢٦٦٩ ، الحاشية حيث النقل عن ابن حبيش.

(٤) البلاذري : ٢٠٤ . ليس هنالك من سبب لعدم الاعتقـــاد ، على الرغم من ابن الأثير (حوادث سنة ٣٢) أن قوات الأتراك الغربيين قد اشتبكت ، مع أن هذا ممكن نظريـــاً ، وتتحدث رواية الطبري عن الحادثة أحياناً عن الخزر كترك (على سبيل المثال : ٢٨٩٠/١) ولم يفهم ابن الأثير ذلك فقال : « ترك وخزر » .

وتبعاً لإحدى الروايات عندما حاول القائد المسلم جمع قواته سمع صوتاً ينادي : « صبراً آل عبد الرحمن وموعدكم الجنة » وقاتل عبد الرحمن حتى قتل ، وجاء مقتله بمثابة إنذار للمسلمين كي يفروا ، لكن أخوه تسلم الراية ، وسمع ثانية صوت ينادي في قلب المعركة : « صبراً آل سلمان بن ربيعة » . واستجاب سلمان وخرج وهو يقول « أو ترى جزعاً ؟ » .

وتبعاً لروايات أخرى كان موت قرظة أحد قراء القرآن الكوفيين هو النقطة التي بدأت عندها الهزيمة [٢] . وقد قتل في المعركة أربعة آلاف من المسلمين ، ولقد أخبر الناجون كيف أنهم في نهاية المعركة كانوا يسمعون صوت الله أكبر مرات متتالية من وسط أرض المعركة [٣] ، وقد نجا بعض الناس مع سلمان إلى الباب ، أمـــا الآخرون فقد قيل بأنهم تابعوا فرارهم عبر جيلان وحتى إلى مسافات أبعد ، وورد [٤] ذكر كل من أبي هريرة وسلمان الفارسي بين المجموعة الأخيرة هذه ، وكانا كما هو معلوم من مشاهير صحابة النبي ﷺ ، فقد تخلى المسلمون عن جسد عبد الرحمن ، حيث أخذه الخزر ووضعوه في سفط ، وقد احتفظوا به على أن بامكانهم الاستسقاء به أيام الجفاف والاستنصار به إذا ما قاتلوا عدواً لهم [٥] .

---

(١) الطبري : ١/٢٦٦٨ - ٢٦٦٩ .
(٢) المصدر نفسه : ١/٢٨٩٢ .
(٣) البلاذري ، المصدر نفسه .
(٤) ذكرت جرجان في روايتين متوازيتين ، الطبري : ١/٢٦٦٩ و ٢٨٩٠ ، ورواية ثالثة مصحفة (الطبرى : ١/٢٨٩١) .
(٥) الطبري : ١/٢٦٦٩ ، ٢٨٩٠ ، وهذا مشار إليه من قبل البلاذري (المصدر نفسه) أيضاً حيث أورد بيتين من الشعر ربطا قبر عبد الرحمن (عند البلاذري سلمان) ابن ربيعة ببلنجر ، وقبر قتيبة بن مسلم الواسع الشهرة في سجتان (بالفعل في فرغانة ، انظر الفتح العربي لجب : ٥٦) والشعر لشاعر من ربيعة من قبيلة البطلين نفسها (بالنسبة للبلاذري كان سلمان بن ربيعة القائد المسلم الذي قتل في بلنجر ، وهو لا يعرف شيئاً عن عبد الرحمن بن ربيعة ، انظر أيضاً ابن الفقيه : ٢٨٧ .

وأنهت العملية ضد العرب في بلنجر بشكل عملي المرحلة الأولى من العلاقات العربية الخزرية ، كل هذا على الرغم من أنه جاء ذكر نشاط الوحدات العربية قرب البـــاب بعد هذه الحادثة بوقت قصير [١] وقد حولت الاضطرابات التي تورطت بها الخلافة إثر مقتل عثمان اهتمام العرب وتفكيرهم بعيداً عن الحدود ، وعندما ابتعد العرب عن الخزر عاش هؤلاء بسلام لفترة طويلة ، ولا شك أنه كان بإمكانهم الإستفادة مما حصل ، لكن من المفيد أن نذكر بالنسبة للمستقبل، أنه في حوالي هذه الفترة جرى نقل عاصمة الخزر إلى موقع أقل خطراً قام على ضفاف نهر الفولغا [٢] .

* * *

(١) الطبري : ١/٢٨٩٤ .

(٢) انظر المصدر نفسه ، الحاشية ٤٣ .

الفصل الرابع

الحرب العربية ـ الخزرية الثانية (*)

(٧٢٢ ـــ ٧٣٧ م)

استناداً إلى المصادر نجد أن السلام الذي نزل حينئذ على جبهة القوقاز قـــد استمر دون أن يخرق طوال ما يقارب الثلاثين عاماً، وقد شغل العرب باهتمامات

(*) ملاحظة مصدرية تتعلق بالفصل الرابع : جرى في القسم الأخير من هذا الفصل اعتماد ما عرف باسم البلعمي بشكل معتبر ، والبلعمي بمجمله هو ترجمة للطبري ، لكن هنا لا بـــد من تقديم بعض العبارات الموضحة، فقد بات من الثابت أن البلعمي هو أكثر من ترجمة حرفيةللطبري، فغالباً ما أضاف معلومات من مصادر أخرى ، مثل ابن الأثير والبلاذري واليعقوبي فهؤلاء غالبـــاً مـــا يقدمون مواداً إضافية لمواد البلعمي ، لكن مع ذلك هنالك صلة قريبة بين البلعمي وابن الأعثم الكوفي ، الذي نقل عنه في أماكن كثيرة ، ولم يتم ـ كما أعتقد ـ نقل هذه الإضافات إلى نص الطبري بشكل منتظم ، بل جرى التعبير عن بعض المواقف غير الموافقة ، هذا وإنه لخطأ منهجي أن نقبل ما أخبرنا به الطبري ونرفض ما قدمه سواه ، وهذا أمر معترف به بشكل عام وفي جميـع الأحوال بالنسبة لابن الأثير والبلاذري ، ورواية البلعمي حول السنوات النهائيـــة للحرب العربية – الخزرية فيها تفاصيل مغرية بالاستخدام، لكنها تثير عدداً من المشاكل الصعبة، ومن الإهمال وضع هذه الروايات مع بعضها بعضاً ، وفيها لم تعط عناية كافية للأسماء الخاصـــة . ويبدو أن الأرقام مبالغ بها (قدمنا هؤلاء بالعادة حسبما جاء في نص دورن مع بعض المعادلة) وهنالك بعض الحوادث – على سبيل المثال انجازات سعيد بن عمرو – هي في جزء منها – كما يبدو – مخترعة ، هذا ومن جهة أخرى تعود بعض المصاعب بدون شك إلى العرض والروايـــة وليس إلى البلعمي نفسه. ومن المدهش أننا نجد أن ما قاله البلعمي له تأكيدات في أماكن أخرى، وحيث لا يوجد تأكيدات من مصادر أخرى ، أن ما رواه البلعمي أو مجموعة أخرى اعتمدها، يبدو منطقياً بالنسبة لنا استخدامه وهنا إن ما نجده معقولاً نأخذ به حيث لا مندوحة أمامنا ، وفي أثناء محاولتنا إقامة هيكل الحوادث ، أخذنا بعين الاعتبار الشكوك غير المحقة وتجنبناها ، واعتبار آخر أخذنا به هو أن إنجازات مسلمة ومروان بن محمد والقادة الأمويين الآخرين قـــد أثارت قليلاً من التعاطف أو الاهتمام بين خصومهم من الأسرة الحاكمة التي جاءت بعدهم ، فلهذه الأسرة كتبت التواريخ التي بين أيدينا بشكل رئيسي .

جديدة ، وامتصت التمزقات السياسية الطاقات التي وجهت في السابق ضد العالم الخارجي . وكان الخزر بدورهم قد انشغلوا خلال هذه الفترة ، لأنه وقعت في هذه الآونة نجاحاتهم على حساب البلغار والتوسع غرباً الذي جرى وصفه ، وانتهت الاجراءات ربما مع سنة ٦٠ هـ / ٦٧٩ ، وكانوا بعد سنة أو سنتين جاهزين للمبادرة بالهجوم في جبهة القوقاز .

ونسمع أولاً عن هجوم قاده رجل يعرف باسم ألب مقدم « هون فارشآن » ضد ألبانيا (أران) وذلك قبل عام ٦٢ هـ / ٦٨١ - ٦٨٢ [١] ، ولعل ألب هذا كان خزرياً وأن كنيته هي الوتفير Ilutver (أي يلتاور التبير البلغار)الذي يمكن أن يعني أنه كان حاكماً نصف مستقل لفارشآن (ورثان) تابع للخزر [٢].

ولقد ورد ذكر رسالة أرسلها ملك « الهون » إلى إسحق رئيس أساقفة أرمينيا وجوابه عليها [٣] ، وقد جاءت تسمية رسل ملك الهون باسم زردكين خراسان ، وشات - خزر ، الأمر الذي جعل مينورسكي يرى أن العنصر الثاني في الاسم لا بد وأنه يشير إلى قومية السفراء [٤] . وقام في سنة ٦٨٢ أسقف ألباني بالتوجه شمالاً وبشر بالمسيحية بنجاح في ألب وجيشه . وقد روي أن المعابد الوثنية المكرسة على الرب سبانديات أو اسبانديادا الذي آمن به القوم على أنه كبير آلهة السماء [٥] قد جرى هدمها كما جرى قطع الأشجار المقدسة ، وتم إعدام رهبان الديانة الشامانية المحلية أو إحراقهم حتى الموت .

وتقدم لنا رواية أخبار هذه البعثة التبشيرية مشاهد صارخة حول الديانة

---

(١) مرقوارت : ١١٤ ، ٣٠٢ ، نقلاً عن موسى كلنكتوكي - تحقيق شاهنظيريان ٢/٣٦ .
(٢) زكي وليدي ، ابن فضلان : ١٠٦ .
(٣) مرقوارت : ٥١٤ .
(٤) حدود العالم : ٤١١ ، حاشية ١ .
(٥) مرقوارت : ٤٢٩ .

الممارسة من قبل مجموعة إن لم تكن من الخزر أنفسهم . فقد كانت قريبة الصلة وشديدة الوشائج بهم ، وذلك قبل تحول الخزر إلى اليهودية ، ونجدها صلة مبكرة مع المسيحية ، وهذا أمر نلتمس آثاره بين الخزر خلال تاريخهم بأجمعه ، ولا تتحدث المصادر عن نتائج البعثة التبشيرية في عام ٦٨٢ ، كما أنها لم تذكر بناء كنيسة [١] ، ومن المرجح أن هذه النتائج لم تكتسب صفة الديمومة .

وينبغي تمييز حملة ألب عن حملة أخرى ، وهي حملة خزرية كبرى جرت ضد الأراضي الواقعة جنوب القوقاز ، ولربما كانت بعيد سنة ٦٥ هـ / ٦٨٥ [٢] . وحدث في السنوات الأولى من حكم عبد الملك بن مروان (٦٨٥ – ٧٠٥ م) أن ضعف التحكم العربي بالمنطقة [٣] ، ونتيجة لهذا ، أو لسبب آخر هاجم الخزر جورجيا وأرمينيا وألبانيا واستولوا عليها متناسين كما يبدو الصلة الدينية التي أقيمت مع ألبانيا مؤخراً . وقاوم السكان المحليون ، لكنهم كانوا بلا حول ولا طول في مقاومتهم ، وقتل في المعركة من قبل الغزاة كل من أمير جورجيا المحلي وغريغور مامي كونيا أمير أرمينيه .

وعليه يمكننا الافتراض أن نتيجة هذه المعركة كانت نصراً للخزر على نطاق واسع جداً ، ومهما يكن الحال ، يلاحظ أن هذه المحاولة لم يقصد منها – كما يبدو – الاستيلاء بشكل دائم على أراض تقع جنوب القوقاز ، ذلك أن الخطر المتمثل في جيوش الخلافة كان ماثلاً أمام الخزر وقد منعهم من اتخاذ هذه الخطوة ، ولهذا نقرأ بكل بساطة أنهم بعدما دمروا البلاد جمعوا أسراهم وانسحبوا شمالاً عائدين .

وهكذا حدث أنه بعد عدة سنوات قام – كما روى الطبري – مسلمة ابن

---

(١) المصدر نفسه : ٣٠٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٤٣ ، نقلا عن ستيفن أسوليك (أسوغيك) ترجمة دولورير .

(٣) المصدر نفسه : ٥١٤ . نقلا عن ليفوند (غيفوند) تحقيق شاهنظيريان : ٣٤ – ٣٥ .

عبد الملك - أخو الخليفة الوليد الأول - بالاستيلاء على عدد من القلاع والبلدان في أذربيجان وشق طريقه مقاتلاً ضد الترك [1] إلى الباب . وإذا صح الاستنتاج هنا ، يبدو أن الخزر كانوا قد استولوا بشكل مؤقت على المنطقـــة ، وهناك رواية تتحدث عن الاستيلاء على الباب في سنة ٩٠ هـ من قبل محمد بن مروان[2]، لكن في سنة ٩١ هـ وهي السنة التي خلف فيها مسلمة محمد بن مروان قيل بأن مسلمة تمكن من المحاربة في أذربيجان حتى وصل إلى الباب [3] .

ويلاحظ أن هناك رواية لربما كانت صحيحة تقول بأن مسلمـــة هو الذي سيطر على الباب وكان ذلك سنة ٩٥ / ٧١٣ [4] ، ومهما يكن الحال فإنـه من الواضح أن مدينة الباب الحصينـــة بقيت تحت السيطرة الخزرية لفترة قصيرة من الزمن .

وقام الخزر في أيام خلافة عمر بن عبد العزيز (٧١٧ - ٧٢٠) بمـــا يمكن اعتباره هجومهم الأول ضد الإسلام[5] ، فقد توجهت أذربيجان في سنة ٩٩هـ / ٧١٧ م وجرى قتل عدد من المسلمين، وأرسل الخليفة حاتم بن النعمان الذي كان مثل ولدي ربيعة من قبيلة باهلة [6] ، وقد هزم هذا القائد الغزاة وأوقع بهـــم خسائر فادحة ، ثم عاد إلى الخليفة وفي ركابه خمسون من أسرى الخزر .

وكان هؤلاء أول الأسرى الخزر الذين ورد ذكرهم، حيث سيرد ذكر بعض الخزر أحياناً في داخل الدولة الإسلامية ، ولعل أشهرهم كان إسحاق بن كنداج

---

(١) الطبري : ٢/١٢٠٠ .
(٢) كايتاني ، التاريخ ، ١٠٨٨ .
(٣) طبري : ٢/١٢١٧ .
(٤) ابن تغري بردي : ١/٢٥٥ .
(٥) كذلك كموسكو ، العرب والخزر : ٣٦١ .
(٦) الطبري : ٢/١٣٤٦ .

[كنداجيق] الخزري [1]، فقد كان معاصراً للشاعر البحتري، وكان موضوعاً لأماديحه مراراً . وقد قال البحتري : إن ابن كنداج قد نال المجد والفخـار في العراق مثلما كان يحظى به في البيضاء وبلنجر [2] ، وأشار في مكان آخر إلى قوم إسحق بن كنداج، وأعلن أن أجداده قد كانوا قادة الملوك قبل ذو ـ رعين[3] . ولا شك أن هذا يرجع وجود الخزر إلى فترة سحيقة القدم ، لأن ذو رعين كان من ملوك حمير . وقد يكون البحتري قد أخطأ في هذا أو كان يبالـغ ، لكن القضية تختلف بعض الشيء عن الروايات التي تشير إلى القدم ، ولعل كلماتـه قد ابتغت أن تقول أن ابن كنداج قد اعتبر مقدماً (بك) لبلاد الخزر مثله في ذلك مثل أجداده .

وقال البحتري في قصيدة أخرى أن ممدوحه قام بإنجاز أعمال جعله جديراً أن يكون « ملك البيضاء » الذي يلبس التاج ، ونستخلص من نفس المقطوعـة الشعرية أن اسم والده أيوب ، وهو اسم من الأسماء الإسلاميـة الجيدة [4] ، وتشير هذه النصوص إلى بعض ما ينبغي أن نتوقعه ، وهو وجود معلومات عامة عن الخزريين رعايا الخلافة المعاصرين . هذا وسنشير في بعض الأحيان إلى خزر آخرين بين المسلمين في الفصول التالية .

وحتى نعود إلى سياق الأحداث، نجد أنه في سنة ١٠٣ هـ / ٧٢١–٧٢٢ قام الخزر بالهجوم على اللان [5] ، مما سبب الاضطراب في الجبهة . وهكـذا يمكن

---

(١) قائد متميز في الحرب بين الخمارويه المصريين والخليفة المعتمد (٨٧٠ – ٨٩٢) .

(٢) الديوان ، ط ١٣٢٩/ ١٩١١ : ٢/ ٢١ – ٢٢ . انظر أيضاً مرقوارت : ١٨ . يشير الشعر نفسه إلى أصل ابن كنداج في « أرض الخاقان » .

(٣) المصدر نفسه : ٢/ ٢٩٤ .

(٤) المصدر نفسه : ١/ ١٠٤ ، انظر أيضاً : ١/ ٩ .

(٥) الطبري : ٢/ ١٤٣٧ . اليعقوبي : ٢/ ٣٧٨ . ويرى كموسكو (المصدر نفسه) أن هذا كان ردة فعل الخزر تجاه ضغط العرب على القسطنطينية سنة أو سنتين قبل ذلك .

القول أن الحرب العربية الخزرية الثانية قد بدأت عندما قابل في العـــام التالي جيش إسلامي بقيادة ثبيت النهراني الخزر [1] في مرج الحجارة في أرمينيه [2]، حيث جرى بينهما قتال عنيف، وقال الخزر – الذين قيل أن عددهم كان ثلاثين ألفاً – [3] نصراً كاملاً على العرب الذين سقط معسكرهم حينئذ في أيدي الخزر، وهرب الناجون من الجيش إلى بلاد الشام.

وقد غضب الخليفة يزيد بن عبد الملك (٧٢٠ – ٧٢٤) وانزعج انزعاجـاً شديداً، ووبخ ثبيت الذي قيل بأنه رد على الخليفة بقوله: « يا أمـير المؤمنين ما جبنت ولا نكبت عن لقاء العدو، ولقد لصقت الخيل بالخيل، والرجـل بالرجل ولقد طاعنت حتى انقصفت رمحي، وضاربت حتى انقطع سيفي غـير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد » [4]. ويلاحظ أن الطبري ليس لديه شيء يقوله حول هذا الانتكاسة.

وبات الآن التهديد لديار الاسلام عظيماً، فقد استعد الخزر إلى احتلال الاراضي التي أخلاها الجيش الإسلامي المتراجع، وجمعوا جميع قواتهم، وجرى بسرعة تعيين الجراح بن عبدالله الحكمي والياً على أرمينية، مـع اوامر تقضي بحرب العدو في داخل أراضيه، وكان ذلك سنة (١٠٤ هـ) [5].

وعندما وصلت الأخبار إلى الجراح زحف على رأس جيش قوي، وكان الخزر قد انعطفوا متراجعين لمهاجمة الباب وحيث كانت حـامية مسلمة متحصنة

---

(١) يقول ابن الأثير (٥/ ٤١) كان الخزر مؤيدين من قبل القبجاف والأتراك الآخرين ولا بد أن هذا وهم تاريخي. انظر الفصل التاسع.

(٢) يبدو في أرمينيا (البلعمي : ٥٠٩) وانظر أيضاً ابن الأثير، النص نفسه.

(٣) البلعمي : ٥١٠.

(٤) ابن الأثير، النص نفسه.

(٥) الطبري : ٢/ ١٤٥٣. ابن الأثير السنة نفسها.

فيها ، ووصل الجراح في الوقت نفسه إلى برذعه حيث أراح رجـاله هناك عدة أيام ليتحيّن الوقت - كما يبدو - وليقـــدر الموقف فيتخذ الاجراءات اللازمة وهو في ذلك الموقع. ومهما يكن الحال فإن اجراء الجراح الذي شرع بتطبيقه من تاريخ تلك الزيارة ، ظل معتمداً حتى التـــاريخ الذي كان يكتب فيــه البلاذري [1].

وزحف الجراح عندها عبر نهر الكر ، ووقف أخيراً عند نهر صغير يدعى روباس يبعد عدة أميال عن الباب ، وأرسل رسالة إلى القادة المحليين يطلب منهم الالتحاق به مع أتباعهم ، وقد علم الجراح أن واحداً منهم قد بعث إلى الخزر يحذرهم من قرب وصوله ، وتبعاً لهـــذا أمر المؤذّن بأن يعلن للجيش أن قائده سيقيم على الروباس عدة أيام ، وأخبر الخزر بهذا كما توقع الجراح وتصور ، وكان الجزء الأساسي من قوات الخزر تحت قيادة « ابن الخاقان لعنه الله [2] » (لربمـا المقصود به مقدم (بل) بلاد الخزر) موجوداً في شمال الجبال .

وكان القادة المحليون راغبين في تجنب المواجهة ولهذا لم يقوموا بهجوم مستعجل وعندما أقبل الليل ألغى الجراح أوامره المسبقة وزحف بسرعة نحو البـاب ، ووصل مع رجاله المدينة والظلام ما زال مخيماً دون مواجهة أية معارضة ، ودخلوا عن طريق البوابة الخشبية لحصن النارين وزحفوا إلى الداخـــل وعسكروا على مسافة قصيرة من باب الجهـــاد [3] ، وتم في الصباح إرسال كتيبتين ذواتي قوة كافية من قبل الجراح مع أوامر قضت بالتوغل في أراضي العـدو والتجول فيها لمدة أربع وعشرين ساعة وذلك على مسافة لا تتجاوز العشرين ميلاً ، وزحفت

---

(١) تحقيق دي - غويه : ٢٠٦ .

(٢) دربند نامه : ٤٦٤ ، الحاشية .

(٣) دربندنامه بالفارسية - دورن ٤٦٤ - الحاشية . البلعمي : ٥١١ . انظر دربندنامه التركي ، تحقيق قاسم بك : ٥٤٤ .

في نفس اليوم القوات الإسلامية بكاملها إلى مكان متفق عليه ، وفي فجر اليوم التالي التحقت سريتا الإغارة بهـذه القوات وهما تحملان غنائم كثيرة من الأغنام والسائمة وعدد كبير من الأسرى كان بعضهم من دولة حيذان(قيتاق) التابعة للخزر [1] .

ووصلت في اليوم التالي قوة خزرية مؤلفة من أربعين ألف رجل تحت قيادة « بارجيق [2] بن الخاقان » إلى حمزين [3] لتوقف زحف المسلمين وتمنعهم من متابعة التقدم ، وقد عـزي للجراح تفوهه ببضع كلمات ، وذلك قبل الاشتباك بالقتال ، يستخلص منها مدى تقديره واحترامه لأعدائه ، ومن المفترض أنه قال: « أيها الرجال لا ملجأ لكم تفرون إليه ، ولا حافظ لكم إلا الله تبارك وتعـالى كل من يقتل منكم سيذهب إلى الجنة وكل من ينتصر منكم سينال غنـائم كثيرة وذكراً طيباً [4] ، وتمزقت صفوف الخزر بعد معركة حامية وفروا ، وقـد قتلت منهم أعداد كبيرة .

---

(١) لربما « خيزان » فارسي وقيتاق هو الشكل الأرمني لهذا الاسم (زكي وليـدي بن فضلان : ١٩١) ويظهر الاسم كخيزان في (البلاذري : ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، معجم البلدان ط. دي غويه : ٤/٢٥١) والأشكال الأخرى بدون شك غلط مثل : جيدان (معجم البلدان – المادة – مروج الذهب : ٢/٧) حيد ، حبد ، جند ، جندا و (مخطوطات البلعمي،دورن: ٥١١) خند أو جبد (زوتنبيرغ : ٤/٦٢).

(٢) يقدم نص البلعمي : بارجيك ، بار – حبل ، باوحيل ، بارحيك ، ويفضل دورن بارجيل أو برجنك (٤٦٦ ، حاشية ٢) وبرجيك كاحتمال آخر ممكن (٤٦٥) . ونقلهـا زوتنبيرغ « برخبك » مع علامة تساؤل (٥/٢٧) وفي النص التركي من دربندنامه الذي نقل عنه دورن (٤٦٣ ، الحاشية) : « بشنك » .

(٣) في البلعمي ، وابن الأثير ، ودربندنامه « حصين » وهو غير صحيح ، ويقول البلعمي في مكان آخر وهو يتحدث عن مسلمة : ومر حتى جـاء إلى حصنين التي تتكون من قلعتين (دورن : ٥٣٤) ويبـدو أن هذه محاولة لشرح اسم غير عربي . ولدى البلاذري (٢٠٦) حمزين، ويقدم زكي وليدي (ابن فضلان: ٢٩٨،الحاشية) حصنين ويقول هي قايا – كنت(كاند).

(٤) البلعمي : ٥١٢ – ٥١٣ .

وكما وعد الجراح حصل المنتصرون على غنائم كثيرة ، واستأنف الجراح زحفه بعد المعركة ، وهكذا تمكن من الاستيلاء على كل من حمزين وترغو [1] واحدة تلو الأخرى ، وقام الجراح بإسكان سكان هـذين الموقعين في أماكن أخرى ، ومن المفيد أن نقرأ أن بعضاً منهم قد جرى نقله قبلة جنوب القوقاز ، التي احتلها الخزر – ومن رواية البلاذري – كما يبدو في أيامه [2] .

ووصل الجراح بعد ذلك إلى بلنجر ، التي كانت هـدفاً لهجمات إسلامية متوالية ، وشهدت حصاراً سابقاً في عام ٣٢ هـ ويبدو أن دفاعاتها كانت في ذلك التاريخ مسؤولة جزئياً عن صد العرب ، لكن سبعين سنة قد انقضت الآن حيث يبدو أن الدفاعات قد تداعت فيها .

وكانت العقبة الرئيسية أيام الجراح عبارة عن حـاجز مطور مصنوع من العربات العامة التي شد بعضها إلى بعض وصفت على الأماكن المرتفعة حول الحصن وعندما حصل الهجوم وجد المهاجمون أنفسهم في وضع صعب جداً على هـذا الأساس ، وأخيراً شهر واحد منهم سيفه وصاح : « أيها المسلمون ، من يبيع نفسه لله » ؟ وأشار إليه عدد من رفاقه بالموافقة ، وتعاهدوا جميعاً على الموت ، فكسروا جفون سيوفهم مدللين على نيتهم هذه ، ثم عادوا إلى الهجوم ، وشقوا طريقهم بالقوة إلى أعلى إحدى التلال وذلك تحت مطر كثيف من النشاب « كان يحجب الشمس » ونجح بعضهم في قطع الحبل الذي كان يربط العربات بعضها إلى بعض وشرع في جرها نحو الأسفل ، وأصبح الخزر بالحال مكشوفين للمهاجمين ، وحارب

---

(١) ليس « يرغو » كما قال كموسكو كالتصحيف الموجود لدى ابن الأثير ، حوادث سنة ١٠٤ . وترغو ليست سمندر نفسها لأنها ذكرت بشكل واضح في الرواية نفسها (البلعمي : ٥١٣ – ٥١٤) ويقول زكي وليدي (المصدر نفسـه) ترغوهي « مخش – قلا » انظر مينورسكي ، حدود : ٤٥٢ .

(٢) تحقيق دي غويه : ١٩٤ .

كل طرف من الطرفين بشكل يائس حتى بلغت القلوب الحناجر » ، وأخيراً ضعف المدافعون وشرعوا بالفرار وهكذا استولى المسلمون على المدينة عنوة .

ومما هو جدير بالملاحظة بالنسبة لثروة الخزر ومدى رفاههم، هو أنه عندما جرى توزيع الغنائم بعد سقوط بلنجر قيل بلغت حصة كل فارس ثلاثمائة دينار [1] ، وإذا لم يكن عدد الحاصلين على الغنائم مبالغاً به - حيث قيل إنه بلغ ثلاثين الفاً [2] - فإن هذا يمثل باجماله مبلغاً هائلاً من المال، حيث إنه ينبغي أن يضاف إليه الخمس الذي هو وفق الشريعة ، كان حصة بيت المال .

وفر حاكم بلنجر الخزري [3] مع حفنة من الرجال إلى سمندر ، ووقعت زوجته وولده بالأسر وعرضا للبيع كرقيقين ، وقد اشتراهما الجراح بمبلغ عشرة آلاف درهم ، وأرسل بهما إلى الحاكم الخزري كبادرة على حسن النية وعرض عليه أن يرد عليه ما خسره من زوج وولد وحصن وممتلكات صغيرة وكبيرة وذلك على أساس الخضوع لحكم الإسلام والشريعة الإسلامية كما جرت العادة. وقد قيل بأن الحاكم الخزري قبل بهذا ، لكن من الصعب أن نرى كيف يمكن أن تكون هذه الرواية صحيحة ، وذلك في ضوء ما حصل فيما بعد في بلنجر ، وذلك أنه ما كان ليحدث لو أنها غدت مدينة إسلامية .

والحقيقة هي أننا لا نملك تفاصيل أخبار ما حصل تماماً، فبعد سقوط بلنجر قيل أن الجراح أمر بتغريق عدد من الخزر مع أسرهم في نهر بلنجر كما هو مفترض [4] ، وجرى أخذ عدد كبير من الأسرى ودمرت الحصون المجاورة ، وهاجر معظم السكان منها كما قيل ، ومن المفهوم بسرعة أن كثيرين منهم قد

---

(١) ابن الأثير حوادث سنة ١٠٤ .

(٢) رقم ابن الأثير . ويحمل البلعمي الرقم ٢٥٠٠٠ فقط أو ٢٠٠٠٠ قبل المعركة .

(٣) البلعمي : ٥١٤ « مهنار بلنجر » . ابن الأثير « صاحب بلنجر » .

(٤) الطبري : ٢/١٤٥٣ . انظر الفصل الثالث الحاشية ٣٩ .

انتقلوا نحو الشمال . فبعد مئتي عام من هذا مرّ الرحالة ابن فضلان ببضعة آلاف من « البرنجار » بين بلغار الفولغا ، والتشابه هنا واضح بين عبارتي برنجار وبلنجر فكثيراً ما تختلف بعض مخارج الحروف ، وفي احدى المناسبات بدا لابن فضلان أن هؤلاء كانوا من سكان المدينة الخزرية [١] ، فقد كان البرنجار قد تحولوا إلى الإسلام حديثاً أيام ابن فضلان ، وقد وجد واحداً من أبناء غير المسلمين يحمل اسم طالوت (شاول) الأمر الذي قد يوحي بوجود اليهودية بينهم في فترة مبكرة .

وزحف الجراح من بلنجر إلى حصن ومدينة وبندر (وندر ؟) . وكان موقعاً عظيم الأهمية به عدد لا يحصى من المدافعين [٣] ، لكنهم خشوا من القتال وفضلوا الاستسلام على مال يؤدونه ، وقرر الجراح متابعة زحفه إلى سمندر ، وما أن وصل إلى أطرافها حتى كتب إليه حاكم بلنجر السابق يحذره من متابعة الزحف ، حيث وقف ينتظر المسلمين قوة من الأعداء كبيره ، وذلك في وقت كانت خطوط مواصلاتهم مهددة فيه بسبب ثورات زعماء المناطق الجبلية . وهكذا صدرت الأوامر بالتراجع ، وأعاد العرب عبور القوقاز ، وبما أن الموسم قارب على النهاية فقد زحف العرب لتمضية الشتاء في شكّي [٤] .

ومن الواضح أن الجراح كان يأمل في استئناف العمليات في السنة التالية ، وقد كتب إلى الخليفة يخبره بنجاحاته ، لكنه أوضح له أن الخزر لم يجر سحقهم

---

(١) تبعاً لزكي وليدي ، المصدر نفسه : ١٩١ – ١٩٢ ، انظر أيضاً ابن فضلان : ٧٠ .

(٢) ابن الاثير ، النص نفسه . انظر الفصل الثالث « وندر » للخ والملاحظات هناك .

(٣) ابن الاثير ، النص نفسه ، هناك يتحدث عن ٤٠٠٠٠ أسرة .

(٤) أو أنها شكى ، على سبيل المثال ابن الفقيه : ٢٨٨ ، وهي كما قال كموسكو « die stadt saba » (المصدر نفسه) نقلاً عن الياس النصيبي ، وفي الترجمة اللاتينية (إ.و. بروكز في مجموعة الكتابات المسيحية الشرقية)«Urbem shabbam» لكن ذلك غير صحيح.

بعد ، ولهذا طلب إنفاذ بعض القوات الإضافية إليه،وفي الربيع جاءت الأخبار تحمل نبأ وفاة يزيد (١٠٥ / ٧٢٤) وقام خليفته هشام بإقرار الجراح في منصبه وبعث بعده بإرسال المساعدات .

وعندما حل موسم الحملات قام الجراح بغزو بلاد الخزر ثانية ، وزحف هذه المرة من خلال ممر دريال وبلاد اللان [١] ، وقام بعملياته ضد بعض المدن والحصون فيما وراء بلنجر ، ولا نملك تفاصيل عن الحملة ، ونحن بحاجة إليها ، ولهذا نحن نجهل جهالة كاملة ردة فعل الخزر ، وقد حارب الجراح اللان في العام التالي ١٠٦ / ٧٢٥ وفرض عليهم الجزية [٢] ، ولم يرد ذكر الخزر في هذه العمليات وفي العام التالي استدعى الخليفة الجراح ، وأسند ولاية أرمينية وأذربيجان إلى أخيه لأبيه مسلمة بن عبد الملك .

وجاء تعيين مسلمة في حد ذاته يحمل ما يوحي بالأهمية التي ارتبطت بجبهة الخزر في هذه الفترة . وكان مسلمة بن أمة ، ولهذا حرم من الوصول إلى العرش وقد عمل لمدة تزيد على العشرين عاماً كواحد من أقطاب السلطة الأموية وأنشط قادتها على مسارح العمليات في الشرق ، فقبل تسلمه لمنصبه الجديد كان قد قاد حملة عسكرية كبيرة ضد بيزنطة عندما حاصر العرب العاصمة المسيحية لمدة تزيد على العام (٩٨ — ٩٩ / ٧١٦ — ٧١٧) وقضى على ثورة يزيد بن المهلب (١٠٢ / ٧٢٠)وقد وصلت أخبار فروسية مسلمة وشجاعته إلى حد الأسطورة [٣] ، وقد استولت إنجازاته الشخصية ليس على خيال معاصريه [٤] بشكل فعلي

---

(١) الطبري : ٢/١٤٦٢ . ابن الأثير ، حوادث سنة ١٠٥ .

(٢) الطبري : ٢/١٤٧٢ . ابن الأثير ، حوادث سنة ١٠٦ .

(٣) انظر المستطرف ترجمة ريتر : ١/٦٨٢ ، ومن أجل مسلمة وسيدة من مصر انظر عيون الأخبار لابن قتيبة ، تحقيق بروكلمان : ٢١١ .

(٤) على سبيل المثال : الكميت في الحماسة : ١/٧٧٤ .

فحسب بل على خيال أجيال بعيدة عنه كثيراً[1] . هذا هو الرجل الذي وقع عليه الاختيار حينئذ ليزيد من أمجاد الاسلام ضد الكفار من الخزر .

وأناب مسلمة في البداية الحارث بن عمرو وهو من قبيلة طيء المشهورة ليكون في محله ، وقد قام الحارث عام (١٠٧ هـ) باحتلال بعض أراضي الخزر حيث استولى على عدد من القرى[2] ، ولم يكن لهذه المكاسب قيمة كبيرة، فقد ظهر الخزر في سنة ١٠٨ هـ تحت قيادة ابن الخاقان ، وزحف الحارث ضدهم واصطدم بهم في معركة هزموا فيها وأجبروا على الفرار عبر نهر الرس (أراكس Araxes) وحاول الخزر التوقف هنا ثانية ثم القتال ، لكن هزموا من جديد من قبل المسلمين وفقدوا خسائر كبيرة وقتل منهم ما لا يحصى[3] .

وفي موسم العام التالي (١٠٩ / ٧٢٧) وصل مسلمة شخصياً ، وقد زحف من أذربيجان فأعاد احتلال ممر دربندل الذي كان العرب قد خسروه من قبل ، وتابع سيره إلى داخل بلاد الخزر ، حيث اعترض – كما قيل – الخاقان نفسه طريقه ، فاصطدم به وعاد بالأسرى والغنائم[4] وتبعاً لرواية المسعودي قام مسلمة في تاريخ لم يحدده بوضع حامية عربية في حصن كان يحمي ممر داريل[5] ، ومن المحتمل أن يكون فعل هذا في حملته هذه، وقد قام الحصن على كتلة صخرية تشرف على عقبة عبر واد عميق جداً ، وقد كان كما قال المسعودي واحداً من أشهر الحصون في الدنيا .

---

(١) عولجت حملة مسلمة على بيزنطة في محاضرات الأبرار المعزو إلى ابن عربي ، وهناك عرض لها في « خمسة » الشاعر التركي نرغيسي .

(٢) ابن الاثير حوادث السنة نفسها .

(٣) المصدر نفسه ، سنة ١٠٨ .

(٤) المصدر نفسه ، سنة ١٠٩ . انظر اليعقوبي : ٢/٣٩٥ .

(٥) مروج : ٢/٤٣ ...

وكان القتال في العام التالي أكثر شدة، فقد زحف مسلمة كما سلف القول من دربل (١١٠ / ٧٢٨) واشتبك مع جيوش الخاقان لمدة تقارب الشهر ، ثم جاء في الأخبار أن أمطاراً شديدة قد سقطت حيث هرب خاقان تحت غطائها[١]، ومع أن المسلمين ادعــوا النصر ، فقد راحت حكاية أخرى [٢] مفادها أن مسلمة انسحب مجتازاً مـا عرف باسم مسجد ذي القرنين [٣] ، حيث مقر ملك جورجيا .

وعلى الرغم من سمعة مسلمة وقدراته والنجاح الجزئي الذي بدا وكأنه قد ناله، ظــل كما هو واضح أن الأمر لم ينته مع الخزر بعد ، فقد عادوا إلى الظهور في أذربيجان في العام التالي، ومرة ثانية جرى طردهم من قبل الحارث بن عمرو[٤]، وفي هذه الآونة جرى استدعاء مسلمة من قبل هشام ، وعـاد الجراح بن عبد الله بعد غياب استمر عدة سنوات إلى الولاية .

وقد قيل بأن الجراح قد قام بحملة في أرض الخزر في نفس العام (١١١) هـ. وتبعاً لابن الأثير زحف من تفليس (يعني من خلال ممر دربل) وشق طريقه إلى البيضاء عاصمة الخزر التي قام باحتلالها ، وخبر هذا النجاح مبالغ فيه بالتأكيد ، ذلك أنه لا مجال للشك في أنه لا بد من حملة كبيرة جداً لتكون قادرة على تنفيذ هذا الإنجاز بعد قتال عنيف وتخريب منتظم لمراكز الدفاع القوية .

ومن المؤكد أن بلاد الخزر لم تخضع ولم تلق السلاح في عام ١١١ هـ / ٧٢٩ م، ومن المحتمل أن سرية من سرايا الإغارة قد توغلت بهذا المقدار ، هذا ولا بد من

---

(١) الطبري : ٢/١٥٠٦ . ابن الاثير سنة ١١٠ . ابن تغري بردي : ١/٢٩٧ . وقد دعاها غزاة الطين ، ويبدو أن هذا خطأ ، انظر ما يلي .

(٢) ميخائيل السوري ، تحقيق شابوت : ٢/٥٠١ .

(٣) ابن الاثير،السنة نفسها حيث يقول:«مسلك ذي القرنين»لكن وانظر مرقوارت١٧٥ .

(٤) الطبرى : ٢/١٥٢٦ . ابن الاثير ، سنة ١١١ .

أن يتساءل جانب آخر كيف أمكن لقوة صغيرة نسبياً أن تصل إلى الفولغــا التي قامت عليها مدينة البيضاء ، ثم عادت سالمة مجتازة لأراض عدوة كما روى ابن الأثير ؟ هذا ويلاحظ أن المصادر الأخرى المعتمدة ليس لديها ما تقوله حول قيام أية حملة ضد بلاد الخزر في هذه السنة ، ولا شك أن هناك خلطاً ومزجاً مع الحملة الكبيرة التي قام بها مروان بن محمد (الخليفة المقبل مروان الثـــاني) التي سنأتي على شرحها فيما بعد .

وتتميز سنة ١١٢ / ٧٣٠ بأنها ربما كانت السنة التي شهدت أكبر هزيمة ألحقت بالعرب على أيدي الخزر ، وهي في نفسها تحمل سبباً لرفض ما رواه ابن الأثير حول أحداث ١١١ هـ . ففي سنة ١١٢ هـ تدفقت قوات الخزر من خلال ممـــر دريل [١] تحت قيادة بارجيك السالف الذكر ، ووصل تعدادها كما قيـــل إلى ثلاثمائة ألف رجل [٢] . ومن المرجح أن الجراح كان قد أمضى الشتاء في شكي كما فعل من قبل ، ثم زحف إلى برذعة ومن هناك إلى أردبيـــل منتظراً تطور الحوادث ، وقام في تلك الأثناء بتحويل جزء من قواته إلى مناطق أخرى ، ثم بعث بسرية تقوم بالتجول في المنطقة المحيطة به ، وتسلم الخزر رسالة حـــول أوضاعه من أمير جورجيا [٣] ، وزحفوا حتى ورثان الجنوبيـــة ، التي شرعوا في حصارها ، واشتبك الجراح مع العدو قرب ورثان ، لكنه لم يكن قـــادراً على التفريج عن المدينة ، ثم وجد بعد هذا أن ظهره عند أردبيل على مقربـــة من جيوش الخزر الرئيسة .

وقد نصح السكان المحليون الجراح أن يتخذ موقفاً دفاعياً بأن يجعل ظهره إلى جبل سيلان القائم على مقربه منه ، ولم يقبل الجراح بذلـك وقرر المخاطرة

---

(١) الطبري : ٢/١٥٣٠ . ابن الاثير ، سنة ١١٢.

(٢) البلعمي : ٥١٧ .

(٣) المصدر نفسه : ٥١٦ ، وترجمة دورن (٤٦٩) ليست صحية .

بمنازلة العدو في سهل دعي باسم مرج أردبيل، يقع على مقربة ، وعسكر الخزر أمام المسلمين وبات الطرفان يستعدان للمعركة

وكما جرت العادة لدينا عن القتال قليل من المعلومات المعتمدة ، وكان الجراح قد قام أساساً بتقسيم قواته المتوفرة لديه ، ومع ذلك فإن القوات الشامية والقوات المحلية وإن كانت غير كافية فإنها ملكت من الشجاعة والصبر ما يكفي للاحتفاظ بمواقعها لمدة يومين في قتال من أعنف ما شهدته أو عرف من قبل [1] ، ويبدو أن الجراح كان مخطئاً في قراره بالقتال في السهل المفتوح ، فقد كان الخزر متفوقين بالعدد بشكل كبير جداً ، ومع مساء يوم القتال الثاني وضحت هذه الحقيقة بشكل خطير جداً ومريع ، فقد وضح ساعتها أن وضع المسلمين ميئوس منه ، ذلك أن عماد رجالات الصفوف — وخاصة قراء القرآن ، الذين يعتمد على تشجيعهم لرفع معنويات الجيش المسلم،في مثل تلك الأيام أضحوا في عداد القتلى .

ومع هبوط الظلام فر عدد من الباقين ، متسترين به ، وأخذوا طريقهم نحو بيوتهم في أذربيجان أو سواها ، وفي فجر صباح اليوم الثالث كان ما بقي مع الجراح لا يتعدى القليل من الرجال مع الجرحى والمنهكين ، وجدد الخزر هجومهم ، وشرع العرب بالفرار ، ومع هذا عندما صرخ واحد من أصحاب الجراح : « إلى الجنة يا مسلمين وليس إلى النار ، أسلكوا طريق الله وليس طريق الشيطان » استردوا عزائمهم وعادوا إلى مواقعهم وقاتلوا حتى قتلوا ، وقتل الجراح نفسه مع بقية الجيش ، وقطع رأسه ، وسقطت إثر ذلك زوجته وأولاده أسرى بيد الخزر ، ووضح أن نصر الخزر بات كاملاً ، إذ غنموا غنائم كثيرة ، وأخذوا يبحثون عمن يأسروه ، فلم يجدوا من الجيش

---

(١) ابن الاثير ، السنة نفسها .

المسلم إلا من مات أو يموت ، ومئة فقط هي التي فرت منه ، وهوجمت إثر هذا أردبيل على الفور ، ومع أنها قاومت ، تمكن الخزر من الاستيلاء عليها ، فقتلوا جميع المقاتلة وأخذوا النساء والأطفال أسرى [١] .

وكان أثر هذه النكبة واسعاً شعر به المسلمون جميعاً ، فلقد كانت شعبية الجراح كبيرة ، وتركت خسارته مع موت عدد كبير جداً من رجاله أثراً عميقاً ، وأثارت وحشية المهاجمين ردات فعل غاضبة [٢] . ولقد تحدث الناس في وسط آسية عن هزيمة الجراح في تلك السنة ولسنين مقبلة [٣] ، واهتم الخليفة شخصياً بالخسائر الكبيرة . لكن أهم من هذا كله وأنه بينما كانت الاجراءات اللازمة يتم اتخاذها في دمشق لمعالجة الموقف تابع الخزر تقدمهم ، فاستولوا على أذربيجان ووصلوا منطقة ديار بكر ، وقاربوا أطراف الموصل [٤] ، وعرض هذا الوضع الخطير وتطوراته أمام الخليفة وأعوانه في دمشق ، حيث بدا الحال وكأنه هجرة خزرية جماعية [٥] .

وكان الحجاج بن عبد الله أخو الجراح قد تسلم القيادة في الشمال [٦] ، وكما حدث من قبل لجأ هشام إلى أخيه مسلمة ، لأن الوضع الطارىء تطلب ذلك ، ولهذا تمت تنحيته وبناء على نصيحة من كاتب هشام ، أرسل الخليفة سعيد ابن

(١) وكان النصر الخزرى معروفاً أيضاً لدى البيزنطيين ، انظر ثيوفانس ، ط. بون : ٦٢٦ سنة ٧٢٠ (٧٢٨ م) ، فقد تحدث عن ابن الخاقان ، أما الرواية التي قالت بأن الجراح قد قتل في بلنجر فانظرها في الطبرى : ٢/١٥٣١ ، وابن الأثير السنة نفسها ، ويبدو أن هنالك تداخل بين حصاره الناجح لبلنجر في سنة ١٠٤ هـ وقبل الاخفاق هناك سنة ١١٢ هـ .

(٢) البلعمي : ٥١٩ .

(٣) الطبري : ٢/١٥٣١ و ١٥٩٥ (١١٩ هـ) .

(٤) ابن الاثير ، السنة نفسها .

(٥) انظر ميخائيل السورى : ٢/٥٠١ .

(٦) ابن الاثير ، السنة نفسها.

عمرو الحرشي [1] من منبج في سورية ، وكان هذا القـــائد قد سبق له أن تولى القيادة في جرجان[2]، وكانت نية هشام تقضي باستخدامه في التصدي لتيار الخزر إلى أن يتمكن مسلمة من النزول إلى الميدان .

وتبعاً لما يروي ابن الأثير ، عندما وصل سعيد إلى دمشق قال له هشام : « بلغني أن الجراح قد انحاز عن المشركين (الخزر) ، قال : كلا يا أمير المؤمنين الجراح أعرف بالله من أن ينهزم ولكنه قتل . قال : فما رأيك؟ قال : تبعثني على أربعين دابة من دواب البريد ، ثم تبعث إلي كل يوم أربعين رجلا ، ثم اكتب إلى أمراء الأجناد يوافوني » ، وأخذ هشام بهذا الرأي وعمل بـــه ، وتبعاً لرواية أخرى عقد الخليفة بيده لواء سعيد وبعث به شمالاً مع ثلاثين ألفاً من خـيرة الرجال ، وزوده بمـــا يلزم من مؤن وأعطاه مائة ألف درهم لينفقها على حملته [3] .

وعندما وصل سعيد إلى الجزيرة ، وقف على عدد من بقايا جيش الجراح ، وتبع ذلك مشهد مؤلم ، ثم تابع زحفه إلى مدينة خلاط الارمنية القائمـــة على بحيرة وان ، فوجد الخزر قد استولوا عليها ، وقاتلهم المسلمون وأخذوا المدينة منهم ، ثم ذهب إلى برذعه ، فدمر حصنها تدميراً كاملا ، وقام سعيد في برذعة بتوجيه موعظة إلى أصحابه حضهم بها على الوحدة في الخطر العام ، وطلب من الاغنياء التفريج على الفقراء ، ثم طلب من الجميع التوجه بالدعاء للنصر ، ومن ثم زحف يريد البيلقان .

(١) أو الجرشي ، ويقول فلهاوزن إن الحرشي نسبة إلى حريش بن عـــامر (الدولـــة العربية : ٢٨١).

(٢) ابن خلدون : ٦٢/٣ .

(٣) البلعمي : ١٥٢٠ .

وبينما كان سعيد معسكراً هناك ، جاءه واحد من السكان المحليين يشكوله من أن ابن الخاقان قد وضع واحداً من طراخنته [1] في قرية مجاورة ، وقد قام هذا الطرخان بأخذ ابنته ، وأنه كان ساعتئذ سكران فاقداً لوعيه ويمكن أسره بكل سهولة ، وبناء عليه أرسل سعيد واحداً من ضباطه إلى القرية ، ووجدت الوحدة العربية الخزري سكراناً وهو نائم ، والفتاة جالسة دون أن يلحق بها أذى بعد ، وقتل الخزري حيث كان ، ولحق القتل والأسر بقية الخزر ، ثم عاد العرب إلى البيلقان ، وأعادوا الفتاة إلى والدها .

وفي هذه الآونة كان المسلمون في ورثان ما زالوا صامدين على الرغم من شدة الحصار وثقله ، وبعث سعيد في محاولة منه لفك الحصار بواحد من الخزر الذين يتقنون الفارسية فمر الرجل بين صفوف الخزر حتى وصل إلى الاسوار فأعلن للناس بأن النجدة قريبة منهم ، وهكذا نجح سعيد في رفع الحصار ، وتحول الخزر إلى حصار باجروان ، لكن بناء على زحف سعيد من ورثان رفع الخزر الحصار وتحولوا ثانية إلى أردبيل وسعيد يلاحقهم .

وفي برجوان وصل إليه فارس متوشح بالبياض [2] ، فأخبره بوجود جيش خزري قوامه عشرة آلاف رجل معه خمسة آلاف من الاسرى المسلمين ، يعسكر على مسافة أربعة فراسخ ، وأرسل سعيد في الحال واحداً من رجاله ليستطلع الخبر ، وكان المبعوث - كما هو مؤكد - إبراهيم بن عاصم العقيلي ،

(١) في البلعمي : ٥٢٢ « طرخاني أز آن خود » وهو لقب نجده بين الخزر مثلما نجده بين بقية الشعوب التركية ، ولعله يفيد في ربطهم مع الأتراك الغربيين . وقيل إن معناه الأصلي هو « أبناء الحداد » ، انظر زكي وليدي ، ابن فضلان : ٢٧٦ .

(٢) يبدو أن البلعمي قصد زائراً متفوقاً بشكل غير طبيعي . ابن الأثير السنة نفسها ، وهو هنا يتكلم ببساطة عن راكب على فرس بيضاء ، وجعل ابن خلدون القصة منطقية بجعله واحداً من جواسيس سعيد ، (انظره : ٣/٨٩) .

وكان يحسن لغة الخزر [1] ، ولم يصادف إبراهيم صعوبة في دخول معسكر الخزر وهو متنكر ، واستعد في الوقت نفسه سعيد معقوة مؤلفـــة من أربعة آلاف رجل للقيام بالهجوم .

وعاد العقيلي وهو يحمل من الأخبار ما يؤكد وجود الخزر في تلك البقعة ، وروى كيف أنه شهد فتاة من نساء الجراح وهي تعذب من قبل واحـــد من الطراخنة ، وأنه عندما سمعها تدعو الله أن يحميها وجد صعوبة كبيرة في ضبط نفسه من عدم الذهاب إلى عونها. وتأثر سعيد ورجاله كثيراً بما سمعوه، وانطلقوا بالحال فوصلوا معسكر الخزر قبل انبلاج الصباح ، وقبل أن ينذر الخزر كانوا مطوقين ، وصاح المهاجمون الله أكبر ، فوصل تكبيرهـــم إلى أسرى المسلمين داخل المعسكر ، فثاروا . وانقض سعيد ورجاله على الأعداء وهم يحـــاولون الإخافة ، وكانت النتيجة مروعة ، فقد جاء في الأخبار أنه عندمـــا أشرقت الشمس كان الجزء الأعظم من عشرة آلاف قد وقعوا قتلى، وهرب الناجون إلى ابن الخاقان ، وأخبروه بما نزل بهم .

وذكرت الأخبار مزيداً من الحوادث المشابهة التي نجح فيها المسلمون تحت قيادة سعيد ، واجتمع الخزر أخيراً فوصل عددهم إلى ما لا يقل عن مائة ألف تحت قيادة بارجيك وأقاموا معسكرهم على نهر البيلقان [2] . ومضى سعيـد ومعه خمسون ألفاً من أهل الشام والجزيرة والعراق للقائهم ، وبينما كان الجيشان يستعدان للاشتباك لاحظ المسلمون وجود رأس الجراح مثبتاً على عرش موضوع على عربة كان ابن خاقان يصدر أوامره منها ، وذلك في وسط صفوف الخزر .

وعندما رأى سعيد ذلك امتلأت عيناه بالدموع وقال : « إنا لله وإنا إليـه

---

(١) ربما مولى ومن أصل خزري ، وقد ذكر ثانيه (الطبري : ٢ / ١٥٩٤ - ١٥٩٥) مع إضافة نسبه الخزري (وقد خبرها بدون حاجة موللر) .

(٢) ابن الأثير : سنة ١١٢ .

لراجعون » ثم قال : « سنظل نعيش بالعار ما دام رأس أخ مسلم مثل الجراح في حوزة الكفار ».وقام من ثم الهجوم وشق طريقه مقاتلاً إلى حيث وضع الرأس، ونزل بارجيك من العربة وامتطى ظهر حصان ، فضربه سعيد فرمـــاه إلى الأرض [١] ، وقد جرى انقاذه من قبل حراسه الذين ترجلوا وأحاطوا بقائدهم وتبعاً لرواية أخرى قتله سعيد وبعث برأسه إلى هشام [٢] .

ومهما تكن الحقيقة فإن ذلك كان نصراً إسلامياً اخر ، وأجبر الخزر على الفرار مخلفين وراءهم ما لا يحصى عدده من القتلى مع كميات كبيرة من الغنائم. وعاد سعيد منتصراً إلى برجوان حيث جرى إحصاء الغنائم وأرسل الخمس إلى الخليفة ، وتسلم كل رجل من رجال الجيش حصته مما بقي من الغنائم ، فبلغت كما قيل ما لا يقل عن ١,٧٠٠ ديناراً [٣] .

وفي محاولة لمعرفة ما حصل بالفعل ، نلاحظ أن الرواية حول نجاحات سعيد وإنجازاته عرضه للشك الشديد ، ذلك أن الطبيعة الاسطورية للفارس المتوشح بالبياض الذي وجه المسلمين وأعداد قوات الخزر التي كانت تجمع بشكل مستمر إثر كل هزيمة هي جميعاً أقرب إلى الخيال منها إلى التاريخ. يضاف إلى هذا أن الرواية فيهاما يوحي بارتباطها بتاريخ مبكر ، مثل دعوة كل من الخـاقان أو ابنه بعبارة « عدو الله » [٤] وهو وصف معاصر بدون شك ، زد على هـذا أن ساعة ويوم إحدى المعارك قد حددا تماماً [٥] .

---

(١) مزيداً من التفاصيل في قاسم بك « الطبري التركي » : ٦٣٧ .

(٢) اليعقوبي : ٢ / ٣٨١ . وشرح المفضل بن سلمة قولهم في المثل « جاء برأس خاقان» بأن ذلك فيه اشارة إلى انجاز سعيد بن عمرو (الفاخر تحقيق ستوري: ٨٠) انظر أيضاً الحاشية ٩٦.

(٣) البلعمي : ٥٣١ ، والحجم كان كبيراً جداً بشكل واضح .

(٤) المصدر نفسة : ٥٢٩ .

(٥) المصدر نفسه .

وليس من المستبعد أن البلعمي وابن الأثير اللذان يقدمان نفس التفاصيل قد قاما بتوسيع رواية الطبري القصيرة أو بالحري قاما بإملاء الفراغات بين كلمات البلاذري الذي حصر نفسه بقول بضع كلمات ذكر فيها أن سعيداً رفع الحصار عن ورثان وهزم الخزر، وكان من المفترض أن الرواية بأكملها كانت معروفة من قبل الطبري واليعقوبي أيضاً، مع أن أي منهما لم يقدم التفاصيل، على أساس أنها بدت وكأنها روايات معاصرة متخيلة.

أما بالنسبة لخدمات سعيد التي لا شك أنها كانت معتبرة، فقد حصد منها في البداية منافع شخصية متواضعة، فبعد توزيعه للغنائم زحف نحو ميمذ في أذربيجان ولم يكد يشتبك مع الخزر حتى تسلم رسالة غاضبة من مسلمة يلومه فيها لقتاله إياهم، ويعلمه باستبداله بعبد الملك بن مسلم العقيلي [١]، وتخلى سعيد عن القيادة، وبناء على أوامر مسلمة ألقى به في السجن في قبله.

وفي السجن جرى حديث بينه وبين مسلمة، فقد روى البلعمي أنه عندما جلب أتي بسعيد إلى مسلمة، سأله قائده عما إذا كان لم يتسلم أوامر بالتمنع عن مهاجمة الخزر، وإذا كان قد تسلم ذلك فلماذا عمل على انفراد وعرض المسلمين للمخاطر؟ وأجابه سعيد أنه لم يتسلم كلمة حول هذا حتى كان الله قد دمر المشركين الخزر ومنحه النصر عليهم، فقال له: «أنت تكذب لقد رغبت في أن تسمع الناس يتحدثون عن الأعداد التي قتلتها» فقال سعيد: «ليس الأمر كما تقول لقد رغبت في إعلاء كلمة الله وعملت لضمانها، ويعلم الأمير أن ما أقوله هو الصحيح». لكن غضب مسلمة لم يسكن، وأمر بإهانة سعيد وتعذيبه، وكسر لواء الخليفة فوق رأسه وألقي به في سجن برذعة، وعلم هشام بالخبر ما أن عرف جلية ما حدث حتى كتب إلى أخيه يعبر عن عدم رضاه.

---

(١) البلاذري : ٢٠٦ اليعقوبي : ٢/٣٨١ - البلعمي وابن الأثير كل على حدة .

وكان مسلمة قد شرع – بعدما قام بما قام به ضد سعيد – بالزحف على الرغم من حلول موسم الثلوج والأمطار ، وتابع مسلمة حركته داخل بلاد الخزر فيما وراء الباب[1]،لكن نظر للوقت الذي ضاع،فاتت الفرصة لإنزال ضربة قاصمة بالخزر ، ولا يمكن تعويض ذلك بتصرفات مسلمة غير المنطقية ، ولقد عرف هشام ما كان أخوه يحاوله ، فكتب إليه رسالة قال في آخرها :

أتتركهم بيمذ قد ترامى وتطلبهم بمنقطع التراب ؟[2]

وعندما عاد مسلمة من حملته وجد نفسه مرغماً على المصالحة مع ضابطه السابق ، فأرسل إلى سعيد رسالة الخليفه وطلب منه المعذرة معلناً أسفه لما حصل ، وأحضر سعيد من سجنه وخلع عليه وأعطي وأسرته جوائز ليفهم منها أن تشريفه مما يسر الخليفة ، وأقطع أملاكاً ظلت تحمل اسمه فيها بعد،ونستنتج من مواجهه جميع المواد المستخرجه من عدد من المصادر أن أعمال سعيد كانت ذات أهميه حقيقيه على الرغم من تغليفها بالأساطير ، وبناء على هذا فإنه يستحق أن يوضع بين أعظم القادة العرب نجاحاً في الحروب ضد الخزر .

أما بالنسبة لأحداث عام ١١٢ / ٧٣٠ فان رواياتنا تتلقى بعض التأييد مرة ثانية من الجانب الخزري ، حيث يبدو أن ذكرى الاستيلاء على أردبيل قد عاشت طويلاً بعد ذلك ، فتبعاً لجواب يوسف ، بعدما انتشرت الديانةاليهودية بين الخزر ، ارتأى ملكهم إقامة مكان للعبادة ، وقام في سبيل الحصول على الوسائل الضرورية لذلك بحمله عبر طريق دريل إلى المنطقة الواقعة جنوب الجبال ، وعاد الخزر ومعهم كميات كبيرة من الذهب والفضة ، وأوقفت هذه

---

(١) الطبري : ٢/١٠٣١ – ١٠٣٢ . ابن الأثير ، سنة ١١٢ .

(٢) البلاذري : ٢٠٧ . انظر أيضاً : حتي « أصول الدولة الإسلامية » نيويورك ١٩١٦ : ٣٢٤ .

الأموال على أعمال التأسيس في بناء التابوت والشمعدان والمنضدة وغير ذلك ، وفي النماذج التوراتية .

وتضيف الرسالة الجوابية أن هذا كله كان موجوداً آنـــذاك (في حوالي ٩٦٠ م) [١] ، ولا شك أن هذه الحكاية أسطورية في شكلها القائمة به ، مع أنه ليس بالأمر غير الطبيعي أن يكون لدى الخزر اليهود خيمة مقامة على انفراد للغايات الدينية ، ذلك أننا نجد الشيء ذاته لدى المغول المسيحيين فيما بعد [٢] ولقد سبق لنا أن ذكرنا مناسبة جرى فيها نقل المعادن الثمينـــة من الأراضي الواقعة في جنوب القوقاز إلى الشمال [٣] ، ويمكننا أن نقول بكل طمـأنينة إن نصر الخزر الكبير على الجراح لم ينسوه .

وبذل مسلمة جهده الأعظـــم من العام التالي ١١٣ / ٧٣١ [٤] ، فقد كانت الاوضاع من وجهة نظره لم تتحسن ، حيث تجمعت قوات خزرية جديدة شمال القوقاز ، ولم يتمكن الحارث بن عمرو الطائي الذي سبق لمسلمة أن تركـــه في الباب ، من منعهم من احتلال الموقع مع ألف من أسرهم [٥] . وكان من أخطر

---

(١) انظر الفصل الرابع .

(٢) انظر أيضاً د. م. دنلوب « الكريتيون في شرقي آسيا » دورية معهد الدراســات الآسيوية والأفريقيه ، ١٩٤٤ : ١١/٢/٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٣) انظر الفصل الأول .

(٤) الطبري : ٢/١٠٦٠ . ابن الأثير ، سنـــة ١١٣ . اليعقوبي : ٢ / ٣٨١ ، ويعطي اليعقوبي في مكان آخر (٢/٣٩٥) سنة ١١٤ . لامنس (الموسوعة الاسلامية ، مادة مسلمة) ويعطى هنا تاريخ التراجع سنة ١١٥ م .

(٥) البلاذري : ٢٠٧ ، حيث يقول « ألف أهل بيت من الخزر » ويعلق زكي وليـــدي (ابن فضلان : ١٩٠ - الحاشية) أنه من الصعب الاعتقاد أن عبارة « أهل بيت » تعني أسرة منفردة . البلعمي (٥٣٣ - ٥٣٤) وعنده ألف رجل من الطراخنة (انظر أيضاً ٥٣٦ : ألف أسرة من الخزر) .

الأمور الأخـــرى سوء موقف الحكام المحليين إذ سببوا مشاكل واضطرابات كثيرة للمسلمين ، فنحن نقرأ عن مقاومة في خيزان حيث اتخذ مسلمة إجراءات قاسية ، ثم اجتاز إلى الباب مع وحدات من الخلفاء الماضين الذين بادروا بحكم الضرورة إلى الالتحاق به بناء على رغباتهم ، وكان الخزر في المدينـــة المحصنة قليلين جداً لا يتمكنون من إعاقته ، لذلك تركهم على حالهم .

وقام مسلمة بالتوغل داخل بلاد الخزر حيث نشر قواته وقد نجـح في هذه الخطة بالرغم من خطورتها في البداية ، فقد تم القضاء على عـدد من الوحدات الجزرية المنعزلة بقتل أفرادها أو بإرغامهم على الفرار ، وسقطت عدة حصون وبلدان بيد مسلمة كان منها بلدة حمزين وقام السكان فيما لا يقــل عن مكان واحد بإحراق أنفسهم حتى الموت مفضلين ذلك على التسليم ، وتابع المسلمون زحفهم حتى بلنجر ، ثم عبروا جبال بلنجر [١] إلى سمندر ، ودافع هـــذان الموقعان مثلها مثل حمزين دفاعاً ضعيفاً ، ثم استسلم من فيها بعد أن ترك للغزاة غنائم كبيرة [٢] .

وكانت سمندر أبعد نقطة جرى الوصول إليها ، وعندما علم مسلمه أن قوات الخزر الرئيسة مع حلفائها « في حشود لا يعرف عددها إلا الله » معسكرة على مقربة منه ، ورأى وضعه مثـــل وضع الجراح [٣] ، قرر أن الضرورة تقضي بالتراجع ، ثم بدأ زحفاً من أكثر الزحوف خطورة [٤] ، وقد أعطى قبـــل

---

(١) الطبري ، المصدر نفسه . وذكر في حدود العالم : ٤٧ « جبل الخزر » ويقول زكي وليدي (Volkerschaften, 44) إن المعني بذلك ربما قمة بوغوس في القوقاز .

(٢) انظر ما سبق .

(٣) كانت تراجع مسلمة معروفاً لدى البيزنطيين ، انظر ثيوفانس : ٦٢٦ . سنـــة ٧٢١ (٧٢٩ م).

(٤) رواية ابن الأثير (المكان نفسه) هي الأكثر تفصيلاً . ولا يأتي الطبري (المكان نفسه) على ذكر الانسحاب (وكذلك اليعقوبي) .

الانسحاب أمراً قضى باشعال نيران عظيمة داخل المسكر بغية خديعة العدو ، وتركت الخيام مضروبة على حالها ، وجرى التخلي عن الاثقال ، وجـــاء بالرجال الذين كانوا آنذاك غير قادرين على الزحف والقتـــال في الوقت نفسه فوضعهم على مقدمة الزحف ، بينما شكل العساكر الأصحـاء المؤخرة ، وساق العرب بسرعة حتى أنهم قطعوا فرسخين في الوقت الذي اعتادوا أن يقطعوا به فرسخاً واحداً ، ثم عادوا متراجعين عبر الطريق الذي جاءوا عليـــه ، وقد وصلوا إلى الباب كما قال ابن الاثير في آخر رمق . وبعد وقت قصير وصـــل الخزر بعد أن اجتازوا الممرات واقتربوا من المسلمين [1] ، وصف مسلمة جيشه فجعل سليمان بن هشام [2] على ميسرته ومروان بن محمـــد على ميمنته ، وترك العباس بن الوليد [3] أميراً على القلب .

وقد تلقى رجال القوات المحلية مع زعمائهم الصدمة الأولى لهجوم الخزر ، ونشر العرب اللواء الأموي الكبير فوق رؤوسهم وثبتوا في مواقعهم مع حلفائهم طوال النهار [4] . وقد ميز مروان نفسه في هذا اليوم ، فكثيراً ما ابتعد عن الانظار ، ووصل الخبر مرة إلى مسلمة بأنه قد مات فصاح « لا والله حتى يتسلم

---

(١) يتوافق الطبري وابن الأثير مع ثيوفانس (حاشية ٨٨) في أن الصدام الرئيسي مع الخزر كان خلال هذه الحملة ، أي الحملة التي قتل فيها ابن الخاقان قبل الانسحاب من بلاد الخزر، وذلك تبعاً للطبري وابن الأثير ، ويقول اليعقوبي (السنة نفسها) : إن القتال كان عند ور آن (هوتسما : ورثان) ومن المؤكد أنها « فرشان » يعني « ورثان الشمالية » (انظر الفصل الثالث، الحاشية ١٧) . وتبعاً لابن الأعثم كانت المعركة عند دربند (زكي وليدي، ابن فضلان: ٣٠٥)، ولا يمكن الافتراض أن الرواية مخترعة على أساس أن البلعمي وابن الأعثم ليسا موثقين، أو بسبب أنه لم ينقل شيء عن معركة قادها مروان أثناء ابدائه رأيه عما أبلغه مسلمة الخليفة (انظر مـــا يلي) ويبدو أن هنالك تأكيد مستقل للحادثة (الحاشية ٩٦) .

(٢) ابن الخليفة ، كانت حياته مخفقة وانتهت مأساوياً مع وصول العباسيين للسلطة .

(٣) ابن الوليد الأول .

(٤) البلعمي : ٥٣٤ .

الخلافة » ، وعند المساء أخبر واحد من الخزر الفارين مسلمة بوجود الخاقان في عربة مغطاة بخيمة [1] وحرضه على مهاجمتها ، وتطوع مروان للقيام بهـــذه المهمة ، ولكنها أسندت إلى غيره هو ثابت النهراني [2] فاندفع هذا الضابط نحو الأمام مع مجموعة مختارة من الجند ، وتمكن في ضربة واحدة بسيفه من قطع حبال الخيمة ، وقد جرح للخـاقان ، لكنه تمكن خلال الفوضى من النجاة ، وعندما رأى المسلمون ما يحدث، قاموا في ذلك الحين بحملة جماعية، وأصبحوا في الحال سادة الموقف [3] .

---

(١) زكي وليدي (ابن فضلان ١٢٠) حيث ينقل عن ابن الأعثم وصف هذه العربة ، التي يدعوها المصدر « جداده » (لعلها كلمة خزرية كما يرى زكي وليدي) وكانت أرضها مغطاة بمختلف أنواع السجاد ، وكان غطاء الخيمة من الحرير البروكار ، وعلى رأسها ومانئـــة من ذهب ، وبالنسبة لبقية العربات في قطار أمراء الخزر ، انظر الفصل السابع .

(٢) من المستبعد أن هذا كان قائد حملة سنة ١٠٣ .

(٣) ومع أن رواية البلعمي قد ذكرت بارجيك « ابن الخاقان » والخاقان أيضاً ، لا يمكننا أن نفترض أن الأثنين قد قصدا حيث أن الرواية متداخلة ، وتبعاً لابن قتيبة (المعارف: ١٨٥) قابل مسلمة خاقان الترك (الخزر) وقتله ، وبنى الباب في هذه السنة - ١١٣ هـ - ومن المرجح أنه قامت معركة مع الخزر في سنة ١١٣ هـ كما قيل لنا . ولا تشير الأخبار هذه (انظر أيضاً البلاذري : ٢٠٧ ، فتبعاً له كان مروان مع مسلمة ، وقد أظهر نفسه وميزها في الحرب ضــد الخزر) إلى نصر سعيد في السنة السابقة ، عندما - تبعاً لليعقوبي ، وكما سبق بنا القول - قتل ابن الخاقان وأرسل رأسه إلى هشام ، هذا ونجد من جهة أخرى إنه لمن المشكوك فيه أن زعيما خزرياً آخر قد قتل سنة ١١٣ هـ (ابن الخاقان تبعاً للطبري وابن الأثير ، والخاقان تبعاً لابن قتيبة) أثناء الحملة التي كانت على العموم غير ناجحة ، وكلفت مسلمة - كما يبدو - منصبه ، ومن المحتمل أن مسلمة الذي كان في ذلك الحين قائداً لسعيد أن نال الفخر لما قد وقع في السنة السابقة، ولا شك أن مثل « جاء برأس خاقان » (حاشية ٧٣) أو « أعز ممن جاء برأس خاقان» (الميداني) ولا بد أن هذا المثل يشير إلى واقعة حقيقية ، وهكذا قال فريتاغ في أنه يشير إلى ما حدث في آسية الوسطى في سنة ١١٩ هـ (الأمثال العربية : ١/١٩٥) ففي تلك السنة قتل خاقان الترك (الترغش) بعد هزيمة الأتراك في خصام خاص وقد دفن من قبل شعبه (الطبري : ٢/١٦١٣) وقد أرسلت بعض رؤوس الأتراك وعليها أطواق خاقان إلى هشام (المصدر نفسه : ٢/١٦١٦) لكن ليس هنالك إشارة إلى أن جسده قد امتلكه العرب .

وأصبح الحال بعد انسحاب الخزر يمكن من معالجة مسألة بلدة الباب بكل راحة ، فلقد برهن الموقع أنه حصين جداً ومن المتعذر الاستيلاء عليه بالهجوم المباشر . وذلك على الرغم من وجود المجانيق التي جلبها مسلمة معه لهذا الغرض، ولهذا لجأ مسلمة إلى اعتماد الخطة القديمة في تلويث مصادر المياه مما جعل الخزر يعتقدون بعد يوم واحد من العطش أنه لا أمل في متابعة التمسك بموقفهم، ولهذا غادروا البلدة في الليلة التالية وفروا شمالاً ، ودخل مسلمة مع قواته الباب،حيث أعيد تنظيمها بشكل كامل في الفترة اللاحقة وأوجدت أحياء خاصة للدمشقين والكوفيين والجزريين والحمصيين ، وبنيت الأهراءات للقمح والشعير مع مخازن للأسلحة ، كما وجرى تعيين وال لها [1] ، وأعيد التحصينات ووضعت البوابة الحديدية في مكانها [2] ، ومن الواضح أن هذه الاجراءات قد اتخذت في ضوء حرب مقبلة تقتضي ذلك ووجهت بالأساس ضد الخزر ، وعندما انتهت هذه الاستعدادات رجع مسلمة يريد الشام بعد ما ترك قريبه مروان مسؤولاً عن الولاية وكان ذلك عام ١١٤ هـ .

وترتبط المرحلة الأخيرة من الحروب العربية الخزرية الثانية باسم مروان بن محمد ، فقد قام في أواخر عام ١١٤ هـ [3] (٧٣٢) بحشد جيش وصل إلى أربعين ألف رجل وزحف على رأسه مجتازاً بلنجر ومتوغلاً في بلاد الخزر،وسقط المطر بشكل مستمر وقد قيل بأن مروان أصدر أمره أثناء الحملة بقطع اذناب الخيول بسبب الطين الذي التصق بها ، وأنه من الطين نالت هذه الحملة اسمها [4] ، ولا

---

(١) البلعمي : ٥٣٨ .

(٢) نقل كموسكو عن المؤرخ السرياني ، المصدر نفسه(المتحف البريطاني Add,14,642 (بروكلمان : ٢٣٥) حيث تحدث عن حجارين وفعله في جيش مسلمة .

(٣) الطبري : ٢ / ١٥٦٢ .

(٤) البلعمي ، المصدر نفسه ، انظر حاشية : ٥١ .

نفراً كثيراً عما تم انجازه اللهم إلا أن عدداً من الخزر جرى قتلهوأسر عدد آخر وكان هناك غنائم .

ومَثُل مروان بعد هذا بأمد[1] أمام ابن عمه هشام،وعندما سأله عن سبب مقدمه أجاب بكل جرأة منتقداً جميع الإجراءات التي اتخذت ضد الخزرمنذ هزيمة الجراح ، وقد استخف بشكل خاص بما قام به مسلمة، وأصغى الخليفة الى مروان عندما اقترح إرساله على رأس جيش مؤلف من ۱۲۰،۰۰۰ رجل ، وبدأ هشام وهو مضطر إلى الاسراع باتخاذ قرار حول الموضوع ، بسبب وصول أخبار من الشمال تتحدث عن إصابة سعيد بن عمرو ببصره ، وكان سعيد قد ترك هنالك مسؤولاً عن الولاية ، وقد كتب الآن إلى الخليفة يطلب منه تعيين خلف له[2] ، وعلى هذا نال مروان ما ابتغاه ، وارتحل يريد جبهة القوقاز مع عهد من الخليفة بتعيينه والياً على أرمينية .

وإذا صح ما أخبرنا به من أن سعيداً ظل والياً مدةعامين[3] فإن من الصعب أن نتصور أن مروان قد عاد في عام ۷۳٥/۱۱۷ واتخذ مقراً جـــديداً له في كساك على بعد أربعين فرسخاً من برذعة وعشرين فرسخاً من تفليس[4] وكانت مقاصده الأولى أن يقوم بالهجوم ضد الخزر ، ومع ذلك لم يكن بأمـكانه تنفيذ هذا بالحال ، فكما هي العادة كان هناك بعض الثوار في أرمينيه عليه أن يعالج قضاياهم ، واقتضى هذا بذل جهد قتالي معتبر ، وقضت الضرورة أيضاً القيام بحملة ضد بلاد اللان حيث استولى المسلمون على ثلاث حصون ولربما كانوا محتفظين

---

(١) ابن الأثير،سنة١١٤،ويبدو أن الإشارة هنا إلى أن مروان قد عاد مع مسلمةغلط.

(٢) البلعمي : ٥٣٩ .

(٣) البلاذري : ٢٠٧ ، ويتجاهل الطبري ولاية سعيد (٢/١٥٦٣ ، ١٥٧٣) .

(٤) كذلك البلاذري ، المصدر نفسه . وعند البلاذري كسال وعند البلعمي كسال ، لكن ابن الأعثم الكوفي كساك ويبدو أن هذا هو الصحيح (زكي وليدي ، ابن فضلان ٢٩٦) .

بها[1] ، ويبدو أن هذه العمليات جعلت مروان مشغولاً لمدة تزيد على العام ، لذلك لم يستطع قبل عام ١١٩/٧٣٧ [2] ، أن يملك الحرية ليقوم بتنفيذ مهمته الأساسية في غزو وإخضاع بلاد الخزر إذا كان ذلك ممكناً .

وعندما كان على نية تحريك جيشه ضد بلاد الخزر ، أعلن أنه سيتوجه إلى قتال اللان ، وأرسل رسولاً خاصاً إلى خاقان الخزر الذي أعطى المسلمين هدنه على أساس هذا التصور ، وجاء رسول من عند الخزر ليؤكد هذه الشروط ، وجرى تعويق هذا الرسول في معسكر المسلمين بينما قاموا بانهاء استعداداتهم .

ومهما كانت الآراء حول هذه المباحثات . ينبغي الأخذ بعين الاعتبار أن خديعة مروان جاءت على حساب عدو لئيم وخطير لأسرته وأمته . فإن خطة القائد المسلم وتصوراته جميعها تستحق الإعجاب ، فقد كانت الخطة أولاً بسيطة وفيها أصالة وعبقرية ، فقد استهدفت أولاً تأمين عامل المفاجأة ثم الهجوم في نفس الوقت عبر ممرات دربند ودريل ، وجاء تنفيذ هذه الخطة ناجحـــاً على العموم ، فقد ملك مروان زمام الأمر وكان تحت تصرفه قوة كبيرة لربما وصل تعدادها إلى مائة وخمسين ألف رجل [3] من متطوعة أهل ديوان ، وقد زحف علي رأس الجزء الأساسي عبر ممرات دريل ، وزحف في الوقت نفسه جيش آخر من الباب تحت لواء أبي يزيد أسيد بن ظافر السلمي ، ولا بد أن الخاقان قد بقي مدة طويلة مع مستشاريه على غير يقين مما يجري ، وكانت الأوامر الصادرة إلى

---

(١) الطبري : ٢ / ١٥٧٣ .

(٢) قدم ابن الأثير روايته الرئيسة عن حملة مروان في حوادث سنـــة ١١٤ هـ ، لكن هذا مبكر جداً ، وقد كرر الرواية باختصار في حوادث سنة ١١٩ هـ ، ولا يوجد عند الطبري أكثر من حقيقة قوله إن مروان كان سنة ١١٩ هـ والياً لأرمينية وأذربيجان (١٦٣٥/٢) ، لكن من مراجعه ابن تغري بردي ٣١٤/١ تظهر أن هنالك اجمـــاع على أن حملة مروان كانت سنة ١١٩ هـ / ٧٣٧ م (أرتمونوف ٧٣٨).

(٣) كذلك البلعمي : ٥٣٩ .

أبي يزيد تقضي بأن يتوقف عند سمندر ، وهو موقع له أهمية لكن ذكريات مروان فيه لم تكن متوافقة ذلك أن التراجع الكبير لعام ١١٣ هـ قـــد بدأ من سمندر، فلقد شهدت هذه البقعة اضطراب أمر الجراح ومسلمة كذلك ، فما من جيش عربي استطاع أن يتوغل إلى أعمق من هذه النقطة [١] . ويبدو أن نوايا مروان استهدفت في هذه المناسبة الوصول إلى سمندر على رأس قوة مثل قوته لا يمكن صدها ، وحمل الغزاة فوق كل العقبات إلى قلب بلاد الخزر .

وجاز الجيش الشمالي بلنجر ، واجتمع الجيشان في غايتيهما ضد مقاومة غير معتبرة ، وعندما تم الوصول إلى سمندر [٢] جرى عرض عظيم للجيش ، وخرج الجيش - كما أخبرنا - متوشحاً جميعه بالبياض شعار الدولة الأموية - ويحمل أفراده رماحاً جديدة [٣] ، يمكن أن يكون هذا قد صنع بعيداً عن القواعد وهو أمر لا توجد إشارة حوله ، فلربمـــا رأى مروان أنه من المفيد حمل قطار من الاثقال معــــه ، في سبيل إعطاء الزحف على سمندر مكانة علوية لدى كل جندي في جيشه .

وجرى الاحتفاظ برسول الخزر ، حتى آخر لحظة ممكنة ، ثم استدعاه مروان ، وقام بتوجيه الشتائم إلى الخزر ، ثم أعلمه باعلان الحرب ، وحتى بعد هذا كله أرجع الرسول عبر طرق ملتوية لكسب ما أمكن من الوقت [٤] وعندما وصل الرسول أخيراً إلى سيده ، كان مروان قد توغل عميقاً في بلاد الخزر ، وقام الخاقان - وقد خشي مما جاءه خشية كبيرة - بجمع مستشاريه وطلب منهم

---

(١) ما عدا امكانية اغارة احدى السرايا ، انظر ما سبق .

(٢) البلعمي : المصدر نفسه .

(٣) كذلك عند ابن الأعثم الكوفي نقلاً عن زكي وليدي ، ابن فضلان : ٢٩٦ ...

(٤) ابن الأثير : سنة ١١٤ .

ابداء الرأي [١] وإعطاء النصيحة، وكان أفضل ما أوصوه به الفرار من العاصمة على أساس أنه كان ميئوساً من القدرة على التصدي للمسلمين ومن غير الممكن الانتظار حتى يمكن جمع قوة كبير للقتال ، وبناء عليه انسحب الخاقان شمالا نحو الجبال (Urals) وتركت عاصمته مغطاة بقوة مختارة ذات حجم معتبر وزحف مروان من سمندر ووصل بعدحين إلى مشارف البيضاء [٢] حاضرة الخزر يومذاك كما دعاها العرب ، لكنه لم يحاول حصارها ، وعوضاً عن ذلك انحرف عنها وزحف نحو الشمال على طول الضفة اليمنى لنهر الفولغا .

وكان يوجد في أعالي بلاد الخزر مستوطنات تعود إلى شعب كان يدعي باسم برطاس ، وقد امتدت هذه المستوطنات مسافة طويلة وصلت حتى مناطق بلغار الفولغا [٣] وكان هذان الشعبان ـ برطاس والبلغار ـ تابعين لامبراطورية الخزر في ذلك الحين كما كان الأمر بين حين آخر ، وتعرض البرطاس حينئذ إلى هجوم المسلمين بشكل مباشر وعانوا من ذلك عناء كبيراً ،فلقد قيل بأن عشرين ألف أسرة أخذت أسرى وأجبرت على الهجرة جنوباً [٤] ، وأحدث المهاجرون فوضى كبيرة أيضاً بين قطعان الخيول في تلك المنطقة [٥] .

وساير في الوقت ذاته الجيش الخزري السابق الذكر ـ تحت قيادة قائد اسمه هزار طرخان ـ مروان مسايرة فلاحقه على الشاطىء الآخر للفولغا [٦] ، وجاء

---

(١) ابن الأثير : السنة نفسها ، فهناك يتحدث عن « ملك الخزر » ، انظر البلاذري : ٢٠٨ حيث عنده « عظيم الخزر » ، وسنذكر الاجتماع ، انظر ما يلي .

(٢) كذلك ابن الأثير ، وابن تغري بردي ، وابن الأعثم الكوفي .

(٣) انظر الفصل الخامس .

(٤) البلاذري : ٢٠٨ . ابن الأعثم الكوفي ، المصدر نفسه .

(٥) البلعمي : ٥٤٠ .

(٦) ابن الأعثم الكوفي ، المصدر نفسه .

الوقت الذي قدر مروان أنه بات مناسباً لحرب الخزر ، وقد عهد بعبور النهر إلى ضابط شامي اسمه كوثر بن الأسود العنبري صدرت إليه الأوامر بادامه مراقبة العدو والبحث عنه ونصب الكمائن له أينما وجده ، واقترح مروان أن يقوم هو نفسه بالعبور فيما بعد ، عندما يمكن أخذ العدو بينهما ، وكان كوثر مكرهاً على التحرك (كما هو متصور أن يكون) ، ولكن مروان كان لايقبل الانتظار ، ومن المقدر أن نوعاً ما من أنواع الجسور [1] قد بنى على الفولغا ، الذي أمكن للجماعة الأولى من المسلمين العبور عليه ، وقد صادفت مجموعةمن الصيادين الخزر فقهرتها وقتلتها ، وبينما كانت المجموعة العربية تستعد للعسكرة لإمضاء الليل على حافة الغابه بعد أن تركت السهوب خلفها [2] شهدت الدخان يتصاعد من وسطها وهنا قدر المسلمون – وأصابوا في تقديرهم كما تبرهن على ذلك الأحداث ـ بأن ذلك صادر عن جيش الخزر ، واندفع كوثر ورجاله نحو الأمام فأطلوا على معسكر الأعداء ، وحمدا الله كان من فيه غافلاً عنهم لا يتوقـــع وصولهم لذا حازوا منه على نصر حـاسم . وعرف كوثر من الأسرى أن قائد جماعة الصيادين التي صادفوها من قبل كان هزار طرخان نفسه ، ولم يكن هنالك قتال آخر شرقي النهر أو غربيه ، والتحق كوثر ثانية بقائده وقام الخاقان بعد أن وجد القوات التي كانت متوفرة لديه قد دمرت بمراسلة مروان يطلب الصلح ، وعرض عليه مروان كما قيل خيارين واضحين هما : الإسلام أو السيف ، وطلب الرسول إمهاله ثلاثة أيام حتى يعود بالجواب النهائي ، مما يشير إلى أن الخاقان لم يكن بعيداً ، ومع انتهاء المهلة عاد الرسول ليعلن أن الخاقان على استعداد لقبول الإسلام .

وطلب الخاقان في رسالته إليه من يعلمه الإسلام ، وأرسل مروان إثنان

(١) انظر زكي وليدي ، ابن فضلان : ٣٠٠ ، الحاشية ١ .

(٢) أكد ابن رستة / ١٤٠ / السمة الحرشية لبلاد برطاس .

من الفقهاء هما : نوح بن السائب الأسدي وعبد الرحمن الخولاني [1] ، ويبدو أن موضوع المناقشات الرئيسي كان حول الامتناع عن تناول بعض أنواع الطعام : اللحم النجس ، ولحم الخنزير والخمر ، وطلب الخاقان أن يسمح له بشكل خاص باللحم والخمر ، وقاد هذا المطلب إلى خلاف بين الرفيقين ، وأخبر الخاقان في النهاية بأن التحريم نهائي ، وأعلن الخاقان عن استعداده للقبول بما قضت به الأحكام ، ولم يعد هنالك المزيد من العوائق وأعلن الخاقان عن إسلامه .

وإذا ما خمنا نوايا مروان ، فإنه كان يريد معاملة بلاد الخزر مثل الإمارات الصغيرة في القوقاز تلك التي أصبحت مستقلة عندما تقبل حكامها دين الخلافة . لكن بلاد الخزر كانت ذات شأن آخر ، فقد بدأ الحال أن الوالي العربي الذي سيعين عليها سيحتاج إلى جيش قوي دائم فذلك ضروري للاحتفاظ بالبلاد ولا شك أنه كان بإمكان مروان في تلك الساعة تقديم الأمرين المرغوب بهما أي الوالي والجيش القوي ، لكنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل ، ومن الممكن تقدير الاعتبارات التي أقامها تقديراً ، فلعله رأى الاضطرابات الداخلية مقبلة في داخل الدولة ورغب بالاحتفاظ بعدد كبير من العساكر وتوفيرها للطوارىء ، وأمل في أن يكون قادراً على حكم بلاد الخزر من خلال خاقان مسلم ، ولما أشرف الخاقان الخزري على عاصمته ، ودعه مروان وزحف جنوباً مع جيشه المنتصر وقطار طويل من الأسرى [2] ، وهكذا انتهت « غزوة السابحة » وهو الاسم الذي أطلق على الحملة [3] .

---

(١) البلعمي ، ابن الأعثم الكوفي .

(٢) استقر الأسرى الخزر « فيا بين سمور و (نهر) شابران في الأراضي المنخفضة للكز » ، وقد أرسل البرطاس إلى خخيط (كخيتيا) حيث قتلوا أميرهم (المسلم) وهربوا ، لكنهم أمسكوا من قبل مروان وقتلوا (البلاذري ، المصدر نفسه).

(٣) ابن تغري بردي ، المصدر نفسه .

ولعله من الصعب تجنب الشعور بأهمية ما حصل ، إذ أن هناك أشياء كثيرة لا بد أن تصدر عن النجـاح الإسلامي ، ولا شك أن مروان كانت لديه أسباب وجيهة للانسحاب ، فقد كان عمله من إحدى وجهات النظر طبيعياً ومنطقياً ، فقد طبق على بلاد الخزر سابقة كان متعارفاً عليها ، والمقصود بذلك قاعـــدة الإمارات القوقازية ، فلقد عاش في أيام ليست أيام الجيل الأول من المسلمين ، عند ما كانت تقوم مشاكل جديدة فتبدع لها حلول جديدة ناجحة في التطبيق وحين طبق مروان هذه السابقة برهن - أو هكذا يبدو - أن تصوراته السياسية لم تكن بأي شكل من الأشكال بمستوى عبقريته العسكرية ، فلقد وجدالعرب في هذا الوقت الفرصة لإزالة ما كان منذ البداية عقبة دائمة في طريق تقـدمهم أو خطراً على أمنهم ، وبدا أن هذه الفرصة قد قذفت جانباً من قبـل الرجل الذي صنعها ، وهي فرصة لم تأت ثانية ، إذ كتب لبلاد الخزر ألا تكون ولاية مسلمة ، بل أن تبقى كا كانت عقبة في وجه العرب ووسيلة تهـديد عظمى لهم وذلك حتى يوم سقوطها بعد ذلك بوقت طويل على أيدي أخرى غير عربية .

ويمثل ما تبقى من ولاية مروان ما له قيمة ضئيلة مباشرة بشكل عامبالنسبة لتاريخ الخزر ، فلقد أمضيت السنتان أو الثلاث التي تلت سنة ١١٩ هـ / ٧٣٧ م في عمليات عسكريه ضد أفار السرير ومجموعات أخرى [١] ، وفي الوقت نفسه ترك خاقان الخزر - كما يبدو - لنفسه، وأما بالنسبة لما كان يحدث في بلاد الخزر نفسها فيمكنأن نجد ما يدللعليه في العمل الذي كان يقومبه رجل اسمه أويس ابن مضار [٢] ، الذي كان مقدمـــاً لجماعات اللكز (Lesgians) إذ رفض الخضوع ، واعتصم في قلعته فحوصرت القلعة ، وترك القلعه كما يبدو في عام

(١) البلعمي : ٥٤١ ... البلاذري : ٢٠٨ ... ابن الأثير ، سنـــة ١١٤ هـ وكرر ذلك في سنة ١٢١ مع آثار في مكان ثالث ، سنة ١١٨.

(٢) البلعمي : ٥٤٠ . ابن الأثير ، سنة ١١٤ وسنة ١١٨.

١٢٢ هـ/ ٧٤٠ م وهرب منها ليلاً مع عدد من أصحابه وكان ينوي الالتحـــاق « بملك الخزر » ويبدو أن أويس هـــذا كان يراسل بعض الأسرى الخزر الذين أسكنوا حديثاً في المناطق المجاورة [١] له ، وأنه رأى في هذه الآونة الخاقان قد صار بإمكانه اتباع طريق مستقل ، وإذا صح أن عام ٧٤٠ هو التاريخ المضبوط لتحول الخزر إلى اليهودية [٢] ، وهو لا شك صحيح ويستخلص هذا من رواية عرضيه للبلاذري بأن مروان قد عين في هذا الوقت شروان شاه في وظيفة عاليه في « أن يكون في المقدمة إذا بدأ المسلمون بغزو الخزر [٣] » .

وللوهلة الأولى ، لا يشك بأن الخاقان أصبح مسلماً في عام ٧٣٧ م ثم تهود بعد ثلاث سنوات وهذا على الأقل أمر مدهش [٤] ، ولقد سبق وقيل بأن الأمرين يحملان شيئاً من العلاقة ببعضهما البعض[٥] ، وما زال علينا أن نبحث في مكان آخر تاريخ تحول الخزر إلى اليهودية .

وينبغي في نفس الوقت إدراك أن ظاهرة نادرة بهذا القدر في جميع التاريخ قد تصبح أكثر فهماً لو أن الوضع الديني والسياسي في بلاد الخزر كان مضطرباً اضطراباً شديداً قبل عام أو عامين ، وينبغي أن يقام الاعتبار هنا إلى أن قصة الخلافات والمناقشات الدينية التي قامت تبعاً للمصادر العبرية أمام الخاقان قبل تحوله إلى اليهودية ، مما يمكن ربطه بوجود بعض المشايخ الذين أرسلهم مروان . ولقد ورد[٦] أن رجلاً اسمه عبد الرحمن بن الزبير قد جاء ذكره في الحديث على

---

(١) انظر الحاشية : ١٢١ .

(٢) انظر بشكل خاص الفصل السادس .

(٣) البلاذري : ٢٠٩ .

(٤) إذا كان يهودياً سنة ٧٣٧ م ، أو أقل من ذلك ، انظر ما سبق حوادث سنــة ٧٣٠/١١٢ .

(٥) مرقوارت : ١٣ .

(٦) زكي وليدي ، ابن فضلان : ٣٠٧ .

أنه واحد من بين ثلاثة رجال قاموا بتحويل ملك البلغار إلى الإسلام ،وان عبد الرحمن الخولاني كان أحد الفقيهين اللذين كانا مع الخاقان ، غير أننا لا نستبعد أن ما حصل هو أن هذا الرجل انسحب من بلاد الخزر بعدمـا أخفق في بعثته التبشيرية فاتجه بحظ أوفر وتوفيق إلى بلغار الفولغا .

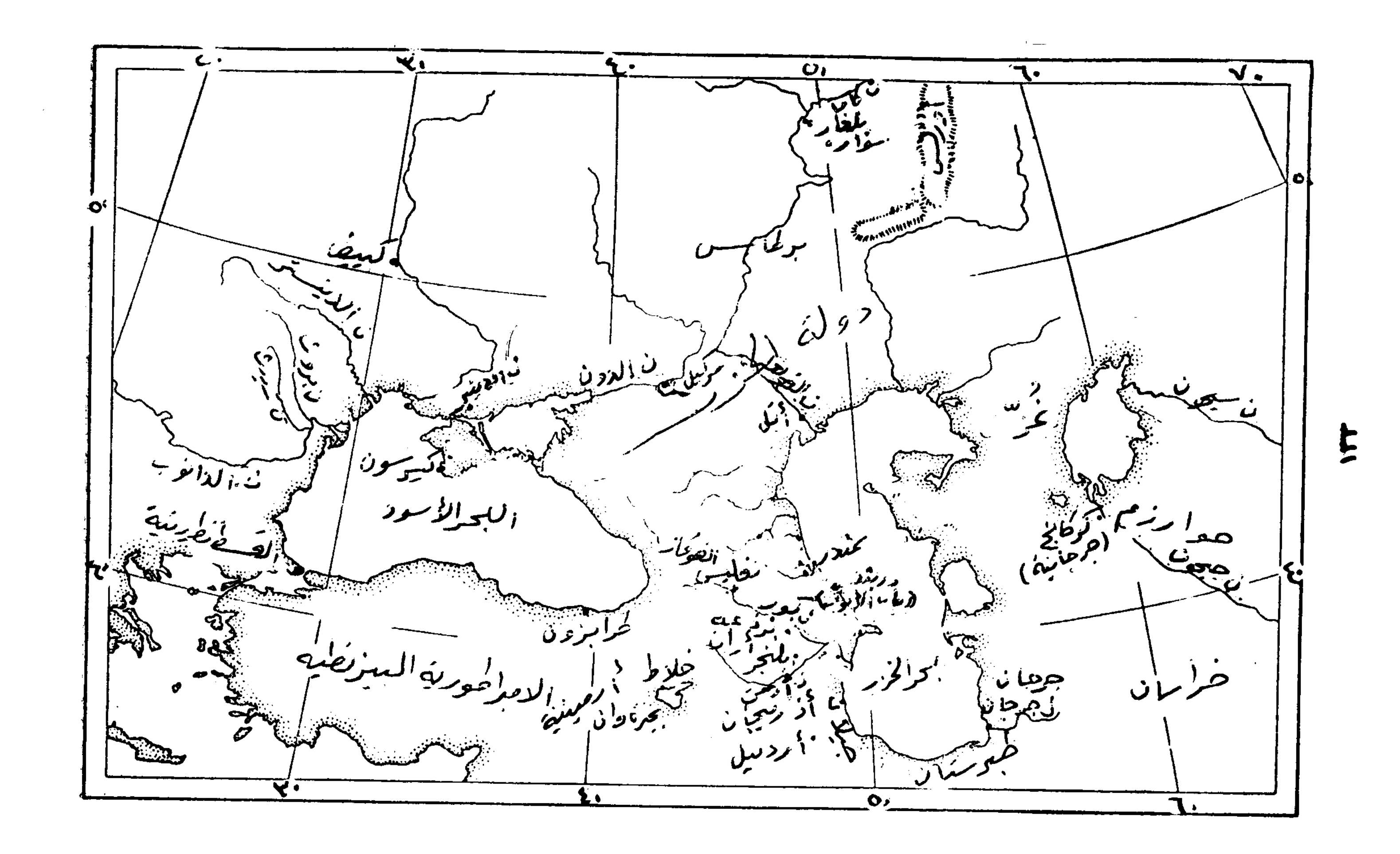
وقد سلف ولاحظنا أن مروان كان قد انشغل لبعض الوقت بعد عودته من بلاد الخزر في حربه وإخضاعه لملوك الجبال ، لكنه كان كما يبدو ينوي استئناف العمليات العسكرية ضد الخاقان في موعد لاحق ، ولا نجد في أي مصدر أنه قد فعل ذلك ، ذلك أن الاضطراب وعدم الرضا عن ولايته قـد انتشر بين السكان وكان عليه معالجة قضية حركة خارجية قوية . ولقد احتفظ بمنصبه في الولاية حتى وفاة هشام (١٢٥ / ٧٤٣) وبعد ذلك خلال فترتي حكم الوليد الثاني ويزيد الثالث القصيرتين ، لكن ما من عمـل قد اتخذ ضد الخزر كما يبدو .

ولا شك أن هؤلاء الخزر قد استفادوا من الفرصة المتوفرة واستغلوها لتمتين أوضاعهم ، ولا سيما تفجر الأحداث وتفاقمها بعد ١٢٩ / ٧٤٤ ، وهي السنة التي ترك مروان فيها ولايته عازماً على نيل الخلافة . ولعله ليس من المغالاة القول أن الصراع الأسري اللاحق بين الأمويين والعباسيين قد أنقذ دولة الخزر وحماها ، فلقد كان من بين نتائج الثورة (العباسية) كما نرى بـين المحصلات ، إيقاف التوسع الإسلامي في القوقاز بشكل أبدي .

ومهما يكن الحال لقد كان لهذا الوضع نتائج وفعاليات أوسع ، فمع فترة سنة ١١٤ / ٧٣٢ أيام خلافة مروان كانت الجيوش المسلمة مشتبكة في نفس السنة في كل من شمالي جبال البيرينه (البرانس) وفيما وراء القوقاز ، هذا وليس هناك من برهان على وجود جهد مشترك مخطط له ومصمم من قبـل الخلافة وتحت إشراف الخليفة في دمشق ، ذلك أن احتمالات العكس هي الأقوى . لكن يمكن

التقدير أن التهديد الموجه لأوربة والمسيحية لم يكن خطيراً مثله آنذاك ، حتى عندما سقطت القسطنطينية ، أو عندما وقفت الجيوش التركية على أبواب فينا، فلقد أخفقت المحاولتان المزدوجتان لذلك العام ، ففي الغرب هزم شارل مارتل الفرنجي عبد الرحمن (Abderame) بن عبد الله الغافقي في معركة تور (بلاط الشهداء) ورد الغزاة نحو الجبال [1] ، وكانت حرب مروان في القوقاز مجهضه، لكن كما رأينا كان مروان ثانية في عام ١١٩ / ٧٣٧ في بلاد الخزر ، ووصل هذه المرة ، إذا كان لنا أن نصدق مصادرنا - إلى مفتاح النجاح ، ولو أن بلاد الخزر جرى إخضاعها واحتلالها بشكل دائم من قبل مروان أو من قبل واحد من خلفائه لشهدت السنوات التالية بلا شك حملات إسلامية كبرى على الدون والدينبر وصحيح أن العرب أخفقوا في الغرب ، لكن كان بإمكانهم أن يكونوا منتصرين في شرقي أوربة ، ومن الواضح أن المجال الذي تمكنت بلاد الخزر من البقاء فيه حية كان ضيقاً جداً ، لا بل هامشياً ، لكنها على كل حال بقيت حية ، وبالتالي جرى تثبيت حدود الإسلام في هـذا الاتجاه فوق القوقاز بشكل دائم .

(١) حتى تاريخ العرب . الطبعة الثالثة : ٥٠١ . حيث أشار أنـه حتى بعد معركة بلاط الشهداء استمرت عمليات العرب في بقية أجزاء فرنسا .


كييف
ن. الدنيبر
ن. الدانوب
القسطنطينية
خيرسون
البحر الأسود
ن. الدون
دولة
برطاس
بلغار
سوار
أتل
خوارزم
ن. جيحون
خراسان
جرجان
طبرستان
بحر الخزر
أذربيجان
أردبيل
تفليس
طرابزون
خلاط
أرمينية
الامبراطورية البيزنطية

الفصل الخامس

تحول الخزر إلى اليهودية تبعاً للمصادر العربية

لا يوجد بالعربية رواية واحدة مشهورة ومعتمدة حول تهود الخزر ولربما كانت أكثر الروايات شهرة وتفصيلاً هي الرواية التالية المنقولة من كتاب مروج الذهب ، الواسع الشهرة ، للمسعودي ، وكان المسعودي قد بدأ بتصنيفه سنة ٣٣٢ / ٩٤٣ ، وأنهاه في سنة ٣٣٦ / ٩٤٧ ،يقول المسعودي : « وفي هذه المدينة (يعني أتل ، عاصمة دولة الخزر على الفولغا) خلق من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية ، فأما اليهود فالملك وحاشيته والخزر من جنسه ، وكان تهود ملك الخزر في خلافة هارون الرشيد ، وقد انضاف إليه خلق من اليهود وردوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم ، وذلك أن ملك الروم في وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة (٩٤٣/ ٩٤٤ م) وهو أرمنوس (يعني رومانوس ليكابينوس) نقل من كان في ملكه من اليهود إلى دين النصرانية وأكرههم ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب كيفية أخبار ملوك الروم وأعدادهم،وأخبار هذا الملك ومن قد شاركه (أي قسطنطين بورفي روجنتوس) في ملكه في هذا الوقت المؤرخ ، فتهارب خلق من اليهود من أرض الروم إلى أرضه على ما وصفنا ، وكان لليهود مع ملك الخزر خبر ليس هذا موضع ذكره، وقد ذكرناه فيما سلف من كتبنا »[1] .

وإنها لمسألة ذات ارتباط تلك التي أشار إليها المسعودي في كتابه هنا ذلك

---

(١) مروج الذهب : ٢/٨ - ٩ ، ولقد اتبعت ترتيب مخطوطة البودليان ، مارش ٢٤٣ (١/٧٩٢) وهي التي تولى ترتيبها الأستاذ كاهل .

أن روايته في حكم المفقودة الآن ، ولقد جاء في كتاب الدمشقي (٧٢٧/١٣٢٧) ما يلي : « ما حكاه ابن الأثير أن صاحب قسطنطينية أيام هارون الرشيد أجلى من كان في مملكته من اليهود فقصدوا بلد الخزر ، فوجدوا قوماً عقلاء ساذجين، فعرضوا عليهم دينهم ، فوجدوهم أصلح مما هم عليه فانقادوا إليه »[١] .

وأشار مرقوارت الذي بحث بدون نجاح عن النص لدى ابن الأثير ،أن المعني هنا ليس ابن الأثير بل المسعودي [٢] ، زد على هذا البكري الأندلسي (٤٨٧ / ١٠٩٤) قد ذكر أن السبب في تحول ملك الخزر إلى اليهودية ، هو أنه كان قد اعتنق المسيحية أولاً ثم أدرك خطأ معتقده، وشرع بالحديث مع واحد من ولاته حول الهم الذي شغل خاطره ، وقد قال له الوالي : أيها الملك إن أهل الكتاب يشكلون ثلاث جماعات ، ادعهم واسألهم ، ثم اتبع الذي يملك الصدق أكثر من سواه ، وهكذا طلب من المسيحيين أن يبعثوا إليه بأسقف من عندهم ، وصار معه الآن يهودي بارع في الجدل ، تناظر مع الأسقف وسأله : ماذا تقول عن موسى بن عمران والتوراة التي أنزلت عليه ؟ وأجابه الأسقف : موسى كان نبياً والتوراة صحيحه ، وهنا قال اليهودي للملك : لقد أقر بصحة عقيدتي ، وسأله الملك عن ذلك فقال : المسيح عيسى بن مريم هو الكلمة، وقد أصبح هذا معروفاً باسم الرب ، وعند ذلك قال اليهودي مخاطباً ملك الخزر : إنه يؤمن بعقيدة لا أعرفها ، وذلك في الوقت الذي يقر فيه بما عرضته،ولقد كان الأسقف ضعيفاً في عرض حججه ، لذلك استدعى المسلمين فبعثوا له برجل عالم وذكي يفقه بالمناظرة،ولذلك اكترى اليهودي من قام بدس السم له وهو في طريقه»[٣] .

ومهما يمكن قوله عن محتوى هذه القصة ، فإنها تفيدنا بقيام مناظرة دينية

---

(١) صورة الأرض ، تحقيق مهرن : ٢٦٣ .

(٢) مرقوارت : ٦ .

(٣) تحقيق كونك وروسن : ٤٤ (ترجمة مرقوارت : ٧ - ٨).

قبل تحول الخزر إلى اليهودية ، وهي لذلك رواية فريدة في بابهـــا في المصادر العربية المتوفرة. هذا وينبغي الاهتمام بالدور الذي شغلته شخصية خزرية أخرى هامة، وهذا واضح في الروايات العبرية[1]، ففي هذه الروايات لم يكن الملك هو الذي اقترح عقد المناظرة ، وإذا صح الافتراض ـ كما ذهب مرقوارت ـ أن رواية البكري هي بالأساس منقوله عما جاء في رواية المسعودي المفقودة ،يمكننا عندها دمجها مع ما سبق ونقلناه عن المسعودي حين ذكر أن عملية التحول جرت بعد مناظرة قامت أمام ملك الخزر ، وأن ذلك حدث ليس بعد سنة ٨١٩ م « سنة وفاة هارون الرشيد » ولا تتوافق هذه المحصلة مع الروايات اليهودية ، فتبعاً ليهودا هاليفي في كوسري Cosri (كزاري Kuzari) جـــرت عملية التحول بعد المناظرة حول مكانة : اليهودية والمسيحية والإسلام ، الأمر الذي كان المؤثر في القضية ، (والموضوع الرئيسي لجزء كبير من رد يوسف) وذلك سنة ٧٤٠ م ، وقد يصل الفارق بالتأريخ بالنسبة لما ذكره المسعودي إلى أقل من خمسين عاماً (أصبح هارون خليفة في سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦) وعلى اعتبـــار أن المسعودي ـ بلا شك ـ كتب بتسرع [2] بعد قرن ونصف القرن من أيام هرون، لا يمكن أن نأخذ تحديداته بشكل جدي كبير .

وعلينا الآن أن نرى المزيد من الشواهد في المصادر العربية من أجل تحديد تاريخ التحول والظروف التي جرى في ظلها هذا التحول ، ومن الملائم أن نبدأ مع الاصطخري الذي جاء في روايته قوله : [3] « وأما الخزر فإنه اسم الإقليم ،

---

(١) انظر الفصل السادس .

(٢) انظر مرقوارت : ٣٥ .

(٣) تحقيق دي غوية : ٢٢٠ – ٢٢٦ . وقد استخدمت مجموعة مخطوطات لشافر – بيتي، ترتيب الأستاذ كامل (ك) .

وقصبته تسمى إتل [1] ، وإتل اسم النهر الذي يجري إليه من الروس وبلغار ، وإتل قطعتان : [2] قطعة على غربي هذا النهر المسمى إتل وهي أكبرها، وقطعة على شرقيه [3] ، والملك يسكن في الغربي منها ، ويسمى الملك بلسانهم (بك) ، ويسمى أيضاً (باك) ، وهذه القطعة مقدارها في الطول نحو فرسخ ، ويحيطبها سور إلا أنه مفترش البناء ، وأبنيتهم خركاهات لبود إلا شيئاً يسيراً بني من طين [4] ، ولهم أسواق وحمامات ، وفيها خلق من المسلمين يقال إنهم يزيدون على عشرة آلاف مسلم ، ولهم نحو ثلاثين مسجداً ، وقصر الملك بعيد من شط النهر ، وقصره من آجر [5] ، وليس لأحد بنـــاء من آجر غيره ، ولا يسوغ الملك لأحد أن يبني بالآجر ، ولهذا السور أبواب أربعة ، منها إلى ما يلي النهر ، ومنها إلى ما يلي الصحراء على ظهر هذه المدينة [6] وملكهم يهودي يقال إن له من

---

(١) ضبطها دي غويه « إتل » لكن الشكل العربي الأصح والضبط المعروف هو « أتل » وأحياناً « آتل » وفي العبرية « اتل » (رد ابن داود ، النص الطويل) و « تل » في « وثيقة كمبردج» ، « اتل » (الداد – ها – داني) دائماً مع (ودائماً قرب النهر) وآمل في طبعة باريس من مروج الذهب هي متاهة حقة كان ما يزال لها تأثيرها.

(٢) كانت المدينة تبعاً لآخرين تتألف من ثلاثة أقســـام ، ويقترح بري أن الجزء الغربي من المدينة ضم جزيرة عاش عليهـــا – تبعاً للمسعودي – (انظر ما يلي) الملك (الامبراطورية الرومانية الشرقية : ٤٠٣) .

(٣) ابن حوقل (تحقيق دي غويه : ٢٧٨) حيث يضيف أن اسم الجزء الغربي « أتل » والجزء الشرقي « خزران » ونجد في الطبعة الثانية (كريمر : ٣٨٩) الجزء الغربي اسمه خزران والجزء الشرقي أتل ، ويبدو كريمر أراد أن يظهر أن دي – غويه وقع بالخطأ ، ولقد قال ابن حوقل في أماكن أخرى (ط. كريمر : ١٥) إنها كانت مدينة صغيرة.

(٤) قيل بأن البيوت القديمة في المدينة المزدوجة كانت من الخشب . انظر مرقوارت : ١٨ وبرى ، المصدر نفسه ، انني لا أعرف على أي شيء اعتمدا(من الصعب القول المقدس: ٣٦١).

(٥) من المعقول الاشارة إلى أن القلعة قد بنيت في وقت ما بعد بناء ساركيل على الدون (انظر ما يلي ٧ الفصل السابع) وتقليداً

(٦) جملة مضافة في (ك) .

الحاشية نحو أربعة آلاف رجل، والخزر مسلمون ونصارى[1] ويهود، وفيهم عبدة أوثان ، وأقـل الفرق اليهود ، وأكثرهم المسلمون والنصارى ، إلا أن الملك وخاصته يهود .

والغالب على أخلاقهم أخلاق أهـل الأوثان ، يسجد بعضهم لبعض عند التعظيم ، وأحكام خصوا بها على رسوم قديمة مخالفة لدين[2] المسلمين واليهود والنصارى ، وللملك من الجيش[3] اثنا عشر ألف رجل ، وإذا مـات منهم رجل أقيم آخر مكانه ، وليست لهم جراية دارة إلا نزر يسير ، يصل إليهم في المدة الطويلة ، إذا كان لهم حرب أو حَزَبَهُمْ أمر يجتمعون له .

وأبواب مال هذا الملك[4] من الأرصاد وعشور التجارات على رسوم لهم من كل طريق وبحر ونهر ، ولهم وظائف[5] على أهـل المحال والنواحي من كل صنف، مما يحتاج إليه من طعام وشراب وغير ذلك. وللملك سبعة من الحكام[6]

---

(١) أشير إلى أستيل (أتل) كبلدة خاصعة لمطرانيـة في دورروس تحت اشراف بطريرك القسطنطينية وذلك في وثيقة من القرن الثامن تعرف باسم « أسقفية نوتشيا» (كولكوفسكي)، « الأسقفية القوطية » Zh. M. N. Pr. ١٨٩٨ ، بالروسية . انظر أيضاً فازلييف ، القوط في القدم : ٩٧) وتعرض الوثيقة نفسها الخزر باسم « خوتزيرون » (خوتزرون) حيث « ون » اضافة تعني الجمع . وتجد في ترجمة ستيفن السوداكي في القرم (قرن ثامن) اسم زعيم خزري محلي هو الطرخان جورج الذي كان مسيحياً أرثوذكسياً (تحقيق فازلييف ، نقلاً عن بولياك ، التحول ٢) .

(٢) وواضـح من هذا النص وغيره أن القانون التركي المطبق في بلاد الخزر لم يكن قانوناً يهودياً .

(٣) عند ابن حوقل (ط. كريمر : ٣٩٠) بدلاً من ذلك « جميـع جيش الخزر » .

(٤) كذلك في (ك) .

(٥) في ط. دى غويه « ولهم » وفي (ك) « وله » .

(٦) أنظر فيما يلي المسعودي ، الفصل السابع ، معجم البلدان : ٤٣٧/٢ . وهناك خطأ قوله « تسعة قضاة » .

من اليهود والنصارى والمسلمين وأهل الأوثان ، إذا عرض الناس حكومة قضى فيها هؤلاء ، ولا يصل أهل الحوائج إلى الملك نفسه ، وإنما يصل إلى هؤلاء الحكام ، وبين هؤلاء الحكام يوم القضاء، وبين الملك . سفير يراسلونه فيما يجري من الأمر وينتهون إليه ، فيرد عليهم أمره ويمضونه .

وليس لهذه المدينة قرى إلا أن مزارعهم مفترشة ، يخرجون في الصيف في الزروع نحو عشرين فرسخاً ليزرعوا ، ويجمعوا بعضه على النهر وبعضه على الصحاري ،فينقلون غلاتهم بالعجل وفي النهر ، والغالب على قوتهم الأرز والسمك وهذا الذي يحمل منهم من العسل والشمع إنما يحمل إليهم من ناحية الروس وبلغار ، وكذلك هذه الجلود الخز التي تحمل إلى الآفاق ، لا تكون إلا في تلك الأنهار ، التي بناحية بلغار والروس وكويابه (كييف) ولا تكون في شيء من الأقاليم فيما علمته .

والنصف الشرقي من (عاصمة) الخزر فيه معظم التجار والمسلمين والمتاجر ، والغربي خالص للملك وحاشيته [١] وجنده والخزر الخلص [٢] ، ولسان الخزر

---

(١) اضافة في ك .

(٢) ترجم مرقوارت (٤١ - الحاشية ٢) عبارة Egentliche chazaren إلى الخزر الحقيقيين » معتبراً إياهم « خزراً بيض » الذين ربما يشير إلى وجودهم الاصطخري (انظر ما يلي) آتى ، خزر كما هو مفترض (انظر آكتزير في الفصل الأول) . وبرأي زكي وليدي (ابن فضلان : ٢١٧ مع الحاشية) أن العبارة لا بد أنها تشير إلى الخوارزميين الذين كانوا في خدمة الخزر ، ونقرأ لدى المسعودي وابن حوقل ، الطبعة الثانية ، عبارة « الخزر الخلص » بدلاً من « الخزر الخلص » (الاصطخري وابن حوقل ، ط. أولى) (ولعدم رضاه بهذا استخدم عبارة مرقوارت السابقة ، ابن فضلان : ٢٧٠ . ومن المؤكد أن صيغة الجمع « خلص » قد جاءت مباشرة بعد صيغة المفرد « خالصه » في مختلف الجمل هي محرجة ، على أنه ينبغي أن نلاحظ أنه جاء في مخطوطة تشستر بيتي من الاصطخري (ك) « الخزر الخاص »،ويمكن أن يكون هذا هو الصحيح ، هذا ونجد في ابن حوقل (الطبعة الأولى) « الخاصة » بدلاً من « الخالصة » في (الطبعة الثانية) ، ولعل كلمة « خلص » بصيغة الجمع تعني بالفعل « الأبيض » انظر المادة في القاموس. وإذا صحت صيغة« الخالص» يمكن أن نقارنها بكلمة«الخوالص» التي ورد ذكرها =

غير لسان الترك والفارسية : ولا يشاركه لسان فريق من الأمم[1] .

== مرتان لدى المؤرخ الروسي ٣/٧٩) ، وإذا ما أردنا ربط كلمة « خالص / خوالص » مع خوارزم (باحلال «ر» محل «ل») كما يرى زكي وليـــدي ، فلا شك أن هذا الاسم قد وجد بين الخزر ، انظر وثيقة أسقفية فوتشيا حيث «o» Khoutales مثل «o» Astel (رقم ١٤) و«o» Tanatarkha ، الذين اعتبروا رعايا لمطران دوروس (فازلييف ، القوط في القدم : ٩٩ ، ١٠١ - ١٠٣) . ويتوافق فازلييف مع كولاكوفسكي (المصدر نفسه) حين اعتقد أن مدينة « خوالي » وقعت في بلاد الخزر قرب مصب نهر الفولغا على أساس — تبعاً لفازلييف — رواية عربية عن حملة الروس على بحر قزوين ، التي سنبحثها فيا بعد (الفصل التاسع) . إنني لم أقف على ذكر اسم أي مدينة خزرية في المصادر العربيـــة حيث « خوالي » أو « خوالص » وورد ذكر « خوالينسك » في تلك المنطقة على الفولغا (زكي وليدي ، ابن فضلان : ٢١٧). وهنالك احتمالات أخرى بوجود « خوالص » — كما أشارهورث — (مؤتمر المستشرقين الثالث: ١٣٩/٢) عند منافدر (٣٠٠ ، ٣٨٣) الذي ذكر « خلياتي » أو « خولياتي » ولعل صيغتها الصحيحة « خواليتي » (لكن تبعاً لمرقوارت خواليتي - خلج) خلتش » — انظر مينورسكي، حدود العالم : ٣٤٧) . لكن يبدو أن الاسم وكما يبدو الشعب أيضاً ظلا موجودين حتى بعد سقوط دولة الخزر . فلقد ورد ذكر « الخالصوي » كمجموعة مقاتلة ضد مانويل كومينوس في القرن الثاني عشر (جون سيناموس، ط. بون : ١٠٧ ، نقلاً عن فازلييف ، القوط : ٩٩)، وكانوا قد احتفظوا حتى ذلك الوقت بقوانين موسى لكن ليس بشكل نقي. كما ترجم فازلييف من الاغريقية ، وفي الوقت نفسه تبنى الآخرون « الهون » أي الهنغاريون . ويستخلص من نص آخر من المصدر نفسه (ط. بون : ٢٤٧) أن « الخالصوى » كانوا من رعايا الهنغاريين ، وهنالك قليل من الشك في أنهم هم « الخوالص » الذين كانوا في وقت مضى من الخزر انتقلوا إلى حكم المجر (من أجل هذه المسألة ، انظر الفصل السابع) وتتوافق مسألة مراعاتهم لبعض قوانين موسى مع ما نعرفه أن نستخلصه عن الخزر، ولا يمكن مطابقة اسم أي من الشعوب التي كانت تدفع الجزية الخزر التي ورد ذكرها في رد يوسف الذي سنراه حالاً ، مع الخوالص — الخالص ، المالص ، ولكن من الممكن أن « الأريسو » الذين ورد ذكرهم هناك هم أنفسهم ، وإذا كان الامر كذلك ، فقد كان مقر هذا الشعب أيام الخزر على الفولغا ، ومن المغرى القيام بمطابقات أخرى بين « أريسو » والارسية الخوارزميين (أريسية في نص المسعودي المترجم فيا بعد) وربطهم مع « الآس » (اللان) المتداول الآن أمر غير مؤكد ، ولا يوجد توضيح للملاقات الغامضة بين الخزر والخوارزمية ،وهذا غير ممكن من عبارة « حليس طرخان » الذي كان مقاتلا ، انظر الفصل السابع ، الحاشية : ٤٣.

(١) كدس — جملة كافية — كما يبدو شرح يعني « جملة كاملة » أو كامل .

وأما نهر إتل فإنه فيما بلغني - يخرج من قرب حرجيز ، فيجري فيما بين الكيماكية والغزّية ، وهو الحد بين الكيماكية والغزّية ، ثم يذهب غرباً على ظهر بلغار ، ويعود راجعاً إلى ما يلي المشرق حتى يجوز على الروس ، ثم يمر على بلغار ، ثم على برطاس حتى يقع في بحر الخزر ، ويقال إنه يتشعب من هذا النهر نيف وسبعون نهراً ، ويبقى عمود النهر يجري على الخزر حتى يقع في البحر ويقال إن هذه المياه إذا كانت مجموعة في نهر واحد أعلاه يزيد على جيحون ، ويبلغ من كثرة هذه المياه وغزارتها أنها تنتهي إلى البحر ، فتجري في البحر داخلاً مسيرة يومين ، وتغلب على ماء البحر حتى يجمد في الشتاء لعذوبته وحلاوته ، ويبين في البحر لونه من لون ماء البحر .

وللخزر مدينة تسمى سمندر فيما بينها (العاصمة) [١] وبين باب الأبواب لها بساتين كثيرة ، ويقال إنها تشتمل على نحو من أربعة آلاف كرم إلى حد السرير [٢] ، والغالب على ثمارها الأعناب ، وفيها خلق من المسلمين ، ولهم بها مساجد ، وأبنيتهم من خشب قد نسجت ، وسطوحهم مسنمة ، وملكهم من اليهود قرابة ملك الخزر [٣] وبينهم وبين حد السرير فرسخان [٤] وبينهم وبين صاحب السرير هدنة .

والسرير هم نصارى ، ويقال إن هذا السرير كان لبعض ملوك الفرس ، وهو

---

(١) في النص « فيما بينه » دون أن يسبقها كلام واضح ، مما يشير بعض الاضطراب (انظر ما يلي) .

(٢) يعني إمارة الأفار – انظر مينورسكي – حدود : ٧ : ٤ .

(٣) لعله كان « تودون » كما يقترح مرقوارت : ٢١ ، يعني حاكماً معيناً من قبل السلطة الخزرية المركزية وليس حاكماً وراثياً (انظر زكي وليدي بن فضلان : ١٠٦) انظر حاكم بلنجر (الفصل الرابع ، الحاشية ٣٦) .

(٤) من المدهش أن سمندر هي قزلار يومنا هذا على الترك (زكي وليدي Volkerschaften : ٤٧) ويبدو أن المسافة قصيرة جداً ، انظر مينورسكي ، حدود ٧٢ .

سرير من ذهب لبعض ملوك الفرس، فلما زال ملكهم حمل إلى السرير، وحمله بعض ملوك الفرس ، بلغني أنه من أولاد بهرام جوبين [١] ، والملك إلى يومنا هـذا فيهم ، ويقال إن هذا السرير عمل لبعض الأكاسرة في سنين كثيرة ، وبين السرير وبين المسلمين هدنة وإن كل واحد منهم يحذر صاحبه [٢]، ولا أعلم في عمل الخزر بجمع ناس سوى سمندر [٣] .

وبرطاس هم أمة متاخمون للخزر ، ليس بينهم وبين الخزر أمة أخرى، وهم قوم مفترشون على وادي إتل ، وبرطاس اسم الناحيه ، وكذلك الروس والخزر والسرير اسم للمملكة لا للمدينة ولا للناس .

والخزر لا يشبهون الأتراك ، وهم سود الشعر ، وهم صنفان ، صنف يسمون قرا خزر، وهم سمر يضربون لشدة السمرة - إلى السواد، كأنهم صنف من الهند ، وصنف بيض ، ظاهر والحسن والجمال ، والذي يقع من رقيق الخزر هم أهـل الأوثان ، الذين يستجيزون بيع أولادهم ، واسترقاق بعضهم بعضاً ، فأما اليهود منهم والنصارى فإنها تدين بتحريم استرقـاق بعضهم بعضاً مثل المسلمين ، وبلد الخزر لا يرتفع شيء منه يحمل إلى الآفاق غير الغزي ، وأما الدقيق [٤] والعسل والشمع والخز والأوبار فمجلوب إليها ، ولباس الخزر وما حواليهـا القراطق والأقبيه [٥] وليس يكون عندهم شيء من الملبوس ، وإنما يحمل إليهم من نواحي جرجان وطبرستان وأرمينية وأذربيجان والروم [٦] .

---

(١) ورد ذكر بهرام جوبين وهو نشط على جبهة القوقاز تحت حكم كل من أنوشروان وهرمز الساسانيين .

(٢) حوت (ك) وحدها الفقرة الأخيرة .

(٣) يعني فيما عدا العاصمة الخزرية .

(٤) في النص « الزيبق » لكن « الرقيق » حسبما جاء في (ك) هي المفضلة ، انظر دي غويه : ٢٢٣ .

(٥) يعني ثوب داخلي وخارجي .

(٦) حصل الغز الأتراك كذلك ، تبعاً لابن فضلان : ٢٥ ، على الملابس من أراضي المسلمين جنوب جيحون .

وأما سياستهم وأمر المملكة بهم ، فإن عظيمهم يسمى (خاقان خزر) ، وهو أجلّ من ملك الخزر ، لأن ملك الخزر هو الذي يقيمه [1] ، وإذا أرادوا أن يقيموا هذا الخاقان جاءوا به فيخنقونه بحريرة حتى إذا قارب أن ينقطع نفسه [2] قالوا له : كم تشتهي مدة الملك ؟ فيقول : كذا و كذا سنة ، فإن مات دونها (كان به) ، وإلا قتل إذا بلغ تلك السنة [3] ، ولا تصلح الخاقانيه عندهم إلاّ في أهل بيت معروفين [4] وليس له من الأمر والنهي شيء إلاّ أنه يعظم ويسجد له إذا دخل إليه ، ولا يصل إليه أحد إلاّ نفر يسير مثل الملك ومن في طبقته ، ولا يدخل عليه الملك إلا لحـــادثة ، فإذا دخل عليه تمرغ في التراب وسجد وقام من بعد ، حتى يؤذن له بالتقرب ، وإذا حزبهم حزب عظيم أخرج فيه خاقان، فلا يراه أحد من الأتراك ومن يصاقبهم من أصناف الكفر إلاانصرف ولم يقاتله تعظيما له ، وإذا مات ودفن لم يمر بقبره أحد إلاّ ترجّل وسجد ، ولا يركب ما لم يغب عن قبره ، ويبلغ من طاعتهم للملكهم [5] أن أحدهم ربما يجب عليه القتل - ويكون من كبرائهم - فلا يحب الملك أن يقتله ظاهراً، فيأمره أن يقتل نفسه ، فينصرف إلى منزله ويقتل نفسه . والخاقانية في قوم معروفين ليس لهم مملكة ويسار ، فإذا انتهت الرئاسة إلى أحدهم عقدوا له ولم ينظروا إلى ما عليه حاله،ولقد أخبرني من أثق به أنه رأى في بعض أسواقهم شاباً يبيع الخبز،

---

(١) يعكس ابن حوقل الأدوار ويجعل الخاقان يتولى تعيين البك .

(٢) انظر مواز مدهش في الرواية الصينية المائدة ا « تو - كويه » (ترجمة في سانت - جوليان - المجلة الآسيوية : ٦/٣ (١٨٦٤) / ٣٣٢) .

(٣) انظر ما قاله ابن فضلان عن هـــذا فيا يلي ، والسير . ج. غ فريزر بحث عن الموضوع بعنوان «قتل ملوك الخزر» (فولكلور : ٢٨ - ١٩١٧) وإليـــه نبهني مشكوراً د. ه. غ. فريزر .

(٤) انظر بعد بضعة أسطر . هل كرر الاصطخري نفسه أو هل ذلك إشارة إلى أن روايته عن خاقان الخزر ملفقة .

(٥) أي الخاقان . انظر ابن فضلان ولا سيا ملاحظاته عن أعمال الخاقان بعد الهزيمة .

كانوا يقولون : إن خاقانهم إذا مات فليس أحد أحق منه بالخاقانية ، إلا أنه كان مسلماً ولا تعقد الخاقانية إلا لمن يدين باليهوديه ، والسرير والقبة الذهب[1] التي لهم ، لا تضرب إلا لخــاقان ، ومضاربه ، إذا برزوا فوق مضارب الملك ، ومسكنه في البلد أرفع من منزل مسكن الملك .

وبرطاس اسم للناحية ، وهم أصحــاب بيوت خشب ، وهم مفترشون وبشجرت (البشكير) هم صنفان ،صنف في آخر الغزية على ظهر بلغار ،ويقال إن مبلغهم نحو ألفي رجل[2] ممتنعون في مشاجر لا يقدر عليهم ، وهم في طاعة بلغار ، وبشجرت أخر ، هم متاخمون لبنجاك (بشناق) وهم وبجناك أتراك ، وهم متاخمون[3] للروم ، ولسان بلغار مثل لسان الخزر[4] ولبرطاس لسان آخر ، وكذلك لسان الروس غير لسان الخزر وبرطاس .

وبلغار اسم المدينة وهم مسلمون ، وفيها مسجد جامع ، وبقربهــا مدينة

---

(١) يبدو أن القبة الذهبية مرتبطة مع الخيمة ، العربة التابعــة للخاقان (انظر الفصل الرابع ، حاشية ٩٤) ولم تكن مرتبطة مع الخيمة الذهبية للزعــاء الآخرين (بين الايغور والأورخون في سنه ٨٢١ ، انظر مينورسكي ، تميم : ٢٧٩ ، ٢٩٤ - ٣٠٣٠٢٩٥ .وكذلك بين زعماء الكريات أيام جنكيزخان . انظر رافرتي ، طبقات ناصري : ٩٤٣ ، الحاشية) هذا ولئن أمكن اظهار أن امتلاك خيمة ذهبية كان علامة على السادة ، فإن تفاصيل الموضوع يمكن أن تساعد على ربط الخزر بالايغور (انظر الفصل الثاني) وأتى رد يوسف على « خيمة كنيس » للاستخدامات الدينية بين الخزر في حوالي سنة ٩٦٠ ، لكن لا يوجد سبب محدد لجعل هــذه الخيمة هي قبة الذهب نفسها الواردة لدى الاصطخري .

(٢) ورد الرقم نفســه لدى الكرديزي (تحقيق بارتولد : ٩٥) وتبعاً له كان جد البشكير نبيلاً خزرياً استقر في وقت من الأوقات بين الخزر والكيماك ومعه ألفي رجل .

(٣) بجناق أتراك ، انظر حدود العالم : الفصل ٢٠ .

(٤) لقد اعتبرت لغة البلغار لغة قريبة إلى لغة التشوفاش ، مثالاً على ذلك انظر بارتولد ، الموسوعة الاسلامية ، مادة : بلغار ، ومن هنا يبدو أن الاصطخري كان محقاً في قوله عن لغة البلغار إنها تشابه لغة الخزر وأنها قريبة للغة التشوفاش ، انظر ما يلي .

أخرى تسمى (سوار) فيها أيضاً مسجد جامع ، وأخبرني من كان يخطب بهاأن مقدار الناس بهاتين المدينتين نحو عشرة آلاف رجل ، ولهم ابنية خشب يأوون اليها في الشتاء ، وفي الصيف يفترشون في الخركاهات ، وأخبرني الخطيب بها أن الليل عندهم لا يتهيأ أن يسير فيـــه الإنسان أكثر من فرسخ في الصيف ، وفي الشتاء يقصر النهار ويطول الليل حتى يكون نهار الشتاء مثل ليالي الصيف .

والروس هم ثلاثة أصناف : فصنف أقرب إلى بلغار ، وملكهم يقيم بمدينة تسمى كويابه (كييف) وهي أكبر من بلغار ، وصنف أبعـــد منهم يسمون الصلاوية (سلاف) وصنف يسمون الأرثانية ، وملكهم مقيم بأرثا [1] والناس يبلغون في التجارة إلى كويابه ، فأما أرثا فإنه لا يذكر أن أحداً دخلهـــا من الغرباء ، لأنهم يقتلون كل من وطىء أرضهم من الغرباء ، وإنما ينحدرون في الماء يتجرون فلا يخبرون بشيء من أمورهم ومتاجرهم ، ولا يتركون أحداًيصحبهم ولا يدخل بلادهم ، ويحمل من أرثا السمور الأسود والرصاص [2] والروس قوم يحرقون أنفسهم إذا ماتوا وتحرق مع مياسيرهم الجواري بطيبة من أنفسهم ، وبعضهم يحلق اللحى ، وبعضهم يفتلها مثل الذوائب ، ولباسهم القراطق القصار ، ولباس الخزر وبلغار وبجناك القراطق التامة ، وهؤلاء الروس يتجرون إلى الخزر [3] ، ويتجرون إلى الروم وبلغار الأعظم ، وهم متاخمون للروم في شماليها ، وهم عدد

---

(١) إن صيغة « أرثانيه » « أرثا » ليست مؤكدة - انظر مينورسكي - حـــدود العالم : ٤٣٤ ...

(٢) جملة مضافة في ك .

(٣) لدى ابن خرداذبه (١٥٤) تفاصيل كبيرة منها قوله : « فأما مسلك تجار الروس ، وهم جنس من الصقالبـــة ، فإنهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلب إلى البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم ، وإن ساروا في تنيس نهر الصقالبة (الدون) مروا بخليج مدينة الخزر فيعشرهم صاحبها ، ثم يصيرون إلى بحر جرجان فيخرجون في أي سواحله أحبوا » .

كثير ، يبلغ من قوتهم أنهم ضربوا خراجاً على ما يلي بلادهم من الروم ، وبلغار الداخل هم نصارى.

كتبت هذه الرواية الهامة جداً من قبل الاصطخري في حوالي سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م [١] ، ولا بد أنه أعتمد على بعض من سبقه خاصة على البلخي الذي صنف كتابه سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م أو بعيد هذا بقليل [٢] ، ولكن إلى أي حد اعتمد عليه ؟ نحن في وضع لا يمكننا تبيان ذلك ، ومهما يكن من أمر فمن الواضح أن هذه الرواية كانت شائعة وعظيمة الاستخدام ، وجرى نقلها ككتلة واحدة من قبل الذين خلفوا الاصطخري ، وهكذا نجد أن ما قاله ابن حوقــل عن الخزر وبلادهم هو بشكل فعلي ما رواه الاصطخري (هناك بعض الخلافات بين طبعتي دي غويه و كريمر [٣]) .

واعتمد ياقوت أيضاً اعتماداً كبيراً على الاصطخري ، ولا يتضح هذا للوهلة الأولى ، لان رواية ياقوت عن الخزر مروية عن ابن فضلان ، الذي كان واحداً من رسل المقتدر إلى بلغار الفولغا في سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م ، وقد عرض ياقوت ما رآه ابن فضلان نفسه [٤] ، وهكذا ذكر اولاً أن ملك الخزر يدعى بلغتهم : (يلك أو باك) [٥] ثم ما لبث أن قال فيما بعد إن اسمه خاقان ، ونتيجة لهذا

---

(١) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي : ١/٢٢٩ ، وهو يعطى هناك سنة ٣٤٠/٩٥١ دي غويه (Z. D. M. G. ١٨٧١ : ٥١) وهو يربط نشر هذا الكتاب بهذا التاريخ لكنه يعتقد أنه كتب فيما بين ٣١٨ و ٣٢١ .

(٢) بارتولد في حدود : ١٥ .

(٣) لدى ابن حوقل الذي كان يكتب ٣٦٧/٩٧٧ أحياناً بعض المواد الجديدة خاصة عن الحملة الروسية التي دمرت عاصمة الخزر ، لكنه كان في العادة ينقل عن الاصطخري .

(٤) معجم البلدان : ٢/٤٣٦ .

(٥) من المحتمل أن صيغة Y. L. K. صيغة غلط وليست شكلاً بديلاً . انظر تعليق زكي وليدي (ابن فضلان : ٢٥٧) وهو ليس واضح بالنسبة لي .

وجد بكل بساطة شك ليس في مصداقية ابن فضلان في روايته لكن الأنكى من هذا في مدى إمكانية الاعتماد على رواية من هذا النوع في تقديم أي إيضاح لمشكلة الخزر .

ويبدو أن دي غويه كان أول من لاحظ أن الجزء الأول من رواية ياقوت حول الخزر موجود لدي الاصطخري ، وأنه على الرغم من عزو المادة إلى ابن فضلان فإن الأصطخري هو المصدر [١] ، لقد كانت هذه صورة الحال ، لكن لم يكن هنالك من برهان ، ولذلك فإن كموسكو الذي كان يكتب عام ١٩٢١ ملك المسوغ في عدم اعتماده لهذه الرواية [٢] ، فقد اعتقد كموسكو أن ابن فضلان ملك كثيراً من المعلومات حول الخزر توافقت مع ما أورده الاصطخري ، وكانت هنالك حقيقه لا يمكن نكرانها في أن ياقوت قدم عدة صفحات عزاها إلى ابن فضلان ، وهي نفسها قد ظهرت أيضاً في طبعة دي غويه لكتاب الأصطخري وقد علل كموسكو هذا بالافتراض بأن الأصطخري وابن فضلان قد نهلا من مصدر واحد مشترك ، وقد قال آخرون : بما أن ابن فضلان كتب قبل الأصطخري ، فمن الممكن أن الأصطخري قد نقل عنه ، ورفض كموسكو هذا الرأي على أساس أن قبوله يعني أن الأصطخري قد استبدل رواية بروايه أقل حيوية [٣] ، فقط من أجل الاعتماد على ابن فضلان بالنسبة لموضوع الخاقان (أي الجزء الأخير من رواية ياقوت) ولا شك أن كموسكو كان محقاً في اعتراضه على فراهن وغيزلكون في قوله : إن الأصطخري لم ينقل عن ابن فضلان ، ووجه

---

(١) انظر « وستنفيلد » معجم البلدان : ٥/١٧٣ .

(٢) انظر مقالة : Die Quellen Istachri's in seinem Berichte uber die chasaren . Korosi csoma - Archivum, I (192I), 141.

(٣) انظر عبارته التي تبدأ بـ « بالنسبة لسياستهم » السابقة وقارنها بما جاء عند ابن فضلان الذي سيعرض فيما بعد .

الانتماء إلى الروايات الموازيه التي نملكها حول الخاقان ، لكن نظريته حول مصدر مشترك لابن فضلان والأصطخري (التي أثير ضدها الاعتبار الرئيسي في أن رحالة مثل ابن فضلان كان لا يقوم بالمادة بالنقل عن مصدر سابق مثل هذه الكمية) قد نقضت بوساطة نص نسخة مشهد من ابن فضلان ، الذي نشره زكي وليدي[1] ، فهنا نجد أنه لا يوجد قاسم مشترك بين ابن فضلان والاصطخري ، فعندما شرع ابن فضلان بالحديث عن الخزر نجد جميع ما قاله موجوداً في الجزء الأخير من مادة ياقوت ، وعلى هذا بات من الواضح أن دعوى ياقوت غير صحيحة ، فالجزء الأول من مادته منقول عن الأصطخري لكنه عزاه لسبب ما إلى ابن فضلان ، وبدلا من متابعة رواية ما قاله الأصطخري حول الخاقان أقدم على اثبات ما كتبه ابن فضلان ، ومن الطبيعي أن هنالك فوارق بين الروايتين وتداخل ، ومع ذلك يمكننا الآن استخدام كلتيهما كمصدر مستقل[2] .

ورأى كموسكو أنه من الممكن أن يمضي في فرضيته إلى حد أظهار أن رواية الاصطخري عن الخزر تتألف بالأصل من جزءين ، يشير واحد منهما بوضوح إلى تهوّد الخزر ، ويعود تاريخه إلى حوالي سنة ٨٠٠ م ، وإذا كان من الممكن افتراض شيء من هذا القبيل ، فمن الطبيعي أن تغدو الرواية المتوارثة التي تحدد تاريخ التحول بسنة ٧٤٠ م ، روايه قوية جداً ، ويمكن بالتالي رفض التاريخ البديل(بعيد ٨٥٣ لدى مرقوارت[3] و ٨٦٥ لدى فيرنادسكي[4]

---

(١) ابن فضلان .

(٢) إن ما كتبه الأستاذ هـ. ريترفي (Z. D. M. G. : ١٩٤٢ ، ١٢٦ ، الحاشية) مسوغ من حيث المبدأ ، لكن التناقض بين الجزء الأول من مادة ياقوت والجزء الثاني يدفعنا إلى الإعتقاد أنه لم ينقل عن كتاب المؤلف مباشرة وأن مادته لا تتوافق تماماً مع كتاب ابن فضلان.

(٣) مرقوارت : ٢٣ .

(٤) « روسيا القديمة » (١٩٤٣) : ٣٥١ . حيث نقل عن مقاله « تاريخ تحول الخزر إلى اليهودية » بيزنطيوم : ١٥ / (١٩٤١) ٧٦ - ٨٦ .

بكل إطمئنان ، وتتضح نقطـــة الضعف في مناقشة كموسكو المفصلة في رأيه الخاطىء حول ما حوته رواية ابن فضلان ، عن الخزر ، ويبقى علينا أن نرى فيما إذا كانت نظريته حول رواية الاصطخري تحوي شيئاً مـا فيها ، وفيما إذا كان كلها أو بعضها يعود بتاريخه إلى حوالي سنة ٨٠٠ م ، ولا بد في البداية من التبيان أن الاقتراح في أن رواية الاصطخري (الرواية الكاملة وليس كما روى ياقوت) تتألف من جزءين منفصلين أصلاً ، اقتراح جذاب .

ولقد جاء ترتيب المسائل الرئيسة التي عالجها الأصطخري كما يلي : الخزر مع إشارة خاصة إلى الملك [بك - باك] - نهر اتل (الفولغا) - سمندر والسرير وبرطاس - الخزر مع إشارة خاصة إلى الخاقان - برطاش والبشكير والبلغار والروس ، وهكذا نجد أن كل جزء يمكن أن يبـدأ بالخزر ومن ثم ينتقل إلى جيرانهم ، مقدماً مجموعات رئيسة من الأسماء مع الشعوب الأخرى المجـــاورة في الشمال [١] ، ومن الملاحظ أن اسم برطاس قد جرى تكرار ذكره مرتين ، كما أن هناك آثاراً أخرى للتكرار والتباين ، خاصة ما قيل حول ما يستورده الخزر وحول لغتهم .

وقد ذكر الإصطخري في نهاية روايته أن بيت الخاقان أعلى من بيت البك ، في حين نجده قد أشار قبل ذلك إلى قلعة الملك [البـــك] على أنها المبنى الرئيسي ، وليست هذه الاعتبارات جميع ما يمكن قوله كما أنها ليست نهائية ، لكن على العموم يمكن القول : إن كموسكو كان كما يبدو محقاً ، وإن روايـــة الإصطخري تبدو وكـــأنها جمعت أصلاً من عدة روايات ومن ثم صنفت بشكل منتظم .

أما بالنسبة للتأريخ فتبدو النتيجة التي توصل إليها كموسكو موضع شك

---

(١) في نطاق هذه الخطة لعل هناك آثار للخضوع ، انظر الحواشي : ٢٣ ، ٣٦ .

أكبر ، ذلك أنه أفترض أن الإصطخري قد أشار في أحد الأمكنه إلى حقبة كان الخزر لا يملكون فيها قوات مرتزقة بل « نوعاً من أنواع الميليشيات » فقط، أو لنقل بكلمة أفضل : « عدداً من العصاة » [1] ، ويبدو أنه حين قال هذا كان يفكر بكلمات الإصطخري التالية : « وللملك من الجيش اثنا عشر ألف رجل ،

وإذا مات منهم رجل أقيم آخر مكانه ، وليست لهم جراية دارة إلا شيء نزر يسير يصل إليهم في المدة الطويلة ، إذا كان لهم حرب أو حزبهم أمر يجتمعون له » ، وحاجج فيما بعد في أننا نعرف بوجود جيش نظامي من المسلمين في بلاد الخزر ، وذلك من ابن رسته (؟) والمسعودي بدءاً من حوالي سنة ٨٠٠ عندما بدا أن الجيش الخزري قد أعيد تنظيمه ، وبالنسبة لكموسكو تشرح نظريته أن الجيش تكون فيما بعد من مسلمين لم يرغبوا في أن يرسلوا إلى مقاتلة أبناء دينهم ، لماذا ، والخلافة أضعف مما سبق ، لم يهاجمها الخزر بعد هجماتهم عليها سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م وسنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م (انظر فيما يلي الفصل السابع) ، وهذا كله جيد ، لكن لا يوجد دليل حقيقي على أن الجيش الخزري قد أعيد تنظيمه حوالي سنة ٨٠٠ م ، وفي الحقيقة يشير المسعودي إلى أن ملك الخزر وحده في تلك البلاد كان لديه جيشاً ، له أعطيات ، وقال بأن الجماعات المعروفة باسم «الأرسية »[2] تشكل جيش الملك وهي جماعات جاءت إلى بلاد الخزر « من نحو بلاد خوارزم ، وكان في قديم الزمان بعد ظهور الإسلام »، هذا وليس من السهل تحديد هذا التاريخ ، ولا يقول ابن رسته شيئاً محدداً حول المسلمين في الجيش الخزري ، وفي جميع الأحوال تشير روايته بدون شك إلى النصف الأول من القرن التاسع (انظر ما يلي) ومع ذلك لا يمكن الاعتماد عليها في إثبات فرضية أن جيش الخزر قد أعيد تنظيمه في حوالي سنة ٨٠٠ م ، زد

---

(١) « متمردون » كوسكو ، المصدر نفسه .
(٢) انظر الحاشية ٢١ ، وانظر ما يلي في الفصل السابع . الصيغة غير مؤكدة .

على هذا أن كلمات الإصطخري توحـــي كما يبدو بشكل واضح بوجود جيش[1] دائم .

ويمكننا القول بشكل عام ، إن الانطباع الذي تركته رواية الإصطخري عن الخزر سواء ككتلة واحدة أم كأجزاء ، هو أنها تشير إلى فترة ليست بعيدة جداً عن عصره ، ويبدو أن رأي كموسكو حول التـــاريخ بشكل خاص استنتاج جريء استخرج من توقف هجمات الخزر على المسلمين بعد سنة ٨٠٠م ، الأمر الذي لا نعرف سببه ، ومن الممكن تصور صحة هـــذا الرأي ، لكن لا يمكن بيسر استخدامه في تأييد وجود تاريخ سابق لهذا من أجـــل التحول إلى اليهودية .

إذا كان الانطباع الذي تركته رواية الإصطخري حول الخزر هو انطباع يمكن وصفه بالمعاصرة ، فإن العكس هو بالنسبة لوضع ابن رسته ولما قاله حول الموضوع نفسه ، مع أن الفارق الزمني بينهما ينبغي ألا يتجاوز الثلاثين سنـــة ، ذلك أن ابن رسته قد أكمل تصنيف موسوعته ، التي ستنتزع منها مادته حـــول الخزر التي ستعرض بعد قليل ، أكملها حوالي سنة ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م ، وقد كتب الاصطخري في حوالي سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ، وقد جاءت مـــادة[2] ابن رسته قصيرة تماماً ، وورد فيها قوله : « بين البجناكيـــة (البشناق) والخزر مسيرة عشرة أيام في مفاوز ومشاجر ، وليس بينها وبين الخزر طريق مسلوك ومناهج مقصودة ، وإنما مسيرهم في مثل هذه المشاجر والغياض حتى يوافوا بلاد الخزر ، وبلاد الخزر بلاد عريضة يتصل بإحدى جنباتها جبـــل عظيم [القوقاز] ، وهو الجبل الذي ينزل في أقصاه طولاس[3] وأوغاز [أبخاز] ويمتد هذا الجبل إلى بلاد تفليس .

---

(١) هكذا اعتبره مرقوارت : ٤ .
(٢) تحقيق دي غويه ١٣٩ - ١٤٠ .
(٣) مجموع مع « آس » ، انظر مينورسكي ، حدود : ٤٥٦ .

ولهم ملك يقال له إيشا ، والملك الأعظم إنما هو خزرخاقان ، وليس له من طاعة الخزر إلا الاسم ، ومقدار الأمر على إيشا إذا كان في القيادة والجيوش بالموضع الذي لا يبالي معه بأحد فوقه ، ورئيسهم الأعظم على دين اليهـــود ، وكذلك إيشاومن يميل ميله من القواد والعظماء ، والبقية منهم على دين شبيـــه بدين الأتراك .

ومدينتهم سارغشن[1] ، وبها مدينة أخرى يقال لها هب نلغ ؟ أو حببلغ ، ومقام أهلها في الشتاء في هاتين المدينتين ، فإذا كان أيام الربيع خرجـــوا إلى الصحارى ، فلم يزالوا بها إلى إقبال الشتاء ، وفي هاتين المدينتين خلق من المسلمين لهم مساجد وأئمة ومؤذنون وكتاتيب .

قد وظف ملكهم إيشا على أهل القوة واليسار منهم فرساناً على قدر أموالهم واتساع أحوالهم في المعاش ، وهم يغزون البجناكية في كل سنة ، وإيشا هـــذا يتولى الخروج بنفسه ، ويخرج في مغازيه بعساكره ، ولهم جمال ظاهر ، وإذا خرجوا في وجه من الوجوه خرجوا بأسلحة تامة محلاة وأعـــلام وطرادات وجواشن محكمة ، وركوبه في عشرة آلاف فارس ممن هو مرتبط أجـــري عليهم ، وفيهم من قد وظف على الاغنياء ، وإذا خرج لوجـــه من الوجوه هُيّىء بين يديه مثل شمسه على صنعة الدف ، يحمله فارس يسير به أمامه ، فهو يسير وعسكره خلفه يبهرون ضوء تلك الشمسه ، فإذا غنموا جمعوا تلك الغنائم كلها في معسكره ، ثم اختار إيشا منها ما أحب ، وأخذه لنفسه ، وأطلق لهم باقي الغنيمة ليقتسموها بينهم » .

وتوجد هنا بعض النقاط الجديدة الهامة ، فالملك الأدنى يدعى هنـــا باسم إيشا ، وهو لا يشبه تماماً البك أو الباك لدى الاصطخري ، وتبعاً لابن رسته لم

---

(١) أو « فيها » ، « قربها » .

تكن عاصمة بلاد الخزر لا مدينة البيضاء المذكورة لدى المؤرخين العرب ولا مدينة خزران أو أتل المذكورة لدى الجغرافيين (مثل ابن حوقل) بـــل سارغشن وهي التي ورد ذكرها ها هنا مع بلدة أخرى ، ولعلها خان بليغ أو خام بليغ (خمليج) ولدى الكرديزي الذي كتب بالفارسية في حـــوالي سنة ١٠٥٠ م مادة[١] تشبه مادة ابن رسته ، فهنا يظهر الملـــك الأدنى لدى الخزر باسم أبشاد ، وتشابه أسماء البلدان لدى الكرديزي ما أثبته ابن رسته شبهـــاً شديداً ، كما وتشابه الاشكال التي قدمها شرف الزمـــان مروزي الذي كان كاتباً من القرن الحادي عشر ، لديه نص عربي مختصر عن المادة العامة[٢] نفسها .

وللوهلة الأولى ليس هنالك من رابط عام،يربط إيشا أو أبشاد والبك الوارد ذكره في المصدر الآخر ، وقد تأكد وجود الأخير ـ كما يبدو ـ ليس من قبل ابن فضلان الذي سمى خاقان به كملك أدنى ـ فحسب بل من قبـــل المصادر الإغريقية حيث نجد مرتبه « به » وأيضاً اللقب التركي المتأخـــر بك أوبي ، وهكذا يثير ايشا وأبشاد مشكلة حقيقية ، ولا شك أن الأصل الذي جـــاءت منه هاتين الكلمتان قد قرأ من حيث الصيغة بشكل مختلف ، وهنالك اتفاق عام أن الجزء الثاني من الكلمة لا بد وأنه اللقب « شاد » الموجود في أمـــاكن أخرى[٣] ، وقد اقترح زكي وليدي أنه يتوجب علينا أن نقرأ العبارة أبا ـ شاد ، وأن عبارة « أبا » أو « إبي » هي عبارة « به » نفس لدي ابن فضلان ، ومن المفترض أيضاً أنها نفس عبارة « بك » لدي الإصطخري[٤] .

---

(١) تحقيق بارثولد : ٩٥ ...

(٢) تحقيق مينورسكي ، الجمعية الملكية الآسيوية (التحويل الطويل ٢٢) ١٩٤٢ .

(٣) انظر شات بن زبيل وشات ، خزر ، سابقاً .

(٤) ابن فضلان : ٢٥٧ . الاقتراحات الأخرى : أل شاد (مرقوارت : ٢٤) أي ـ شاد (مينورسكي) وألب ـ شاد (زاجتشكوسكي) واقترح مونكاسي أب ـ شـــاد ـ نقلا عن زكي وليدي ، المصدر نفسه .

أما بالنسبة لسارغشن وخان بليغ ، فيبدو أن ذلـــك يشير إلى مدينة مزدوجة ، وأن المعني بذلك خزران ـ أتل ، ويمكننا أن نقارن ذلك ببودا ـ بست كموقع يحمل اسمين منفصلين لمكانين للاستقرار يواجه أحدهما الآخر عبر النهر ، والقيام هنا بعملية للترجمة الحرفية للأسماء مفيدة [١] ومساعدة ، ذلك أنه ينبغي أن يكون معنى سارغشن (البلدة) الصفراء ولا شك أن كلمة البيضاء « الواردة بالعربية يمكن أن تطلق عليها كما رأينا ، أما بالنسبة للعاصمة الخزرية « خان بليغ » (هب بليغ) فتبعاً لزجنشكوو يسكي Zajaczkwaski تعني « البلدة كلها » [٢] ومن المحتمل أن الكلمة هي نفس كلمة « خليج » (أوخليخ) نفسها وهي عاصمة الخزر تبعاً لابن خرواذبه [٣] أو بشكل أدق ، الجزء الشرقي وهو النصف التجـاري من البلدة [٤] ، أمـــا بالنسبة للمطابقة بين سارغشن وسقسين فلدينا ما نقوله حوله فيما بعد .

وتحتوي رواية الكرديزي عن الخزر أشياء ليست موجودة لدى ابن رسته وتقدم إحدى الإضافات معلومات ليست موجودة في مكان آخر حول التنظيمات العسكرية لدى الخزر ، منها أن القائد (سلار) الذي لربما كان المعنى تحت أسم أبشاد (أبا شاد) أوبك ، كان يصدر الأوامر بأن على كل واحد من رجاله أن يحمل معه عصاً مدببة لها طول محدد أو سماكة ، لبناء سور يدعم بالترسة ، وذلك حول المعسكر اثناء حملة من الحملات ، ويخـبرنا أيضاً أن الخزر فرضوا جباية صغيرة على المسلمين في البلدتين ، وقد اشار ـ كما يبدو ـ إلى حملة على برطاس ، الأمر الذي التزم ابن رسته اتجاهه الصمت ، وقال أيضاً : في بلاد الخزر حقول وحدائق

---

(١) زاجنشكوسكي (انظر أيضاً ـ وبرتساك . در ـ اسلام . ب ٢٩ ، ٩٩) ومثله مرقوارت : ١ (سريغشهر) ومينورسكي ، حدود : ٤٥٣ . ويقترح برتساك «المدينة الغربية» .

(٢) انظر برتساك ، المصدر نفسه : ٩٩ .

(٣) انظر الحاشية ٤٤ .

(٤) مرقوارت : ٢٠٣ . انظر مينورسكي ، حدود : ٤٥٤ .

وكميات من الأشياء الجيدة ، وهناك عسل كثير وشمع جيد يجلب من هناك ، وهذا ما لم يذكر ابن رسته حوله شيئاً .

وفي عودة نحو ابن رسته ، هنالك اتفاق عام على أنه لم يكن المؤلف الحقيقي للأوصاف التي نجدها في كتابه حول الخزر والشعوب الشمالية الأخرى، ويبدو أن هذه الأوصاف ترجع إلى الجيهاني ، الذي يعتبر كتابه الجغرافي بحكم المفقود[1] ونلاحظ في مادة الجيهاني ، كما عرضها ابن رسته آثاراً لا يمكن استبعادها توحي بتاريخ أقدم ، فلقد قابل ابن فضلان الجيهاني في سنة ٣٠٩ / ٩٢١ ، وهو في طريقه إلى زيارة بلغار الفولغا ، ومن الواضح أن مواد كتاب الجيهاني توحي بسلسلة من التواريخ، ولم يقتصر الامر على تفاصيل مبعثرة منقولة كما هو مفترض عن الجيهاني ، مثل أن بريطانيا كانت تحكم من قبل سبعة ملوك ، وهي صورة حال زالت من الوجود سنة ٨٢٧[2] ، عندما تبدد الحكم الهبتارشي Heptarchy وهذا الامر موجود أيضاً لدى ابن رسته ، ويشير إلى النصف الاول من القرن التاسع . بل تناول الامر شعوباً بأسرها ذكر أنها كانت موجودة في هذا التاريخ وفيما بعد ، مثل البشناق[3] ، ويمكن أن نتقبل مع بارثولد[4] أن المصدر الاساسي لمادة الجيهاني حول الشعوب الشمالية قد كان مسلم بن أبي مسلم الجرمي ، الذي كان حياً سنة ٢٣١ / ٨٤٦ ، ومعروف أنه قد كتب حول الروم البيزنطيين وجيرانهم بما في ذلك الخزر[5] ولقد كان ابن خرداذبة

---

(١) انظر مرقوارت : ٢٤ - ٢٧ . بارثولد ، الموسوعة الاسلامية ، مادة « بلغار » . مينورسكي، حدود ١٧ و« الجيهاني المزيف» دورية معهد الدراسات الشرقية والأفريقية ١٩٤٩ : ١/١٣ ، ٨٩ - ٩٦ .

(٢) مرقوارت : ٢٩ .

(٣) مرقوارت : ١٦٠ .

(٤) المصدر نفسه : ٢٨ .

(٥) المسعودي ، التنبيه : ١٩١ .

يعرف كتاب الجرمي[1]، وقد استخدم الجيهاني هذا الكتاب مباشرة أو من خلال ابن خرداذبه[2] .

ومسألة أن رواية ابن رسته حول الخزر تحتوي على بعض الآثار العائدة إلى تاريـــخ أبكر يصل إلى الجرمي هي مسألة مؤكدة تماماً ، حتى وإن كنا سنجد فيما بعد أن قضية مجريات التحول قد كانت مختلفة عمـا افترضناه ، ولا يقتصر الأمر ببساطة على أننا نجد عند ابن رسته اسمي سارغشن وخان بليغ ، وهما اسمان خرجا عن نطاق الاستعمال في القرن العاشر ، كما نستخرج من ابن حوقل ، فقد ذكر ابن فضلان أن الملك الثاني لدى الخزر قد دعي في أيامـه [٣١٠ / ٩٢٢] باسم خاقان به ، لكن ابن رسته يعرفه باسم إيشا (أبا-شاد، ابي-شاد) ولا بد أن يشير هذا إلى فترة على الأقل أبكر من سنة ٨٣٣ ، عندما كان هذا الملك يدعى بهذا اللقب ، حسبما نجد في الرواية الإغريقية لبناء ساركيل Sarkil [3]، هذا وليس من الواضح لدينا المدى الذي يمكننا أن نرجع إليه رواية ابن رسته ، وحيث أن بلدتيه تشيران إلى خزران – أتل المتأخرة ، فليس من الممكن في أي حال من الأحوال أنها أقدم من تاريخ تحويل الخزر عاصمتهم إلى الفولغا، ولكن بما أن هذه الواقعة قد حدثت – كما قيل – أيام سلمان بن ربيعة [4] ، فمن الممكن نظرياً أن رواية ابن رسته تصور وقتاً مبكراً يرقى إلى سنة ٧٤٠م، عندما قيل بأن الخزر قد تبنوا اليهودية .

ومهما يكن الحال فقد اعترض مرقوارت على أن لا تكون روايـة ابن رسته قديمة كلياً واستشهد على أنهـا قالت : يوجد في مدينتي الخزر أعداد كبيرة من

---

(١) تحقيق دي غويه : ١٠٥ .

(٢) انظر مينورسكي ، حدود : ١٦ .

(٣) انظر الفصل السابع .

(٤) انظر ما سبق الفصل الثالث ، الحاشية ٤٣ .

المسلمين مع مساجد وأئمة ومؤذنين ومدارس[1] ، لكن هذا لا يمكن أن يعرض كنص مقحم ، فليس من الخطأ بمكان أن نتحدث عن الإسلام وقد أرسيت قواعده في بلاد الخزر في الجزء الأول من القرن التاسع ، فهذا ما يتوجب علينا أن نتوقع استخراجه من المصادر الأخرى، فقد ذكر ابن خرداذبه (حوالي ٢٣٢ / ٨٤٦) أن قبلة بلاد الخزر موجهة نحو الكعبة في مكة [2] ، ويبدو من المؤكد أن ابن خرداذبه يشير هنا إلى الأرسيه الذين سبق ذكرهم ، ويبدو أن هذا الشعب كان شعباً كبيراً ، وأنه قد تحول إلى الإسلام ، ومن الطبيعي أنه امتلك قبل ٨٣٣ م المؤسسات الدينية التي أشار إليها ابن رسته .

ومن الممكن أن يحاجج هنا أن حقيقة كون ملك الخزر يهودياً قد جرى إضافتها من قبل الجيهاني أو إنسان آخر إلى رواية قديمة ، لكن في هذه الحالة يبدو من المحتمل جداً إدخال آثار أخرى « معاصرة » ، وحيث أن هذا ما لا نجده ، يتبع ذلك أن رواية ابن رسته حول الخزر هي كتلة واحدة متماسكة ، ومن الصعب رفض المحصلة : أن الخزر أو على الأقل ملوكهم وبعض الشخصيات البارزة كانوا يهوداً ، ليس بعد النصف الأول من القرن التاسع [3] .

ومن الموائم أن نقدم هنا رواية ابن فضلان حول الخزر ، مع الانتباه أن عرض هذه الرواية لا يعني الاقتراح أنها جاءت جميعها نتيجة مشاهدات شخصية ، فالذي كتبه ابن فضلان قد سمعه من بلغار الفولغا ، وربما سمع شطراً منه ابن باشتو وهو خزري رحل معه من بغداد حتى بخارى ، وفي ضوء العلاقات السيئة

(١) مرقوارت : ٢٧ .

(٢) تحقيق دي غويه : ٥ .

(٣) إن ما جاء عند ابن الفقيه (حوالي ٢٩٠ / ٩٠٣) قوله في ص(٢٩٣): «والخزر كلهم يهود ، وإنما هودت من قريب » منقول عن الجرمي عبر الجيهاني (انظر الفهرس: ١٥٤ . نقلا عن مينورسكي ، حدود : ١٧).

بين حاكم الخزر وبين يلطوار (إلتبير [١] Elteber) حاكم البلغار الذي كان من أتباعه الاسميين .

ويمكننا أن نكون متأكدين تماماً أن الذين زودوا ابن فضلان بالمعلومات لم يكونوا ممن يكرهون الخزر عن سابق تصور ، بل العكس ، ويمكن تلمس آثار الموضوعية في أكثر من مكان من مادة ابن فضلان ، وتشهد هذه الموضوعية حتى لدى حديثه عن التراتيب الداخلية بالنسبة للخاقان ، الذي ذكر أنه كان لديه خمس وعشرون زوجة وستون سرية من الجواري ، وإذا ما اعتمدنا معيار النبي سليمان فإن هذا العدد يحوي شيئاً من المبالغة .

ومهما يكن الأمر فإن حريم الخاقان قد جرت الإشارة إليه بعد هذا بقليل من قبل المسعودي [٢] وعلينا أن نذكر أن الحديث عن خمس وعشرين زوجة « كل امرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه » لابد وأن له بعض العلاقة بما ورد في إحدى روايات » . « الدادها – داني Eldad ha-Dani » (وجد في أواخر القرن التاسع) من أن خاقان الخزر كان يدخل في طاعته خمسة وعشرون ملكاً » [٣] .

وتلقي هذه الحالة ضوءاً مباشراً على ما تخبرنا به رواية ابن فضلان حول كيف أن زعيم البلغار قد حاول إنقاذ ابنته من « ملك الخزر » ولا شك أنها وضحت لابن فضلان وهي مربوطة بهذا الحادث[٤] ، والمشكلة عند ذلك، ليست قائمة في عدد النساء كما ورد في هذه الصورة الخيالية ، وإنما في أن كل واحدة منهن كان لها قلعة خاصة بها ، وهذا لا يمكن تصوره بالنسبة لعاصمة الخزر

---

(١) انظر زكي وليدي ، ابن فضلان : ١٠٥ .
(٢) انظر ما يلي .
(٣) من أجل رواية الدادها-داني ، انظر الفصل السادس .
(٤) ابن فضلان : ٧٨ .

حسبما سبق التبيان ، فلقد تبين لنا من الأوصاف والشروح الأخرى وجود قلعة على مسافة من الفولغا [١] أو وجدت بدلاً من ذلـــك ، في فترة أخرى ، على جزيرة في وسط النهر [٢] ، حيث ــ كما هو متوقع ــ ملك كل من الخاقان والبك مقربيها ــ أو في أعظم الأحوال : لقد كان هناك بناءان ملكيان ، فهـــذا ما نجده في المصادر العربية .

ونجد في العبرية في رد يوسف، أن الملكة قد عاشت مع جواريها وخصيانها منعزلة عن المعسكر ، وهذا الأمر في حد ذاته ممكن تماماً ، وكان بطبيعة هذه الأحوال لدى الخاقان ــ مثل بلغار المثل ـ زوجة رئيسة (خاتون) [٣] ، مع أن هذا لم يشر إليه ابن فضلان،حيث يبدو أنه جرى تضليله حول هذه الأوضاع، ولا شك انه لم يكن لكل واحدة من النساء قلعة خاصة ، بل داراً أو بالحري شقة داخل الحريم ، ويبدو هذا واضحاً من الإشارة إلى وجود خصي واحد خاص قائم بحجابة كل امرأة ، مع أنه يمكن القول أن هـــذا الترتيب قد جاء لتلبية رغبة الملك حيث كان إذا أراد واحدة منهن وافته بها « في أسرع من لمح البصر » ومع أنه في هذه العبارة كثير من المبالغة والخيال ، لكنها تفيد أن البلاط عاش كله ضمن مسافة متقاربة ، ويبدو أنه قد قصد من هذا النص عرض الملك اليهودي وهو مصاب بالشبق بشكل مثير للإزعاج ، مثل وصف العقوبة التي كان الخاقان ينزلها بالقادة المخفقين ، كل ذلك في وقت رأينا فيه أن نشاطاته وممارساته في المصادر الأخرى وحتى لدى ابن فضلان كانت مجرد أمور سطحية ، أو حتى غير موجودة ، ولعل القصد من هذا كله الرغبة في اظهاره طاغية قوله فصل بشكل وحشي .

---

(١) الاصطخري ، ابن حوقل .

(٢) المسعودي (فيما يلي) ، ابن سعيد في أبي الفداء : ٢٠٣ .

(٣) من أجل قصة خاتون الخزر ، انظر الفصل السابع .

وفيما عدا بعض الإشارات العرضية إلى الخزر أثناء قيامه بروايـــة قصته ، إشارات توحي بمشاعر عدم المحبة والخوف التي شعر بها ملك البلغار تجاه أسياده اليهود [1] ، فإن مجمل ما ذكره ابن فضلان عن الخزر هو ما يلي :

« فأما ملك الخزر واسمه خاقان ، فإنه لا يظهر إلا في كل أربعـــة أشهر متنزهاً ، ويقال له خاقان الكبير ، ويقال لخليفته خاقان به ، وهو الذي يقود الجيوش ويسوسها ويدبر أمر المملكة ويقوم بهـا ، ويظهر ويغزو ، وله تذعن الملوك الذين يصاقبونه ، ويدخل في كل يوم إلى خاقان الأكـــبر متواضعاً يظهر الإخبات والسكينة ، ولا يدخل عليه إلا حافياً وبيده حطب ، فاذا سلم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب ، فاذا فرغ من الوقود جلس مع الملك على سريره عن يمينه ، ويخلفه رجل يقال له كندر خاقان [2] ، ويخلف هذا أيضاً رجل يقال له جاوشيغر [3] .

ورسم الملك الأكبر أن لا يجلس للناس ولا يكلمهم ، ولا يدخل عليه أحد غير من ذكرنا ، والولايات في الحـــل والعقد والعقوبات وتدبير المملكة على خليفته خاقان به .

ورسم الملك الأكبر إذا مات أن يبني له دار كبيرة فيها عشرون بيتاً ، ويحفر له في كل بيت منها قبر ، وتكسر الحجارة حتى تصير مثل الكحل وتفرش فيه ، وتطرح النورة فوق ذلك ، وتحت الدار نهر [4] ، والنهر نهر كبير يجري ، ويجعلون

---

(١) ٤٨ ، ٧٨ .

(٢) زكي وليدي (ابن فضلان : ٢٦٠) حيث يربط لقب الجر : كوندوكوندا وقرأهم هنا بدلاً كندر ، كندا التي منها كندا جيق (انظر ما سبق) مختصرة . (المصدر نفسه: ١٣٥ ، حاشية ٢) ويقترح زاجاتشوزكوسكي (دراسات : ٣٣) « كوندور » ، « كبير القضاة » .

(٣) انظر الفصل الثاني ، الحاشية ٣٣ .

(٤) نص ياقوت المطبوع هنا غير مفهوم حيث جاء : « وتحت الدار والنهر نهر كبيريجري » وقد اقترح فرامن كلمة « والقبر » بدلاً من « والنهر » . (خزر : ٦٠٨) وإضافة كلمة « نهر » بعد « الدار » في نص زكي وليدي يعيد النص بساطته .

القبر فوق ذلك النهر [1] ، ويقولون حتى لا يصل إليه شيطان ، ولا انسان ولا دود ولا هوام .

وإذا دفن ضربت أعناق الذين يدفنونه حتى لا يدري أين قبره من تلك البيوت ، ويسمى قبره الجنة : ويقولون : قد دخل الجنة ، وتفرش البيوت كلها بالديباج المنسوج بالذهب .

ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة كل امرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه ، يأخذها طوعاً أو كرهاً ، وله من الجواري السراري لفراشه ستون ، ما منهن إلا فائقة الجمال ، وكل واحدة من الحرائر والسراري في قصر مفرد ، له قبة مغشاة بالساج ، وحول كل قبة مضرب ، ولكل واحدة منهن خادم يحجبها ، فإذا أراد أن يطأ بعضهن بعث إلى الخادم الذي يحجبها ، فيوافي بها في أسرع من لمح البصر حتى يجعلها في فراشه ، ويقف الخادم على باب قبة الملك ، فإذا وطئها أخذ بيدها وانصرف ، ولم يتركها بعد ذلك لحظة واحدة .

وإذا ركب هذا الملك الكبير ، ركب سائر الجيوش لركوبه ، ويكون بينه وبين المواكب ميل ، فلا يراه أحد من رعيته إلا خر لوجهه ساجداً له ، لا يرفع رأسه حتى يجوزه [2] .

---

(١) جاء في النص المطبوع « ويجعلون القبر فوق ذلك النهر » وقد جاء مصححاً في نص زكي وليدي .

(٢) جاء عند ابن فضلان : ٦٠ « فاذا ركب الملك (ملك البلغار) ركب وحده بغير غلام ولا أحد يكون معه ، فإذا اجتاز في السوق لم يبق أحد إلا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه فجعلها تحت إبطه » . إن المقارنة بين البلغار الأحرار والخزر ممكنة إلى بعض الحدود . انظر ما قاله الاصطخري عن السجود في بلاد الخزر (ذكره ثلاث مرات) .

ومدة ملكهم أربعون سنة إذا جاوزها يوماً واحداً قتلته الرعية وخاصته ، وقالوا : هذا قد نقص عقله ، واضطرب رأيه [١] .

وإذا بعث سرية لم تول الدبر بوجه ولا سبب ، فإن انهزمت قتل كل من ينصرف اليه منها ، فأمـــا القواد وخليفته فمتى انهزموا أحضرهم وأحضر نساءهم وأولادهم فوهبهم بحضرتهم لغيرهم وهم ينظرون ، وكذلـك دوابهم ومتاعهم وسلاحهم ودورهم ، وربما قطع كل واحـد منهم قطعتين وصلبهم ، وربما علقهم بأعناقهم في الشجر ، وربما جعلهم إذا أحسن إليهم ساسة [٢] .

وللملك الخزر مدينة عظيمة على نهر أتل ، وهي جانبان ، في أحد الجانبين المسلمون وفي الجانب الاخر الملك وأصحابه ، وعلى المسلمين رجـــل من غلمان الملك يقال له خز [٣] ، وهـو مسلم ، وأحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر ، والمختلفين إليهم في التجارات مردودة إلى ذلك الغلام المسلم، لا ينظر في أمورهم، ولا يقضي بينهم غيره » [٤] .

« وللمسلمين في هذه المدينة مسجد جامع يصلون فيه الصلاة ويحضرون فيه أيام الجمع ، وفيه منارة عالية وعـــدة مؤذنين ، فلما اتصل بملك الخزر في سنة

---

(١) انظر أيضاً المسعودي فيما يلي في الفصل السابع ، ويقول ساكسو غراماتيكوس وجد بين الصقالبة (السلاف) قانون عام تعلق بالشيوخ ومكانتهم قضى بأن يقوم الجيل التالي بذبح الملوك » ترجمة التون لندن ١٨٩٤ : ٣٣٤) .

(٢) ذكر كل من الاصطخري وابن فضلان سلطات الخاقان في بعض الحالات، وليس عند المسعودي شيء من هذا القبيل .

(٣) ربما حرير (خز) وتحدث المسعودي الذي كتب بعد أكثر من عشرين سنة عن وجود وزير مسلم اسمه أحمد بن كويه في عاصمة الخزر ، من المفترض أن هؤلاء الرسميين كانوا يتولون تبادل المعلومات .

(٤) أشار الاصطخري إلى وجود عدد من القضاة المسلمين وأوضح هـــذا بشكل جلي المسعودي فقال هما قاضيان . واختلف الوزير الذي ورد ذكره في الحاشية السابقة عن القضاة .

عشر وثلاثمائة أن المسلمين هدموا الكنيسة التي كانت في دار البابونج[1] ، أمر بالمنارة فهدمت وقتل المؤذنين ، وقال : لولا أني أخـــاف أن لا يبقى في بلاد الإسلام كنيسه إلا هدمت لهدمت المسجد .

والخزر ملكهم كلهم يهود[2] ، وكان الصقالبه وكل من يجاورهم في طاعته ، ويخاطبهم بالعبودية ويدينون له بالطاعة ، وقد ذهب بعضهم إلى أن يأجوج[3] ومأجوج هم الخزر »[4] .

والحقيقة المثيرة هنا هو أن المساجد والأئمة والمؤذنين والمدارس الإسلامية في بلاد الخزر قد جرى ذكرها من قبل ابن رسته ، بينما ظهر في روايه ابن فضلان المسجد الجامع ومؤذنوه فقط ، وهذا لا يعني أن ماذكره ابن رسته غير صحيح أو أن الاسلام عانى من انتكاسة في بلاد الخزر في أيام ابن فضلان ، فلقد تركز اهتمام ابن فضلان على رواية ما حدث للمسجد الجامع ، وأغفل الأماكن الأخرى إما لأنه لم يسمع بشيء خاص عنهم ، أو لسبب آخر ، وجاء ذكر مساجد بلاد الخزر بعد عشرين عاماً من قبل المسعودي[5] ، وليس لدينا من سبب لافتراض وجود مسجد واحد عندما كان ابن فضلان في منطقة الفولغا .

---

(١) غير معروف كما يقول زكي وليدي (ابن فضلان : ١٠٢ ، الحاشية ٤) وقـــاد بحث مرقوارت في النص (٤/٤٧٧ - ٤٧٩) إلى عدم التوصل إلى حل لما عني بعبارة « بيت كومايل » كما أن جهوده لربط هذا الاسم بالأندلس (دار أذ البونج -بلاد أدافونس- ألفونسو) وبأعمال عمرو بن حفصون ليست مقنعة ، وترجم زكي وليدي هنا كلمة « كنيسة » « كنيسة مسيحية » وهذا في إطاره غير صحيح ، وقد عرض الخاقان وهو بالطبع غاضب لتهديم المسلمين كنيس خارج اطار نفوذه كما هو مفترض . إن ما اقترحه بروتزكوس في الموسوعة اليهوديـــة ، مادة : خزر ، عن وجود بلدة بالقوقاز اسمها باب - الجنجار ، معرض لعدة اعتراضات .

(٢) من الواضح أن هذا مبالغ به . وقد حذف زكي وليدي من ياقوت كلمة « كلهم » .

(٣) الفقرة الأخيرة ليست في المطبوع من ابن فضلان، بل نقلت عن ياقوت - مادة خزر- عنه.

(٤) اعتبرت الجمل الثلاثة الأخيرة من قبل زكي وليدي على أنها مضافة من قبل ياقوت .

(٥) انظر ما يلي الفصل السابع .

وهنالك أهمية قصوى وفوائد كبيرة في رواية ابن فضلان إلى حد يمكن القول فيها : ما من مصدر عربي آخر حول الخزر يوازيها في الأهمية ، وذلك على الرغم من عدم وجود شيء محدد فيها حول التحول إلى اليهودية ،فلقد رأينا لدى الاصطخري بكل وضوح أن يهودية الملك ومن أحاط به قد قامت إلى جانب المؤسسات الموروثه من الماضي الوثني ، هذا ولا علاقة البتة للملكية المزدوجة بقبول اليهودية ، ولا تشبه شخصية الخاقان بأي شكل من الأشكال شخصية الحاخام (الكاهن) الأكبر لدى اليهود [١] ، وتذكرنا ترتيبات الدفن بالروايات التي وصفت طقوس الدفن لكل من آلارك (٤١٠ م) وآتيلا [٢] (٤٥٣ م) وتربطها بشكل مباشر بماضي الترك القديم [٣] .

ومن الواضح أن تهود الخاقان لم يقده نحو اقتلاع جذور العادات التي كان الشعب متعلقاً بها ، ومن المتوجب ربط الوضع كما نراه ـ ليس من خلال ابن فضلان وحده ـ بدون شك بعدد من الحقائق بدونها يصعب التفسير . أولاها: مدى تأثر الخزر كشعب وثني استدرجه أولاً و كسبه في سنة ٧٨٠م آبو التفليسي وثانيها في حوالي سنة ٨٦٠ م قسطنطين Cyril ثم غياب المعلومات المتماسكة

---

(١) جرت عدة محاولات لتفسير كلمة « خاقان » على أساس الكلمة العبرية حاخام وقدم قاسم بك نظرية بأن الكلمة لها صلة بالكلمة العبرية « كاهن » ، وليس هنالك حاجة إلى القول إن هذه الآراء جميعاً لا أساس من العلم لها ، انظر الفصل السادس الحاشية : ٤٦ .

(٢) انظر زكي وليدي ، ابن فضلان : ٢٦٦ .

(٣) ينبغي أن نلاحظ أن ما أعلنه ع. ل. وسموسن (المجلة الآسيوية: ١/٥(١٨٢٤) ٣٠٥) من أن الخزر قد خاضوا في القرن السادس حرباً ضد الملك الدانماركي(الشمالي) فرود، من الصعب تأكيده إن لم يكن ذلك من المستحيل . ذلك أن كل من جوردانس وغراماتيكوس لم يذكرا شيئاً من هذا القبيل ، والقول هــذا قائم على الافتراض الضعيف فقط (من أن الخزر ربما هم الأكتزير الذين ربما زحفوا مع الهون) . على هذا الأساس فقط يمكن إقامــة علاقة بين الخزر والملك فرود أو بالحري مع واحد من الملوك من المفترض أنهم حملوا هذا الاسم .

حول الخزر الصادرة عن المركز الرئيسي لليهود في بابل (العراق) ممـــا يعني ـ كما يبدو ـ عدم الاهتمام بهم وبأعمالهم . المراحل التي مر بها تأسيس اليهوديه في بلاد الخزر تبعـــاً « للمراسلات الخزريه » العبريه ، وفي ضوء جميع الأدلة لا يوجد أدنى شك بالنسبه لحقيقة تهود الخزر ، إنما لا ندري مدى عمق إيمانهم بها ، ولا نعرف أيضاً درجه تقصيرهم عن الوصول إلى الحاخاميه الكاملة، علماً بأننا لا نرغب في الإصرار على القول : إن التحول الرسمي قـــد تم حوالي سنه ٧٤٠م إثر مناظرة دينية حسبما روى يهودا هاليفي ، فذلك يبقى على عهـــدته دونما تأييد واضح من مصدر آخر ، لكن أن يكون التأثير اليهودي قد بدىء يشعر به في بلاد الخزر قبل منتصف القرن الثامن، فأمر أكثر احتمالاً من القول بأن ذلك كان بعد سنه ٨٦٠ م ، هذا وإن الإعلان بتحرج أن قادة الخزر قد أصبحوا يهوداً في تاريخ مبكر ، هو ممكن لكن بصعوبه ، ولكن في مواجهه الأدلة ككل فتلك بلا ريب المحصلة التي تقاد إليها .



الفصل السادس

تحول الخزر إلى اليهودية حسب المصادر العبرية

لا تقدم المصادر العربية إشارة إلى تاريخ التحول أكثر دقة مما ذكره المسعودي في روايته التي سبق نقلها ، والتي جاء فيها :إن ذلك قد حدث أيام خلافة هارون الرشيد ، أي في حوالي سنة ٨٠٠ م ، وجاء في كتاب يهودا هاليفي ـ الذي يحمل عنوان « الخزر » (الخزاري) وكان قد كتب بالأصل بالعربية في سنة ١١٤٠،ثم ترجم فيما بعد إلى العبرية من قبل ابن طبون بعنوان كوسرى (كوزاري) ـ أن ذلك كان سنة ٧٤٠ م ، وكتاب هاليفي كما هو معلوم كتاب دفاع عن اليهودية الحاخامية ، جرى عرض مواده على شكل مناظرة قيل : إنها تمت في بلادالخزر قبل أربعمائة سنة من أيام المؤلف ، وكان الذين شاركوا في تلك المناظرة هم الملك الخزري وآخرون . ولم يهتم هاليفي في توسيع إطار الحدث ، فلقد تركز اهتمامه على الامور اللاهوتية وليس على التاريخية ، ولكنه اعتبر تحول الملك إلى اليهودية في هذا التاريخ بمثابة حقيقة مقبولة ، ولقد حظي كتابة كوسري « (كوزاري) بعناية فائقة في كل مكان وليس في أوساط اليهود فقط ، فقد حقق ونشر في القرن السابع عشر من قبل بوكستورف Buxtorf الأصغر وهيردر الرومانسي الالماني ، وقورن بترجيح بكتب المناظرات الافلاطونية ، وظل في العصور الحديثة موضوعاً للدراسة .

وجاء تسلسل ما قاله هاليفي حول بلاد الخزر ، والخـزر كما يلي : « لطالما تساءلت مـا الحجة وما الجواب الذي يمكنني أن أقدمه للفلاسفة الذين يختلفون عنا ؟ وإلى رجال الديانات الاخرى (فيما عـدا المسيحيين) وأيضاً إلى

المراطقة فيما بيننا الذين انحرفوا عن الديانة اليهودية حسبما هي مقبولة بشكل عام ؟ ، وخطر ببالي عندها وتذكرت ما سمعته عن مناقشة وحجج أحد العلماء، وكان مع ملك الخزر ، وأعني بـه الملك الذي تبنى اليهودية منذ اربعمائة سنة مضت ، ولقد ذكر حسبما جاء في كتب التاريخ أن هذا الملك قد رأى فيما يراه النائم عدة مرات ملكاً تحدث إليه وأخبره أن نواياه مقبولة من قبل الخالق ، لكن أعماله مرفوضة ، ومع ذلك كان شديد التعلق بديانة الخزر يشارك في الاعمال التعبدية داخل المعبد ويقدم الاضاحي بقلب مخلص ، وفي الوقت الذي كان فيه منشغلاً بهذه الاعمال ظهر له ملاك في الليل قائلاً : نواياك مقبولة ، لكن أعمالك مرفوضة ، وقد دفعه هذا إلى البحث عن الايمان الصحيح والديانة الحقة ، وهكذا أصبح يهودياً ومعه كثير من الخزر ، وكان بين حجج ومناقشات العالم اليهودي بعض ما ارتاح له قلبه وارتضاه فهمه ، ولقد رأيت أنه من المفيد عرض هذه الاشياء كما وقعت لي ، والعاقل سيفهم :

لقد روي أنه عندما رأى ملك الخزر في منامه أن نواياه مقبولة لدى الخالق وأعماله مرفوضة ، وعندما أمر في منامه أن ينشد الاعمال المقبولة ، سأل أحد فلاسفة أيامه عن إيمانه .

قال هاليفي : وتـلا ذلك حوار قصير مع الفيلسوف ، قال بعده الملك لنفسه : لسوف أسأل مسيحياً ومسلماً . . . . وهكـذا بعث خلف رجـل حكيم مسيحي .

وتلا ذلك حوار مع المسيحي ، وأرسل إثر هذا – كما أخبرنا – خلف رجل حكيم مسلم ، هذا وسبق أن عرضنا حديثهما من قبل ، وأخيراً استدعى يهودياً متعلماً ، وبعد بعض النقاش مـع اليهودي انتهى القسم الأول من الكتاب ، ويتوجب أن نلاحظ هنا أن المتكلمين جرى تقديمهم واحداً إثر الآخر ، وأنه لم يكن هنالك مناظرة عامة شاركوا فيها جميعاً .

ويبدأ القسم الثاني من كتاب « كوزاري » بالمشهد التالي : وباح بعد هذا ملك الخزر – كما جاء في كتب الخزر – بسر منامه إلى قائد جيشه ، وتردد عليه المنام الان طالباً منه البحث عن العمل الذي يرضى الرب في جبال ورصان (أي فرشان أو ورثان) وبناء عليه انطلق الملك والقائد معاً بحراً نحو الجبال التي هي في الصحراء ووصلا ليلاً إلى كهف ، حيث كان بعض اليهود واستراحوا سبتهم كله ، وبعدما رأوهما أدخلوهما في دينهم وختنوهما في الكهف ، وعادوا بعد ذلك إلى بلديهما ، ومع أن قلبيهما قد مالا نحو ديانة اليهود ، فقد أخفيا إيمانهما حتى تمكنا من إيجاد الوسائل لافشاء سرهما قليلاً قليلاً إلى بعض المقربين منهما ، وأصبحوا أخيراً كثيرين ، وتعاهدوا على ما أخفوه من قبل ، وهكذا سيطروا على بقية الخزر وألزموهم في أن يصبحوا يهوداً ، وأرسلوا يجلبون من كل أرض العلماء والكتب ، ودرسوا الشريعة ، ولقد عرض أيضاً (في كتب الخزر كما يبدو) كيف أنهم منعمون وانتصروا على جميع أعدائهم ، وأخضعوا بلدانهم وأخفوا الكنوز التي كشفت لهم ، وازدادوا كما قيل إلى مئات الألوف ، وأحبوا الشريعة ، ورغبوا في إقامة هيكل مؤقت على شكل هيكل موسى ، واعتنوا بالإسرائيليين المحليين وباركوا أحبارهم ، ولقد روي هذا كله في كتبهم ، وعندما تعلم الملك الشريعة وأخبار الأنبياء اتخذ العالم استاذاً له ، وصار يوجه إليه الأسئلة حول اليهود ، وكان السؤال الأول حول اسم الرب وحول ما يعزى إليه ، وابتداء من هذه النقطة يتابع الكتاب فيعرض الأسئلة التي طرحها الملك والاجوبة التي أجابه بها .

إن الانطباع الأول الذي يتكون لدينا لدى قراءة هذه النصوص المقتبسة هو أنها مخترعة ، إن الطبيعة الفجة المثالية لا يمكنها بحد ذاتها ترجيح صحة وثيقة تعود إلى هذه الفترة . ثم إن ما قيل حول الخزر يلقي بعض الشكوك على الأسس التاريخية للرواية ، فهي قد مثلتهم وهم يمتلكون مكاناً للعبادة ،

أقيمت فيه الطقوس . وقدمت الأضاحي ، وذلك قبل اعتناق اليهودية ، ولا يمكن لهذا التوافق بسهولة مع ما نعرفه عن الأتراك الوثنيين ، زد على هذا : إن وجود فيلسوف مع ملك الخزر في الوقت الذي نتوقع فيه وجود راهب شاماني، صعب القبول ، ثم أن يقبل ملك الخزر وقائد جيشه الخضوع إلى طقس الختان على أيدي غرباء مجهولين مسألة لا يمكن تصديقها .

هذا من جهة ، وتتكلم بعض التفاصيل من جهة أخرى لصالح الرواية بشكل إيجابي ، حيث أن وجود قائد الجيش إلى جانب الملك أمراً مدهشاً على ضوء وجود الخاقان والبك في بلاد الخزر ، وقد وقعت الوقائع في « جبال ورصان[1] » التي قيل إنها موجودة « في صحراء قرب البحر » ، وينبغي أن تكون ورصان هي فارشان في النهاية الشرقية للقوقـــاز [2] ، وقد جرت مطابقتها مع ورثان الشمالية [3] ، المجاورة لبلاد الخزر ، والتي لم تكن داخل الأراضي الخزرية ، كما حدد ذلك هاليفي ، وكما ينبغي أخذ الكهف الذي ذكره بعين الاعتبار أيضاً ، حيث تظهر الإشارة إلية في مكان آخر ، بيد أن تحديد تأريخ الحادث بشكل خاص ، الذي قال هاليفي إنه وقع منذ أربعمائة سنة ، أو كما عرض خلال الحوار ـ سنة ٤٥٠٠ بعد موسى أي سنة ٧٤٠ م ، يبدو أنـــه يتحدث إيجابياً لمصلحة الرواية ، هذا وعلى الرغم من أنه لا يمكننـــا في الوقت الحالي التأكد من أين استقى هاليفي معلوماته ، إن الافتراض بكل بساطة أنه اخترعها خطير جداً .

---

(١) يبدو أن نهر « ورشان » قد ورد ذكره في رد يوسف أنه واقع على مسافـــة عشرين فرسخاً من عاصمة الخزر . زكي وليدي (ابن فضلان : ١٥٧) حيث يحمله في دلتا نهر الفولغا . وإن اقتراح مرقوارت (٢٠) أن العبارة الأصلية في الرد هي « جبل ورسان » لا يمكن قبوله على أساس ما ورد في النص الطويل .

(٢) من أجل فورشان ، انظر الفصل الثالث .

(٣) انظر الفصل الرابع ، الحاشية : ٩٠ .

والأرجح أنه ملك بعض المصادر ، وتصرف بها بشكل أدبي ، فهو يشير إلى كتب تاريخ وكتب الخزر ، مع أنه لا يبين صراحة فيما إذا كان قد استخدمها ، ولعله كان يكتب اعتماداً على رواية شفوية ، ذلك أنه قال : وخطر ببالي عندها وتذكرت ما سمعته عن مناقشة وحجج أحد العلماء ... الخ ، ولسوف يكون لدينا ما نقوله فيما بعد حول مصادره الشفوية المحتملة ، ويمكن أن نلاحظ في الوقت نفسه أن إصراره على « كتب الخزر » يوحي أن اعتقاداً من هذا القبيل قد وجد ، فنحن نملك تصريحاً لدى مصنف الفهرس (حوالي ٩٨٧) يفيد أن الخزر استخدموا الخط العبري في كتابتهم [١] ، وفي حالة الغياب الكامل لوجود أية وثيقة خزرية في أي مصدر آخر ، يمكننا أن نفترض أنه لو أن شيئاً من هذا القبيل قد وجد كما يشير هاليفي ، لا بد وأنه كان بالحروف العبرية ، هذا من جهة ، وجاء من جهة أخرى في كتاب « تاريخ فخر الدين مبارك شاه » الذي كتب في عام ١٢٠٦ : « يوجد لدى الخزر خط قريب من خط الروس ، فقد كتب بهذا الخط جماعة من الروم المجاورين لهم ، يعرفون باسم روم الروس ، وهم يكتبون من اليسار إلى اليمين ، وأحرفهم ليست متصلة ببعضها بعضاً [٢] ، وعددها واحد وعشرون » ، وذكر أبرهام بن داود ، وهو معاصر لهالفي أن أشخاصاً من أصل خزري كانوا في طليطلة في أيامه [٣] ، وبناء عليه لا يستبعد وجود أصحاب خبرة ، مع « كتب الخزر » ، ومعلومات عن تحول الخزر إلى اليهودية في الأندلس [٤] .

---

(١) تحقيق فلوجل : ٢٠ .

(٢) تحقيق إ. دينصن – روسي – لندن ١٩٢٧ : ٦١ (اقتباس ر. ن. فراي : ملاحظات على المصادر الاسلامية حول الصقالبة والروس – العالم الاسلامي – كانون ثاني ١٩٥٠ : ٢٣) .

(٣) انظر الترجمة المعروضة فيما يلي : ليس من الواضح أن اليهود الخزر الذين رآهم ابرهام بن داود في الأندلس كانوا من أبناء ملوك الخزر كما قيل مراراً .

(٤) يحتوي كتاب « ما اسيه هاشم » لسيمون أكبابير بن يوسف وهو مطبوع باليدشية (مكتبة البودليان Opp 8 : ١١٠٣ (١) ورقة : ٢٩ ظ – ٣٠ ظ) على حكاية غريبة هي قطعاً غير تاريخية جاء فيها أن أبرهام بن عزرا الواسع الشهرة قد تزوج ابنة الحاخام جودا (كما يبدو جودا ها – ليفي) في بلاد الخزر .

وفي ضوء وجود ما يعرف باسم « مراسلات الخزر » في أيام هـاليفي ، فمما لا شك فيه أنها كانت متوفرة في أيدي رجال الدين اليهودفي الأندلس قبل أربعين أو خمسين سنة من نشر كتاب « كوزاري » [1] ، والافتراض أن هاليفي قـد عرفها ليس أمراً غير طبيعي ، وكون الحال كان هكذا ، ثم إلى أي مدى أمكنه الاستعانة بها ، هذه مسائل سنتعرض لها عندما سنقوم بمعالجة هـذه المراسلات التي من المفترض أنها رسائل تبودلت بـين حسدي بن شبروت — وهو شخصية يهودية معروفة في الأندلس — وبين يوسف ملك الخزر ، وذلك في تاريخ ليس بعد ٩٦١ م ، وقد جاءت هذه المراسلات جميعاً بالعبرية ، ويكفي أن نقول هنـا إن عبارة [2] « كتب الخزر » لا تطلق بشكل مؤكد على المراسلات ، سيما وأن التفاصيل الهامة المعطاة من قبـل هاليفي ليست في الرسائل ، مثال على ذلك الزيارة إلى ورصان ، وتاريخ سنة ٧٤٠ م .

ويمكن التساؤل فيما إذا كانت « التواريخ » التي ذكرهـا ليفي هي نفسها « كتب الخزر » علماً بانه يمكننا أن نفترض بشكل طبيعي أن هاليفي كان على معرفة بما حوته رواية المسعودي المفقودة حول تهود الخزر ، وذلك مهما كانت التفاصيل المناقضة لما ذكره في مروج الذهب من أن الخزر قد تهودوا في خلافة هرون الرشيد ، وما لم يكن التاريخ الذي قدمه هاليفي مخترعاً من قبله ، وهذا أمر مستبعد ، لا بد أنه استقى معلوماته — كما يبدو — ليس من مصادر عربية مثلها المسعودي ولكن من مصادر يهودية ، لعلها كانت خزرية [3] .

---

(١) يهودا بن برزيلي البرشلوني ، انظر ما يلي .

(٢) انظر الفصل الخامس .

(٣) لعل المعلومات المسيحية عن تهود الخزر هي أبكر من المصادر اليهودية (انظر الحاشية: ٤٤) بقرن ، وصاحب المعلومات هو دروثمار الأكويتاني (قرن تاسع ، وكان راهباً بدندكتياني كورفي في وستفاليا ، وقد كتب (ربما قبل ٨٦٤) حاشية على إنجيل متى لرهبـان دير آردنز (مرقوارت : ٢٣ — ٢٤) أشار فيها إلى تهود الخزر ، وافترض مرقوارت أن الحاشية كتبت سنة ٨٠٠ . لكن هذا غير مؤكد ومن الصعب استخدام هذا التاريخ للقول إن الخزر تحولوا في القرن الثامن .

لقد عثر على وجهة نظر مزعجة دونت على كتاب هاليفي حول الخزر، أدت إلى نتائج سيئة، فقد حملت صفحة العنوان من طبعة بوكستورف Buxtorf من كتاب كوسري (كوزاري) اسم الحاخام اسحق سنجري بمثابة مرشد رئيس لملك الخزر، ويظهر أن بوكستورف قد حصل على هذا من قراءاته، ذلك أن اسم اسحق سنجري ربما لم يكن معروفاً قبل القرن الثالث عشر عندما ذكره ناهمانديز Nahmanides، وذكر شم توب[1] بن شم توب (١٤٣٠) أن الحاخام اسحق سنجري قد كان « عالماً ارتبط بملك الخزر، الذي أصبح يهودياً بفضله، وذلك منذ سنوات كثيرة مضت، في بلاد الترك (تغارمه) وقد ورد ذكر ذلك في بعض الكتابات، وكانت ردات الفعل الممتازة للحاخام يهودا هاليفي، الذي كان شاعراً أندلسياً، أراد اظهار معارفه العظيمة في الشريعة والقبالة وبقية الفنون الموجودة بأشكال موزعة بالعربية، هو أنه جمعها ونظمها بالعربية كما كانت، وقد ترجمت فيما بعد إلى العبريه[2]» وجاء بعد ابن شم توب الحاخام جديلة (حوالي ١٥٨٧) فقال إن ردود إسحق سنجري كانت باللغة الخزرية[3] ومن الواضح أن ما عناه شم توب هو أن ردود العالم التالية على ملك الخزر كما وردت لدى هاليفي في كتاب كوسري (كوزاري) كتبت استناداً إلى ردود اسحق سنجري، الذي سلف له العمل في بلاد الخزر، ولكن بالتغاضي عن جميع مصاعب كيف يمكن الافتراض أن هذه الردود وجدت بالعربية بين يدي هاليفي أو باللغة الخزرية كما ذكر جديلة بكل وضوح، فمن غير الممكن الاعتقاد أن « مناقشات وحجج » العالم التي تكون الجزء الأعظم من كتاب كوزاري، وهو

---

(١) في مناقشة أمام ملك كاستيلا في حوالي سنة ١٢٦٣ (تحقيق جيلنك بعنوان « توراة أدوناي تميمه – فينا ١٨٧٢). انظر أيضاً ستارك : لايبزغ ١٨٧٦ : ٢٤، الحاشية. Furkovitch und Entdeckungen.

(٢) سفرها ـ ايونوث ـ اقتباس بوكستروف. ستارك. المصدر نفسه : ٢٣، الحاشية.

(٣) المصدر نفسه.

كتاب كبير ، قــد وصلت إليه من اسحق سنجري أو أي واحد آخر ، ومن الواضح أنها نظمت وعرضت من قبل هاليفي ، استناداً إلى معلوماته الحاخامية اليهوديه ، وذلك على أساس أشياء كان قـــد سمعها ، كما صرح هو بنفسه ، ولا يوجد هنا احتمال النقل الشفوي المباشر لعـدد كبير من الردود الفعلية ، ثم إنه لا يوجد أي شيء في كتاب « كوزاري » يوحي أن المؤلف كانت أمامه مجموعة من الردود المكتوبة ، ومن الصعوبة بمكان اعتبار « التواريـــخ » و « وكتب الخزر » ردود أي حاخام كان ، ولا بد أن فيهـا إشارة إلى رواة أو شيء من هذا القبيل مخترع أم حقيقي .

وجرت محاججة وجهة نظر ابن شم توب من قبل فيركوفتش Firkovitch (قرن تاسع عشر) وذلك باصرار شديد ، مضفياً عليها سمات خاصة من لدنه ، فقد عبر في رسالة كتبها في بداية حياته العلميه المدهشة ، عن وجهة نظر مفادها أن ردود الحاخام اسحق سنجري وصلت إلى يدي يهودا هاليفي ، فلاحظ أنها تخالف التعاليم الحاخاميه فترجمها – لهذا – إلى العربية بشكل مغاير[1] ، وكان فيركوفتش قائماً بأن أسحق سنجري كان من « القرائين Karaite » على أساس النظرية القائلة بأن القرائين قد غادروا فلسطين قبل أيام المسيح ، وكانوا في القرم قبل وصول الخزر[2] وطبعاً لم يكن مرحمه بالنسبة لهـذا الأمر نصاً مجرداً ،

---

(١) انظر نصاً ألمانيامن ستارك ، المصدر نفسه : ١٦ . . . وهاركفي أيضاً Denkmaler : ٢٧٠ .

(٢) انظر ستارك ، المصدر نفسه : ٢٥ ٢٦ . يتضمن رأي فيركوفتش أن الكريات كانوا يحظون بمكانة خاصة لدى الخزر ، ولعله قال هذا وفي ذهنه نص فيه عن كوسري (كوزاري) (٢٢/٣) لكن يبدو أنه بعيد عن الواقع الحديث عن الكريات ووجودهم في تاريخ مبكر مثل سنة ٧٤٠ . إنني لا أعرف شاهداً يوضح أن الكريات كانوا ذوي مكانة لدى الخزر حتى في فترة متأخرة .

بل أستاذه من القرائين الذي ذكر اسمه ، وختم القصة باضافة عبارة : « وأنا متفق معه »[1] .

وتجاوز فيركوفتش هذه التأكيدات ومضى أبعد منها ، بأخراج ما أعلن عنه أنه عثرعلى شاهد ضريح اسحق سنجري ، وأدعى أنه وجده في القرم،وقد كتب عليه بالعبرية « اسحق سنجري ب — ج »[2] ومعنى الحرفين الأخيرين « بلك بلاد الخزر » وبالطبع قد رفض هذا على اعتبار أنه ليس صحيحاً[3] ، وجرى انتاج نقش آخر فيه بكل بساطة عبارة «سبحريث» وذلك بخطعبري سيء ، وقد ادعي أنه شاهد ضريح زوجة سنجري .

وبصرف النظر عن هذين الشاهدين المخترعين،هناك الآن عدد منالمخطوطات العبرية في مكتبة لينينغراد العامة ، إنما كانت من قبل ملكاً لفيركوفتش،وهي تحوي إهداءات وأشياء مشابهة ، وقد تدخل بالنص ، وقد جاء في إحداهـا ذكر داود بن اسحق سنجري[4] ، وقال الجميع إن الاهتمام الذي أبـداه فيركوفتش باسحق سنجري لم يساعد على إلقـاء الضوء لتبيان من كان ، بل على العكس ، بإقدامه على التوفيق بين الافكار ، عزم على جعل وجوده موضعشك أكبر[5] ، ويمكن بالحقيقة القول بأن قصة تحول الخزر إلى اليهوديةبأكملها كانت

---

(١) ستارك المصدر نفسة: ٢٣ .

(٢) انظر هاركفي Denkmaler : ١٧٤ .

(٣) يتحدث ن. سلوستشز في مجلة هـ. ديرنبورغ عن نقود عبرية عثر عليها في بولندا مـع حكاية « أبرهام بك » (نقلا عن هاركفي افري — كازاكي ١٨٨٠) . وقد بحث ليلي ول في في مقـال له (مجلة النميات ١٨٦٠ : ٣٢٨ ...) وناقش سلسلة النقود التي أشار إليهـا هاركفي وسلوستشز .

(٤) المجلة الآسيوية : ٦/٥(١٨٦٥) ٥٣٨ .

(٥) كانت الغاية من مقال فيركوفتش اظهـار أن الكريات كانوا متميزين عن اليهود المحافظين وينبغي عدم معاملتهم بشكل سيء من قبل المسيحيين،لا سيما من قبل حكومةالقيصر.

بالماضي عرضة للشك في بعض الاوساط ، ومرد ذلك إلى جهود فير كوفتش غير الدقيقه أو بالحري المحمومة لأظهار أنهم ارتبطوا بقرائيـــه ، ولسوء الحظ أن فير كوفتش قد تصرف على هذه الصورة ،وقد تفحص كل من هار كفي Harkavy وستراك Strack [١] ثم من قبل شولسون Chwolson [٢] مادته بكل دقة هذا وإن استعراضاً كافياً لهذه المادةمع الأدبيات الوثيقة الصلة [٣] سوف يقتضي بحثاً خاصاً ، وفي الوقت الذي قام فيه كل من هار كفي وستراك بلفت الانتباه بكل حق إلى مختلف أعمال التزييف التي قام بها فير كوفتش ، فإنهما لم يستخدما عبارة تزييف في موضوعهما ، هـذا ويمكن لفحص دقيق للوثائق في ضوء النقد الحديث أن يقدم معلومات إضافية حول الخزر .

وفيما يتعلق باسحق سنجري يمكن القول إنه نشط في تهويد الخزر ، حسبما جاء بالمصادر اليهوديه ، وذلك مع الأخذ بعين الاعتبار أنه لم يرد ذكره حتى وقت متأخر ، وإذا صحت أصالة هذا الاسم فيمكن توضيحه عن طريق غزوه إلى بلدة سنجروس أو سنجري على شاطيء بروبنتس الآسيوي [٤] ، وبناء على هذا فهو يهودي بيزنطي ، من المفترض أنه غادر الأراضي البيزنطية وذهب إلى بلاد الخزر حسب الخطوط التى اقترحها المسعودي .

ونلتفت الآن نحو مراسلات الخزر ، التى تحتوي كما سبق القول على رسالة أرسلت كما يبـــدو من الأندلس في القرن العاشر إلى بلاد الخزر ورد ملك الخزر عليها ، وقد جرى نقاش طويل حول أصالتها وصحتها ، وهذه المراسلات أساسية بالنسبة إلى تحول الخزر إلى اليهودية ، حيث يقدم الجزء الثـ اني منها ،

---

(١) فهرس مكتبة لينينغراد العامة .

(٢) مجموعة النقوش العبرية (في الطبعات الروسية والألمانية) .

(٣) انظر المقال القصير لتيبورومونك في المجلة الآسيوية ١٨٦٥ .

(٤) انظر مرقوارت : ٢١١ .

المعروف باسم رد الملك يوسف ، معلومات تفصيلية ، وبديهي لو صح رد يوسف، فإنه يمتلك سمة الرواية الرسمية للحادثة ، صادرة عن مرجع كان هو الأقدر على تقديم الحقائق الصحيحة ، وفي الحقيقة إنه عندما يجري الحديث أحيـــاناً عن المشكلة الخزرية ، فإن المراد بذلك بشكل رئيسي هو هـــل يمكن اعتبار الرسالتين تاريخيتين أم لا ؟ ، لكن أهمية مراسلات الخزر كانت عرضة للمغالاة ، ففي أيامنا بات من الممكن إعادة تكوين تاريخ الخزر بشيء من التفاصيل بدون العودة إلى رسالتي حسدي ويوسف ، فحتى لو قام برهان على زيفهما فإن وجود الخزر مع حقيقة تحولهم إلى اليهودية هو أمر ليس عرضة للشك ، وذلك اعتماداً على أخبار العديد من الروايات المستقلة التي لا تدحض .

ولن نحاول فيما يتبع القيام بنقد تفصيلي للمراسلات ، كما هو متوفر ويمكن الآن على أساس النشرة المحققة لها بشكل رائع من قبل كوكوفتسوف Kokovtsov التي توفرت بالروسية من عام ١٩٣٢ [١] ، لكننا سنشير إلى محتويات الرسالتين وإلى بعض الوثائق المتعلقة بها والتي هي بالعبريـــة أيضاً ، وإلى بعض الحجج الرئيسية التي أثيرت ، وسنقيم بعض الاعتبارات لما نراه ويبدو لنا مهماً

وحتى تاريخ صدور طبعة كوكوفتسوف المشار إليها أعلاه ، لا بل حتى بعد ذلك ، وعلى أرضية صعوبة الوصول إلى الكتب الروسية ، على الأقل في الغرب، يمكن القول بقي المصدر الأساسي لمعلوماتنا بشأن مراسلات الخزر يعتمد على النص الأصلي والترجمة اللاتينيه للرسالتين كما جرى نشرهما من قبل بوكستروف الأصغر منذ زمن مديد يرقى حتى عام ١٦٦٠ . أما بالنسبة للأحرف التي طبعها بوكستروف ، في نشرته لكتاب كوسري (كوزاري) فقد سبق ذكرها، وقد انتزعها من كتاب عنوانه «قول مبسر» Qol Mebasser ، أرسله إليه صديق له،

(١) المجلد العاشر لينيغراد ١٩٣٢ : Evreisko - khazarskaya perepiska.

وبديهي أن بوكستروف قد نظر إلى المراسلات بريبة كبيرة ، وسبق أن بينا مواقف بوكستروف لأن الباحثين الآخرين قبل أيامه وعندها قد تصرفوا بشكل مشابه ، عندما غدت المراسلات الخزرية للمرة الأولى موضع اهتمامهم ، وكان عندما سمع بوكستروف بالخزر للمرة الأولى ، اتجه نحو ربط اسمهم بكسرى الفرس [1] ، ويوضح هذا الموقف في حد ذاته أنه وقف على أرضية كان لا يعرفها .

وصحح بوكستروف ما ذهب إليه عن العلاقة بين الخزر وكسرى [2] ، لكنه ظل يتخبط ويجد صعوبات بالنسبة لحسدي بن شبروت الذي يعزى إليه إرسال الرسالة إلى بلاد الخزر ، وهناك الآن مواد كثيرة فيها معلومات تفصيلية غنية حول هذه الشخصية الزاهية التي برزت في أندلس عبد الرحمن الناصر [3] ، وكان حسدي من أصل يهودي ، وكان من ضمن أعماله شفاء أمير مسيحي واستقباله بشكل رائع في قرطبة ، وهو الراعي لبعث عدد من الأعمال الأدبية الرئيسية لدى اليهود في الأندلس ، وصاحب مراسلات مع علماء بلاد بابل ، وذلك بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة يمكن جمعها من المصادر العربية والعبرية أيضاً ، وقد عاد بوكستروف إلى كتاب «غانزرزمه» داود Ganz's Zemah David ، وهو كتاب تأريخ رئيسي يهودي في أيامه ، ولم يجد فيه إلا اشارات إلى حسدي كرسكاس وشم توب ابن إسحاق شبروت [4] ، وكلاهما ينتميان إلى القرن الرابع عشر ، ويبدو أنه لم يكن لديه أدنى فكرة عن الظروف الواقعية لوجود حسدي ابن شبروت في القرن العاشر ، وتبعاً لهذا فإنه عندما عثر على ذكر للمراسلات

(١) بوكستروف على كوسري : ١/١/ حاشية ٦ .

(٢) بوكستروف : Praefat .

(٣) انظر لفي – بروفنسال – تاريخ المسلمين في اسبانيا (١٩٤٤) ٣٢٦...

(٤) أوضح لي من قبل ج. ل. تيشر .

الخزرية لدى أبراهام بن داود الذي عاش ونشط في القرن الثاني عشر ، تشكك في أن يكون النص مدسوساً ، وجاء نص رواية أبراهام بن داود كما يلي [1] :

« ولسوف تجد طوائف من بني إسرائيل منتشرة من حدود بلدة شالة في أقصى المغرب وحتى تاهرت ، ومن بداية إفريقية وحتى نهايتها ، لا بل في أفريقيا كلها ، ومصر ، وبلاد الصائبه ، وشبه جزيرة العرب ، وبلاد بابل وعيلام ، وفارس وديدان ، وبلاد غرجاش التي تدعى جرجان وطبرستان وحتى بلاد الديلم ونهر أتل حيث يعيش شعوب الخزر التي تحولت إلى اليهودية وقد أرسل ملكها يوسف رسالة إلى الحاخام حسدي – الأمير – بن إسحاق ابن [2] شبروت وأخبره أنه وجميع شعبه يؤمنون باليهودية ، ولقد رأينا في طليطلة بعض أبنائهم ، وتلاميذهم وحكمائهم ، وقد أخبرونا أن بقيتهم يؤمنون باليهودية » .

ومن المدهش أن بوكستروف كان مستعداً لإخراج نظرية الدس لشرح ما لم يكن مستعداً لفهمه ، وحيث أنه لم يكن يعرف حسدي بن شبروت التاريخي فقد ضلل بالاشارات التي وردت في كتاب «زمه داود ، Zemah David » التي خصت أناساً آخرين ، وهكذا أخفق في أن يرى أن النص الوارد لدى أبراهام ابن داود فيه تأكيد – حسب ما يحويه – للمراسلات الخزرية ، هذا ولا يجوز أن يقلل من قيمة خدمات بوكستروف في جعله الرسائل متوفرة في الغرب ، لكنه وهو الاختصاصي الكبير بالآداب العبرية قد أساء عرض شكوكه ، هذا وإن المعلومات المتوفرة لدينا الآن أعظم بكثير مما سبق ، ذلك أننا نملك الآن مصادر تلقي فيضاً من الأضواء على موضوع بلاد الخزر ، ومع أخذ مسألة التطور

---

(١) « سفرها ـ قباله » تحقيق نيبور ، مؤرخو اليهود للعصور الوسطى: ٧٨ . تاريخ الكتاب تبعاً لمحققه (المصدر نفسه : ١٣) هو ١١٦١ م .

(٢) « ابن » في النص ، انظر ما يلي بالنسبة لاحلال كلمة « ابن » محل «بر » .

والتفيير بعين الاعتبار تظل قضية بوكستروف تستحق الاعتبار من قبل هؤلاء الذين يحاولون فك عقدة أية قضية شائكة باللجوء بسرعة إلى نظرية الدس[1] .

وعلى هذا يمكن القول إن البحث في المراسلات الخزرية قد أقلع بشكل غير موائم عندما اتخذ بوكستروف وضعاً من التفكير سلبياً ، وبعدمـــا ازدادت المعلومات ظلت هنالك أرضية للشك ، وقد قدم بوكستروف بعض المعلومات البدائية حول مصدره الوحيد ، وهو كتاب « قول مبسر » ، وعندما جرى فحص هذا الكتاب عن قرب كانت المعلومات المحصلة منه ضئيلة جداً ، هذا من جهة ، ويلاحظ من جهة أخرى أن مؤلفه يهودي غير معروف يدعى إسحاق أقريش ، سمع – كما أخبرنا – وهو في طريـــق رحلة له من القسطنطينية إلى الاسكندرية في سنة ١٥٦١ – ١٥٦٢ ، ثم خلال وجوده في مصر ، سمع أقاويل عن مملكة يهودية مستقلة ، أشارت كما يبدو إلى الفلاشة ، وجرى في سنـــة ١٥٧٧ أو بعيد ذلك ، نشر ما عثر عليه حـــول الموضوع في القسطنطينية في الكتاب الذي رآه بوكستروف[2] ، إنما من أين حصل إسحاق أقريش على نص المراسلات ، فهذا لسوء الحظ غير مذكور ، وليس هناك مجال لمختلف الأراء حول هذه النقطة الهامة ، ويقول مان Mann : « من الواضح أنه حصل على نسخته من القاهرة[3] » ولقد افترض أن الوثيقتين كانتا من «جنيزا[4]» القاهرة ،

(١) انظر بشكل خاص « Le Glozel Khazare » تأليف هـ. غريغوري . بيزنتيون: ١٢/٢٢٥ – ٢٦٦ (١٩٣٧) .

(٢) نسختا البودليان (رقم ١٠٧٤ و ١٠٩٨) حيث تعودان لمحققين مختلفين وكلتاهما لا تاريخ لها (١٥٧٧ ، هو تاريخ تصنيف هذا الكتاب) .

(٣) نصوص ودراسات .

(٤) اعتقدت شعوب الشرق القديم أن الحرف كائن حي ، وبناء عليه يتوجب على الانسان عدم اتلاف الأوراق المكتوبة التي انتهى استخدامها ، بل أن يقوم بدفنها ، وبناء عليه حوت بعض المعابد مدافن خاصة بالكتابات ، عرفت باسم جنيزا وخاصة لدى اليهود في كنسهم،وأشهر هذه الكنس كنيس الفسطاط عاصمة مصر الأولى ، حيث حوى كميات هائلة من الوثائق دفنت منذ القرن العاشر الميلادي وحتى القرن الماضي.

لكن ما من شيء محدد قد قيل في كتاب « قول مبسر » ومن المحتمل أن كاتبه لم ير المراسلات حتى عودته إلى القسطنطينية .

ولا شك أن هذا غير مقنع ، لكن الانسان ملزم بالابتعاد عن الرأي القائل : إن المراسلات الخزرية ليست جزءاً أساسياً من كتاب « قول مبسر » وقد أقحمت فيه فيما بعد ، مع إشارة إلى دسها في تعليقات أقريش بغية إخفاء الإضافة .

وروى أقريش أنه بعد وصوله إلى القاهرة قادماً من الاسكندرية زار حاخاماً يهودياً كان طبيب الوالي التركي في مصر في ظل حكم السلطان سليمان ، وأخبر الحاخام أقريش أنه شاهد قبيل وقت قصير الوالي وهو يقرأ رسالة وصلته من أمير حبشي اسمه دوشدومور ، ذكر فيها المساعدة التي تلقاها آنذاك في حربه من حاكم يهودي ، ويمضي أقريش في حديثه ليصف زيارة قام بها حبشي آخر – لم يذكر اسمه – إلى القسطنطينية ، وليذكر كلمات سمعها من سنان باشا، وزير السلطان مراد،حول موضوع المملكة اليهودية ، ويستطرد فيقول : « عندما سمعت هذه الكلمات ورأيت الرسالة التي أرسلت إلى ملك الخزر وجوابها قررت أن أطبعهما « بقلم حديد وبرصاص » (أيوب : ١٩/٢٤) « في سبيل تقوية الشعب ومن أجل أن يعتقد أن اليهود ملكوا أخيراً مملكة ودولة » [١] وتشير المحتويات وتوحي أن أقريش رأى المراسلات في القسطنطينية وليس في مصر ، ومهما يكن الحال إنه في القسطنطينية قد جرى – كما سبق القول – نشر كتابه .

وأراد لاندو [٢] حاذياً حذو غريغوري تفحص الكلمات « التي أرسلت إلى

---

(١) تبعاً لنص قول مبسر في كوكوفتسوف.

(٢) م. لاندو « الوضع الحالي للمشكلة الخزرية » صهيون ١٩٤٣، الفصل الأول(بالعبرية).

ملك الخزر ورده عليها » وافترض أن « الرسالة » التي ورد ذكرها هنا لا علاقة لها بالأصل بالمراسلات الخزرية ، لكنها كانت بالحقيقـــة رسالة الأمير الحبشي دوشدومور إلى والي مصر ، ومن الواضح أن هذا خطأ واضح لأن :

(أ) مسألة رسالة دوشدومور مرتبطة بزيارة أقريش إلى مصر تحت حكم السلطان سليمان (١٥٢٠-١٥٦٦)، وقد مضى أقريش في قوله ليصف أشياء أخرى مختلفة تماماً ، وهي زيارة حبشي آخر إلى القسطنطينية ، وتعليقات سنان باشا في ظل حكم مراد (١٥٧٤ — ١٥٧٧) ، ولا يوجد سبب يدعوه للعودة إلى الحديث عن رسالة دوشدومور .

(ب) لم ير أقريش رسالة دوشدومور قط بل رأى الرسالتين الأخريين .

(ج) لو أن رسالة دوشدومور كانت المعنية لأشار إليها تحت عنوان « الرسالة » كما ذكرها من قبل ، ويمكن عندها للداس ، كما هو متصور ، إضافة العبارات التالية : « التي أرسلت إلى ملك الخزر ورده » وعندها يمضي سيـــاق العبارة بكل هدوء وتقبل ، لكن الذي جاء بالنص عبارة «رسالة»(egereth) ولا بد أن هذا أصيل ، لأن الداس ليس لديه من سبب ليغير عبارة « الرسالة » (ha-egereth) لو أن أقريش قد كتبها ، وعليـــه من الواضح أن الذي عناه أقريش رسالة ثانية ليست رسالة الحبشي دوشدومور .

إنني أعتقد أن هذه النقاط كافيـــة لرفض الرأي القائل أن « قول مبسر » قد تعرض للدس ، وما من شيء نهائي قد جاء يؤيد ذلك، ويقول لاندو : لا بد أن أقريش عندما كان في القسطنطينية في نهاية القرن السادس عشر قـــد عرف شيئاً ماحول الخزر ، وأدرك أن مملكتهم قد زالت من الوجود منذ أمد طويل، والظاهر أنه لم يسمع عنهم أبداً ، مـــع أنه كان يعرف اسطورة نهر سامبوشين Sambation ويعطي أقريش الانطباع بأنه استخدم المراسلات ليؤيد أطروحته حول وجود مملكة يهودية قائمة في زوايا النسيان ، ويؤكد النص بوضعه الحالي هذا، ويبدو أن اسم حسدي بن شبروت قد حذف من قبل أقريش من النص

الذي تولى نقله ، على أساس أنه غير معروف من قبله ، ولا شك أن الداس كان سيضيفه،وخلاصة الأمر يبدو أنه قد رأى نسخة من المراسلات في القسطنطينية أو في مكان آخر في الفترة الواقعة مابين ١٥٧٤ و ١٥٧٧ ، (فترة حكم مراد) وأعاد بعد ذلك بفترة وجيزة إصدارها بنية طيبة .

لعل ما قيل حتى الآن حول الدس في كتاب أفريش فيه كفايـــة ، وإذا ما اعتقد إنسان ما أن المراسلات الخزرية قد نظمت للمرة لأولى عام ١٥٧٧م ، ونشرت في كتاب « قول مبسر » فإن مسؤولية البرهنة تقع بـــدون شك على عاتقه ، حيث يتوجب عليه البرهنة على أن العديد من المخطوطات القديمة - التي بدا أنها تحتوي على اشارات إلى المراسلات - هي جميعاً قد تعرضت للدس منذ نهاية القرن السادس عشر ، ولا شك أن هـــذا مطلب صعب جداً إن لم نقل مستحيل .

وعندما نحاول المضي إلى ما وراء النشرة المحققة من كتاب«قول مبسر» فإن النتائج لن تكون مرضية تماماً،إن المخطوطة الوحيدة المعروفة التي تحوي رسالة حسدي ورد يوسف هي في مكتبة كنيسه المسيح - أكسفورد [1] ، وتقدم هذه النسخه نصاً شديد الشبه بالنص المطبوع ، اعتماداً على طبعـــة كوكوفتسوف ، وحسبما تبين لي من فحص قمت به شخصياً ، ليس من السهل الحـديث عن أصل العلاقة بينهما ، لكن من المستبعد أن تكون المخطوطة - كما اقترح مراراً - هي نسخة منسوخة عن النص المطبوع ، والأمر كما قـــال كوكوفتسوف : عملت المخطوطة بشكل مباشر أو غير مباشر على أن تكون مصدراً للنص المطبوع ، ومع هذا كله فإن المخطوطة ليست قديمة جداً .

---

(١) رقم ١٩٣ ، وبفضل كرم ومساعدة سلطات كنيسة المسيح تمكنت من مراجعة هذه المخطوطة الهامة ليس في البودليان فحسب بل في مكتبة جامعة غلاسكو ، علماً أن مراجعتها من قبلي) ثانية جعلتني أدرك أن ما من شيء تقريباً قد فات كوكوفتسوف .

وهناك مخطوطة أخرى في مكتبة لينينغراد العامة [1] ، وهذه المخطوطه مثلها مثل مخطوطة كنيسة المسيح غير مؤرخة ، وهي تحتوي على نص من رد يوسف ، وذلك وسط مواد تلمودية ، وهذا النص أطول من النص الموجود ضمن مخطوطة كنيسة المسيح والنص المطبوع من قبل أفريش ، ولا تحتوي هذه المخطوطه على رسالة حسدي ، ولقد لفت الانتباه إلى هذه المخطوطة من قبل هاركفي ، وهو باحث نشيط في تاريخ الخزر القديم ، وكان ذلك سنة ١٨٧٤م، وقد اعتبرها الأصل غير المشكوك فيه للنص المعروف سابقا [2] ، ولسوء الحظ فإن النص المطول من رد يوسف قد نقل إلى مكتبة لينينغراد من قبل فير كوفتش، الذي حصل عليه - كما يبدو - من مصر في الستينات من القرن الماضي [3] ، ولم تمنع هذه العلاقة مع فير كوفتش من إقدام الباحثين على عدم الشك فيها واعتبارها أثراً قديماً لا ريب فيه ، وعلى كل حال يبدو أننا لسنا في هذه الحالة بحاجة مباشرة إلى الشك بوجود عملية تزييف، ولقد أعلن شولسون الذي تفحص المخطوطه ، أنها بأكملها قد كتبت بخط واحد ولا توجد فيها إضافات من أي نوع كان [4] ، وقد افترض أن تاريخها يرقى إلى القرن الثالث عشر [5] ، وبناء عليه ما لم يكن هذا التقدير للتاريخ غير صحيح تماماً ، وأن فير كوفتش مسؤول عن هذه المسألة بأكملها - على عكس طرائقه المعتادة في التلفيق التي تحدث التغييرات وتلحق الإضافات إلى الوثائق الأصيله - لربما يمكننا الاعتراف بالنص المطول على أنه أقدم بشكل معتبر من النص المطبوع من قبل أفريش ،ولم يتردد

---

(١) مخطوطة عبرية ١٥٧ ، من مجموعة فريكوفتش الثانية.

(٢) Measeph Nitdahim, أ، No. 8.

(٣) تشولسون - المجموعة - ط. ألمانية ، بطرسبورغ ١٨٨٢ : ١٤٣ ، حاشية ٦ .

(٤) المصدر نفسه : ٥٢٠ (اقتبس بشكل مماثل من قبل كوكوفتسوف ، الطبعة الروسية ١٨٨٤ : ٤٩٩) .

(٥) المصدر نفسه : ١٤٣ ، الحاشية ٦ .

هاركفي – على الرغم من موافقة الناقدة لفير كوفتش ولاكتشافاته – في تقبل المخطوطه واعتبارها أصلاً للنص المختصر المنشور من قبل أفريش ، وذلك كما سبق القول . وإذا لم يكن رأي هاركفي الذي يتوافق للوهلة الأولى مع رأي شولسون – صحيحاً فإن معظم الناس سيوافقون على أراء كوكوفتسوف الحذرة [١] ، في أنه لا بد من وجود أصل لكلا النصين هو هذا النص الأصيل الذي احتفظ به بشكل عام بصورة أفضل وأطول .

ولا شك أنه لا يمكن النظرة بجدية إلى الآراء القائلة بأن المراسلات الخزرية هي بمجملها اختراع زيف في القرن السادس عشر ، وذلك على ضوء الإشارات إليها الواردة بشكل واضح في كتابات ذات تاريخ أبكر ، فلقد سبق ونقلنا عن واحد منها مثل إبراهام بن داود ،وهو مصدر ليس وحيداً ،وبصرف النظر عن الإشارات العامة إلى تحول الخزر إلى اليهودية ، فإننا نجد مثل هذه المصادر متوالية منذ القرن العاشر على الأقل [٢] ، فنحن نمتلك ما يبدو أنه اقتباس أصيل لرد يوسف يرقى تاريخه إلى أيام الحاخام يهودا بن برزللي البرشلوني ، الذي يعود تاريخ كتابه « سفرها – إتيم » إلى ما بين ١٠٩٠ و ١١٠٥ [٣] م .

وقد كتب الحاخام يهودا البرشلوني ما يلي : «لقد رأينا في بعض المخطوطات نسخة عن رسالة بعث بها الملك يوسف بن هارون كاهن الخزر [ها – كوهن تصحيف

---

(١) عد إلى المدخل .

(٢) لعل أقدم اشارة يهودية إلى تحول الخزر إلى اليهودية هي التي وردت في كتاب « الرياض والحدائق » للقرقساني (المتحف البريطاني OR 2492) وتاريخه حوالي ٩٣٧ م وقد نقل عنه لاندوفي بحثه « الوضع الحالي » هذا وإن إشارات أخرى، وردت لدى سعيده غاون يمكن أن تكون أبكر (انظر الفصل السابع الحاشية ٢٧٣) .

(٣) س. أسف في « جيشرون » : ٩/١٠ – ١٠ الحواشي (نقلاً عن بولياك ، التحول : ٣) النص لدى كوكوفتسوف .

ها - كاغان أي الخاقان][1] إلى الحاخام حسدي بن إسحاق ، ونحن لا ندري فيما إذا كانت الرسالة أصيلة أم لا ، وفيما إذا كان شعب الخزر الذي هو شعب تركي ، قد غدا حقا يهودياً ، وليس من المؤكد فيما إذا كان جميع ماورد في الرسالة هو حقيقة وصدق أم لا ، لربما هناك زيف ما قد دون فيها ، أو أن بعض الناس قد أضافه إليها ، أو هناك خطأ ما قد اقترفه الناسخ .... والسبب في إقدامنا على التدوين في كتابنا أشياء يبدو مبالغاً فيها هو أننا وجدنا في رسالة الملك يوسف هذا إلى الحاخام حسدي ، أن الحاخام حسدي قد سأله عن أصلة ، وعن أحوال ملكه ، وكيف أصبح أبوه يهودياً ، ومدى عظم مملكته ودولته ، وقد أجابه عن كل سؤال وبين جميع الخصوصيات في الرسالة [2] » ، وأعقب هذ عرض جزء من رد يوسف يتوافق بشكل عام مع الرواية المطولة ، ويؤيد رأي كوكوفتسوف في أن النص المطول يحتوي على الرسالة الأصلية وذلك على عكس النص القصير .

وليس من الخطل الإعلان أن المراسلات الخزرية الحاوية لرسالة حسدي ورد يوسف قد كانت موجودة أيام الحاخام يهودا البرشلوني ، ويقول كوكوفتسوف : ليس لدى الحاخام يهودا ما يقوله ولو كلمة واحدة حول رسالة حسدي [3] ، وهذا صحيح ، بيد أن وجودها مؤكد لا ريب فيه ، ومع التسلم بهذا كله ، تظل صحتها وأصالتها غير مؤكدة ، فمن المثير حقاً أن الحاخام يهودا نفسه قد عبر عن شكوكه في رد يوسف ، ونجد للوهلة الأولى أن حقيقة وجود الآراء المرتابة التي جرى تبنيها منذ فترة مبكرة قد يدفع على تأييد شكوكنا ، إنما علينا أن نلاحظ أن شكوك الحاخام يهودا ليست قاطعة ، وبالنسبة لبوكتروف فلعله عنى بكل بساطة أنه لم يملك معلومات عن الخزر .

---

(١) انظر بولياك ، التحول : ٤.

(٢) تبعاً لنص كوكوفتسوف .

(٣) انظر ما سبق في المدخل.

ويمكن للبينات الخارجية أن تنقلنا أبعد من هذا قليلاً ، والمقصود هنا هو أن المراسلات كانت موجودة في الأندلس في القرن الحادي عشر ، وأما مسألة الصحة فلسوف تقرر – إذا كان ذلك ممكناً - على أرضيات داخلية .

وتبدأ رسالة حسدي بأبيات من الشعر جرى نظمها لتأتي بمثابة توقيع ومطلع لها ، وجاء في أولها : « أنا حسدي بن إسحاق بن عزرا بن شبروت – مناحيم بن ساروق [1] » ولم يقدم الاسم الأخير بتمامه في نص « قول مبسر » لكن بصورة قريبة منه كافية بالنسبة لرجل معروف من أهل القرن العاشر ، صلاته بحسدي لا شك فيها ، وإنه لأمر وثيق الصلة أن نقترح أن أبيات الشعر الحاوية للتوقيع وجميع ما تبعها قد صيغت من قبله بحكم وظيفته كاتب حسدي الخاص ، لكن من البداهة بمكان إن وجود أبيات الشعر لا يبرهن على أن رسالة حسدي قد كتبت من قبل مناحيم بن ساروق (مع أن هذا قد قيل) وهي على هذا أصيلة ، وربما يمكن الوصول إلى هذه المحصلة من زاوية أخرى ، فقد قام لاندو بمقارنة جميع كتابات مناحيم مع رسالة حسدي وذلك من منطلق التفكير والاسلوب ، ولم لديه أدنى شك أن الرسالة رسالته [2] ، وهنالك اعتبار آخر هو أن أبيـــات الشعر ذاتها موجودة في مخطوطة عبرية للكتاب المقدس جرى فحصها على حدة من قبل كل من هاركفي وإ – دينارد E. Deinard ، حيث عزيت بشكـــل حاسم إلى مناحيم [3] ، ويبدو نص القصيدة هنا مستقلاً عما جاء في « قـــول مبسر » مع أن تاريخه متقارب ومن الفترة نفسها [4] .

---

(١) انظر ما سبق حول « بر » و « ابن » .

(٢) « الوضع الحالي» ، الفصل الثاني. انظر أيضاً بحثه المبكر المنشور في براسلو(١٩٣٨) « Beitrage Zum chazarenperoblem » ويتخذ لاندو موقفاً شديداً في نقده لبولياك لقوله في خزاريا أن مدخـــل (سُفر قيريات : ٢١/١٩ ٠٠٠) هو من تصنيـــف مناحيم ، (خزاريا : ٢١) .

(٣) لاندو المصدر السابق ، الفصل الثاني .

(٤) انظر كوكوفتسوف ، المدخل .

وتلح القصيدة وتصر على الأمجاد العسكرية لحاكم الخزر ، وتنصرف بعد عدة أسطر لتوقف حديثها على الرغبات والأماني الطيبة لنجاح عساكره ، ويظهر هنا ما يبدو وكأنه إشارة إلى نصر خاص ، وذلك في قوله :

انظر الآن واعتبر هؤلاء هم أركان الأرض ، فمن الذي سمع من قبل بمثلهم أو رأى .

الباقون لا بد أن يسيطروا على الأقوياء ، لقد هزموهم ودمروا [؟] مدينة مع كل ما كان فيها [1] .

لقد مدت يد العلي العون لهم وأنجدتهم .

هذا صنيع القادر وهذا ما أنزله بالمملكة الآثمة .

ولفت لاندو الانتباه إلى هذا النص ، وأوضح أن عبارة « المملكة الآثمه » قد استخدمت بشكل متواصل لتعني « بيزنطه [2] » ، وهذه مسألة سنشير إليها ثانية ، عندما نشرع بالبحث فيما يعرف باسم وثيقه كمبردج .

ويشرع القسم المنثور من رسالة حسدي ، بعد التحيات والعموميات ، بتعريف ملك الخزر بالوضع الجغرافي للأندلس، ويقدم الكاتب بعض المعلومات، النوع نفسه حول الخزر ، وهي معلومات تبدو غامضة تماماً ، ويبدو أن رغبته كانت تزود مراسله بمعلومات يمكنه فيها من تصور وضع الأندلس بالموزاة مع أوضاع بلاد الخزر ، وفي هذا السبيل استخدم الكتابات الجغرافية العربية ، والنغمة العامة للرسالة هي محاولة التعرف والاستفسار ، وبدت معلومات الكاتب حول بلاد الخزر ، وربما حول أهميتها ، وليدة تلك الأيام وتتعلق بها ، وقال إن اثنين من يهود الاندلس ، هما الحاخام يهودا بن مائير بن ناثان والحاخام يوسف هجريس ، قد زارا بلاد الخزر في تلك الآونة ، لكنه لا يدعي أنه تكلم

---

(١) أو « تخليصها » ؟ انظر عاموس : ٦/٨ .

(٢) انظر ما سبق الفصل الرابع .

معهما، وقد تحدث عن ثراء الأندلس الطبيعي، كما تحدث عن نفسه كمسؤول عن الدخل الصادر عن التجارة الأجنبية، وبين أنه كان من بين الأجانب الذين قدموا إلى الأندلس أناس عرفوا باسم « رسل تجار خراسان [1] »، وأن هؤلاء الخراسانيين – إذا صح أنهم كانوا كذلك – قد أكدوا لكاتب الرسالة – كما أخبرنا – أن مملكة يهود الخزر قائمة، وأنه لم يصدقهم في اول الأمر.

وقال كاتب الرسالة فيما بعد: إنه سمع رواية حول يهود الخزر من رسل بيزنطيين، وجاء نص هذه الفقرة كما: « لقد سألتهم (أي رسل بيزنطه)حول هذه القضيه [يعني ما حكاه رسل تجار خراسان] وأجابوني إن ذلك صحيح وإن اسم تلك الدولة هو مملكه الخزر [2]، وأنه بين القسطنطينيه وبلاد هذه المملكه مسيرة خمسة عشر يوماً بوساطة البحر، وقالوا: يعترض بيننا وبينهم برآ عدد من الشعوب، واسم ملكهم هو يوسف، وتأتي السفن إلينا من بلادهم جالبة الأسماك والجلود [أي الفراء كما يرجح] وجميع أنواع التجارات، وهم داخلون بأحلاف معنا ومحترمون من قبلنا، نتبادل معهم السفارات والهدايا وهم أقوياء ولديهم معسكر حصين لفئات الغزاة منهم ولجيوشهم التي تتقدم زاحفة أحياناً.

ويبدو حسدي هنا – فيما لو كان هو مرسل الرساله حقاً – وهو يخبرنا كيف تعرف على اسم مراسله، هذا ودُعي يوسف في عنوان الرساله بـ « ملك الخزر » وذلك انسجاماً وتمشياً مع هذه الفقرة، وذلك في حين نراه يظهر في عنوان الرد تحت اسم « ملك (توغارمين) الترك »، ومهما يكن الأمر، من البديهي أن هذه العناوين قد أضيفت من قبل المحرر، هذا وليس هنالك

---

(١) انظر غير واضح لماذا توجب على رسل من خراسان زيارة بلاط قرطبة، انظر ما يلي.

(٢) النص « الخزر » انظر ما يلي.

رضيه للتأكد – حق ولو برهن الرد على أنه أصيل – من أن عبارة « ملك الترك » كانت لقبه الرسمي بالعبرية .

وقالت الفقرة التي اقتبسناها أعلاه إن بلاد الخزر تمد مسيرة خمسة عشر يوماً بالبحر عن القسطنطينية ، ويمكننا التمحيل قليلاً لنذكر أن وثيقة كمبردج قد جعلت المسافة تسعة أيام في البحر ، وهذا لعل كاتب الرسالة قصد طول مسافة الرحلة حتى عاصمة الخزر على الفولغا ، بينما فكر الآخر بنقطة أخرى أقرب إلى القسطنطينية ، ولا بد أن الطريق المعني بفقرتنا هو طريق البحر الأسود فبحر آزوف فممر الدون – الفولغا الذي يدعى في أماكن أخرى باسم « طريق الخزر »[1] ولا بد أن الحصن المقصود هو حصن ساركيل Sarkil الذي بني لصالح الخزر من قبل مهندسين بيزنطيين سنة ٨٣٣ م[2] .

ولعله لم يذكر في مكان آخر بشكل واضح كما ذكرنا هنا أمر متاجرة الخزر – بسفنهم كما يبدو – مع القسطنطينية ، وقد قيل كان من بين البضائع التي كانوا يجلبونها السمك والفراء كما يظهر ،فهذا ما جاء ذكره بشكل خاص ، ونحن نعرف مما جاء بالمصادر العربيه أن هاتين السلعتين كانتا من بين صادرات الخزر إلى أراضي الإسلام ، هذا وقد أشير ثانية إلى قوة الخزر العسكرية .

وتبعاً لما جاء بالرسالة ، قرر حسدي بعدما سمع ما سمع أن يتصل بملك الخزر ، وتبعاً لما ذكره ، قد لاقى بعض الصعوبات في سبيل تحقيق ذلك ، فقد أرسل أولاً رجلاً اسمه مار اسحق بن ناثان إلى القسطنطينية ، مع تعليمات بأن يتابع طريقه من هناك إلى بلاد الخزر ، لكن رسوله لم يلق التشجيع من قبل

---

(١) انظر غ. فيرنادسكي – روسيا القديمة – ييل ١٩٤٣ ، ٣٥٠ ، نقلا عن الصقلبي فيتاكونستانتيني .

(٢) الفصل السابع .

الإمبراطور - ربما الامبراطور قسطنطين بورفي روجنتوس - لمتابعة رحلته ، ولهذا عاد فيما بعد إلى الأندلس ، دون القيام بزيارة بلاد الخزر ثم قام حسدي تبعاً لرسالة أيضاً - بدراسة إمكانات إرسال رسالة إلى بلاد الخزر عبر القدس، فبلاد الرافدين فأرمينية ، لكن وصول سفارة إلى قرطبة من قبل « ملك غبليم الذين كانوا سقلاب » [1] غير الخطط ، فقد كان مع هذه السفارة اثنين من اليهود هما : مارشاؤول ، ومار يوسف ، اللذان ما أن سمعا برغبة حسدي بالاتصال بالخزر حتى عرضا خدماتهما بالتوسط والمساعدة ، وجـاء اقتراحهما مرضياً بالنسبة لحسدي، وعلينا أن نفهم أن الرسالةوصلت بالفعل إلى غايتها بوساطتهما وقـد تسلمها ملك الخزر - حسبما جاء بالرد - من حاخام اسمه يعقوب أو (ل.ف) اسحق بن أليعازر وكان من يهود وسط أوربه .

ويتحدث الكاتب العربي المقري [2] عن سفارة قدمت إلى قرطبه من عند أوتو ملك الصقالبة ، وقد حددت بأنها الزيارة التي قام بها جون أوف غورز سفير الامبراطور أوتو الأول في سنة ٩٥٣ - ٩٥٥ [3] إنما أية أمة قـد عنيت بعبارة « غبليم الذين كانوا سقلاب » ، فأمر لم يتقرر بعد [4] ، وقدم غريغوري رأياً قال فيه إن الغبليم هي « غاليا » [5] التي يمكن لاسمها أن يعرض بالعبرية بحيث يلفظ « غيبهاليم » وهنا من المغري أن نعتـبر أن « سقلاب » هم نفس صقالبة المقري ، حيث كانوا من رعايا الامبراطور الالماني ، ويشير كلا الشكلين إلى « السكسون » وبناء عليه فإن رسالة حسدي لا بد وأنها تشير عند هـذه النقطه إلى زيارة جون أوف غورز ، ومهما يكن الحال فقد قيل إن مارشاؤول ومار يوسف قد أخبرا حسدي ، أنه قبل سنين مضت قدم يهودي خزري ساد

---

(١) انظر « صقالبة » .
(٢) ١/٢٣٥ ، ابن خلدون : ١٤٣/٤ .
(٣) انظر ليفي - بروفنسال - المصدر السابق : ٣٨٣ .
(٤) ناقش كوكوفتسوف القضية طويلا ، المصدر السابق : ٦٢ ، الحاشية ٣ .
(٥) في مجلة ر. دوسو:٤٨٩. إنني أدين بالتعرف إلى هذا المصدر إلى الأستاذ أ.م.هني مان.

على الأقل كان يسكن سابقاً في بلاط ملك الخزر ــ واسمه مار عمران ، إلى زيارة الأندلس [1] ، لكن حسدي أخفق – بعد البحث – في العثور عليه ، ولا بد أن يشير هذا إلى أن الاتصالات مع بلاد الخزر كانت نادرة .

هذا وإن رأي بولياك في أن المراسلات بوضعها العام هي في الحقيقة غير مزيفة ، لكنها من نتاج القرن الحادي عشر (إحالة على الحاخام يهودا البرشلوني) صيغت بشكل أدبي موائم لنشر المعلومات حول الخزر بين اليهود [2] رأي لا يمكن الدفاع عنه ، فلو كان الأمر كما قال ، ما هو الغرض من ذكر نصف دزينة من الأسماء المجهولة على اعتبار أنها اسماء رجال شاركوا بشكل أو آخر في بحث حسدي عن المعلومات ؟ لماذا رسالة حسدي بالأصل ، التي مع أنها أطول من رد يوسف بشكل معتبر ، فيها حقاً القليل من المعلومات حول الخزر لو أن الغرض من كتابتها وكتابة الرد ــ كما افترض بولياك ــ هو بكل بساطة تقديم معلومات عامة عن بلاد الخزر ؟ لو أن الرسالة هي مدخل إلى المعلومات الواردة حول الخزر في الرد ، فتلك حالة شاذة جداً ، ذلك أنها مليئة بالحقائق حول الأندلس والأمويين وهي أمور لا علاقة لها بمملكة الخزر ، ثم إنها قد ذكرت بصورة مفصلة جداً ، وبينت بفقرات كبيرة كيف كتبت وارسلت ، وهنا إنه لو كانت الغاية نشر بعض المعلومات ، لا شك أنه كان بامكان المبشر أو كاتب المناشير تحقيق هدفه ببذل جهود أقل ، ووصف مملكة الخزر بنص أقصر .

ويعترض بولياك محاججاً ضد تاريخية رسالة حسدي ، على أساس أن المرسل لم يقرأ ــ كما يبدو ــ قط الأدبيات العربية الجغرافية والتاريخية حول الخزر ، وهذا أمر لا يمكن التفكير به بالنسبة لرجل له مكانة حسدي في أندلس القرن

---

(١) كذا كما يبدو « با ـ املينو » أو « إلى أرض الفبليم » .

(٢) التحول ، الفصل الثالث . انظر أيضاً خزاريا : ١٩ . كان كاتب المراسلات حياً في الأندلس في ١٠٧٠ – ١٠٨٠ . أخذ لاندو محقاً في نقده – المصدر السابق – استثناء لهذا .

الناشر ، وهذه المحاججة غير مقنعة ، ففي الحقيقة يعطينا مرسل الرسالة انطباعاً وتصوراً بأنه قد عاد إلى عدد من الكتب يفترض أنهـــا من كتب الجغرافية العربية ، واستفاد مما جـاء فيها حول أوضاع مملكة الخزر [١] ، فهو يذكر عدداً من التفاصيل مستقاة من هذه المصادر ، من ذلك على سبيل المثال : إقدامه على تصحيح بعض الآراء حول خطي العرض لكل من قرطبة والقسطنطينية ، ومع هذا فإن بولياك يعتبر ذلك تناقضاً داخلياً ضمن الرسالة [٢] .

وقبل بولياك اتخذ مرقوارت خطأ مشابها [٣] ، واعتقد أن حسدي لابد أنه كان لديه بعض المعلومات حـول الخزر ، وأشار بهذه المناسبة إلى الراذانيه ، الذين أخذتهم رحلتهم التجارية المستمرة من الشرق إلى الغرب براً عـــبر طرق مرت من أوربا إلى (خمليخ) « عاصمة مملكة الخـــزر » ، ومن هنالك إلى ما وراء النهر — عبر بلاد بحر الخزر — وحتى بلاد الصين ، وتبعـــاً لابن خرداذبه (حوالي ٨٤٦) الذي هو مصدرنا الأساسي حول الراذانية ، لقد كانوا من يهود الأندلس [٤] ، لكن في رسالة حسدي نجده قـد سمع للمرة الأولى حول وجود ملك يهودي من الرسل الخراسانيين والبيزنطيين ، وبناء عليه فإن الرسالة — تبعاً لمرقورات — لا يمكن اعتبارها أصيلة ، وبدل هذا ثانية على قصور بالتصور ، ذلك أنه من المفهوم أن « رسل تجار خراسان » و « الراذانية » هم نفس القوم ، حيث جرى اعتبارهم مغاربة (أندلسيين) في المشرق ، ومشارقة في المغرب ، ومهما يكن الحال ، يلاحظ أن كاتب الرسالة يشير مراراً بأنه يعرف شيئاً مـا حول

---

(١) راجع ما سبق .

(٢) التحول : الفصل الثالث .

(٣) مرقوارت : ٢٤ .

(٤) عند ابن خرداذبه : ١٥٣ ، الراذانية التي احتفظ بها ابن الفقيه : ٢٧٠ وهي ربمـــا مأخوذة من الكلمـــة الفارسية (« راهدان » وهي تعني الذي يعرف الطريق . انظر مرقوارت : ٣٥٠) .

الخزر ، وأن مصادر معارفه ليست الكتب وحدها ، بل بعض المعلومات التي كانت متداولة في الأندلس[1] ، ثم إنه وإن تحدث في أول الرسالة عن « الدهشة التي استولت علي لدي سماعي عن مملكتكم ، الخبر الذي لم يصلنا من قبل » ينبغي علينا ألا نحمل الأمر أكثر مما يحتمل ، وسيكون من الخطأ إقامة نقاش رسمي ضد صحة الرسالة على أساس ادعاء الجهل من قبل كاتبها لموضوع الخزر .

ويوجد في رد يوسف فقرة هامة جداً ، تثير عدداً من الأسئلة ، من الموائم مناقشتها هنا ، ارتباطاً بآراء بولياك ومرقوارت التي فرغنا من الإشارة إليها ، فنحن نقرأ في النص المختصر قوله : « إن ما أخبرتنا به حول بلادك (أي الأندلس) وأصل ونسب ملكك قد وصل إلينا من قبل ، فلقد جرى من قبل تبادل الرسائل والأصداء الحضارية بين آبائنا ، وهذه الامور محفوظة في كتبنا ومعروفة من قبل جميع الشيوخ في بلادنا وفي جميع الشرق حسبما ذكرت ، كما وإننا سنجدد الصداقة القديمة التي كانت قائمة بين آبائنا ونورثها إلى أبنائنا » هذا وليس لعبارة « في جميع الشرق حسبما ذكرت » معنى واضحاً ، ذلك أنه من المؤكد أننا لا نجد أية إشارة إلى رسائل متبادلة بين الأندلس ومملكة الخزر ، في تاريخ أبكر من تاريخ نص رسالة حسدي .

ومن الواضح أن الرسالة كما هي بين أيدينا الان ليس قد لحقها التصحيف في بعض الأماكن فقط ، بل إنها غير كاملة ، فقد بين لاندو أن هناك إشارة في الرد للبحث من قبل حسدي عن إمكانية قدوم سفير خزري إلى قرطبة[2] ، ولا يوجد أثر لمثل هذا البحث في متن نص رسالتنا الحالي ، فهل احتوت الرسالة آنذاك بالأصل إلى بعض الإشارات إلى اتصالات سابقة بين الاندلس ومملكة

---

(١) انظر ما سيأتي .

(٢) الوضع الحالي : الفصل الثاني .

الخزر ؟ والجواب لهذا السؤال : يبدو أن ذلك لم يحصل ، وتختلف قراءة هذه الفقرة عنها في النص المطول فقد جاء هناك : « لقد جرى من قبـــل تبادل الرسائل والاصداء الحضاريه بين آبائنا، وهذه الامور محفوظة في كتبناومعروفة من قبل جميع الشيوخ في بلادنا ، ونحن نسمع دائماً عن بلادكم ، وعن عظمة ملكهاليحفظه خالقه وليعيده إلى مملكة آبائه في الشرق حسبما ذكرت، كما واننا سنجدد الصداقه القديمة التي كانت قائمة بين آبائنا ونورثها إلى أبنائنـــا » وفي هذا الكلام إشارة إلى الفقرة التالية التي وردت في الرسالة حيث قال : « إنني سأطلع مولاي الملك على اسم الملك الذي يحكمنا: إن اسمه هو عبدالرحمن بن محمد (ابن عبد الله بن محمد) [1] بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن ... وكان عبد الرحمن الذي هو الثامن فيالتسلسل هو الذي قدم إلى الأندلس،وذلك عندما استولى العباسيون – من أقربائهم، والذين يحكمون في العراق الآن – على السلطة منهم ... لقد كان ابناً لمعاوية بن هشام بن عبد الملك ، فلقد قـــدم كاتب الرسالة هنا نسب أموبي الأندلس ، وأشار إلى أن العباسيين كانوامغتصبين وجاءت أصداء هذا في رد يوسف الذي عبر عن أمانيه الطيبة في أن يتمكن الأمويون من العودة إلى الخلافة في المشرق .

وبعيد عن الاحتمال ألا يكون الخزر يعرفون معرفة كاملة الوضع السياسي بين العرب ، اعدائهم القدامى ، ومن المؤكد أن رد يوسف – لو أنه وثيقـــة صحيحه – قد حوى فكرة عن الحكام المسلمين في المشرق ، وهـــذا بعيد عن الوضوح في ثنـــايا النص القصير موضع الاعتبار ، وجرى انقاذ الوضع في هـــذا المجال بوساطـــة النص الطويل الذي يشير بوضوح إلى أن كاتب الرد كان يعرف العلاقات بين العباسيين والأمويين .

---

(١) ينبغي استخدام اللفظين .

ما الذي سنقوله عن قوله في الرد إنه « قد جرى من قبل تبادل الرسائل والأصداء الحضارية بين آبائنا » ؟ ألم يعرف حسدي التاريخي أخبار الاتصالات المبكرة بين الأندلس وبلاد الخزر ؟ والجواب من المؤكد أنه عرف ، وفي الحقيقة يشير كتاب حسدي إلى حدث يمكن وضعه تحت عنوان بارز وهو : « اتصالات سابقة مع بلاد الخزر » ، والمعنى بذلك زيارة رحالة يهودي إلى الأندلس حدثت في حوالي سنه ۸۸۰ م ، واسمه إلدادها — داني ، وقد جاء ذكر رحلة داني إثر طرح سؤال حول اللغه التي يتحدث بها الخزر ، ومن الواضح أن المقصود من ذلك كان توجيه السؤال إلى ملط الخزر فيما إذا كان يعرف شيئاً ما عنه [1] ، ولا تلقي نصوصنا من الجواب ضوءاً حول هذا .

هل كان الداد خزرياً ؟ من المحتمل أنه كان ، وهناك حقيقة واحدة حوله تظهر وسط ركام الترهات الواردة في المصادر هي أنه أصر على التكلم بالعبرية ، ويمكن بدون شك ايضاح هذا بأشكال أخرى ، فلربما كان السبب الأبسط هنا هو لعله لم يعرف العربية ، ولا يمكن التفكير على هذه الشاكلة لو أنه كان يهودياً فلسطينياً أو أفريقيا كما اقترح ، بل يبدو من الطبيعي أنه كان خزرياً ، وقد احتفظ ببعض الكلمات العبرية التي استخدمها في رسالة بحث عنه بعثت من قبل يهود القيروان إلى زمه غون Zemah Gaon في العراق [2] ، ومال فرانكل Frankel إلى الإعتقاد أنه يمكن إيضاح هذه الأمور من الإغريقية .

وبناء عليه كان إلداد من بلد تحدث بالإغريقية [3] ، ويعتقد غراتز أنه لربما كان مبعوثاً من قبل الكرتيز Karaites [4] ، وقد سمح له بزيارة القسطنطينية

(۱) كذلك عند كوكوفتسوف ، المصدر السابق : ۷۰ ، حاشية ۱ .

(۲) انظر أ. نيبور في المجلة اليهودية الربعية : ۱ (۱۸۸۹) ۱۰۵ .

(۳) راجع المصدر نفسه : ۱۰۹ .

(٤) Geschichte ، الطبعة الثالثة : ٢٣٩/٥ .

حيث من المفترض أنه سمع عن الخزر الموجودين على ضفاف الفولغا ، وكما هو معلوم يشير إلداد إلى بلاد الخزر في قصتـــه ، ويذكر أن سبط شمعون ونصف سبط منشا يعيشون هنالك [١] ، وقد قـــال : إن تعداد الخزر كبير جداً ، وهم يأخذون الجزية من ثمان وعشرين مملكة ، ويدفع بعض المسلمين الجزية لهم.

وبالنظر للسمات للخيالية التي تتسم بها معظم رواية إلداد فإننا لا يمكننا الإعتماد كثيراً على ما قاله حول الخزر ، لكن هذا له بعض العلاقة بما جاء في مصادر أخرى ، فلقد سبق ونقلنا عن ابن فضلان حديثه عن الخمس والعشرين زوجة اللواتي كانت كل واحدة منهن ابنة ملك من الجوار ، وكن يعشن في حريم خاقان الخزر ، وتقدم بعض الروايات عن نص إلداد رقم خمس وعشرين مملكة بدلاً من ثمان وعشرين ، كانت تابعة لمملكة الخزر ، ومن جـــديد ذكر الرد ٩+١٥+١٣ دولة تدفع الجزية ليوسف ، وهنالك أساس للتفكير أن الدول التسعة شكلت ولايات بلاد الخزر [٢] ، ويتوائم رقم ١٣+١٥ المتبقي مع الرقم الذي قدمه إلداد . أما بالنسبة لقبيلة دان Dan قبيلة إلداد ، فقد ذكر أن ديارها كانت على ضفاف نهر سمباشون Sambation ، ومن المفيد محاولة إيجاد جواب للتساؤل فيما إذا كان نهر سمباشون الأسطوري هو نهر سمباتاس [٣] Sambatas وهو الذي كان تبعاً لقسطنطين بورفي روجنتوس Constantine Porphy Rogenitus إسماً آخر من أسماء كييف ، أو من أسماء الدينبر Dnieper أو لربمـــا

---

(١) انظر ما يلي .

(٢) انظر الاقتباس من قسطنطين بروفي المقبل .

(٣) De Admin. Imp, C. g. انظر أيضاً مينورسكي ، حدود : ٤٣١ حاشية ٣ حيث ذكر أن باحثاً روسيا اسمه لاشنكو أعطى ٢٢ شرحاً مختلف لساماباتاس (من سلافي إلى اسكندنافي إلى هنغاري الخ ...) ورجح أصلها الخزري كما اقترح بروتزكوز وعنده أن كييف وساماتاس اسمان خزريان (انظر الموسوعة اليهودية ، مادة تشاسون) وانظر :
(Kiev I, Sambatas, Dokladi Akad, S. S. S. R. 1930) .

من أسماء الدون[1] Don ، ومهما يكن الحال من الممكن أن إلدادها داني قد كان يهودياً خزرياً ، مثل آخرين قدموا إلى الأندلس خلال القرون ، لكن ليس هنالك أدنى إشارة إلى سفارة خزرية إلى الأندلس ضمن نص رسالة حسدي ، كما أنه لم يوجد أي شيء أصلاً يتوائم مع الأشياء الأخرى التي قيلت.

والحل الممكن لهذه المصاعب هو أن كاتب الرد أراد أن يقول إن الخزر كانوا على اتصال في ماضي الأيام ليس مع أمويي الأندلس فحسب بل مع أمويي المشرق ، ولا شك أنه كان هنالك سفير خزري في ركاب الفضل بن سهل من المفترض في بغداد[2] ـ أثناء خلافة المأمون[3] ، (٨١٣ - ٨٣٣) ، وفي ضوء هذه القضية من المحتمل وجود زيارات أخرى أبكر ، ولم توصف العلاقـــات الخزرية مع مسلمي المشرق بشكل صحيح في كلمات كاتب الرد في قوله : «تبادل الرسائل والمؤثرات الحضارية » ، ويبدو من الطبيعي الإلحاح على الجانب الإيجابي المفرح في رد مرسل إلى وزير أندلسي ، وعلى أساس هذه الفقرة يبدو أو بروتوكوز Brutzkus كان محقاً في قوله : ملك الخزر أرشيفاً كان بإمكانهم استخراج معلومات منـه حول العلاقات بينهم وبين الأمويين في القرن الثامن[4] ، ويبدو أن هذا الأرشيف نفسه هو الذي أشار إليه الرد في مكـان آخر أثناء حديثه عن التوسع الخزري في القرن السابع ، الأمر الذي تحدثت عنه المصادر الاغريقية ، وذلك قوله : « لدي سجلات مدونة فيها أنه لما كان آبائي قلة ، أعطـــاهم الله القدرة والقوة والشجاعة وقاموا بالحرب بعد الحرب ضد دول كثيرة كانت أعظم وأقوى منهم ،

(١) راجع موقوارت : ١٩٨ .

(٢) الأصح مرو .

(٣) الحصري - زهر الآداب : ١ / ٢٠٤ .

(٤) الموسوعة اليهودية - مادة تشاسرن ، وقد جعل يهوداها ليفي الملك الخزري يتحدث كما وأنه عارف بوثائق عمرهـــا قرون ، قوله : « وجدنا كتابات معلومة في مخطوطات . كتابها كتبوها منذ خمسمائة سنة مضت » . (كوزاري : ١ / ١) .

لكن بعون الرب ، تمكنوا من إجلائهم وورثوا أراضيهم ، وجعلوا بعضاً منهم يؤدون الجزية إليهم حتى هذا اليوم ، وكانت الأرض التي أعيش فيها في السابق ملكاً لـ « ونتر W - n nt - R ، وقد جاء أجدادنا من الخزر وقاتلوهم الخ ...[1] » وإنه لمن المهم التساؤل : إذا كان السجل معاصراً له ، ففي أية لغة كتب أصلاً ؟

إننا على كل حال نبتعد عن مقصدنا الحالي الذي هو القيام بتقدير قيمة رسالة حسدي كمصدر تاريخي ، وبعد كل ما قيل يبدو أسلم محصلة هي القول : إن الرسالة قد أرسلت من قبل الوزير الأندلسي إلى مملكة الخزر ، ويبدو أن تاريخ ذلك كان قبل سنة ٩٦١م ، بعد انتهاء حكم عبد، ولربما كان بعد سنة ٩٥٤م ، وهي السنة التي أرخ بها المقري للسفارة ، هذا وإن الذين يرون في الرسالة أصداء لآمال يهودية ذات مضامين « مهدويه » لعلهم محقون[2] ، لكن حسدي أراد معلومات أكبر إلى جانب التاريخ المحتمل لنهاية الدنيا ، لكنه لم يحصل على كل ما أراده ، فقد سألت الرسالة إلى أي سبط كان يوسف ينتمي ، لكن ليس هنالك جواب ، ولعل سبب ذلك أنه لم يكن من أصل يهودي ولم يكن له سبط ورأينا أيضا سببا للرأي القائل إن تهود الخزر لم يكن كاملاً حتى في القرن العاشر ، حيث لم يأت رد من قبل يوسف على التساؤل عن مذهبه في ممارسة طقوس العبادة ، وفيما إذا كانت الحرب تخرق السبت ، ومن الواضح أن ملك الخزر لم يرغب في إعطاء تعداد قواته المسلحة مع أنه قد طلب ذلك منه من قبل حسدي ، وذلك ما لم يكن هنالك سقط معتبر في نصي الرد ، وهو أمر لا يمكن في الوقت الحاضر برهنته ، المهم أنه هنالك فوارق واضحة بين أسئلة الرسالة والأجوبة الواردة في الرد ، ولربما يمكن اعتبار هذا بمثابة إشارة إلى أن الوثيقتين

---

(١) انظر ما سبق الفصل ٣ .

(٢) انظر ما سبق لاندو : Beitrage , Passim

صحيحتان كما هما وليستا عملاً أدبياً مخترعـــاً ، ففي مواجهة الانتقادات التي وجهت ضد صحة رسالة حسدي نجد هذه الجهود لم تستطع تقديم برهان مقنع ، ولذلك نجد لزاماً علينا تقبلها كما هي ، وحسبما رأينا في السير اللاتينية (أفضل نشرة لها في Mignespatrologia السلسلة الثانية المجلدة ١٣٧ . الفصل ١٢١) أن جون كورز قد وجد حسدي (Hasdeu) يشغل منصباً معتمداً في بلاط عبد الرحمن الثالث ويباشر نوعاً من الأعمال نسبها إلى نفسه في الرسالة ، وتمتن هذه الحقائق النتائج التي تم التوصل إليها .

ولكن ماذا عن رد يوسف ؟ يبدأ هذا الرد بالإشارة إلى النقاط الرئيسه في رسالة حسدي ويعيد إجمـــال عدد من أسئلته ، قد عبر يوسف عن استعداده للاجابة عليها بالتفصيل ، وقام يوسف أولاً بتقديم رواية مختصرة حول تاريخ الخزر خلال فترة الـ « ونتر » التي سبقت الإشارة إليها ، ثم تابع يوسف روايته فعالج بطول مناسب تحول الخزر إلى اليهودية تحت حكم الملك بولان Bulan ، ويشكل هذا الجزء بيت القصيد في الرد ، وقد قيل إنه في عهد واحد من أبنـاء بولان (حفيده ؟) واسمه أوبديه Obadiah كان هنالك حركة إصلاحية وجرى إدخال اليهوديه (الحاخامية ؟) ، ثم تتبع يوسف سأله انحداره من أوبديه وقدم وصفاً لبلاده وعاصمته ، وأشار إلى سؤال حسدي حول نهـــاية الحياة وجاء هذا الجواب بشكل غير ملتزم ، وعبر أخيراً عن أمله في أن يأتي حسدي إلى مملكة الخزر .

ومن البديهي أن أصالة رسالة حسدي وصحتها لا تعني بالضرورة صحة الرد وأصالته ، فقد تقبل جوست Jost منذ زمن بعيد الرسالة ووجد أن الرد يحوي مؤثرات عربية ، وقد توصل إلى نتيجة مفادها أنه لا بد وأنه قد صيغ

في الأندلس من قبل يهودي كان يتحدث بالعربية [1] ، وقام منذ وقت قريب ستنشنيدر Stienschneder بالاعتراف بأصالة رسالة حسدي ووصف الرد على أنه اختراع متأخر ، [2] لكن ما هو الأساس الذي اعتمده لإصدار هذا الحكم ؟ هذا مالم يذكره ، وأما موقف لاندو Landau فيتخلص في أن الرسالة لا بد وأنها أصلية بسبب التشابه الشديد بين أسلوبها وأسلوب ما وصلنا من كتابات مناحيم بن ساروق الذي قام - كما هو واضح - بصياغتها للوزير ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنه رأى أن الرد يمكن أن يكون أصيلاً ، لكن هذا ليس واضحاً [3].

وهنالك مسألة عامة تحتاج إلى الأخذ بعين الاعتبار هي أننا لا نملك رواية مستقلة (فيما عدا وثيقة كمبردج) تثبت أن يوسف كان شخصية تاريخية ، ولا شك أن هذا يلزمنا بالتعامل مع الرد بشيء من التردد أعظم مما نبديه تجاه الرسالة ، فالمصادر الإسلامية التي أتت على ذكر قادة الخزر لا تؤيد وجود ملك خزري حمل اسماً عبرياً ، زد على هذا : ليس من الواضح فيما إذا كان يوسف خاقاناً أم بك ، ذلك أن حسدي لم يكتف بمخاطبته في الرسالة باسم « قائد الحرب » بل من الواضح أن يوسف قد أشار إلى نفسه باسم « الملك القدير الذي لم يهزم له جيش قط الخ ... » وها هو يقول ثانية : « إنني أعيش عند فم النهر (يعني إتل الفولغا) وأقوم بعون الرب بحراسة فم النهر ولا أوذي سفن الروس ولا

---

(١) Geschichte . برلين ١٨٢٦ : ٦ / ٣٦٥ - ٣٦٦ . كان هاركفي الذي ألبت كلمات عربية أخرى في النص الطويل من الرد (ميسف ، ندهم : ١ / حاشية ١٠) محقاً حين لم يتوصل إلى محصلة أنه قد صنف في الأندلس .

(٢) تاريخ الآداب اليهودية (١٩٠٥) : ١٩ .

(٣) الوضع الحالي - الفصل الثالث . ويعترض لاندو بشكل واضح على قول بوليـاك (التحول : فصل ٣) أنه (أي لاندو) قد تقبل كل من الرسالة والرد على أنهما أصليان . ولا في موقف لاندو من صحة الرد والرسالة رواجاً معتبراً ولم يظهر فقط كتاب « روسيا القديمة » بل في كتاب « بداية التاريخ الروسي » للسيدة شادوك .

أمنعها من متابعة سيرها بحراً ضد العرب ... إنني أقاتل معهم الخ ... »ويبدو أن هذه اللغة لائقة بالبك أكثر منها بالخاقان، ومع ذلك نجده يخبرنا أنه ينحدر من سلسلة طويلة من الحكام ، وذلك في وقت لم يكن فيه منصب البك كما هو مرجح منصباً وراثياً ، ففي واحد من أشكال النص ، وهو نص شيفرها ـعتيم العائد إلى يهوذا البرشلوني، نجد لقب قاآن أو خاقان مذكور بشكل واضح.[١]

وفي جميع الأحوال لا بد من القول إن يوسف كان هو الخاقان ، ولنا أن نفترض أن خاقان الخزر كان اسما « ملكيا » عبريا وذلك بالإضافة إلى اسمه التركي ، ومن الممكن أن الخاقان قد كان طوال الوقت قائداً اسميا للجيوش (راجع نص ابن فضلان حيث أعطانا معلومات تفيد أن الخاقان قد ملك من السلطة ما يكفي لتغيير القادة غير الناجحين وتغيير البك نفسه) مع أنه لاريب في أن قيادة العمليات كان في يدي البك ، وذلك كما تخبرنا المصادر الإسلامية بالإجماع ، هذا ونعلم مما جاء في هذه المصادر أن الخاقان كان يركب في بعض الأحيان مع القوات الخزرية ، وذلك حتى في أيام الحرب ، وبناء عليه عندما تحدث يوسف عن عيشه مع قادته وقيامه بجولات خلال المقاطعات الخزرية،هو قد تصور الأمر أكثر من إجراءات رسمية موسمية ، أضف إلى هذا أن الخاقان كان صاحب الشأن أثناء تغيير المخيم الشتوي إلى المخيم الربيعي ثم المخيم الصيفي،ولعل هذه التحركات الهامة قد ربطت مع الأعياداليهودية الكبرى[٢].

وجرى ترتيب الأسباب الفعالة ضد أصالة الرد (وذلك بالإضافة إلى المؤثرات العربية) من قبل لاندو وهي :

١ ـ الهجوم العنيف على الإسلام الموجود داخل الرد غير محتمل في رسالة مرسلة إلى مسؤول كبير لدى حاكم إسلامي .

---

(١) انظر ما سيأتي الفصلين : السابع والتاسع .

(٢) في الرد (النص الطويل) : « نخرج من شهر نيسان ...... أنا وضباطي وخدمي انطلقنا ...في نهايه شهر كسليف في أيام عيد الوقف عدنا إلى المدينة .

٢ ـ انعدام اللون اليهودي واللون المحلي في وصف دولة الخزر .

٣ ـ سقط كبير في الوصف الجغرافي لبلاد الخزر .

٤ ـ الجدل غير المنطقي المستخدم في النقاش الديني التعسفي ، كما جرى تدوينه في الرد[١] ، ولا بد لنا من القول قبل تفحص هذه النقاط إن نصي الرد يبقيان معاً أو يسقطان ، ومع إمكانية أن النص الطويل يحوي إضافات ألحقت به فيا بعد جادل كوكوفتسوف Kokovtsov بحرارة في أن المدائح التي لها أرقام من الممكن أنها كانت كذلك[٢] من المؤكد أنه بشكل عام أقرب إلى الأصالة من النص القصير ، والبرهان على هذا موجود في المحتويات حيث لم يقم النص المختصر بعمل تجاوز به اختصار الطويل .

ففي حين نجد على سبيل المثال النص القصير يشير بكل بساطه إلى أن تسعاً من الدول الدافعة للجزية قائمة على الفولغا وخمس عشرة نحو الجنوب وثلاث عشرة في الغرب ، يقوم النص الطويل بإعطاء أسماء هذه الدول في كل حالة من هذه الحالات .

ولقد سبق ولاحظنا وجود فقرة غير مفهومة في النص القصير ، وأنها أصبحت واضحة بإضافة بعض الكلمات من النص الآخر ، ونأخذ نموذجاً على ذلك أننا نقرأ ما يلي في النص المختصر : « فمنذ ذلك اليوم عندما تجمعت أمتنا تحت أجنحة رب الوجود ، أخضع لنا جميع أعدائنا وأذل جميع الأمم والألسن من حولنا ، فجميعهم يدفعون الجزية لي على أيدي ملوك أدوم واسماعيل (يعني الأباطرة البيزنطيين والخلفاء » ، ليس هنالك مصدر آخر قد أشار إلى هذا ،وفي الحقيقة من غير الممكن أن نصدق أن الامبراطور البيزنطي والخليفة قد دفعا

---

(١) الوضع الحالي ـ الفصل الثالث .

(٢) انظر ما سبق ـ المدخل .

الجزية إلى الخزر كممثلين للأمم الأخرى ، وذلك كما يشير المعنى الحرفي للنص .

ومقابل هذا نقرأ في النص الطويل : « منـذ ذلك اليوم الذي اجتمع فيه آباؤنا على هذه الديانة ، أخضع رب اسرائيل جميع أعدائهم لهم وأذل كل أمة ولسان من حولهم من ملوك أدوم وملوك بني إسماعيل وجميع ملوك الأمم ، وما من إنسان استطاع أن يتصدى لهم ، وكانوا جميعاً يدفعون الجزية لهم » وهذا أقل تناقضاً من النص القصير وأقل اعتراضات .

والقول إن الامبراطور والخليفة قد دفعا الجزية للخزر ليس جديا وهو نوع المبالغات الأدبية نشهدها في النص الطويل ، ونحن نعرف أنه أيام ابن فضلان قد وعد بدفع مبلغ – وربما دفع – إلى البلغار [1] وذلك من قبل الخليفة المقتدر ، ومن المفترض أن هذا المبلغ قـد جاز عبر حدود الخاقان دون معرفته وضد إرادته ، وكان القصد منه بناء حصن لملك البلغار ، ولا شك أن ذلك كان ضد رغبات الخاقان ، ولربما جاءت مبالغ أخرى من بغداد ومن بيزنطة أيام إرسال البعثة المسيحية التبشيرية الهامة إلى بلاد الخزر في حوالي سنة ٨٦٠م [2] ، أو بعد النجاحات العسكرية الخزرية المشار إليها في وثيقة كمبردج .

وقد استخدم يوسف أسلوباً تبجح فيه كثيراً حـول نفسه ومركزه في كل مكان ، فكما سبق ورأينا وذكر ببعض المناسبات التي وجد فيها جيرانه الأقوياء أنه من النافع إرسال بعض الأموال إلى مملكة الخـزر ، ولا بد أنه حين وصف ذلك قد اعتبره جزية ، أو لعله كان يشير إلى الهدايا الثمينة مثل تلك التي اعتاد الأباطرة البيزنطيون إرسالها في بعض المواسم إلى دول شمـالي بيزنطة ، معتبراً إياها جزية مدفوعة من قبل الإمبراطوار ، وفيما عدا ذلك ما زال هنالك بعض الأشياء الباقية في النص الطويل لا نستطيع وضعها في سياق صحيح .

---

(١) ابن فضلان : ١ / ٤٨ .

(٢) انظر الفصل السابع .

لقد كان أول ما ركز عليه لاندو واتخذه بعين الاعتبار هو الوصف المادي والخاطىء للإسلام الذي وضع على لسان المناقش المسيحي أثناء المناظرة الدينية قوله: ماذا ! أيمكن مقارنة ديانة اسماعيل بديانة اسرائيل؟ إنهم ليس لديهم سبت ولا مواسم مقدسة ولا وصايا ولا شريعة ، ويأكلون كل شيء مدنس الخ » ... هذا ومن الصعب أن نرى· أن هـذه الكلمات لم يكن لها مكان في رسالة أصيلة بعثت إلى حسدي، فالرد قد كتب بالعبرية وكان من المستبعد تعميمه في الأندلس حتى بسبب المضايقة لمتسلمه ، ثم إن حسدي نفسه لم يكـن مسلماً ولا شك أنه لم تكن لديه مشاعر لطيفة خاصة تجاه ديانة سيده ، ثم إن الإهانات هي في جميع الأحوال قد قدمت ليس بمثابة كلام قاله يوسف بل على أساس أنهـا قيلت في مناظرة جرت منذ وقت بعيد قبل تحول أجداده إلى اليهودية .

أما بالنسبة للنقطة الثانية التي ذكرها لاندو ، إن هنالك كميـة كبيرة من اللون اليهودي ، إذا كان المقصود بذلـك الإشارة إلى المؤسسات الإسرائيلية المعهودة ، فلقد كتب الرد بالعبرية ، وبالعبرية تميز عن أيه رسالة أخرى ، وهذه نقطة هامة جداً سنعود إليها ويخبرنا الرد أنه بعد الهجوم على أردبيـل (الذي وقع سنة ١١٢ هـ/ ٧٣٠ حسب المصادر العربية) [١] أقيم هيكل بدائي حسب النمط التوراني (فيه تابوه وشمعدان إلخ) .

ومن المؤكد أننا نملك أقوى لون يهودي عندما يخبرنا الكاتب أنه بعد جيل أو جيلين من التحول إلى اليهودية وجدت حركة إصلاحية دينية بقيادة أوبديه

---

(١) من أجل الفترة فيما بين بولان وأربيـده يمكن الافتراض أن القرائين سادوا في بلاد الخزر (حوالي ٧٤٠ - ٨٠٠) لكن من الممكن أن هـذا مبكر جداً (فآن بن دافيد الذي يجري بالعادة الحديث عنه على أنه مؤسس حركة القرائين من المفترض أنه نشطفي حوالي سنة ٧٦٠) بالنسبة للفترة نفسها افترض بولياك وجود « ديانـة ابراهيمية » متميزة عن اليهودية (التحول الفصول ٣ - ٤ - خزاريا : ١٤١ - ١٤٣) لقد ورد هذا التعبير في الرد بدون أية أهمية خاصة بل كعبارة تدل على ديانة بني اسرائيل .

حيث بنيت الكنس والمدارس وأصبح الخزر معتادين على التوراة والمشنا والتلمود وأدبياتهم ، ولقد كان بإمكان يوسف تقديم لائحة بأسماء أجداده جميعاً وهم يحملون أسماء عبرية وذلك فيما عدا بولان، كما كانت له اتصالات باليهودي بن اليعاذر ، هذا من جهة وإذا كنا من جهة أخرى نلمس بعض الآثار غير اليهودية، فتلك متعلقة بالحياة نصف البدوية لشعب الخزر ، ويتماشى هذا مع ما نقرأه في كل مكان ويمكن شرحه على ضوء الأصل التركي للخزر .

أما بالنسبة للون المحلي في الرد فإنه واضح على الأقل بقدر وضوحه في رسالة حسدي بالنسبة للأندلسي ، فقد لاحظنا قبل قليل الأثر نصف البدوي للخزر ، أما ما قاله يوسف حول الدول التي كانت تدفع الجزية فقد جرى ايضاحه بشكل ممتاز من قبل الكتاب الروس [1] ، وأكده الاصطخري الذي تحدث كما نقلنا من قبل أن « لهم وظائف على أهل المحال والنواحي من كل صنف » .

وقد أكد الاصطخري بشكل مثير ما رواه يوسف عن هجرة جماعية للخزر من عاصمتهم في الربيع حين قال : « اعتدنا أن نخرج منذ شهر نيسان من المدينة ، حيث يمضي كل إنسان إلى حقله وكرمه وفلاحته » ، وتبعاً إلى كاسل Cassel [2] هنالك نقطة واحدة في الرد كافية في حد ذاتها للبرهنة على صحة الوثيقة كلها ، وهي الإتيان أثناء الحديث عن التحول إلى اليهودية) على ذكر « واحد كان قائدهم العام » أو « إن هنالك قائداً عاماً » إلى جانب ملك الخزر ، فمن المؤكد أن الاشارة هنا إلى « بك » مملكة الخزر ، ومن النقاط الأخرى التي يمكن ملاحظتها تصريح يوسف أنه يقوم بحراسة فم الفولغا ويتولى منع سفن الروس من النزول إلى بحر قزوين ، وتقسيم عاصمة الخزر إلى ثلاثة أقسام مضاعفة (حسبت مقاييسها لتطابق عملية تحويل فلكية) [3] .

---

(١) انظر الفصل السابع .

(٢) نقلا عن كوكوفتسوف ـ المصدر السابق : ٧٨ الحاشية ٢ .

(٣) انظر المصدر نفسه : ١١٠ ـ الحاشية ٣٨ .

ومن جانب ثالث أشار لاندو إلى سقط في الوصف الجغرافي لبـلاد الخزر ، وقد ألح بولياك على هذه النقطة وحاجج على أن المعلومات الجغرافية الموجودة في الرد هي من النوع الذي يمكن لرحالة أن يحصله بعد أن يمضي من القسطنطينية إلى عاصمة الخزر ، وذلك بعد أن يكون طريقه بحراً عبر القرم وبراً من تمتارخـــا Tamatarkha (تمان) واقترح أن معلومات مثل هذا الرحالة قد استخدمت من قبل الذي تولى صياغة الرد [1] ، وبدا غياب أي تحديد للحدود الخزرية له أهمية خاصة بالنسبة لبولياك ، إذ أن واحد من طلبات حسدي في رسالتـــه تزويده بالمعلومات عن المدن « القريبة من (مملكة الخزر) باتجاه خراسان وبرذعه وباب الأبواب » [2] ولعـل إغفال ذلك في الرد يمكن رده إلى أسباب أخرى ، ذلك أنه لم يكن باتجاه خراسان مدن هامة ، فيما الذي يهم مراسل في الأندلس بديار آبسكون [3] ومنقشلغ [4] على الشاطىء الشرقي لبحر قزوين التي هي باستثناء مراكز صيد الأسماك في دهستانان سير [5] إلى الشمال من آبسكون ، كانت كما يبـــدو المكان الوحيد إلى الشرق من الفولغا كان فيه سكن دائم؟ وكانت الثغور الشرقية لبلاد الخزر إما صحراء أو في أحسن الأحوال أراض رعوية فقيرة محـاصرة من قبل رجال قبائل نصف معادين ، كانوا مـــا يزالون متوحشين أكثر من الخزر أنفسهم ، وكان أهم من ذكر مثل هذه الأسماء إيضاح أن الخزر تمتد « نحو قزوين

---

(١) التحول ـ الفصل ٣ ، خزاريا : ٢١ .

(٢) يبدو أن بولياك يفترض هنا أن رسالة حسدي صحيحة .

(٣) من سفن آبسكون التي أبحرت عـــبر باب الأبواب وباتجاه الشمال الغربي إلى مصب الفولغا (الاصطخري : ٢٢٧ وانظر أيضاً ٢١٣) وذكر المسعودي أنه أبحر من آبسكون إلى طبرستان (مروج : ١ / ٢٧٤) .

(٤) وقعت منقيش لاغ على الحدود الخزرية باتجاه جرجان وذلك تبعـــاً للمقدسي : ٣٥٥ (عنده بنقشله) وقال بارتولد (الموسوعة الاسلامية ـ مادة منقيش لاك) إنها سياه ـ كوه إلى الشمال من آبسكون (الاصطخري : ١٩٠ ، ٢١٩) .

(٥) الاصطخري : ٢١٩ . مينورسكي (حدود : ١٩٣) حيث قرأها دهستانان ـ سر.

وحق جرجان (اقرأ كوكالج ؟) وذلك حسبما جـــاء بالرد (النص الطويل) وذلك بالتوافق مع قدامه الجغرافي العربي [١] وهنالك توائم أوسع يمكن أن نجده في رواية ابن فضلان التي نرى من خلالها أن الحدود الهامة التي قامت بين البداة الغز ، الذين من المحتمل أنهم اعترفوا بالسيادة الخزرية ، وبين الأراضي الإسلامية تمثلت بنهر جيحون .

ويتساءل بولياك : لكن ليس هنالك معلومات عن خوارزم في ضوء العلاقات التجارية التي كانت قائمة بينها وبين مملكة الخزر ؟ ، بكل بساطة ، هـــذا ما لا نعرفه [٢]

وأشار آخر اعتراض في لائحة اعتراضات لاندور على الرد ، إلى النقاش غير السليم الذي استخدمه المتناقشون أثناء المناظرة الدينية ، كما جرى تدوينها في الرد ، وليس هنالك من سبب مؤكد يبين لماذا توجب أن يقـــدم الملك رواية صحيحة عن الآراء التي لم يشارك بها ، وذلك أثناء وصفه لمناظرة دينية عقدت قبل أيامه بوقت مديد ، ومن البديهي أن يكون كاتب « رد يوسف » المخترع قد قام بوضع ملاحظات مفهومة في أفواه المتناظرين ، فكلمات القـــاضي التي قال فيها إن المسيحيين « يسجدون لأشياء من صنع أيديهم » فيها إشارة واضحة إلى عبادة التماثيل ، وهذا الشاهد صحيح ، فعبادة التماثيل كانت موضع ممارسة في القرن السابع وبداية الثامن .

---

(١) المكتبة الجغرافية العربية : ٦ / ٢٠٩ .

(٢) قال . ف . ألتمان (الحضارة الخوارزمية القديمة في ضوء الاكتشافات الأثريـــة الأخيرة (١٩٣٧ – ١٩٤٥) دورية معهـــد الدراسات الآسيوية والأفريقية : ٦٧ / ٢ (١٩٤٧) هنالك أسباب للاعتقاد أن اليهودية قد جلبت إلى بلاد الخزر في القرن الثامن عبر خوارزم ، وأن النقود المكتشفة من قبل حملة سيرجي تولستوف تفيد بوجود وحدة سياسية بين بلاد الخزر وخوارزم في منتصف القرن الثامن . إنني لا أعرف الاساس الذي قامت عليه هذه الأقوال ذلك أن مقال تولستوف «في صحارى خوارزم » (المجلة الآسيوية ؛ (١٩٤٤) (٤٠٨ – ٤١٤) لا يلقي ضوءاً على النقاط التي ذكرها ألتمان .

أما بالنسبة لتاريخ التحول المعطى في النص المطول من الرد ، فقد جاء هناك أن الحادثة قد وقعت منذ حوالي « ٣٤٠ سنة مضت » ولا بد أن الرد — إذا كان أصيلاً — قد اتبع ما جاء في رسالة حسدي بفترة قصيرة إلى حد ما ، حيث ذكر فيها عبدالرحمن الناصر هو صاحب الأندلس وأنه كان ما يزال حياً ، ولا بد على هذا أنه قد كتب في سنة ٩٦١ أو ٩٦٢ ، ولدى تفحصنا الرد واعتماده، فإن أدنى تاريخ يمكن اعطاؤه للتحول هو سنة ٦٢١ أو ٦٢٢ م [١] ، وهنا من البديهي أنه قبل السنة العاشرة للهجرة لم يكن هنالك قاض مسلم في بلاد الخزر أو أي مكان آخر ،وقصة المناظرة كما هي معروضة في الرد تذكر قصة مشاركة القاضي ليس عرضياً بل من حيث الأساس ، ولذلك لعله علينا أن نتفق مع لاندو على أن الرقم قد جرت إضافته مؤخراً من قبل أحد النساخ [٢] .

وقد بات علينا استخراج بعض البينات الإيجابية حول هذه المسألة ، فأنا أعتقد أن التجارب البسيطة التالية لم تطبق بعد على المراسلات الخزرية [٣] ونجد في النص الطويل من الرد أن البناء الكلاسيكي لعبارة Waw بنقلب مع الناقص للتعبير عن وقوع الفعل الماضي لكن ليس لأكثر من مرة أو مرتين مقابل مائة حالة حيث يأتي التعبير عن الماضي التام و Waw البسيطة ، هذا من جهة ومن جهه أخرى نجد في رسالة حسدي الفعل الماضي يجري عرضه حوالي خمسين مرة بـWaw مقلوبة وناقصة وأربع عشرة مرة فقط بـWaw

(١) استعمان هاركفي بما ورد عند ايزدور الاشبيلي ليؤيد ما ذهب إليه في تاريخ التحول كان سنة ٦٢٠ ، فالتاريخ الذي أعطاه ايزدور هو ٥٧٠ — ٦٣٦ ، لكن المصادر الأخرى تؤيد التاريخ المتأخر وتثبت أن الخزر كانوا مع نهاية القرن السابع ما يزالون على الوثنية . انظر الفصل الرابع (ألب — الوتقير) والفصل السابع : تودون الكسيرسوني) .

(٢) ربما من خلال خطأ جاء الرقم ٣٠٠ في الأسفل عوضاً عن ٢٤٠ . انظر ما نقله برى في تاريخ الامبراطورية الرومانية المبكر : ٤٠٨ — الحاشية ١ .

(٣) جرى اقتراح هذا من خلال حديث جرى بيني وبين الأستاذ بومان عندما كنا في غلاسكو .

بسيطة وتامة ، وهذا تباين واضح في الأسلوب وبناء عليه فإن الرسالة قد كتبت بيد مختلفة ، ويمكننا أن نتابع فنحصل على بعض المقارنات في النص المختصر من الرد ، الذي يحمل أثاراً واضحة بأنه قد جرى التلاعب فيه وبدل من خــلال النص الطويل ، ونجد في النص القصير المبنى مع Waw المقلوبة قـد جرى تقديمه عند ما كان المحرر يثبت كلمات النص الطويل الأمر الذي قام به مراراً، وفي بعض الأحيان في أماكن أخرى ، ومن الواضح تمام الوضوح عملية إحـلال النـاقص مع Waw المقلوبه محل Waw مع البسيطة والتــام ، بشكل يسمح لنا التأكيد بشكل قاطع ، أكثر مما سمح كوكوفسوف به لنفسه ، على أن النص الطويل أكثر أصالة [1] ، ولــكن توزيع المبنيين في النص القصير والرسالة مختلف تمامــاً ، ففي حين تقع الـ Waw المقلوبة مـع الناقص سبع وثلاثين مرة نجـــد أن الـ Waw البسيطة مع التام عددها ليس أقل من خمسين مرة ، ويمكن ترتيب هذه النتائج كما يلي :

Waw بسيطة مع التام	Waw مقلوبة مع الناقص	
١٤	٤٨	الرسالة
٥٠	٣٧	(النص القصير) الرد
٩٥	١	(النص الطويل) الرد

وبناء عليه يمكننا القول بكل تأكيد إن الرسالة لم يجر تحريرها من قبل اليد نفسها مثل النص القصير ، كما يظن ، ولهذا نحن مخولون بمقارنتها مباشرة مع النص الطويل ، وفي ضـوء الفوارق المدهشة في الاستخدامات يمكننا تأكيد أن التأليف لم يكن عمل شخص واحد .

أما بالنسبة للتساؤل هل يمكن استخلاص محصلات أوسع من هذه النتيجة

---

(١) انظر ما سبق .

فينبغي الوصول إليها بتقييد ، ويمكن التصريح بشكل عام إنه ما من شيء حاسم قد أثير ضد صحة محتويات رد يوسف في شكلها الأصيل وهو النص الطويل ، وتؤيد الفوارق في الأسلوب صحته ، وهي من النوع الذي يتوقع صدوره عن أجزاء العالم اليهودي المتباعدة ، حيث وجد مستوى من الثقافة لم يكن أبداً متماثلاً .

ولعله من المسموح هنا تدوين انطباع عن شيء مفيد ، وهو أن لغة الرد بشكل عام أقل تصنعاً وأقرب إلى السذاجة [1] من لغة الرسالة ، حيث لا يوجد في الرد ما يماثل أبيات التفخيم التي بدأ فيها الوزير الأندلسي ،أو بالحري كاتبه ، بمخاطبة يوسف ، ويمكن أن نلفت الانتباه إلى شيء آخر أكثر تحديداً من الانطباعات ، فقد لفظت الأشكال المختلفة لكلمة قاضي العربية في النص الطويل من الرد « بالدال » ، ومعها أداة التعريف العبرية : قادي ، ها - قادي .

ونجد في النص المختصر المكس وذلك تحت التأثير العربي قد لفظت «بالضاد» وأرفقت بأداة التعريف العربية : قاضي ، القاضي ، وأكثر من هذا كله إثارة هو أننا نجد في رسالة حسدي عبارة « خزر » لتكرر بشكلها العربي « الخزر » بينما ترد في الرد (بنصيه الطويل والقصير) على شكل : « كزر » و « كزريم » (بدون أداة التعريف العربية) ، وورد في الرد اسم ممر داريل على شكل « دار - آلان » وهي التسمية الايرانية القديمة ، وذلك في حين ورد اسم ممر دربند بشكله العربي « باب الأبواب » ووقع هذا الاسم في الرد لكن بعبارة ساذجة هي « بوابة باب الأبواب » [2] وهذا تكرار يدل على جهل معنى الاسم العربي ، وتبدو هذه الأمور بمثابة أدلة صحيحة تشير إلى أن الرد قد كتب بالأصل في وسط كان لا يتحدث بالعربية .

---

(١) مثل ذلك لاندو « الوضع الحالي » .
(٢) شا - أر باب الأبواب (النص الطويل) .

وقد بات من الممكن القول : إن نظرية بولياك حول المراسلات الخزرية في أنها كانت رواية رائجة عن بلاد الخزر وضعت على شكل رسائل ، ولهذا اقترح أنها لا تغطي الحقائق ، هذه النظرية يمكن طيها الآن ، ذلك أن الفوارق بين الرسالة والرد أكبر مما هو متوقع،إنما لو أن الرسالة والرد لم يكونا بأيد مختلفة ، كما يظهر من شكلها ، فقد جرت محاولة لإعطاء هذا الانطباع ، ولا يمكننا تجنب الوصول إلى هذه المحصلة عن طريق طرح فكرة وجود تحرير مبكر للوثائق،الأمر الذي لا يوجد ما يبرهن على صحته،فمن هو الذي كان قد اخترعهما آنذاك ، وذلك في الفترة القائمة فيما بين ٩٦١ و ١١٠٥ م ، ولماذا اخترعهما؟هذا سؤال لا يمكن الإجابة عليه،ولهذا إنه من الصعب عدم الإقرار بأن رد يوسف لم يكن بالجملة أصيلاً .

وهناك دليل يشير إلى صحة مراسلات الخزر ورد عن طريق إشارة جاءت في مخطوطة ابن حوقل حيث ذكر حسدي بن شبروت ، وتاريخ المخطوطة هو ١٠٨٦ م [١] وكان مما قاله ابن حوقل : ويرى حسدي بن إسحق أن هذه الجبال العظيمة (القوقاز) متصلة بجبال أرمينية ، وتتوغل في بلاد الروم وتمتد إلى خزران وجبال أرمينية ، وكان حسدي عليماً بهذه الأطراف لأنه زارها واجتمع بملوكها وأعيانها [٢] ، ومصدر هذه الكلمات وصاحبها مجهولان معاً ، وكان حسدي في رسالته قد عبر عن رغبته بزيارة مملكة الخزر ، وفي الرد رحب يوسف بالفكرة ، ومهما يكن الحال، يبدو أن هذه البينة المبكرة غير المتوقعة، هي مستقلة – وذلك في حدود ما هو معروف – ولا علاقة لها بالمواد العبرية المتعلقة باهتمام رجال الدولة اليهود في الأندلس بمسائل مملكة الخزر .

---

(١) ظهرت هذه الاشارة على خريطة في مخطوطة سراي ٣٣٤٦ تاريخها ٤٧٩ / ١٠٨٦ – استخدمها كريمر كأساس للطبعة الثانيـة من ابن حوقل (انظر : ١٩٣) راجع أيضاً زكي وليدي (Volkerschaften) ٥٠ – الحاشية ١ .

(٢) لم أقف على هذا الكلام في المطبوع من كتاب صورة الأرض .

وتحمل رواية تحول الخزر الواردة في رد يوسف شبهاً عاماً للرواية الواردة في كتاب كوسري (كوزاري) ليهودا هاليفي ، ففي الروايتين رأى ملــك الخزر فيما يراه القائم مــلاكاً يتكلم إليه ، وتجد الى جانب الملك القائد العام (البك ؟) يرد ذكـــره في الروايتين ، وفيهما أيضاً ورد الحديث عن إقامة « هيكل » بدائي (وقد دعي في الرد أوهل Ohel وفي كوسري مشكان) .

والحدث الرئيسي في الروايتين هو النقاش الديني [1] ، وهناك فوارق أيضاً ففي كوسري لم يرد اسم الملك بينما اسمه في الرد بولان ، وتبعاً للرد قام الملك قبل المنـــام بطرد « السحرة والوثنيين » (الشامانيين) من أراضيه ، وكان حسبما جــاء في كوسري متعلقاً في هــذا الوقت بديانتــه (الشامانية) بشكل كبير .

وهناك خلاف في مجرى النقاش الديني في الروايتين ، لاسيما في إغفال كوسري لذكر قيام نقاش عام انتهت بموجبه – حسبما جاء في الرد – المناظرة ، وثانيه لا يتفق كوسري مع الرد في جعل إقامة الهيكل البدائي يتلو المناظرة ، زد على

---

(١) على ضوء اقتراح الربط بين الخزر والايغور (الفصل الثـــاني) إن الرواية الواردة عند الجويني (تحقيق ميرزا محمد – سلسلة ذكرى جب : ١ / ٤٣) عن تحول الايغور من الشامانيه إلى ديانة أخرى ، هامة . إن التشابه بينها وبين ما نقرأه عن تحول الخزر من الشامانيـــة إلى اليهودية مدهش ، فقد جاء في رواية الجويني أن سبب التحول هو حلم رآه الحاكم بوق - خان ، وقد ظهر منامه لوزيره أيضاً ، وقد تبـع ذلك مناظرة دينية اجتمع فيها ممثلوا الديانة القديمة مع ممثلي الديانة الجديدة للنقاش ، وقد انتصر ممثلوا الديانة الجديدة . وواضح لدى الجويني أن البوذية هي المعنية باسم الديانة الجديدة للايغور ، وقد أظهر مرقوارت أن أساس الروايـــة هو التحول التاريخي للايغور إلى المانشينية في ظل حكم بوق-خاقان بعد سنة ٧٦٢ بفترة وجيزة وأن الجويني حصل - كما يفترض - على معلوماته من نقش قرا - بالغسون ذي اللغات الثلاث والذي روى خبر التحول . وبناء على هذا ، ليس هنالك – على الرغم من التشابه الشديد . أن روايـة قد نقلت عن أخرى ، وعلينا أن نعترف أن الرواية -لدى الجويني- تشير إلى حادثة منفصلة متميزة وأن التشابه بينهما جاء عن طريق الصدفة ، أو لوجود تصور مسبق وموحد في ذهن الذين تولوا رواية الحادثتين .

هذا ليس لدى هاليفي (ربما بسبب خطة كوسري) مـا يقوله حول الإصلاح الديني الذي تم - تبعاً الرد - فيما بعد تحت حـكم الملك أوبديه ، وفي ضوء الفوارق لا يمكننا التعجل بالقول إن هاليفي لم يكن يعـرف الرد ، بل الاحتمالات كلها تؤيد أنه عرفه واستخدمه وانتقى منه ماواءمه ، ذلك أنه من المؤكد أن كلا من الرد وكوسري يقدمان الشكل ذاته من الرواية .

وتقدم وثيقة كمبردج رواية مختلفة تماماً حول تحول الخزر ، ودعيت هذه الوثيقة بهذا الاسم نسبة إلى مكان حفظها الحالي [١] ، وهي قطعة تحوي على أقل من مئة سطر كتب بالعبرية ، لعلل تاريخهـا يعود إلى القرن الثاني عشر ، وهي تعود إلى مواد جنيز القاهرة ، وقد نشرت أولاً من قبـل شخر Schechter في [٢]سنة ١٩١٢ .

ومن الواضح أن الوثيقة جزء من رسالة من شخص ما ، قد تحدث فيها عـن يوسف ملك الخزر ، بمثابة كونه معاصراً لشخص آخر غير معروف ، مثله مثل يوسف أشار الكاتب إليه باسم « مولاي » ، وقد قدم رسوله إلى القسطنطينية بحراً ، ومن الطبيعي أن نعتقد أن هذا الشخص هـو حسدي بن شبروت، وفي الوقت الذي يتحدث فيه الكاتب عن بلاد الخزر وملكها ويشير إليهـا باسم « بلادنا » ويشير إلى يوسف باسم « مولاي » فإن هذا يدفع إلى الاعتقاد أنـه يهودياً خزرياً ، ولكن العلاقـة الممكنة بين الوثيقة والمراسلات الخزرية غير واضحة ، ويعتبر كوكوفتسوف الوثيقة كبديل رسمي لرسالة حسدي ووجـد أن الأحوال مريبة [٣] ، وإن الصمت الطبيعي القـائم بين جزءي المراسلات ووثيقة كمبردج مفيد بشكل خاص .

ويبدو أن الوثيقة كانت على بينة أن حسدي قد بعث برسل إلى القسطنطينية

---

(١) ت . س - لون ٣٨ في مكتبة جامعة كمبردج .

(٢) المجلة الربعية اليهودية : ٣ (١٩١٢ - ١٩١٣) ١٨١ .

(٣) راجع المدخل .

لكنها لم تعرف شيئاً عن الرسالة أو الرد ، وبناء عليه يمكننا أن نفترض أنها كتبت قبل المراسلات وأن الرسل هم إسحاق بن ناثان وجماعته المذكورين في رسالة حسدي ، لكن لماذا على هذا لم يشر يوسف في رده إلى اتصالات سابقة لحسدي من الخزر ؟ ومثل هذا يمكننا أن نتوقع أن يشير حسدي إلى الوثيقة لوأنه تسلمها ، ولو أن الوثيقة جاءت بعد المراسلات يمكننا أن نتوقع إشارتها إما إلى الرسالة أو الرد أو إليهما معاً .

ويمكن التغلب على هذه الاشكالات عن طريق الافتراض أن الوثيقة لم ترسل من مملكة الخزر بل من القسطنطينية [١] ، ربما عندما وجد إسحاق بن ناثان مبعوث حسدي الشخصي نفسه غير قادرة على متابعة السفر كما أوضح في الرسالة ، فتخلى عن عزمه بالسفر إلى بلاد الخزر وعاد إلى قرطبة ، وهذا أمر شديد الاحتمال لو أمكن الاتفاق مع دوبنوف [٢] Dubnov على أن يهودا البرشلوني قد ذكر وثيقة كمبردج كما ذكر مراسلات الخزر في النص التالي الموجود في كتاب سفرها-عتيم ، الذي سبقت الإشارة إليه حيث يقول :

« لقد وجدنا نسخة من رسالة أخرى كتبها يهودي بلغته في القسطنطينية من ملوك [كذا] القسطنطينية ، وقد أتت على ذكر حروب وقعت بين الملك هارون وملوك القسطنطينية . وحروب أخرى بين ملوك أبناء الأمم والملك يوسف بن الملك هارون ، وذكرت أيضاً أن الخزر قد أصبحوا مهتدين وصار لديهم ملوك مهتدون ، لقد سمعنا أن الروايات حول هذا كله موجودة في كتب العرب [وأن هذا قد أودع في مصنفاتهم] » .

ولقد حوجج أن لغة يهودي ما في القسطنطينية ينبغي أن تكون الإغريقية وليست العبرية [٣] .

---

(١) مان - نصوص ودراسات : ١ / ٨ / حاشية ١١ .

(٢) Weltgeschichte des judischen volkes , iv , 481

(٣) مان - المصدر نفسه .

زد على هذا أن وثيقة كمبردج قد قدمت ملك الخزر بمثابـــة يهودي منذ البداية لا أنه قد تحول إلى اليهودية ، ولا يمكن أن يكون الشيء هو ذاته كما رأى الحاخام يهوذا [١] ، لكن هذه انتقادات صغيرة ، وبناء عليـه لربما كانت تحديدات دوبنوف صحيحة ، ومن المؤكد أن وثيقة كمبردج تتحدث عن تحول الخزر وتقدم كمية كبيرة من المعلومات حول حروب البيزنطيين وآخرين ضد الخزر في أيام يوسف وسلفه المباشر ،وإذا كانت الوثيقة قد كتبت في القسطنطينية فمن المتصور أنه لا حسدي ولا يوسف ينبغي أن يذكراهـا ، (من المفترض أن حسدي قد تسلمها عندما كتب رسالته) .

لكن هذا لا يحل المشاكل الأخرى التي تعرضها وثيقة كمبردج ، فإذا كانت رواية التحول الواردة في الرد معتمدة - وهكذا ينبغي أن تكون - ما الذي يمكننا قوله حول النص البديل المقدم في الوثيقة حول هذا التحول؟ ولقد قيل لنا هنا إن يهوداً وصلوا إلى بـلاد الخزر منذ تاريخ مبكر - من أرمينيه كما يبدو - وامتزجوا بالسكان المحليين ، ولم يكن للخزر في هـذه الآونة ملوك ، لكنهم كانوا في أوقات الحرب يأتمرون بإمرة قادة يختارونهم .

وحدث في إحدى المناسبات أن أصبح واحداً من اليهود (لم يذكر اسمه) قائداً عاماً ، وقد وقع فيما بعد تحت التأثير المباشر للديانة اليهوديـــة ووصلت أخبار هذا إلى ملوك المقدوميين (البيزنطيين) والعرب ، وجرى إرسال الرسل للتباحث معه والاستفسار منه وللضغط على بقية الرؤساء الذين لم يكونوا قـــد تحولوا بعد ، وجر اتفاق تقرر بموجبه إجراء نقاش ديني .

وعندما التقى العلماء من الديانات الثلاث وتناقشوا دون التوصل إلى نتيجـة مرضية ، أوصى زعماء الخزر باستخراج بعض « كتب شريعة موسى » من داخل « كهف في وادي تيزول Tisul » والشروع بشرحها من قبل اليهود ، وتـــم

---

(١) بولياك - التحول فصل ٣ .

تنفيذ ذلك بالتمام، وإثر هذا قام يهود بلاد الخزر فقرروا جميعاً نبذ خلافاتهم وحملوا بقية الناس على اعتناق اليهودية، وشرع يهود من « بغداد وخراسان وبلاد الروم » بالقدوم إلى بلاد الخزر ، وجرى تأسيس الخاقانيـة ، وجرى تغيير اسم قائد اليهود (الذي لا نعرفه) إلى سبريل Sabriel ،وقد أصبح هـذا أول ملوك الخزر .

وجرى في هذه الرواية عرض التغيير الديني في ظل سبريل بمثابـة إصلاح ديني تم من خلال بعض اليهود الذين كانوا يعيشون في بلاد الخزر منذ زمن طويل، ومن خلال سبريل وحميه وزوجته ساره ، وهناك أساس قوي بالنسبة لاقتراحات ششتر في أن قصة التحول في وثيقة كمبردج هي توسع تفصيلي لما نقرؤه في الرد حول النشاط الديني في ظل حكم أوبديه الذي كان من سلالة بولان .

ويرى شستر أن اسم سبريل الذي هو غـير معروف في أي مصدر آخر ، يمكن أن يكون مصحف عن اسم « عبديل » الذي هو صيغة بديلة لـ« أوبديه» لها نفس المعنى (عبدايل أو عبدياه)، لكن لا يمكن السماح لمثل هذا الاقتراح غير المعقول ، فنحن لا نستطيع أن نفترض أن الجزء الأول من الوثيقة – وهـو بحكم المفقود - قد حوى رواية حول تحول مبكر ، وفي أن نفترض مـع شستر أن سبريل هو أوبديه بمعنى إما أن النقاش في ظل بولان– الذي لا تقول الوثيقة شيئاً عنه ، لسبب لجهله ـ قد تكرر فيما بعد في ظل أوبديه ، أو أن الرواية عن نشاط بولان وخلفائه حتى أوبديه الوارد ذكرها في الرد هي مخترعـة ، وكلا الافتراضين ضعيفان وغير مقبولين ، وبناء عليه علينا أن نفترض أن سبريل هو بولان يحمل اسماً عبرياً .

ولعل أعظم النقاط أهمية في رواية التحول الواردة في وثيقـة كمبردج هي ما قالته عن قيام تغيير في نظام الحكم رافق ذلك التحول ، ولم يتعد هذا إيجـاد نظام ملكي مزدوج ، فلقد ذكر بوضوح أن نظام الخاقانية قد ظهر الآن ، فقد

حدث بعد التحول « أن عين سكان البلاد رجلاً حكيماً قاضياً عليهم ، وقد دعوه بلغة بلاد الخزر الخاقان ، وبناء عليه فإن القضاة الذين قاموا من بعده حمل كل منهم اسم خاقان حتى هذا اليوم » وتستطرد الوثيقة فتقول : « أما بالنسبة للقائد العام لبلاد الخزر فقد حولوا اسمه إلى سبريل وجعلوه ملكاً عليهم» وكما قال ششتر من الواضح أن هذه إشارة إلى منصب الـ« بك »[1] .

ويبدو أن وجـود ملك اسمي « باسم الخاقـان » يعود ظهوره إلى فترة متأخرة ، ويوحي في جميع الأحوال إخضاع اسرة حاكمة من قبل أسرة أخرى ، وهذا ما يراه المسعودي [2]،ومهما يكن الحال إن حدوث هذا بين الخزر مرتبط بسماتهم البدوية الماضية أكثر من ارتباطه بالتحول إلى اليهودية .

وفي ضوء الأوضاع المتأخرة من المتصور أن الخاقان يمثل الملوك المزاحين من قبل المشهودين الذين تمكن قائدهم من جعل نفسه من نوع « حجاب القصر» لدى أسرة حاكمة قديمة[3] ، لكن هذا ما لا تقوله الوثيقة ، حيث أن القائد العام اليهودي لم يزح الخاقان في سبيل حيازة السلطة « كبك أول » لبلاد الخزر،ذلك أنه لم يكن هناك خانات وقد وجدوا فيما بعد حسبما جاء في هذه الوثيقة،وهذا من الواضح أنه خطأ ، فمما لا شك فيـه وجود خانات لدى الخزر منذ النصف الأول للقرن الثامن،وعلى سبيل المثال التقى جستنان الثاني بواحد منهم[4] واحتمال الشك الوحيد الممكن يدر حول وجود منصب الـ« بك » في ذلك الحين ، مع أن وجوده شبه مؤكد تقريباً .

وعلى كل حال تقول وثيقة كمبردج إن الخزر قد عينوا بعـد التحول خاقاناً

---

(١) المصدر نفسه : ١٨٩ .

(٢) انظر ملاحظاته حيث نقلت في الفصل السابع المقبل .

(٣) لعل رأي الفواضي في أن الملكية المزدوجة قـد جاءت بالأصل من نظام استقلال القيادة في ميمنة وميسرة الحشد ـ انظر مقاله « الملكية المزدوجة عند الأتراك » (المؤتمر الثاني للتاريخ التركي – استانبول ١٩٣٧).

(٤) انظر الفصل السابع .

كقاض خاضع كما يبدو لسبريل ، الذي أصبح ملكاً ، ويناقض هذا الملاقات التاريخية ، ولا يمكن قبوله كما هو [1] ، لكن هنالك أكثر من هـذا ، فتتبعاً

---

(١) تبعاً لرد يوسف عادت الخاقانية بتاريخها إلى أصل الأمـة « يجلس الابن على عرش أبيه ، هذه هي عادتنا وعادة آبائنا مذ وجدوا على الأرض » . بعد هذا يمكننا أن نقف عند ما قاله زكي وليدي (ابن فضلان : ٢٧٠ ، ٢٧٤) إن خاقانية الخزر تعود إلى أسرة حاكمة قديمة جداً بين الأتراك مدعوة في المصادر الصينية أسينا (أخينا - أشهينا - أسينا) وقد نبـع الاسم من اسم جـد كبير ، (راجع - سافت جوليان - المجلة الآسيوية : ٤/٣ - ١٨٦٤ ، شافانس - الوثائق) . وتعود هذه الأسرة بالأصل إلى هيونغ - نو (باركر - ألف سنة : ١٢٩) وغدت المجموعة الحاكمة لأول امبراطورية تركية (تو - كوه ، كوك - ترك) وقدمت الخاقانية للأتراك الغربيين والشرقيين (باركو - المصدر نفسه - مرقوارت : ٤٦) ووجد زكي وليدي أن القرار خانيه (الايلك - خانيه) وأسرة بورشفين قايات التي يعود إليها جنكيزخان كانت من فروع أسرة أسينا في الفترة المتأخرة . وكان المنطلق الأساسي لهـذا الرأي هو أن الخاقانية الخزرية كانت فرعاً من فروع الأسرة نفسها في نص ورد في حدود العالم : ٥٠ ، فتبعاً له كان ملك (خاقان) الخزر « واحداً من أبناء أنسا » وتفحص مينورسكي هذا الاسم الغريب وقرأه زكي وليدي أسنا - أسينا . واقتراح القراءة الجديدة جذاب جدا ، ولا يعارضها وورود أشكال وصيغ مشابهة (ايشا - أبشاد) عند ابن رستة والكرديزي حيث أطلقت على البك - ملك الخزر الثاني . ولقد وجدنا لهذه الصيغ شروحاً من قبل (الفصل الخامس) ، ويعتبر زكي وليدي الآن أنه من المؤكد أن البيت الحاكم بين الخزر كان فرعـاً من كوك - ترك » أو بالحري كان مع البيت الحاكم بين الأتراك فرعان مستقلان من أسرة أسينا ، على أساس أن الخزر لم يمتلكوا صلات وثيقة مع الـ « كوك - ترك » ، ولقد وجد مع أسرة أسينا في بلاد الخزر مجموعات عرقية أخرى في آسيا الوسطى كانوا دائماً وثيقي الصلة بهم بما في ذلك - بشكل مشكوك فيـه - الايغور (المصدر نفسه : ٢٧٠ - ٢٧١) .

وكان هذا بالطبع خط التفكير الذي اتبع في الفصل الثاني ، وإنه لمن المدهش أنه تبعاً لابن العبري (المؤرخ السرياني - تحقيق بدج : ٢٣٢ من الترجمة) كانت زوجة ملك شاه السلطان السلجوقي ابنة « طغراغ ملك الخزر » ، ومن الواضح أن طغراغ هو طمغاج بن بغرا الإيلك خان (تاريخ الكرديزي : ٤٤٤) علما أنه ليس من غير الممكن أن يكون الايلك من أصل ايغوري (انظر بارتولد - المسيحية في وسط آسية ١٩٠١ : ٤٧ ...) وعلى هذا لا يمكن القول إن هؤلاء كانوا من الخزر ، والسؤال هنا هو هل كان ابن العبري على معرفة بوجود العلاقة عبر أسينا مع الخزر . وسبق لمرقوارت أن قال إن أسينا قد قدمت خاقانية الخزر (٤٧) .

للوثيقة كان أول خاقان واحـداً من الرجال الحكماء ، ومن المفترض أن المعنى بذلك « حكماء بني إسرائيل » الذين جاء ذكرهم من قبل .

ولا شك أن قبول وصول حاخام يهودي إلى عرش خاقانية الخزر هو خارج نطاق الممكن ، ومن الممكن أن قضاة من اليهود قـد جرى تنصيبهم بعد التحول [1] ، لكن بالنسبة لحدوث تغيير في شكل السلطة في ذلـك الوقت على المستوى الذي أشير إليه أمر لا شك فيه ، فالوثيقة تقدم قصة بولان من زاوية أخرى وتحت اسم عبري ، والقول إنـه من أصل يهودي يمكن أن يكون صحيحاً لكن المقبول أكثر أنه كان يعود إلى أسرة تركية صدر عنها جميع خاقانات الخزر الأوائل [2] .

ومهما كان معنى اسم بولان [3]، فهو لاشك اسم تركي ،ويمكن تفسير سوء الفهم حول الخاقانية بالانطباع الذي كونه كاتب الوثيقة حول وضع خاقانات الخزر المتأخرين ولربما التبس عليه الأمر فمزج بين لقب خاقان والكلمة العبرية حاخام التي تعني « حكيم » ، وفي الوقت الذي لا يمكن فيه اتهام وثيقة كمبردج بأنها

---

(١) ورد ذكر وجود قضاه يهود في بلاد الخزر عند الاصطخري والمسعودي .

(٢) أعطى المؤرخ الجورجي « بولخان » كاسم للقائـد الخزري الذي تولى هجوم سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م (انظر بولياك ـ خزاريا : ١٤١ . بري ـ الامبراطورية الرومانية المبكرة: ٤٠٦ ـ الحاشية ١ . نقلاً عن وستبيرغ . Z . m . n . p. : ١٩٠٨) وليس «بولخان» اسما مصحفاً عن بارجيك ، الذي قيل إنه كان قائد الخزر في هذه المناسبة (انظر الفصل الرابع ـ صه الحاشية ٢٩ . واذا صح اسم « بولخان » و « بولان » يبدو بالإمكان الاقرار أن الخاقان قد رافق الحملة ولم يكن بولان ببساطه هو البك .

(٣) تبعاً لبرونزكوس (الموسوعة اليهودية ـ مادة خزر) معنى كلمة بولان « حكيم » لكن هذا ما أنكره زاجا تشكوسكي (ثقافة ٣) وليست تعقيبات بولياك مساعدة (تحول: ٤ . خزاريا : ١٤١) ولعل « بولان » صيغة عربية لاسم تركي مثل « بلبان » الذي يعني « صقر » أو « دب » أو قبلان « فهد » . انظر الأسماء الخزرية المشتقة من بولخان ،بولجان، بولشان (الحاشية السابقة والفصل السابع) وأيضاً ربما اسم تون ـ بو خانون القائـد التركي الغربي في بوسبوروس في سنة ٥٧٦ (مناندر ٤٠٤) .

غير أصيلة بسبب روايتها المشوشة حول التحول ، يشعر المرء أن عليه ان يقيم الاعتبار للمواد الأخرى الواردة فيها بمزيد من الحذر ، وعلى سبيل المثال : تعامله مع أخبار حروب الخزر في القرنين التاسع والعاشر التي هي المصدر الوحيد حولها .

وحاول بولياك اعتماداً على ما جاء في المصادر العربية الدفاع عما قالته وثيقة كمبردج حول التغيرات السياسية التي رافقت التحول ، ويمكن الحكم على هذه المحاولة بالإخفاق الكامل ، ذلك أن مسعاه لم يوضح الوضع التاريخي [١] ، ولم يقدم أية أرضية للاعتقاد أن وثيقة كمبردج وثيقة معتمدة .

وبناء عليه إذا كانت وثيقة كمبردج تحتوي على معلومات لا يمكن ضبطها بوساطة أية مصادر أو معارضتها بشكل إيجابي لما نقرؤه في الأماكن الأخرى، هل يمكن الاعتماد عليها في مثل هذه الاحوال ؟ ومن الواضح أن دونبوف [٢]، ولاندو [٣] ،قد تأثرا بالحقائق التاريخية التي تقدمها الوثيقة حول علاقات الخزر بالشعوب الأخرى قبل المراسلات بفترة وجيزة ، لكن إلى أي مدى يمكن قبول ما قالته ؟

إن جزءاً كبيراً من الاخبار فيها لا يمكن ضبطه والتأكد منه بأية طريقة من الطرق ، فهي على سبيل المثال: تتحدث عن حرب ضد البيزنطيين تحت قيادة بنيامين جد يوسف ، وثانيه تحت قيادة هرون والد يوسف ، وقد قيل إن الامبراطور البيزنطي قد حرض اللان ضد الخزر ، وفي ظل يوسف نفسه جرى

---

(١) على سبيل المثال عالج النصف الثاني من نص ياقوت عن الخزر (انظر الفصل السابق) كمصدر سابق للتحول ، وهو في الحقيقة ابن فضلان الذي كتب ـ كما بينا من قبل ـ حوالي سنة ٩٢٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٤ / ٤٨٠ - ٤٨١ .

(٣) الوضع الحالي : ٤ .

الحديث عن الروس وهـــم يحاربون تاماتارخا Tamatarkha [١] بتحريض من الإمبراطور رومانوس ، وعن قيـــام الخزر بمهاجمة الاراضي البيزنطية انتقاماً حيث احتلوا عـــدداً مـن البلدان وهاجمـوا مركز شيرسون Cherson الهام [٢] .

ولا يتوافق هذا بعض التوافق مع الرواية عن بلاد الخزر المستقاة من السفير البيزنطي والمثبته في رسالة حسدي ، ويمتدح دوبنوف إيجابيات الرساله التي كما قال لا تتحدث عن عناصر خارقه لدى عرض أخبار التحول ، لكن الأمر المرغوب به كثيراً هو تشخص هذه الإيجابيه مـــع المصادر الأخرى ، وصحيح أن قسطنطين بورفيروغنتوس الذي تصور حين كان يكتب فيما بين ٩٤٧ – ٩٥٠ أوضاعاً يمكن فيها استخدام اللان ضد الخزر [٣] ، بيد أن الذي يتوجب علينا معرفته هل جرى استخدامهم في ذلك الحين وفي مناسبة محددة ، وبشكل عام نادراً ما نقرأ عن حرب قامت بين الخزر والبيزنطيين فيما عـــدا ما جاء في وثيقة كمبردج .

وقد أثيرت اعتراضات مختلفة ضد الوثيقه من قبل كوكوفتسوف ، وكانت فكرته الرئيسه متمحورة حول أن الوثيقه ليست مستقلة في أسلوبها وتعتمد على سفر يوسيبون Josippon ، ويقول إذا صح هذا فإن وثيقـــة كمبردج هي عمل مصنف وليست رساله أصيلة [٤] ، هذا وإن مسأله عدم استقلاليه الاسلوب هذه التي ذكرها كوكوفتسوف لا يمكن قولها حتى يمكن إثباتها [٥] .

وبالنسبه لحقائق المحتوى التي قدرها كوكوفتسوف فقد رأى أنهـا تأثرت

---

(١) كوكوفتسوف ـ المصدر السابق : ١١٨ ـ حاشية ٤ .

(٢) انظر ما يلي .

(٣) انظر النص المقتبس فيما يلي .

(٤) انظر ما سبق المدخل .

(٥) لاندو « الوضع الحالي » : ٤ .

بسفر يوسيبون ، علماً أنه لا يمكن البرهنة على صحة ما ادعاه بالنسبة للنقطتين اللتين أثارهما :

١ - كان كاتب وثيقة كمبردج يعرف بالطبع اسم « خزاريا » الأخير (كتب دائماً قزاريا) لكنه اهتم بإخبار مراسله أن الاسم القديم كان أرقانوس Arqanus ومن المرجح أن هـــذه الكلمة صادرة عن الكلمة البيرنطية الإغريقية أركانون Arkanous ، لكن من أين حصل كاتب الوثيقة عليها فمسألة موضع تساؤل ، إنما ليس من البديهي أن يكون سفر يوسيبون هو المصدر ، فقـــد حدد ابن العبري أثناء حديثه عن وقائع سنة ١٠٣٦ هركانيا Hyrcania على « أنهـا بلاد الخزر[1] » وإذا كان هذا ليس برهانا على صحة ما ذكرته الوثيقة ، أنه على الأقل يطرح احتمالات أكبر مـــن أن كاتب الوثيقة استعار بكل بساطة معلوماته من سفر يوسيبون .

٢ - وبالنسبة للنقطة الثانية ، فقد رأى كوكوفتسوف أن محتويات الوثيقة قد اعتمدت على يوسيبون في قولهـا : « اسم المدينة الملكية هو قزر (خزر) وأن هذا قد استعير من نص مفقود من هذا الكتاب ، علمـاً أنه من غير المشكوك فيه - كما سبق ورأينا - إن الإشارة هنــا إلى خزران وهي التي شكلت النصف الغربي من العاصمة الخزرية حيث عاش الملك[2] ، وبناء عليه تقدم وثيقة كمبردج هنا معلومات صحيحة وأصيلة .

وناقش كوكوفتسوف مسألة القول إن وثيقـــة كمبردج كانت هي الرسالة الثانية التي رآها يهودا البرشلوني ، كما سلفت الإشارة إلى ذلـــك ، ويرى أن هذا لا يمكن البرهنة على صحته ، هذا وإن الحجج التي اعتمدها ليست من النوع الذي لا يمكن التعرض إليه ، وقد أشار طبعاً إلى ما قيل حـــول الخاقانية في

---

(١) المؤرخ السرياني - ترجمة وتحقيق بدج : ١/١٣٥ .

(٢) انظر الفصل الخامس - الحاشية ١٠ .

الوثيقة ووسمه بالخيال[1] .

ومن الممكن أن نلاحظ أن استخدام Waw المقلوبة مع الماضي الناقص موجود في وثيقة كمبردج وأكثر تكرراً من رسالة حسدي ، وفي هذا المقام تقف الوثيقة في القطب المعاكس والتعبير عن النص الطويل للرد حسبما يلي:

Waw بسيطة مع التام	Waw مقلوبة مع الناقص	
١٤	٤٨	رسالة حسدي
٩٥	١	(النص الطويل) الرد
٨	٥٧	وثيقة كمبردج

ومن الواضح أن هذه النتيجة تؤكد أن وثيقة كمبردج ورد يوسف هما من مصدرين مختلفين .

ودعونا نرى فيما إذا كانت الوثيقة تحتوي على مواد تاريخية أخرى مقبولة ، فهي قد أشارت مراراً إلى اللان ، كما يترافق الحديث عن ممر وحصن داري ـ ي ـ آلان (داريل) المشهور في بلاد القوقاز دائماً مع أخبار حروب الخزر المبكرة ضد العرب ، ومــــع أننا لا يمكننا استخلاص ما يفيد من المصادر العربية أن اللان كانوا مستقلين يحكمون من قبل ملوكهم الخاصين بهم [2] ، أو أن بعضهم كانوا يهوداً ، إن هــــذه الإشارات في الوثيقة يمكن الوثوق بها واعتمادها ، وإذا كان لنا أن نحكم بما قيل هنــا في الوثيقة وفي رد يوسف فإن استقلاليتهما كانت واردة ولعلها كانت مسألة فيها نظر [3] ، وبالنسبة للوضع في

---

(١) انظر ما سبق .

(٢) ينطبق هذا ربما في روايات حمله مروان في سنة ١١٩ / ٧٣٧ . دمرت عاصمة اللان « ماغاس » (هي غير الحصن الموجود في ممر داريل المذكور في الفصل الرابع) سنة ١٢٣٩ من قبل المغول (انظر ف مينورسكي قوقاز ٣ – دورية معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية – ١٩٥٢ : ١٤ / ٢ .

(٣) الرد (النص الطويل) حيث يدعي أن جميع اللان كانوا خاضعين .

القرن العاشر فقد تابعنا الذي سبقت الاشارة إليه والمأخوذ من كتاب « الادارة الامبراطورية » تأليف قسطنطين بورفي روجنتوس [1] ، حيث قال :

« ١٠ - وفيما يتعلق بمملكة الخزر وكيفية إدارة الحرب ضدهم ومن قبل من ، فإن الغز قادرون على إثارة الحرب ضد الخزر ، لأنهم على مقربة منهم ، وينطبق الحال على حكام بلاد اللان لأن أقاليم بلاد الخزر التسعة قريبة من اللان ، وبإمكان اللان إذا ما رغبوا ، بالإغارة عليهم وتسبيب ضرر كبير وأذى عظيم للخزر من تلك الجهة ، لأن جميع أسباب الحياة وثروة بلاد الخزر مكونة من هذه الأقاليم التسعة » .

« ١١ - أما ما يتعلق بحصن كيرسون Cherson وحصن بوسبورس Bosporus ، بما أن حكام اللان ليسوا على سلام مع الخزر [2] ، لكنهم يفضلون صداقة الامبراطور البيزنطي ، فإنه إذا لم يحافظ الخزر على صداقته والسلم معه ، يمكنه أن يلحق بهم الأذى عن طريق اغلاق الطرق ومهاجمتهم بشكل غير متوقع عندما يكونون في طريقهم إلى ساركيل Sarkil وإلى كليماتس Climates وكيرسون ، فلو كلف الحكام السابق ذكرهم أنفسهم بالعمل على تعويقهم ، فإن الكيرسون والكليماتس سيتمتعون بسلام كبير ، لأنه إذا خشي الخزر من هجوم اللان وكانوا لا يتمكنون من حرب الكيرسون والكليماتس بجيش ، لأنهم لا يمكنهم قتال الطرفين في وقت واحد ، فإنهم سيرغمون على الاحتفاظ بالسلم » .

وفي ضوء ما جاء في هذا النص من الممكن الاعتماد عليه بشكل كامل عندما تذكر وثيقة كمبردج أنه في مناسبة من المناسبات أيام حكم الامبراطور السابق ،

---

(١) ط . بون : ٣ / ٨٠ .

(٢) وستبيرغ : . Dief ragmente des toparc Goticusousdem 10 Fahrhundert , M . R . A . 1902 .

حرك هذا الامبراطور اللان ضد الخزر ، لكننا لا نقرأ في أي مصدر آخر أنه بالتأكيد قد فعل ذلك .

في حدود ما أعرفه إن وادي أو سهل تيزول Tizul حيث - تبعاً الوثيقة - كان هنالك كهف فيه كتب شريعة اليهود ، لم يجر تحديده بعد ، ويمكن الاقتراح أن هذا الاسم هو الاسم البيزنطي « تزور Tzour الذي هو بالعربية صول ، الذي يطلق على ممر دربند ، ويبدو أن بعض ما يؤكد هذا موجود في الأشكال الأخرى لقصة التحول ، ذلك أنه تبعاً لكتاب كوسري فإن مسرح التحول كان جزئياً في كهف حيث طبق يهودي شريعة السبت في جبال ورصان ، ولا بد أن هذا في نفس الجوار عند النهاية الشرقية للقوقاز .

وكما سبق القول ، ليس لدينا معلومات مباشرة في أي مصدر آخر حول حروب الخزر مع البيزنطيين في القرن العاشر ، ويبدو أن قطع « توبآرش القوطية » وهي وثيقة كتبت بالاغريقية في القرن العاشر كما هو مرجح ، تشير إلى الخزر - دون أن تسميهم - بمثابة الأعداء الموجودين إلى الشمال من القرم والذين يتحارب معهم قوط توبآرش .

وقد اقترح بروتزكوس Brutzkus أن هناك صلات وثيقة بين هذه القطع ووثيقة كمبردج وأبيات التمجيد في مطلع رسالة حسدي [١] ، وهذا ممكن جداً ، فكما سبقت الاشارة : من المنطقي أن نفترض أن شعر مناحيم بن ساروق يشيد بنصر محدد للخزر في الحرب ، يفترض أن أخباره قد وصلت إلى الأندلس في وثيقة كمبردج ، وإذا كان واضحاً ليوسف الخزري من الشعر وألفاظ التفخيم الواردة في مطلع الرسالة ، أن حسدي صاحبها كان على معرفة تامة بنجاحاته العسكرية ، فمن الممكن كما يقول كوكوفتسوف [٢] أنه وجد

---

(١) Pismo khazars kogo evreia , Berlin 1924 (اقتباس لاندو - الوضع الحالي : ٤) .

(٢) انظر ما سبق - المدخل .

من غير الضروري إعادة ذكر الانتصارات القريبة العهد في رده .

ويمكننا أن نمضي أبعد من هذا ، فتمماً لوثيقة كمبردج حدث بعد هجـــوم الروس على شعب تاماتارخا Tamatarkah بتحريض من رومانوس أن هاجـم بيساه Pesah (باسيـــه Paseah ؟) الخزري الأراضي البيزنطيـــة ، ويبدو أن هــذا الاسم يحوي في طياته بـك مملكة الخزر (إما به Peh أو حق بيساه أوبي – ساد أوبي – شاد أو إبي – شاد) ، والكلمات العبريـة : « بولش – تسي هو – بيساح – هميغر Bu(o)Lsh - tsi hu pesah hmygr هي كلمات صعبة .

وواضح على الأقل أن الكلمـة الأخيرة (ترجمها تشستر بشكل مشكوك به إلى المبجل » هي فعل قد كتب على شكل نائب فاعل وينبغي قراءتها هـــا – ميوقـار Ha - mayuqqar ، وبدون شك علينـــا أن نفسر Bulsh - tsi ، البك المبجل ، ذلك أن ممارسة البك لوظيفة القائد الأعلى واضحـــة تماماً في المحتويات حيث أننا نقرأ في كلمات الوثيقة قولها : « استولى على ثلاث مدن إلى جانب عدد كبير من الرساتيق ، وزحف من هناك ضد شورسونو Shorsu(nu) وقاتل ضدها » ومن الواضح أن الـ « شورسونو » هـــم الـ « الكيرسون »[1] ، ومضت الوثيقة وكأنها تقول إن كيرسون قد استولى عليهـا من قبل الخزر ، ويمكننا أن نفترض أنها هي المدينة المشار اليها في مطلع رسالة حسدي .

وهنالك خط آخر مساير يمكن أن يظهر أن وثيقة كمبردج تحتوي على مواد تاريخية ، وسبق لنا أن أشرنا أن هذه الوثيقة تقدم رواية مختلفة حول التحول والأحداث التي قادت اليه ، أعني مختلفة عما جـاء في رد يوسف الذي يتوافق بشكل عام مع ما جاء في روايه كتاب كوسري .

ويبدو أيضاً أن وثيقة كمبردج لا تقف وحدها كما أوحي من قبل ، فرسالة

---

(١) كوكوفتسوف : ١١٩ – الحاشية ٩ .

حسدي تحتوي على مواد كانت شائعة في الأندلس من الواضح أنها اقتبست بغرض معرفة فيما إذا كان ملك الخزر يعرف شيئاً عنها ، فقد سأل حسدي مراسله أن يخبره حول جذور المسائل ...... كيف وصل بنو اسرائيل إلى ذلك المكان [أي بلاد الخزر] فقد أخبرنا آباؤنا أنه في أول استقرارهم[1] عرف المكان باسم جبل سير Seir ، لكن مولاي يعرف أن جبل سير بعيد جداً عن المكان الذي يعيش فيه ، ويقول شيوخنا : إنه عرف في السابق باسم جبل سير ، لكن التنكيل قد ساد وانتشر ، وأنهم انتقلوا من سخط الى سخط ، حتى استولوا على الأرض التي يقطنون بها .

كما أن الشيوخ من الجيل الماضي الذين يمكن أن يعتمد عليهم قد أخبرونا كيف صدرت الأوامر بالتنكيل بهم بسبب ايمانهم وكيف قام ضدهم جيش كلداني بحنق وغضب ، ولهذا أخفوا كتب الشريعة والكتابات المقدسة في كهف ولهذا السبب صلوا في الكهف ، ومن أجل هذه الكتب علموا أولادهم أن يصلوا في الكهف صباحاً ومساء حتى جاء وقت بعد فترة مديدة نسوا ما جرى وما عادوا يعرفون شيئاً عما في الكهف ، ولماذا اعتادوا على الصلاة هنالك ، لكنهم مارسوا عادات آبائهم دون أن يعرفوا لماذا .

وبعد وقت مديد قام رجل من بني اسرائيل كان تواقاً لمعرفة السبب ، فدخل إلى الكهف فوجده مملوءاً بالكتب فأخرجها من هناك ، وأوقفوا أنفسهم منذ ذلك اليوم على تعلم الشريعة ، هذا ما أخبرنا به آباؤنا حيث سمعه جيل مضى من جيل سبقه ، فالقضية كلها قديمة » ، ويبدو أن الكلمة الأخيرة تحول دون إمكانية فكرة أن «حسدي» كان بكل بساطة يعيد على مسامع «يوسف» بعض محتويات الوثيقة .

---

(١) في طبعة من المراسلات الخزرية - تحقيق أ . سبروني - تل أبيب « استقراركم » .

وبناء عليه يمكننا أن نرى في رسالة حسدي - التي ادعت أنها تقدم بعض الأخبار المتداولة بين اليهود في الأندلس - بعض آثار رواية التحول المقدمة في وثيقة كمبردج ، وهي تابعة من بعض الجوانب مما يمكن دعوته الأصل الأولي لرواية الرد ، حيث نجد على سبيل المثال أن الـ « رجل من بني إسرائيل » الذي دخل إلى الكهف يحمـــل شبهاً شديداً (ببولان - سبريل) كما ظهر داخل الوثيقة ، لكن إذا كانت الوثيقة تحتوي على أخبـــار متداولة موجـــودة ، ففي هذا دليل على الأصالة ، ويبدو أن ما يمكن دعوته باسم الأخبار الأندلسية المتداولة قد ترك بعض البصمات على كتاب كوسري لا سيما قضية زيارة الكهف .

وتذكر الوثيقة بعض السمات التاريخية ، فقد ذكرت كل من أولغ Oleg الزعيم الروسي ورومانوس ليكابنيوس ، لكن جرى عرضهما على شكل من يثير المشاكل لا من يقوم بحلها ، وبالنسبة لمسألة رومانوس هناك بعض التأكيدات لما وسم به ، ذلك أن تنكيله باليهود قد ذكره المسعودي ، ونجد مثلاً يوائم فيما بين الوثيقة ومصادر أخرى في الفقرة التالية : « إنهم يقولون في بـــلادنا إن آباءنا كانوا من سبط شمعون ، لكننا لا ندري حقيقة الحال » ولا شك أن هذا فيه صدى لما قيل في رواية إلددها - داني Eldad ha - Dani حول سبط شمعون ونصف سبط منشا من أنهما موجودان في بلاد الخزر[1] .

وتجد الوثيقة في روايـــة كارمولي Carmoly لنص إلداد نظائر أقرب لأن المرء يقرأ هنـــاك : « ان سبط شمعون موجود في أرض الخزر على جوانب نهر اتل واسم ملكهم حزقيال (كذا) وعددهم كبير لا يحصى وهم يأخذون الجزية من خمس وعشرين مملكة ، ويدفع كثير من العرب الجزية لهم .

ويتحدث أبناء شمعون العبرية والخزريـــة والعربية وهم متعلقون بالشريعة المدونة والمروية شفوياً مع تقاليد قائمة ، وتخريجات منطقية[2] » وقد وسمت هذه الرواية من كتاب إلداد . بالزيف من قبل زونز Zunz[3] وينبور[4] وليس

(١) د . هـ . مولر . « نص الدادهـا - داني » (١٨٩٢ - D.K.A W)
اقتباس : ١٩٨ - الحاشية ٣ .

(٢) الدادها - داني - باريس ١٨٣٨ .

(٣) Gesammeltesehriften - برلين ١٨٧٥ : ١ / ١٥٧ - ١٥٨ .

(٤) المجلة الربعية اليهودية : ١/١١٤ .

هنالك من سبب لرفض ما توصلا إليه ، ذلك أن اسم حزقيال لم يرد بين أسماء خانات الخزر في الرد ، والاحتمال الأكبر هو أنه اسم مجهول[1] .

ونقرأ في كتاب آخر نشرة كارمولي واعتبره مزيفاً وعنوانه أقتان دي مار يعقوب Aqtan d' mar jacob : « عندمـــا تبنى الخزر اليهودية التحق بهم سبط شمعون[2] »، وفي ضوء الشكوك في الداد والسمات المثيرة للشكوك في عملية نشر كار مولي ، فإن هذه الاقتباسات لاتمتن قضية الأصالة ، مع أنه يبدو من المفيد جمعها معاً .

وبشكل عام تبدو الوثيقة وهي تحوي بعض الحقائق التاريخية مثل: وجود يهود من الشرق في بلاد الخزر منذ تاريخ مبكر تحديد شخصية سبريل أنه بولان مؤسس اليهودية الخزرية . حروب الخزر الأخيرة (لاسيا حمـــلة كانت ضد البك ضد البيزنطيين) ، ولا شك أن هذه الأمور ينبغي اعتبارها اضافات لمعلوماتنا عن الخزر .

وتعطي الوثيقة من جهة ثانية بعض المعلومات المشكوك بها ومعلومات لاشك أنها زائفة مثل الراوية عن الخاقانية ، ولعل مرد الكثير من الصعوبات هو إلى وضع النص ، مفترضين أن تحديد ششتر لتــاريخ الوثيقة هو صحيح[3] (القرن الثاني عشر) حيث كان هنالك وقت أكثر ممـا يكفي لاهترائها ، ويمكن أن يكون في هذا إيضاح لماذا توجب على وثيقة كمبردج إعطاء الانطباع المعاكس بعدما تعرضت للانتقادات الهادفة والتاريخية .

وقبل أن نختم هذا المبحث المتعلق بالمصادر العبرية التي لديها بعض المعلومات

---

(١) ورد ذكر خاقان خزري اسمه زكريا في حياة قسطنطين القصيرة ، انظر ما يلي - الفصل السـابع ، وقدم ستينفاس في « معجم فارسي » اسم ملك خزري دعي « الياس » دون المزيد من المعلومات .

(٢) اقتبس في الموسوعة اليهودية - مادة سيمون .

(٣) انظر المصدر نفسه : ١٨٤ .

حول تحول الخزر إلى اليهودية من الضروري أن نتحدث بعض الشيء عن قطعتين من محتويـــات الجنيزا نشرتا من قبل مـــان[1] Mann الأولى : رسالة ناقصة أرسلت - كما يظن المحقق - من قبل حسدي إلى امرأة هي الإمبراطورة هيلينا زوجة قسطنطين بورفي روجنتوس ، وظهرت الإشارة إلى حسدي بإبداء الكاتب لأمانيه الطيبة نحو نصارى قرطبة ، فمن المعروف أنـــه بعدما تخلص قسطنطين من ليكابينوس Lecapenus في سنة ٩٤٤ م كانت زوجته نشطة جداً في الحكومة .

وبما أن هذه الرسالة تستقطف لإبداء التسامح تجاه اليهود في القسطنطينية ، فمن المعقول أن نرى في هذا إشارة إلى أن تعرض اليهود للتنكيل في ظل حكم رومانوس كان حقيقياً ، والقطعة الثانية تبعاً لمان هي : صدر رسالة مرسلة إلى قسطنطين ، ومع أن اسمه غـــير مذكور فيها لكن المديح الوارد هناك خليق بذلك الملك المثقف ، ويشير الكاتب إلى وصول رسالة من قبل بعث بها مراسله إلى الخليفة عبد الرحمن في الأندلس ،ومن المفترض أن هذه الرسالة كتبت أيضاً من قبل حسدي ، واقترح لاندو أن القطعتين هما جزء من وثيقة واحدة تولى صياغتها مناحيم بن ساروق كما تولى صياغة رسالة حسدي ، وقد دفـــع هذا الاقتراح بولياك بشدة إلى إصدار حكم عرفي افترض فيه أن الخليفة عبد الرحمن هو عبد الرحمن الأول[2] .

ومن الصعوبة بمكان استخدام التجربة التي استخدمناها من قبل (مقارنه تردد الـWaw المعكوسة والـWaw البسيطة مع الماضي التام) هنـــا بسبب طبيعة التمزق بالنسبة لوثيقتي الجنيزا هاتين ، فهما لا تعودان من حيث الأصل

---

(١) نصوص ودراسات : ١ / ٢١ .

(٢) في عرضه لمادة « خزاريا» المصدر نفسه .

– كما يبدو – إلى مخطوطة واحدة كما الحال بالنسبة لوثيقة كمبردج [1] ومع ذلك من الممكن أنه وجد في وقت من الأوقات نوع من أنواع المجموعات التي حوت مراسلات حسدي وذلك داخل الجنيزا ، ولا شك أن وجود هاتين القطعتين يمتن انطباعاتنا أن وثيقة كمبردج ليست مزيفة .

ويمكننا أن نضع من حيث المبدأ أجزاء الصورة التي ظهرت بين أيدينا كالتالي : من المحتمل أنه في وقت ما قبل سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م أصبح قادة الخزر تحت التأثير اليهودي ، ويمكن رفض الإشارة إلى الوقت الوارد في رد يوسف (قبل ٩٦١) ومن الممكن أن نقرأ عبارة « ٣٤٠ سنة سبقت » الواردة في الرد . « ٢٤٠ سنة سبقت » فهذا يمكن أن يعطينا تاريخاً قبل سنة ٧٢١ م للقبول الأول لليهودية من قبل الخزر .

ففي سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ حدث هجوم خزري ناجح ضد أردبيل نجم عنه هزيمة وموت الجراح بن عبد الله وهو القائد العربي الذي تصدى لهم وتبدل الوضع سنة ١١٩ هـ / ٧٣٧ م عندما فرض مروان الإسلام على الخاقان المهزوم ، وانسحبت الجيوش العربية بعد هذا بوقت قصير واعتنق الخاقان اليهودية معدلة ، وذلك بعد مناظرة دينية ، وكان هذا حوالي سنة ٧٤٠ م وهو التاريخ الذي أعطاه هاليفي في كتاب كوسري ، وبعد مضي جيلين أي حوالي سنة ٨٠٠ م [2] اعتنق واحد من سلالة الخاقان اليهودية الحاخامية ، أما بالنسبة للدور الذي شغلته بيزنطة في هذه التحولات فنادراً ما أشير إليه وسنتفحصه في الفصل التالي» .

---

(١) في وثيقة كمبردج / ٢٣ / سطراً في صفحة ، وفي قطعة مان ٢٥ - ٢٦ سطراً لكل صفحة .

(٢) ينبغي التذكر أن هذا تقريبا هو تاريخ التحول الذي أوحت به المصادر العربية (الفصل الخامس) .

الفصل السابع

مائتا سنة من تاريخ الخزر

قادنا البحث حول تهود الخزر إلى الحديث عن أحداث القرن العاشر، ويتوجب علينا أن نستأنف الآن سرد أخبار الأحداث شروعاً من سنة ١١٩هـ/ ٧٣٧ م، وهو التاريخ الذي شهد حملة مروان بن محمد حسبما روي في نهاية الفصل الرابع، لابل أن نحاول حتى العودة إلى بعض الحوادث ذات التاريخ الأبكر.

فلقد رأينا أنه كان هنالك صلات بين الخزر والبيزنطيين في حوالي سنة ٦٢٧م في ظل حكم هرقل، ويتوقف الكتاب البيزنطيون منذ ذلك التاريخ عن ذكر الخزر حتى أيام جستنيان الثاني بن قسطنطين الرابع، وفي سنة ٦٩٥ م بعد حكم عشر سنوات، جعل جستنيان الثاني نفسه فيها غير محمول من قبل رعيته، فخلع وشوه ونفي إلى القرم [١]، ويبدو أنه سكن في كيرسون والتزم الهدوء لعدة سنوات [٢]، ثم ما لبث أن سبب ذعراً شديداً بإعلانه على الملأ إنه ينوي استرداد عرشه الإمبراطوري، فقد غادر كيرسون إلى دوروس Doros (داراس Daras) عاصمة قوط القرم وطلب مقابلة خاقان الخزر، واستقبل الخاقان الإمبراطور المعزول بترحاب كبير، وأصغى لما قاله وزوجه أخته [٣].

---

(١) ثيوفانس - ط. بون: ٥٦٦. نقفور - ط بون: ٤٤.

(٢) ربما حتى سنة ٧٠٤. انظر برى - الأمبراطورية الرومانية المتأخرة: ٢/ ٣٦٠.

(٣) ثيوفانس: ٥٧١. نقفور: ٤٦.

ويبدو أن اسم خاقـان الخزر كان بوسير [1] Busir وقيل إن اسم أخته كان ثيودورا ، وليس هنالك ما يفيد فيما إذا كانت مسيحية قبل الزواج منها ، ويرجح أن اسم ثيودورا قد حملته بعد تعميدها [2] إما منذ تاريخ زواجها أو منذ عودة زوجها إلى العرش ،فلعل جستنيان الثاني اختـــار لها هذا الإسم تيمناً باسم ثيودورا الملكة المشهورة ، زوجة سميه جستنيان الأول [3] ، وتحول جستنيان – بإذن من الخاقان – إلى فاناغوريا [4] Phanagoria – واسمها الآن تامان Taman – على الشاطىء الشرقي لمضيق كيرتش Kertch .

وكان الإمبرطور في تلك الآونة هو (تايبيريوس الثالث) ، وقد سمع بما كان يحدث لذا بعث برسائل متوالية إلى الخاقان عارضاً عليه مكافأة كبيرة مقابل جستنيان حياً كان أم ميتاً ، وأبدى الخاقان استعداده للتضحية بحليفه الجديد، فقام بإرسال بعض القوات إلى فاناغوريا بحجة تزويد جستنيان بحرس شخصي، وأصدر في الوقت نفسه تعليماته إلى نائبه هناك وهو باباتزس الخزري Papatzes وإلى بلغتيزس [5] Balgitzes وإلى بوسبورس عبر المضيق ، بوجوب إزاحة

---

(١) بوسيروس (انظر الحاشية ١٢ – التاليـــة) أو إيبوزيروس (فيرنادسكي – روسيا القديمة : ٢٥١) زاجا تشكوسكي حيث فضل « بزير » ، وقارن برتساك اسم بزير أرسلان خان وهو قرا – خان من القرن التاسع (دو – اسلام : ٢٩ / ٩٩) .

(٢) مثل حالة إيريني زوجة قسطنطين الخامس – انظر ما يلي .

(٣) كذلك في الامبراطورية الرومانية المتأخرة لبري: ٢ / ٣٥٨ .

(٤) وإلا « تمتارخـــا » (قسطنطين بروفي – الإدارة الامبراطورية : ٤٢) . وصفت « كطرخانية على الخليج » من قبل أ . كوبمـسكي (اقتباس برتساك – المصدر نفسه) .تموتوروكان أو تموتوراكان (المؤرخ الروسي – فصل : ٥٢) . سامكارش (ابن الفقيه : ٢٧١ –مرقوارت: ١٦٣ . ود يوسف – النص الطويل – وثيقة كمبردج راجع الفصل السادس – الحاشية ١٣٢) انظر ثيوفانس : ٥٤٥ .

(٥) يقارن هذا الاسم بالعادة مع « بولش – تسي » في وثيقة كمبردج . وفضل زاجاتشكو- سكي قراءتها : بولغي (بلغى) تسى ، يلتشى – بمعنى حاكم (اقتباس برتساك المصدرنفسه).

الإمبراطور السابق من الطريق ، ولقد أفشي خبر المؤامرة إلى ثيودورا من قبل واحد من حاشية أخيها فقامت بالحال بإخبار زوجها ، وطلب جستنيان رؤية باباتزس وكان على وئام معه وعندما انفرد به خنقه بوتر ، ثم ما لبث أن تخلص من بلغيانزس بالطريقة نفسها ، وإثر ذلك أرسل ثيودورا إلى أخيها [1] ، وتوجه هو إلى كيرسون على متن قارب صيد حيث التحق به عدد من أصدقائه .

إن الخطوات التالية التي اتخذها جستنيان لاسترداد عرشه لاتهمنا هنا، المهم هو أن المسعودي قدم خلاصة لأخبار هذه الأحداث وما تلاها وقـــال : إن جستنيان لم يرق له ما رآه بين الخزر وتحول إلى طلب المساعدة من «طرفلا» ملك برجان [2] (تربيل ملك البلغار) .

وفي سنة ٧٠٥ عندما شعر جستنيان بأن أموره قد توطدت بعث بأسطول ليجلب له زوجته ، وقام الخاقان الذي اعتقد أن ما فات مات ، فكتب رسالة إلى الإمبراطور نقده فيهـــا لأنه لم يكتف بإرسال سفينتين أو ثلاث بدلاً عن الأسطول (الذي خسر عدداً من سفنه أثناء الترحال بسبب العواصف) وكأنه يريد استرداد زوجته بالقوة [3] ، وجلبت هذه الرسالة إلى الإمبراطور أخبار ولادة ابن ذكر له في بلاد الخزر ، وسافرت ثيودورا وطفلها نحو العاصمة البيزنطية برفقة رجل اسمه ثيوفيلاكت Theophylact الحاجب ، وهنـــاك جرى تتويجها أوغسطه وتتويج الطفل أوغسطس ، وأقيم للسيدة الخزرية نصب إلى جانب تمثال زوجها ، ولقد قيل غالباً ما جلس الخاقان هناك عندما كان يقوم بزيارة المدينة [4] .

---

(١) نقفور (٤٧) حيث تحدث عن أبيها .

(٢) التنبيه : ١٦٤ .

(٣) ثيوفانس : ٥٧٥ .

(٤) كذلك المؤرخ المجهول من حوالي سنة ٧٠٠ وذلك تبعـــاً كر ومباشر ، في بندوري Imperium orientale. باريس ١٧١١ : ١ / ٣ / ٩٠ - كودينوس . طبون:١٦٦. وظهر اسم الخاقان « بوسيرو - غليابارو » وقد نقل زاجاتشكوسكي الشطر الثاني من هذا الإسم إلى « يلبار - جلبار » (على سبيل المثال : الثقافة : ٤) وأخطأ بروتزكوس خطأ جسيماً في قوله كان اسم ابنة الخاقان « بوسير - غلوار » ومعناه « جامعة الورود » (الموسوعة اليهودية - مادة خزر » .

وشغل خاقان الخزر في الأحداث التي سبقت سقوط جستنيان النهائي ، دوراً هاماً ، لا بل دوراً حاسماً ، فلقد احتفظ الإمبراطور بمشاعر عدائية شديدة تجاه المعاملة التي لقيها من سكان القرم ، لذا قام سنة ٧١٠ م بتجهيز اسطول عملاق حمل على ظهره مائة ألف مقاتل ، وكانت الأوامر الصادرة إلى قادة الحملة تقضي بوضع السيف في رقاب أهل كيرسون وبوسبورس وبعض الأماكن الأخرى [١] ، ورافق الحملة رجلان بارزان هما القائد الياس وآخر اسمه بردانس وهو رجل سبق له أن نفي من قبل تايبيروس الثالث ثم أعاده جستنيان، وكان هو الوالي المسمى من قبل الإمبراطور لولاية كيرسون بعد الاستيلاء عليها، هذا ويدلل وجود بردانس مع الحملة على شكوك لدى جستنيان وليس خطوة خاصة [٢] .

وهذه الرواية الواردة في مصادرنا ليست مقنعة بشكلها العام ، فقد كان الهدف الرسمي المعلن للحملة إنزال العقوبة بمدن القرم وتنصيب وال في كيرسون لكن هذا الهدف كان من الممكن الوصول إليه بقوة أقل بكثير مما أرسل، فهل كان هنالك تهديد خطير صادر عن الخاقان؟فلقد سبق ولاحظنا وجود مسؤولين خزر رسميين في بوسبورس [٣] وكذلك في فاناغوريا ، كما كان في شيرسون

---

(١) ثيوفانس : ٥٧٨ .

(٢) انظر نقفور : ٥٠ .

(٣) تبعاً لبرى (الامبراطورية الرومانية المتأخرة : ٢ / ٣٥٨ - الحاشية : ١) فتحت بوسبورس من قبل الخزر في القرن السادس ، وهذا التاريخ مبكر جداً ، والنص الذي كان في ذهن برى هـ (مناندر : ٤٠٤) حيث قال هوجمت بوسبورس من قبل الأتراك الغربيين بالتعاون مع الايغور (المصدر نفسه ٣٩٩) في حوالي سنة ٥٧٥ ، وهذا أمر سبق وأشير إليه في الفصل الثاني .

شخص اسمه تودون Tudun كان والياً عليها وممثلاً للخاقان [1] .

ولا شك أن تودون قد أرسل إلى شيرسون بعدما غادرها جستنيان وربما كان ذلك سنة ٧٠٤ م ولو لم يكن كذلك لأمكننا أن نفترض أنه كان من غير الضروري بالنسبة للإمبراطور الذهـــاب إلى دورس قبل الإتصال بالخزر ، وهنالك ما يكفي من البينات لنقول بأن المدينتين الأهم في القرم كانتا جزئياً تحت سيطرة الخزر [2] ، ولعل هذا هو السبب لإرسال حملة جستنيان الكبيرة لاسترداد الأراضي المعرضه لخطر فقدان الإمبراطورية لها أو أنها انتقلت بالفعل إلى أيدي الخزر .

ومهما يكن من أمر جاءت المحصلات مأساوية بالنسبة لجستنيان ، فلقد استولت الحملة البيزنطية على كيرسون دونما مقاومة ، وبعدمـــا استبقي بعض الأطفال وبعض الأعيان بما فيهم تودون واليها الخزري ، سيق أهل المدينة إلى ميتة تعيسة ، ولم يرض ما نفذ وما لم ينفذ جستنيان ، فأصـــدر أوامره بعودة الحملة مع الأسرى فوراً إلى بيزنطه ، ومع أن الوقت كان متأخراً - شهر تشرين أول - وجد قادة الحملة أن لا مناص من الطاعة ، فأقلعوا عائدين ، فصدفهم في في طريقهم عاصف أغرق عدداً كبيراً من السفن وأودى بحياة مـــا مقداره /

---

(١) ثيوفانس : ٥٧٨ . نقفور : ٥١ . وتودون لقب وليس اسماً شخصياً كما اعتبره المحققون : كلاسن وبيكر وبري (الامبراطورية الرومانية المتأخرة : ٢ / ٣٦٣ - ٣٦٤) ، وذكر فازلييف محاولة اشتقاق من الكلمة الصينية تودونج « حاكم مقاطعة » واقترح أن الخزر لا بد قد استخدموا هذا اللقب في وقت سحيق عندما كانوا قبائل بدوية متجولة في آسيا الوسطى وكانوا على اتصال مع الصينيين . ويظهر الـ « تودون » بمثابة حاكم معين من قبل سلطات الخزر المركزية متميزا عن الـ « إلتبير » أو أمير وراثي نصف مستقل ، كما الحال بين البلغار ، لكن النظام لم يكن كما يبدو راسخ القواعد ، وتبعاً لابن رسته (١٤٠) كان البرداس أو البرطاس من رعايا ملك الخزر وامتلكوا قوة من الفرسان قدرها عشرة آلاف رجل ، ولم يكن لهم رئيس أي لا تودون ولا إلتبير ، بل طبق في كل منطقة واحد أو اثنان من الشيوخ النظام والقانون .

(٢) انظر برى - الامبراطورية الرومانية المتأخرة : ٢ / ٣٥٩ .

٧٣٠٠٠ / نسمة ، ودلت ردات فعل جستنيان تجاه هذه الكارثة أنه كان مختل العقل ، فقد عبر عن رضاه حيال الأخبار فقط وأعد العدة لإرسال حملة أخرى[١] تتولى اجتثاث مدينة شيرسون من الجذور ، كما قام بإعفاء نفسه من الاشراف على تعذيب أعيان مدينة شيرسون وحرقهم أو تغريقهم[٢] ، وقد نفذ هذا في القرم ، لكن ليس بالضرورة حسب أوامره .

وعندما وصلت أخبار ما ينبغي توقعه إلى القرم قرر السكان المقاومة حتى النهاية ، فأعدوا العدة للدفاع وطلبوا المساعدة من الخزر ، وقام إلياس والي شيرسون وبردانس بإعلان خروجهما على جستنيان ، ووصلت أخبار ذلك إلى بيزنطية ، ولاحظ جستنيان ـ لكن بعد فوات الأوان ـ مدى خطورة الوضع ، فأرسل بعثة برئاسة اثنين من كبار شخصيات بيزنطة وكلفا بإعادة الأمور إلى نصابها قدر الإمكان في شيرسون ولإعادة تسكين الذين ما زالوا بين الأحياء ، ورافق بعض هؤلاء بما فيهم تودون الخزري البعثة ، وكلف الرسل بتقديم الإعتذار إلى الخاقان (على أشياء كثيرة من بينها أخذ تودون إلى بيزنطه) كما كلفا بالعودة ومعهما إلياس وبردانس اللذان كان جستنيان غاضباً عليهما بشدة ، وكان هذا البرنامج محال التنفيذ ، وفي البداية رفض الإصغاء إلى مطالب الرسل ، لكن ما لبث في اليوم التالي أن سمح للرسولين البارزين بدخول المدينة حيث عرضا على السيف ، وكان هنالك قوة قوامها ثلاثمائة جندي قد قدمت برفقة البعثة ، وقد سلم هؤلاء بما في ذلك تودون حاكم شيرسون السابق إلى الخزر ، وبعث بهم إلى الخاقان ، وفي الطريق توفي تودون ، فجرى على الفور ذبح الثلاثمائة أسير بيزنطي على شرفه ، أو بالحري ضحي بهم ليرافقوه في رحلته النهائية[٣] .

---

(١) هكذا يبدو كل من نقفور وثيوفانس يقولان إن الاسطول أرسل بالفعل .

(٢) من المؤكد أن بري (الامبراطورية الرومانية المتأخرة) مخطىء في قوله كذلك . انظر نقفور : ٥٠ — ٥١ . وهناك بعض الكلمات الهامة قد حذفت من نقفور .

(٣) مورست هذه المذابح بين السيزيين لدى هيرودوت ولدى الهون ، وسواهم ـ انظر زكي ـ وليدي ـ ابن فضلان : ١٣٨ ، ٢٣٧ .

وبعدما أقدم الثوار على قتل رسل جستنيان كان من المنطقي إقدامهم على اختيار واحد منهم امبراطوراً ، وهذا ما فعلوه الآن ، فقد جرى اختيـــار بردانس الذي اختار لنفسه لقب فيلبكوس ، وعندما سمع جستنيان بما حدث انتقم بشكل فظيع من أسرة الياس التي كانت موجودة في بيزنطة وبعث بأسطول مجهز بجميـع المواد التي كانت لازمة للحصار في العصور الوسطى ، وكان قائد الحملة اسمه موروس ، وبعدما وصل هذا القائد مع حملته إلى شيرسون شرع في تدمير دفاعاتها ، وما أن أكمل تدمير برجين من أبراج سورها حتى وصلت نجدات خزرية سببت خللاً في ميزان القوى المتحاربة .

ولم يكن بردانوس ـ أو بالحري فيلبكوس كما ينبغي أن يدعى من الآن فصاعداً ـ واثقاً من نتائج القتال ،لهذا اغتنم الفرصة وانسحب نحو بلاط ملك الخزر ، ووجد موروس لا يملك من القوة ما فيه الكفاية لحسم الموقف ، وكان يخشى أن يعود مخفقاً إلى جستنيان، لذلك قرر الاعتراف بفيلبكوس إمبراطوراً وتبع هذا تأييد رجاله له ، لكن الخاقان رفض تسليم ضيفه حتى لأبناء وطنه الذين أعلنوا عن ولائهم له ، وأصر على أخذ عهود موثقة منهم بعدم خيانته كما استخرج منهم مبلغاً من المال ضماناً أو فداء لفيلبكوس ، ودفع البيزنطيون ما طلبه وعندما حسمت جميع المصاعب التي أثارها الخاقان استقبل فيلبكوس من قبل أتباعه الجدد ، ولم تمض سوى بضعة أشهر حتى أقام نفسه إمبراطوراً في القسطنطينية وغدا جستنيان وولده في عداد الأموات [١]

ونرى في مجريات هـــذه الأحداث أن الخزر يقفون بثقل كبير على مسرح الأحداث في القرم وذلك إن لم نقل أنهم تحكموا بالموقف ، فبعدما تخلوا عن جستنيان جعلوا سقوطه حتمي الوقوع ، كما أنه ما كان بامكان بردانس (فيلبكوس) البقاء بدون دعم الخزر له ، وبناء عليه ليس من الغلو بمكان

---

(١) ثيوفانس : ٥٨٣ .

القول : كان للخاقان في هذه المرحلة من القوة ما مكنه من منح الإمبراطورية البيزنطية حاكماً جديداً ، وكان التاريخ الآن سنة ٧١١م ، وكان الخزر قد ظهروا على شواطىء البحر الأسود ليس قبل ذلك بزمن طويل [١] ، وبعد سنوات قليلة من هذا كانوا على استعداد للمبادرة بالهجوم على المسلمين (كما سبق لنا ووصفنا) .

ومن المفيد أن نلاحظ أن جستنيان الثاني قد قام قبل حادثة نفيه وما تلاها من اتصالات بالخزر ، بالسماح لمجمع ترولان Trullan بإصدار قرار يقضي « باجتثاث المعارضة اليهودية [٢] » ، وعندما أصبح ليو الايزوري امبراطوراً كان واحداً من الاجراءات التي أقدم عليها ربما في سنة ٧٢٠م [٣] التحول الإجباري لجميع اليهود إلى المسيحية ، ومن المتوجب ربط أعمال التنكيل هذه التي لحقت باليهود بتبني اليهودية من قبل الخزر كما يشير المسعودي [٤] ، وبعد مضي بعض الوقت زوج ليو الايزوري ابنه قسطنطين من أميرة خزرية ، وقد أعطي تاريخ سنة ٧٣٢ م لهذا الحادث أي بعد سنة أو سنتين من قيام الهجوم الخزري الكبير ضد ديار الإسلام الذي ورد ذكره في المصادر العبرية والعربية .

ومن الصعب القول إن هذه الأحداث غير مترابطة[٥] ، ولم يذكر أن خطبة

---

(١) انظر الفصل الثالث .

(٢) بري - الامبراطورية الرومانية المتأخرة : ٢ / ٣٢٦ - ٣٢٧ ، ٣٨٨ .

(٣) بري ، المصدر نفسه : ٢ / ٤٣١ .

(٤) انظر الفصل الخامس .

(٥) لاحظ بري (الامبراطورية الرومانية المبكرة : ٤٠٧) أن الأميرة الخزرية التي تزوجت قسطنطين الخامس في سنة ٧٣٢ م لا بد أنها كانت ابنه أو أخت الخاقان الذي هزمه مروان ، وأضاف قوله : « كانت هنالك في تلك الفترة ظروف قامت بتحويل الخزر إلى الاتجاه المعاكس للمسيح ومحمد ، وهذه هي الفترة بالذات التي تشير بينات رسالة يوسف إليها وتجعلهاموعد التحويل إلى اليهودية » (بري ، المصدر نفسه) انظر أيضاً الفصل الرابع.

قسطنطين لم تكن بالأصل مسيحيه ، ويبدو أن اسمها كان شيشل [1] Chichal وقد جرى تعميدها وقت زواجها وأعيد تسميتها بايرين ، وقد أخبرنا عنها « بأنها نظراً لحفظها الكلمات والحروف المقدسة أصبحت متميزة بتقاها » [2] وينبغي أن تعني عبارة « الكلمات والحروف المقدسة » أكثر من اللغة الإغريقية ، ولعل الذي عنى بذلك هو الكتاب المقدس بالعبرية .

ولو صح أن الأميرة حملت مثل هذه المعارف فمن المرغوب به الاعتقاد أنها تعلمت ذلك في بلاد الخزر ، وهنالك وصف لزوجها لدى زونراس Zonaras كاتب القرن الثاني عشر الذي وسمه بأنه « لم يكن مسيحياً ولا هلنستيـا (أي وثنيا) ولا يهودياً بل مزيجاً من عدم التقوى [3] » ومن الممكن أن زونراس رأى في قسطنطين نوعاً من اليهودية ، مع الإشارة إلى زوجته الخزرية ، وتبقى هذه الاحتمالات واهية لكن لعلها تؤكد وجود اليهودية بين الخزر أيام زواج إيرين وقسطنطين ، هذا ويلاحظ أنه لا يوجد ما يشير في المصـادر العربية إلى أن الخاقان كان يهوديا عندما تولى فقيهان مسلمان سنة ٧٣٧ . تعليمه الإسلام [4] .

وحكم قسطنطين بدءاً من سنة ٧٤٠ (قسطنطين الخامس) وقد فقد زوجته في حوالي سنة ٧٤٧ وظل أرملاً لمدة ثلاث سنوات حسبما أشار ابن العبري [5] ،

---

(١) شرح العلماء الذين عملوا بكتاب قسطنطين بيروفي (ط : بون : ٢٢) كلمة Tzitzakion التي هي اسم أطلق على نوع من الثياب الرسمية ، على أنها كلمة من أصل خزري أخذت من اسم الامبراطورة الخزرية التي أدرجت استعمالها ، وتبعاً لريسكي (قسطنطين بروفي . ط . بون ٢/ ١٢٦ ، ١٢٧) كانت الامبراطورة الخزرية هذه هي ايرين أم ليون الخزري ، ولربما كان اسمها أيضاً ثيودورا .

(٢) ثيوفانس ، ط . بون : ٦٣١ .

(٣) ط . بون : ٣ / ٢٦٥ .

(٤) الفصل الرابع .

(٥) المؤرخ السرياني ، ترجمة بدج : ١١٣ .

وولدت إيرين لزوجها ولده الذي أصبح امبراطوراً باسم ليو الرابع ولقب الخزري الذي حصل عليه من أمه ، وقد حكم من ٧٧٥ وحتى ٧٨٠ م ، ونجد في كتاب « الإدارة الامبراطورية » نصاً يتحدث عن إمبراطور اسمه ليو « اتخذ زوجة من بلاد الخزر » و « عقد حلف مصاهرة مع خاقان الخزر » [١] ، ليس هناك في حدود المعروف إمبراطور اسمه ليو قد تزوج من أميرة خزرية ، كما لم يعزم ليو الايزوري الذي عمل لصالح ابنه قسطنطين على ذلك بل المقصود هو ليو الرابع [٢] ، الذي تزوج في الحقيقة فتاة أثينية .

ومن المدهش أن نجد في هذه الرسالة المصنفة من قبل الامبراطور بورفي وجنتوس مثل هذا التمازج والوهم في إثبات الحقائق [٣] ونستخرج من النص ذاته أنه حدث في بعض المناسبات أن أقدمت السلطات البيزنطية على منح سادة الخزر خلعاً نفيسة وأكاليل وتيجاناً وقد وصف الخزر هنا بمثابة واحد من « شعوب الشمال الخائنة الكافرة » ويبدو من الطبيعي أن يقدم ليو الرابع ، الذي قيل [٤] إنه كان يبدد موارد الدولة بصورة شخصيه ، على إبداء الرغبة في منح الهدايا للخزر من أقربائه .

وعلينا الآن أن نعود إلى مساق رواية الأخبار من حيث تركناها في الفصل

---

(١) ط . بون : ٨٣ ، ٨٧ .

(٢) يبدو أن هذا مؤكداً من الكلمة التي تصف موته ، المصدر نفسه : ٨٤ . انظر بري الامبراطورية الرومانية المتأخرة : ٢ / ٤٧٩ ، الحاشية .

(٣) عقب جيبون على زواج ليو أو بالحري على زواج أبيه قسطنطين الرابع من ابنة ملك الخزر ، ولعل تغاضى عن عمد عن ذكر اسم قسطنطين الصحيح (الانحدار والسقوط : ٥٣) ولم يكن جيبون متنوراً بشكل عام حول هذه العلاقات الخزرية ، وعنده كان عليه ذكر قسطنطين الخامس ، وتحدث في مكان آخر عن قسطنطين وقد « اختار زوجة بربرية » (٤٨) وأنه لم يرتلك العروس لأنه طفلا في الثالثة عشرة من عمره وأبوه هو الذي تولى تدبير الموضوع برمته . (انظر ثيوفانس : ٦١٤ ، ٦٢١) .

(٤) المصدر نفسه : ٨٣ .

الرابع ، فلقد انتهت الحرب الخزرية – العربية الثانية بهزيمة الخاقان وانه – تبعاً للمصادر العربية – قد أرغم على التحول إلى الاسلام ، ومكنت الأحداث التي شغلت الخلافة قبل وصول مروان بن محمد إلى الحكم وبعده، مكنت الخزر من التعافي وعندما تمكن العباسيون سنة ١٣٤ / ٧٥١ م من توطيد أقدامهم في إقليم الهند الناني ، وألحقت الهزيمة بمثل الحكم السابق واسمه منصور بن جمهور وقتل ، وعندما لم يستطع خليفة منصور الصمود في وجه التحدي العباسي ، هرب إلى بلاد الخزر ومعه حريم منصور بن جمهور وأمواله [١] ، ومن الواضح أن هذا يدل على أن دولة الخزر كانت مستقلة في تلك الآونة .

وتولى سنة ١٤١ هـ / ٧٥٨ م يزيد بن أسيد السلمي أرمينية للمنصور العباسي ، وجرى من قبله إرسال شحنة إلى ممر داريل ، ووصلته فيما بعد تعليمات من الخليفة تشجعه على الدخول في حلف مصاهرة مع ملك بلاد الخزر [٢] ، ومن المنطقي أن نفترض أنه ساد الشعور من جديد بأن الخزر أعداء خطرون . وهذا أمر برهنت الحوادث التالية على أنه كان حقيقة .

وأجرى يزيد بن أسيد جميع الاستعدادات اللازمة لتنفيذ أوامر مولاه ، ولدينا رواية تصف الموكب الرائع الذي جلب الأميرة الخزرية [٣] جنوباً عبر ممرات جبال القوقاز ، فقد رافقها عدد من الطراخنة وكمية كبيرة من الوصائف والرقيق [٤] ، وكان معها عشر عربات من الخيم المتحركة المصنوعة من أفضل أنواع الحرير وكانت أرضياتها مفروشة بفرو السمور وفيها جهازها ، كما كان هنالك

---

(١) الطبري : ٣ / ٨٠ .

(٢) اليعقوبي : ٢ / ٤٤٦ . البلاذري : ٢١٠ . ، كان ابنا لأمير عند مروان في سنة ٧٣٧ .

(٣) تبعاً للاوند كانت ابنة الخاقان (فرنادسكي ، روسيا القديمة : ٢٨٨ ، نقلاً عن بروست ، تاريخ جورجيا : ١ / ٢٥٧ ، الحاشية ١) .

(٤) الطبري : ٣/٦٤٧ .

عشرون عربة أخرى حملت صناديق الذهب والفضة والأشياء الثمينة الأخرى ، وقد شكل هذا كله مهر السيدة الخزرية [1] ، ومن المحتمل أن العرس قد احتفل به في مدينة برذعة ،ففي برذعة توفيت هذه الأميرة فيما بعد أثناء ولادتها لولدها[2] ، وقد توفي هذا الوليد أيضاً ، وغادرت حاشية الأميرة برذعة وعـــادت إلى بلاد الخزر وهي مليئة بالشكوك من المسلمين وعلى قناعة بأن سيدتهم قد قتلت خيانة ، وقد اعتبر الخاقان ما حدث مناسبة لإعلان الحرب [3] .

وتدفق الخزر جنوبـــاً تحت لواء قائد [4] دعتـــه المصادر باسم « رأس

---

(١) ابن الأعثم الكوفي ، اقتباس زكي وليدي ، ابن فضلان : ١٢٠ .

(٢) الطبري ، المصدر السابق .

(٣) لقد افترض أن ما رواه الطبري هنا في حوادث سنتي ١٨٢ و ١٨٣ حول أميرة خزرية قدمت كعروس للفضل بن يحيى البرمكي والي أرمينا كان ينبغي ذكرها في حوادث سنة ١٤٥ ، ويقدم الطبري في أخبار سنة ١٨٣ م أسباباً أخرى بديلة حملت الخزر على مهاجمة بلاد الاسلام في تلك السنة ، ويبدو أن موت ابنة الخاقان ارتبط بما حدث من فوضى عام ١٤٥. انظر مرقوارت : ٥ والحاشية ٤١٦.

(٤) كذلك اليعقوبي : ٢/٤٤٦ (الطبري : ٣ / ٣٢٨-أسترخان) زد على هذا يدعوه اليعقوبي باسم ملك الخزر ، ولا توجد عند اليعقوبي إلا صيغة واحدة هي « حليس طرخان » وذلك على الرغم من بارثولد (الموسوعة الإسلامية ، مادة خزر) وزكي وليدي (ابن فضلان : ٢١٨ ، الحاشية) ويقدم نص هوتسما الطبوغرافي ملاحظتين ، وأن حليس هي صيغة بديلة لـ « حلبس» وليس لـ « رأس » كما أكد بارثولد ووليدي ، وتنبه قراءة هوتسما السهلة للنص إلى القراءة التي فيها « رأس ، طرخان » ، هذا وما جاء في الطبري « أسترخان » إذا صح فمعناه « طرخان الآس » (الآرسيه عند المسعودي « وهي آس ـ طرخان وليس « أستار ، خان » حسبما ورد في الموسوعة الإسلامية ، مادة تفليس ، وهنالك شواهد أخرى مؤيده لصيغة اليعقوبي « رأس ، طرخان» حيث يعتقد مرقوارت أنها ربما مأخوذة من مصدر أرمني «٥ ٣٠٥، الحاشية» وهنالك صيغ أرمنية متعددة منها طرخان ، رأي ، ورزه ، طرخان (٥ الحاشية ١ و ١١٤) والصيغـــة الأخيرة موجودة عند لاوند (ط . شاه نظريان ١٦٣) حيث قال أرسل خاقان الخزر جيشاً كبيراً تحت قيادة قائد حمل ذلك الإسم ، وعاد بأصله إلى قبائل « الحتير إيلتبير » . ويبدو على هذا أن اليعقوبي أخطأ في دعوته ملك الخزر باسم « رأس . طرخان » وفيما إذا أراد بذلك

طرخان[1]، واجتاح الخزر الأراضي التابعة لحصنين (حزين) اللكز وبلاد اللان المجاورة لداريل [2] ، وتابع الغزاة توغلهم في أراضي الخلافة ، وهزموا الخليفة الوالي يزيد بن أسيد[3] ، وقد تجنب هذا الوالي الصدام بهم ، وعندما سمع الخليفة المنصور الأخبار بعث بقوة قوامها عشرون ألفاً من أهل الشام وأهل الجزيرة متنت موقف يزيد بن أسيد ، وبعد ذلك اشتبك يزيد بالمهاجمين فكانت النتائج لغير صالحه وقد أرغم على التراجع ، وباتت الحالة خطرة الآن .

ولم يكن لدى الخليفة ما يبعث به من القوات النظامية ، فاضطر إلى اللجوء إلى إجراء غير اعتيادي بأن فتح السجون وأخرج منها سبعة آلاف سجين زودهم بالسلاح وبعث بهم شمالاً ، ورافق الجيش أعداد من الحجارين والبنائين والحرفيين ، وعندما وصلت إلى أهدافها كان أول ما قامت به بناء مجموعة من الدفاعات والحصون ، وشحنت هذه الدفاعات بكل سرعة بما لزم من الرجال والسلاح

= الخاقان، كما أنه لم يكن « البك » فيما إذا صح ، وهو صحيح ، أن « ختير إيلبتير » حوت اللقب « إلتبير » (وصف زكي وليدي « الختير إيلتبير » على أنها أسرة نبيلة وسط الخزر ، ابن فضلان : ١٠٦) . ويضيف الطبري (المصدر نفسه) بعد كلمة « أسترخان » كلمة الخوارزمي ويشير هذا ثانية إلى أن الأرسية كانوا من المناطق المجاورة لخوارزم (المسعودي) هذا وإن ملاحظات فرنادسكي وافتراضاته أن كلمة رأس هي « روس » (روسيا القديمة : ٢٨٥) هي خطيرة جداً .

(١) يضع اليعقوبي الحوادث في سنة ١٤١ هـ بينما يقدم الطبري سنة ١٤٧ هـ كتاريخ لهجوم الخزر بقيادة أسترخان الخوارزمي ، لكن الطبري (٣ / ٣١٨ ، ابن الأثير : ٥ / ٢١٢) يتحدث عن هجوم خزري على أرمينيا عبر الباب في سنة ١٤٥ هـ ، وأعطى ابن العبري هذه السنة نفسها (الترجمة : ١١٤) وعلى هذا يمكن وصف الأحداث أنها استمرت عبر عدة سنوات. ولا يعطي ياقوت (البلدان : ١ / ٤٣٩) أية تاريخ .

(٢) أخذ الخزر تبعاً لابن العبري (المصدر نفسه) خمسين ألف من الأسرى ، وفي كتاب العنوان للمنبجي الرقم نفسه (تحقيق فازليف - باريس ١٩٠٩ : ٢/٥٤٣) .

(٣) كان اسمه موسى بن كعب (المنبجي ، المصدر نفسه) .

وبذلك أمكن إيقاف الزحف الخزري [١]، ولم نسمع إثر هذا بأخبار وقوع أية معارك كبرى .

وقد استولى البيزنطيون بعد هذا بوقت قصير على واحد من هذه الحصون وكان يقع إلى الغرب من كمخ ، وهوجم هذا الحصن من قبل أخي الخليفة وحوصر طيلة صيف (١٥١ هـ / ٧٦٨ م دون أن يسترد ، والمثير للانتباه في هذه الحملة هو أن عساكر من الخزر شكلت جزءاً من الجيش المسلم [٢] .

وخلف المهدي المنصور بعد وفاته سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٥م،وفي حوالي سنة ٧٨٠م قام شاب عربي من أهل بغداد بزيارة بلاد الخزر برفقة الأمير الجورجي نرسي Nerse، وحظي هذا الشاب فيها بشهرة واسعة ومات يعرف بالقديس آبو التفليسي ، وقد كتبت سيرة هذا القديس بالجورجية بعد موته بزمن قصير [٣] .

ومع أنه ليس هنالك من شك أن السيرة بمجملها كتلة من الجهل وليست عملا بدائياً له صلات بالحقيقة ، فإن هذه المدونه لربما حوت بعض بقايا أصيلة من أخبار الرحلة ، وتبعاً لكاتبها قرر نرسي مغادرة بلاده نتيجة لما تعرض له من متاعب على أيدي العرب ، فقد أرسل أولاده وزوجته إلى بلاد الأبخاز المجاورة له ثم تحرك نحو بلاد الخزر ومعه ثلاثمائة من الأتباع وقد اجتاز في طريقه ممر داريل ، ولم يقدم الكاتب ايضاحاً لأسباب هذه الزيارة ومقاصدها ، لكنها بدون شك ابتغت الحصول على المساعدة العسكرية .

ويبدو من الاستقبال والترحاب الذي لقية الأمير أن سياسة الخزر في تلك الآونة كانت مستقلة عن الخليفة ولديها توجهات لدعم المسيحيين هنا، وكما حدث

---

(١) اليعقوبي : ٢ / ٤٤٧ .

(٢) أسياني ، المكتبة الشرقية : ٣ / ١١٣ ، نقلا عن دانيوس التلمحري .

(٣) انظر K . schulteze , Das marty rium des heilgen abo von tiflis texte unter suchungenzur Geschichte der altchris tlichen lteratur , neue folge , 13 , 1905 .

من قبل وصفت بلاد الخزر هنا « ببلاد الشمال » وجاء ذكر الخاقان تحت اسم « ملك الشمال » ، وتربط هذه الأسطورة الخزر بقوم يأجوج ومأجوج وقد ورد هذا مراراً في هذه الرواية الجورجية ، وإذا كان الخزر قد وصفوا بأنهم «رجال متوحشون ذو وجوه عريضة وأخلاق تشبه أخلاق الوحوش المفترسة أكلة اللحوم » [1] فهذا يمكن أن يكون جزءاً من التقاليد التي كانت سائده أكثر منه مما شاهده الرحالة .

هذا ويتحدث المؤلف الأرمني موسى كلنكتوك بشكل مماثل عن « جموع الخزر المرعبة ذوي الوجوه العريضة والشعور الطويلة مثل النساء [2] » ، وحوت عدة مدن وقرى من بلاد الخزر مسيحيين ، وعلينا أن ندرك أن آبو الذي كان منذ زمن طويل من مؤيدي المسيحية ، قد جرى تعميده في بلاد الخزر » من قبل راهب مبجل .

وتبعاًللكاتب « كان الخزرعلى العموم بلا دين واعترفوابرب خالق فقط» [3] ولم يذكر أي شيء محدد حول دين ملك الخزر [4] ، وليس هناك ما يوضح إذا كان المسافرون الجورجيون قد وصلوا قط إلى عاصمة الخزر على نهر الفولغا ، وطلب نرسي بعد فترة من وصوله الإذن من مضيفه للسفر إلى بلاد الأبخاز ، ورضي الخزر وأرسلوا معه من صحبه طوال الطريق وأصحبوه بكمية من الهدايا،وقد مروا من خلال «بلاد الكفار الذين لايؤمنون برب من الأرباب»[5]،

(١) حولتز : ٢٣ .
(٢) اقتباس مرقوارت : ٤٤ ، الحاشية ٤ .
(٣) شولتز : المصدر نفسه .
(٤) لفت زاجاتشكوسكي الإنتباه إلى الإهتمام الذي أبدي في بلاط الخزر تجاه مركزه الرسمي للسطنطين مع وضعه وذلك تعيين قصر ملكي له ، وفي هذا دليل على وجود تقاليدتركية قديمة بين الخزر (الثقافة : ٤) .
(٥) شولتز : ٢٤ .

وقضوا فيها ثلاثة أيام بلياليها [1] قبل أن يصلوا إلى غـــاياتهم ، ومن الممكن اعتماد هذه التفـــاصيل عن المسافة إلى بلاد الأبخاز ، ولعل الجورجيين قد وجدوا ملك الخزر معسكراً في بقعة بعيدة إلى الجنوب من أتل .

وقبيل نهاية القرن الثامن في سنة ٧٨٦ أو ٧٨٧م تعرض قوط القرم للهجوم من قبل الخزر ، وقـــد حوصرت دوروس Doros [2] التي كانت عاصمتهـم وأعظم حصونهم ثم سقطت وولي تودون خزري [3] عليهـــا ، وثار القوط بقيادة أسقفهم جون ضد الغزاة ، ولاقوا في البداية بعض النجاح ، لكن توجب على الأسقف المحارب في النهاية الخضوع ، وقيل أنه تمكن وهو بالسجن من شفــاء طفل القائد الخزري [4] ، ولم يحتفظ الخزر بدوروس لمدة طويلة ، فبعد بضعة أشهر كانت هذه البلدة في أيدي البيزنطيين [5] .

وإذا ما عدنا ثانية إلى مسلمي الشرق ، نجد أن خلافة هـرون الرشيد قد شهدت منذ عام ١٧٠هـ / ٧٨٦ م اضطرابات مستمرة في أرمينية ، فقد ثار الأرمن إثر وفاة المهدي ، واستمروا متمردين لم يخضعوا خلال الحكم القصير للهادي [6] ، وأخفق في أيام الرشيد عدد من الولاة المتعاقبين في إعادة الهدوء ، ووراء الحدود بقي الخزر دونما حراك ولم يحاولوا استغلال مصاعب الخلافة ، وجرى في سنة ١٨٠هـ / ٧٩٦م

---

(١) قال فازلييف (القوط في القرم : ٩٩) إن الرحلة استغرقت ثلاثة أشهر .

(٢) جرت العادة على القول إن الموقع المؤثر المعروف باسم « منكوب ، فلا » هو موقع « دوروس » (انظر فازلييف ، القوط : ٤٧ ...) لكن الآثريون الروس يدعون أن « اسكي ، كرمن » هي موقع دوروس الوسيطة (انظر ما سبق : ٥١ ، الحاشية ١٢٩) .

(٣) انظر ما سبق : ٩١ ، ١٠٦ .

(٤) المصدر الأساسي هو حياة القديس يوحنا القوطي ، وقد نشرت مع حواشي من قبل فازلييفسكي : Rus - vizant issedovaniya ,

(٥) بالنسبة لرئاسة الخزر بعد : ٧٩٥ م . انظر فازلييف ، المصدر نفسه : ١٠٥ .

(٦) اليعقوبي : ٢ / ٥١٥ .

تعيين وال جديد هو سعيد بن سلم [١] ، وسارت الأمور بشكل جيد مع سعيد في البداية ، لكنه مالبث أن تمادى مع الزعماء المحليين فبدأت الاضطرابات ثانيه ، وكان قائد منطقة الباب اسمه نجم بن هاشم [٢] ، وأمر الوالي بقتله وعين قائداً بديلاً عنه ، فقام ابن المقتول بخلع الطاعة وقتل القائد الجديد الذي عينه سعيد [٣] وكتب إلى ملك الخزر ينشد العون ضد المسلمين [٤] ، واستجاب الخزر ووصلت جيوشهم العملاقة إلى الباب ولقد قيل بلغت قواتهم ما يقارب المائة ألف رجل [٥] ، واجتاح الغزاة ما واجههم من مقاومة وتقدموا زاحفين لا يبالون بأي مقاومة حتى وصلوا إلى نهر كور (سيروس) حيث توقفوا هناك ، ولكن ليس قبل أن يصاب هؤلاء بالذعر الشديد ، وقد تبددت إجراءاته الأوليــة ، لكن

---

(١) الطبري : ٣ / ٦٤٨ . ويقدم الطبري روايتين بديلتين لما حصل بعد ذلك ، وتبدو الرواية الأولى وكأنها تشير إلى حادث مبكر ، انظر ما سبق حاشية : ٤٢ . ودعي الخزر تبعاً للرواية الثانية ، من قبل رجل اسمه ابن المنجم ، وينبغي تصحيح اسم العلم هذا إلى « ابن النجم » - انظر ما يلي - وحرى الالتزام بالرواية الثانية ، لأنه من المستبعد أن فقدان ابنة أعطى خاقان الخزر الحجة لإثارة الحرب ضد الخلافة في أكثر من مناسبة ، ولعل الاضطراب يعود إلى التشابه في أسماء حكام أرمينيا ، ففي سنة ١٤٥ هـ كان الوالي هو « يزيد بن أسيــد » وفي ١٨٣ هـ « يزيد بن مزيد ».

(٢) اليعقوبي : ٢ / ٥١٨ .

(٣) تبعاً لفيل(Geschchte derchalfen , II , 158)من الأسباب التي قدمها المؤرخون (نقل عن ابن الأثير وابن خلدون واليافعي) للهجوم الخزري في حوالي سنة ١٨٣ هـ هو أن خاقان الخزر قد قتل من قبل عربي انتقاماً لمقتل أبيه ، والمصدر المحتمل لهذا الخبر هو المصنف اليافعي صاحب مرآة الجنان المصنف حوالي سنة ٧٥٠ / ١٣٤٩ ، ولا يعرف ابن الأثير(٦/٥٤) ولا ابن خلدون (٣ / ٢٢٥) شيئاً عن مصير خاقان الخزر ومقتله ، ولاحظ فازلييف (القوط . ٩٢) هذه الغلطة .

(٤) الطبري ، المصدر السابق .

(٥) وكذلك ابن الجوزي اقتباس دي غويه في الطبري ، المصدر نفسه . الأمر الآخر كان هذا تعداد المسلمين الذين أخذوا أسرى من قبل الخزر .

لسبب ما لم يتحقق التهديد تماماً ، فبعدما أعمل الخزر ضد المسيحيين [أي ضد الأرمن] والمسلمين ، وبعدما نزلت بهؤلاء خسائر كبيرة ، تراجع الخزر ومعهم أسراهم ، وبعد مضي بعض الوقت ، وصل يزيد بن مزيد الشيباني مع صلاحيات مطلقة ، وكان يزيد ممن ولي المنطقة من قبل [١] ، وكان الخزر قد اختفوا وخضعت أرمينية بكل هدوء لحكمه ، وقد مكث الغزاة مدة سبعين يوماً ، وهذه كانت آخر غزوات الخزر ضد المسلمين لدينا أخبار عنها (١٨٣ / ٧٩٩).

ولدى المؤرخ الجورجي حكاية مشابهة [٢] بعض الشيء لحكاية الحادثة التي تعلقت بابنة الخاقان ويزيد بن أسيد ، التي أرخناها بسنة ١٤٥ هـ/٧٦٢ م ، فتبعاً لهذا المؤرخ كان لدى الأمير جونشير Juansher حاكم جورجيا أخت شابة جميلة ، وقد وصلت شهرتها إلى الخاقان فبعث برسول يطلب يدها مع وعد أن يأتي مقابل ذلك لتقديم العون للجورجيين في مقاومتهم للعرب ، ورفضت أم جونشير وأخوه بشده وتحدثت الفتاة نفسها بحنق عن الخزر ، وبعد مضي ثلاث سنوات بعث الخاقان بقائده بلوشان Bluchan لغزو جورجيا (واستولى بلوشان اسمه في النص الأرمني من الحكاية بولجان [٣] Bulgan) على قلعة جونشير وحمله مع أخته أسرى، وبينما كان الأسرى يمرون خلال ممر داريل تحت حراسة الخزر تناولت الأميرة السم ، ووصل بلوشان إلى بلاط الخاقان وأخبر بموت العروس المنتظرة . وطلب الخاقان رؤية جسمها، واشتعل غضباً لأنها لم تجلب له، وأصدر أوامره بإنزال عقوبة الإعدام بقائده ، ووضع حبل حول عنقه وجاءت

---

(١) دي غويه (الموسوعة البريطانيه ، ط ١١ ، مادة : خلافه) حيث ذكر أيضاً خزيمة ابن خازم . جرى اعتماد رواية اليعقوبي . تناول الشعراء شجاعة يزيد بن مزيد ضد الخزر . انظر أيضاً ابن الأثير : ٦ / ٥٥ .

(٢) انظر أيضاً مرقوارت : ٤١٦ ...

(٣) مرقوارت : ٤١٧ ، حاشية ٢ . من أجل الاسم « بولان » « بولخان » انظر الفصل السادس ، الحاشيه ١٢٧ .

النهاية عندما صدرت الأوامر إلى فارسين أمسك كل منهما بطرف الحبل بالعدو باتجاه معاكس ، وهكذا انفصم الرأس عن الجسد ، وتختم الرواية حكايتها بأن جونشير قدسمح له بالعودة إلى مملكته وذلك بعدما مكث بالسجن سبع سنوات.

ويميل مر قوارت إلى ربط الهجوم الخزري بقيادة بلوشان مع أحداث سنة [1] ١٨٣هـ / ٨٩٩م ،وتبدو بعض النقاط في الحكاية أنها صحيحة، وتتوافق مع ما نجده في المصادر الأخرى أنه كان على الخاقان أن يطلب الزواج من ابنة حاكم مجاور عن طريق الإكراه كما فعل ، وأنه كان يملك السلطة المطلقة في الأمر بقتل واحد من قادته لا بل حتى بقتل البك[2] ، الذي كان المعني بالحكاية، وجرى تقديم الخاقان على أنه كافر وليس يهودياً ، هذا ولا يمكن اعتماد الحكاية كبيِّنة على أن تحول الخزر إلى اليهودية لم يكن قد حدث بعد .

وفي أيام حكم جونشير ، يبدو أن ليو أمير الأبخاز ،الذي كان ابن ابنة ملك الخزر [3] ، أي الخاقان كما يفترض ، قام هذا الأمير بالاستقلال عن البيزنطيين بمعونة الخزر ، ولقد كانت هذه واحدة من المناسبات القليلة التي نجد الخزر فيها يعادون الامبراطور .

وطلب خاقان الخزر والبك [4] في سنة ٢١٨هـ / ٨٣٣م أو حولها ،من بيزنطة تقديم العون في سبيل بناء حصن على الدون [5] ، وبعث الامبراطوار ثيفيلوس ببعثة بحرية لتتولى ذلك ، وقد سافرت هذه البعثة عبر كيرسون وبحر آزوف

---

(١) مرقوارت : ٤١٧ .

(٢) ابن فضلان ، الفصل الخامس .

(٣) مرقوارت : ٤٢٢ وانظر أيضاً ، بارتولد ، الموسوعة الإسلامية مادة « أبخاز » .

(٤) قسطنطين بورفي ، الادارة الامبراطوريه ، فصل : ٤٢ . ثيوفانس كونتين : ١٢٢.

(٥) هنالك شكوك حول مكان الموقع من قبل فرناندسكي (روسيا القديمة : ٣٠٥) وقيل إن مكانها على الشاطىء الأيمن لنهر الدون عند مصب نهر تسيملا ، ووقعت سركيل تبعاً لمرقوارت عند مصب نهر الدون .

حتى الأراضي الخزرية ، وفي مكان ما على الدون بنى البيزنطيون حصنـا من الطوب ، اسمـه بالاغريقيـة أسبرون هوسبيشون Aspron Hospition (تبعـا لقسطنطين بورفي) أو ليكون أوكـيا Leukon oikema (تبعاً لصلة ثيوفانس) ودعي بالروسيـة بيلافيزها [1] Biela viezha ، أمـا الخزر فتحدثوا عنه باسم ساركيل [2] ،وقد عنت هذه الأسماء الشيء نفسه وهو البيت أو الحصن الأصفر أو الأبيض ، ويمكن شرح كلمة ساركيل في هذا المجال اعتماداً على شوفاش [3] chuvash التركية ، وهذه حقيقة يمكن أن تزودنا بشرح لما ذكره الاصطخري وابن حوقل من أن لغة الخزر تختلف عن التركية [4] ، فقد اور هذا القول على إثبات حقيقة أصل الخزر التركي ، وقد تميزت لهجة شوفاش باستخدامها او L وI و R بدلاً Sh ، و A و Z حسب غالبية اللهجات التركية ، فعلى سبيل المثال التركية العثمانية هي لهجة « لير Lir » تركيه ، ولدى استخدام هذه اللهجة بشكل عام فإنها لا شك غير مفهومة مثل شوفاش في أيامنا [5] ، بالنسبة للأتراك الذين يتحدثون بلهجة شاذ Shaz ، وبناء عليـه من الممكن ايضاح ما قيل أن الخزر لم يتكلموا التركية بهذه الطريقة ، ومن المحتمل أن لغة بلغار الفولغا كانت من مجموعة لهجات اللير التركية ، ومن هنا لا شك قد جاء ما قاله الاصطخري وابن حوقل من أن لغة البلغار تشـابه لغة الخزر [6] .

أما بالنسبة للمقصد من بناء الحصن، فمن المفترض أنه أريد منه الدفاع ضـد

---

(١) انظر الفصل التاسع .

(٢) رد يوسف (النص الطويل) ساركيل (شاركيل) .

(٣) من الممكن توضيح ذلك بشكل مماثل ، وتبعاً لزاجا تشكوسكي من كلمة عامـة يعني « شاز التركية » (اقتبسها برتساك ، در ، اسلام : ٢٩ / ٩٩) .

(٤) انظر الفصل ٤ امس .

(٥) بارتولد ، الموسوعة الإسلامية ، مادة : بلغار .

(٦) انظر الفصل الخامس .

عدو قادم من الغرب ، فمن هو هذا العدو ؟ ، ليس واضحاً لدينا تماماً ، ويوحي أحد المصادر البيزنطية أن البشناق هو العدو المقصود، حيث تحدث عن حادث لا نعرف أنه اجتاز غربي نهر الدون حتى ستين سنة قـــادمة [١] ، على أنه يمكن التفكير بوجود بعض العصابات منذ تاريخ مبكر [٢] ، وفي نص لدى المسعودي منعود إليه قام بوصف حملة روسية زحفت نحو بحر قزوين عن طريق بحـــر آزوف وعن طريق الفولغا الدون وذلك في العام ٣٠١هـ/ ٩١٣م ، وقد ذكر وجود نقطة دفاع قوية للخزر على طريق الحملة ، وكان فيها جند نظـــاميون واقفون ضد الغز [٣] ، ومن الممكن القول إن هذه النقطة هي ساركيل ، وهناك رأي يقول إن ساركيل قد بنيت ضـــد [٤] الماغيار Magyars ، ولعل الأكثر احتمالاً هو أن أعداء الخزر في هذه الجهات كانوا منذ زمن (٢١٨ / ٨٣٣) هم الروس الذين كانت قوتهم في تلك الآونة بازدياد إلى الغرب والشمال من مملكة الخزر [٥] .

ولا شك أن ساركيل ظل مركزاً عسكرياً، فقد ورد ذكره في رد يوسف، لكنه غير موجود في قائمـــة بلدان الخزر لدى المقدسي وصاحب حـــدود

---

(١) انظر ما يلي .

(٢) يعني بشناق أتراك ، وعاش الأتراك البشناق شرقي الفولغا وغربي الغز حتى هجرتهم ، وقد ذكرهم صاحب حدود العالم : فصل ٢٢ / ٤٧ ، وهم من بشناق الخزر في القوقاز الذين غادروا ديارهم في آسيـــا في وقت مبكر لربـــما بصحبة الآس . انظر زكي وليدي « Volkerschaften » : ٥٥ ، ٥٧ .

(٣) مروج الذهب : ٢ / ١٨ .

(٤) مرقوارت : ٢٨ ، معتمداً على قول ابن رسته (١٤٣) أن الخزر قاموا في الماضي بحماية أنفسهم بخندق وذلك ضد الجر والشعوب المجاورة الأخرى ، انظر زكي وليـــدي Volkerschaften : ٥١ ، ٥٢ .

(٥) وكذلك لدى غازلييف ، القوط : ١٠٩ ... قرنادسكي ، روسيا القديمة : ٣٠٤ . لكن بري قال في (الأمبراطورية الرومانية المبكرة : ٤٢٨) إن ذلك كان من قبل .

العالم[1]، ولا عند سواهما من المصادر الإسلامية ولهذا السبب وحده فإن اقتراح بولياك، في أن ساركيل كان مركز واحدة من المقاطعات الأربع الرئيسه التي شكلت تبعاً له – دولة الخزر، اقتراح غير مقبول [2]، ويظل الافتراض القائل إن ساركيل اسم عاصمة الخزر افتراضاً مرفوضاً بشكل أكبر [3].

وتحكي عدة مصادر عربية حكاية، إذا كانت لا تمنحنا رؤية صحيحة لمملكة الخزر فإنها ترينا على الأقل كيف كان الخزر في أعين أحد العرب في القرن التاسع [4]، لقيد قيل إنه كان عند الفضل بن سهل، وزير المأمون (٨١٣ – ٨٣٣) المشهور وكان عنده رسول ملك الخزر [5]، فتحدث عن مجاعة ألمت بالخزر، فقامت خاتون، أخت ملك الخزر فنصحت الخزر بكل حكمة بالخضوع إلى مشيئة الله، وكانت النتيجة أن تخلصوا من النازلة التي ألمت بهم [6]، وكانت الكلمات المعزوة إلى الخاقان عامة بما فيه الكفاية لكن من المهم

---

(١) لدى المقدسي لائحة بأسماء تسع مدن خزرية قد تكررت مرتان (١ : ٣٥٥) وهي : أتل . بلغار . سمندر سوار . بغند . قيشوي . البيضاء . خملج بلنجر ، ومن أجل بغند ، انظر بجكند وهي مدينة قد ازدهرت في منطقة سقسين وذلك تبعاً لأحمد الطوسي (اقتباس زكي وليدي في ابن فضلان : ٢٠٥) ولعل قيشوي مذكورة أو ورد ذكرها بمثابة اسم مكان في دربندنامه مثل : كيوان (قاسم بك : ٤٧٧) والمدن السبعة هي أكثر شهرة . وذكر صاحب حدود العالم أسماء عشرة مدن (١٠) خمس منها على الأقل معروفة وهي : أتل وسمندر ، وخملخ أو خمليج وبلنجر والبيضاء) انظر تعليقات منورسكي .

(٢) بولياك (التحول : ٢) حيث لا يحاول البرهنة على أن امبراطورية الخزر قد جرى تقسيمها هكذا ، وقد عدل هذا الرأي في «خزاريا» : ٤٣ ، ٥٥ ، ٢١٨ .

(٣) على سبيل المثال سالوتشز : Melanges H. Derenbourg 72 , 76

(٤) موجود في كتاب المستجاد من فعلات الأجواد للتنوخي (ت : ٣٨٤ / ٩٩٤) تحقيق ل . بولي . ستوتغارت ١٩٣٩ ، وفي زهر الآداب للحصري (ت بعد ٣٨٤ / ٩٩٤) وفي سراج الملوك للطرطوشي (توفي حوالي ٥٢٠ / ١١٢٦) ولكن الحكاية تعود إلى الجاحظ (ت ٢٥٥ / ٨٦٩) .

(٥) التاريخ ليس بعد سنة ٢٠٢ / ٨١٨ وهي سنة وفاة الفضل .

(٦) زهر الآداب . ط . زكي مبارك ١ / ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

أننا نجد في إحدى روايات القصة أن الخزر عندما لحقتهم المجاعة طرقوا أولاً باب الملك الأصغر «يعني باب الملك (أخو خاتون) ثم طرقوا « باب الملك الأعظم » وهذا يدل على الخاقان والبك ، والدليل هنا صحيح [1] تماماً ، وكان الفضل بن سهل واحداً من أعظم شخصيات الإسلام سلطـــاناً ، ومن الطبيعي أن يزوره رسول الخزر .

ومن الجدير بالذكر أننا نادراً ما سمعنا في مكان آخر عن قدوم رسول خزري إلى بغداد ، كما أنه لا توجد أدنى إشارة أخرى إلى أن نساء خزريات قد شغلن دوراً هاماً في شؤون الدولة ، مع أن هذا قد يكون أمراً طبيعياً بالنسبة لبعض السيدات ذوات المناصب العليا لدى شعوب الترك ، وتذهب الحكاية إلى أن الخاتون بعدما نجحت في جهودها السياسية أنعم عليها بمنصب الملك ، ولا شك أن هذه التفاصيل مخترعة ، ومن جديد لا تشير الكلمات المنسوبة إلى الخاتون إلى تهود الخزر .

ولقد قيل بأن يهود العراق قد عظمت آمالهم في أن يتمكن الخزر من تدمير الخلافة [2] ، ولقد رأينا كم كان التهديد حقيقيـــاً في مختلف الأوقات ، ولقد ألقي بعض الضوء على الوضع عن طريق الروايات التي تحدثت عن سقوط الأفشين [3] ، وكان هذا الرجل تركيا من أشروسنة ومن أفضل قادة المعتصم ، وقد تعرض لغضبه وسقط من سدة سلطانه في سنة ٢٢٥ هـ / ٨٤٠ م ، وقيل إنه خطط قبل سقوطه والقبض عليه أنـــه خطط للهرب عبر الموصل وأرمينية إلى مملكة الخزر ، حيث كان يأمل أن يصل من هناك إلى تركستان ومن ثم يعود إلى

---

(١) سراج الملوك . ط . القاهرة ١٣٠٦ : ١٥٢ . نقلاً عن زكي وليدي ، ابن فضلان : ٢٦٤ .

(٢) ماركفي في ذكرى كوهوت : ٢٤٤ ، بالعبرية ، نقلاً عن مفيد : ١٨٧٧ .

(٣) انظر إ . م . رايت « بابك البذ والأفشين خلال سنوات ٨١٦ ، ٨٤١ » . العالم الإسلامي : ١٩٤٨ : ٤٣ ، ٥٩ .

ديار الخلافة على رأس جيش [١] ، ولا شك أنه كان في مخيلته خطط هائلة أو على الأقل اعتقد أنه حل ذلك ، فلقد قيل إنه كان قد أرسل للبيزنطيين ، وقد عزم على استخدام الخزر ضد المسلمين ، واتهم أثناء المحاكمة بأنه كان مجوسيا ، أي من أتباع الديانة الزرادشتية وقدمت أدلة أيدت هـذا الاتهام ، ويمكن أن لا يكون لهذا أدنى علاقة بالخزر ، فعلى الرغم من أن النصوص تصفهم بالمجوس [٢] ليس هنالك ولا دليل واحد يشير إلى أن هذه العقيدة قـد ازدهرت في بلاد الخزر [٣] ، والقول إن الخزر كانوا مجوساً يقف على المستوى نفسه للأقوال التي ذهبت إلى أن الفيكونغ الذين هاجموا شواطىء الأندلس كانوا مجوساً ، و كذلك إطلاق هذه السمة على الروس الوثنيين ، ويبدو أن اقتراح فيرناندسكي أن ديانة الخزر الأصلية قد حوت بعض عناصر عبادة النـار اقتراح لا أساس له من الصحة [٤] .

وهنالك اشارة في كتاب الأغاني [٥] إلى أن غلاما - أو عبداً خزريا قد استرعى انتباه الشاعر أبي تمام (حوالي ٢٣١ هـ / ٨٤٦ م) ، وتثير هذه الإشارة مسألة وجود أناس من أصل خزري يعيشون في ظل الخلافة ، ولا شك أنه وجد شيء من هـذا القبيل ، ولعل أشهرهم هو اسحاق بن كنداج (أو كنداجيق) الذي سلفت الإشارة إليه ، وتكين بن عبـد الله الخزري الذي ولي مصر ثلاث مرات [٦] (حوالي سنة ٩٢٠) ، ويبدو أن كلا منهما كان من الجند الذين شملهم

---

(١) الطبري : ٣ / ١٣٠٥ .

(٢) الطبري ، اختلاف الفقهاء ، ط . شاخت ، ليدن ١٨٣٣ : ٢٠٠ .

(٣) يقترح زكي وليدي في (ابن فضلان : ٣١٩ ، الحاشية ١) امكانية وجود بوذيون بين الخزر ، ولكن من المؤكد أنه لا البوذية ولا الزرادشتيه كانت ذات تأثير بينهم .

(٤) الموسوعة الايطالية ، مادة ، خزري .

(٥) ١٥ / ١٠٧ .

(٦) انظر زكي وليدي ، ابن فضلان : ١٠٩ .

الحظ فترقوا بالمناصب في خدمة الخلافة ، ويبدو أن عبد الله بن بشتوى الخزري الذي ورد ذكره في تاريخ أكبر كان من الخزر الفارين من خدمة الخاقان ، كما كان هنالك أناس من مستوى أدنى مثل الثلاثمائة أسرة التي تخلت في سنة ٨٥٤ م عن ديار الخزر وجاءت إلى ديار المسلمين رغبة في اعتناق الإسلام ، ولدى وصولها إلى الباب أسكنها والي أرمينية وأزدبيجان في هذه المدينة الشمالية [١] ، وأتت الأخبار على ذكر أسماء رجال يعتقد أنهم كانوا من أصل خزري [٢] ، ولا شك أن بعض هؤلاء قد ارتبط ببلدة دربند - خزران (الباب) ومن هنا حمل نسبة خزري مع أنه لربما كان من أصل عربي مزيج ، ولكن بعضهم لا شك أنه كان خزريا صافيا ، ومهما يكن الحال إننا لا نملك الانطباع بأن أعداد الخزر كانت كبيرة في ديار الاسلام لكنهم وجدوا في جميع مجالات الحياة [٣] .

وقد قيل عن الخليفة الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ - ٨٤٧ م) إنه بعث العالم محمد بن موسى الخوارزمي في بداية عهده ، إلى « طرخان ملك الخزر » وإذا صح وزار الخوارزمي مملكة الخزر فالمرجح أنه فعل ذلك لمقاصد علمية [٤] ، وقد ذكر ذلك المقدسي دون سواه [٥] ، أما زيارة سلام الترجمان إلى بلاد الخزر [٦]

---

(١) شمكور (بلاذري : ٢٠٣) انظر أيضاً مرقوارت : ٤١٢ .

(٢) انظر أنساب السمعاني (ط . ذكرى جب) ورقة : ١٩٨ .

(٣) من أجل الخزر في سامراء ، انظر الفصل الثامن ، حاشية ٦٧ .

(٤) د . م . دنلوب « محمد بن موسى الخوارزمي » المجلة الملكية للدراسات الآسيوية ١٩٤٣ : ٢٤٨ ، ٢٥٠ .

(٥) تحقيق دي غويه : ٣٦٢ .

(٦) زكي وليدي (ابن فضلان : ١٩٨ ، الحاشية) حيث استخدم من أجل رحلة سلام الاشارات الواردة لدى ابن خرداذبه والادريسي ومجمل التواريخ والمقدسي ، ومن أن نضيف إلى هؤلاء ابن رسته (١٤٩) والقزويني (ط . وستنفيلد : ١ / ١٢٨) والنميري (١ / ٣٧٤ ، نقلاً عن الأدريسي) وذكر بربير دي ميناردفي ترجمته لابن خرداذبه (المجلة الآسيوية ١٨٦٥ : ١ : ٢٤١ ، الحاشية ١) أشياء لم ينقلها المقدسي (ط . دي غويه : ٣٦٢) مع أنه نسبها له .

فيما بعـد فحولها مواد إخبارية أكبر ، وليست رحـلة سلاّم موضع اهتمامنا هنا اللهم إلاّ الجزء المتعلق ببلاد الخزر منها ، لكن لا بـد من أن نقول شيئاً ما حول ظروفها ، فلقـد اختص سلاّم بمعالجة شؤون المراسلات التركية للخليفة وقيل إنه كان يعرف ثلاثين لغة [١] .

وقد روى أخبار رحلته ابن خرداذبه بشكل حرفي من تقرير أعد للخليفة، وتبعاً لما جاء هنا كان الخليفه الواثق قد انزعج من الاعتقـاد أن سور يأجوج ومأجوج قد خرق [٢] ، لذلك كلف سلاّماً بالتوجه إليه وتفحصه، وقد زوده برسالة موقعة من الخليفة إلى إسحق بن إسماعيل بن شعيب والي أرمينية [٣] ، وانطلق اسحق نحو جبال القوقاز ، وعندما وصل إلى تفليس قابل الوالي هناك وأعطاه أوامر الخليفة وتعليماته ،وقام اسحق بن شعيب بإرسال البعثة إلى حاكم السرير الذي ربطته به علاقات طيبة ، ومن بلاد السرير انتقلوا حتى وصلوا إلى ملك اللان وإلى فيلان شاه ، وكتب فيلان شاه رسالة توصية بالبعثة أرسلها إلى « طرخان ملك الخزر » ، وجاءت المعلومات عن بلاد الخزر في رحلة سلاّم قليلة جداً ، فلقد قيل إن البعثة قد مكثت مع الملك ليوم وليلة فقط [٤] ، أو لمدة خمسة أيام [٥] ، وأعطانا ابن خرداذبه الإسم نفسه لحاكم بلاد الخزر كما فعل المقدسي قبل سنة أو سنتين ، لكن من الصعب تصور أن هذا كان صحيحاً،فلقد كان طرخان لقباً تركياً أكثر منه اسماً خاصاً ، فلقد واجهنـاه عدة مرات من

---

(١) ابن رسته : ١٤٩ . ابن خرداذ به : ١٦٠ .

(٢) انظر حديثاً نبوياً ينذر للسبب نفسه (البخاري . ط . كاهل : ٦٠ / ٧) وكذلك القزويني : ٢ / ٤١٧ .

(٣) لربما كان والياً على أرمينية في خلافة الواثق وقد أشير إليـه من قبل موسى الـكالنكاتوكي (٣ / ٢٠ ، اقتباس مرقوارت : ٤٦٢) .

(٤) ابن خرداذ به : ١٦٣ .

(٥) القزويني : ١ / ١٢٨ .

قبل ، وجاء بمثابة لقب تميز به الضباط ذوو المراتب العالية، ويبدو من روايتيهما أن لقب « طرخان » قد حل محل لقب آخر [1] ، أو إذا صح فطرخان لقب يستلزم استخدام اسم آخر قبله ، مثل القول : « هزار طرخان [2] » و « رأس طرخان [3] » ، ومن الصعب الاعتقاد أن استخدام المقدسي للمصطلحين يؤكد صحتهما ، فهو قد كتب في حوالي سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م ، ولا شك أنه استقى ما وجده في المصادر حول رحلة سلاّم [4] .

ولا يوجد سبب للشك فيما قيل – على الأقل في الخطوط الرئيسة – حول رحلة سلاّم من قبل معاصره ابن خرداذبه ، ويختلف هذا الموقف ويتغير بالنسبة لروايات الأخبار المتعددة المتأخرة التي ربطت باسم سلاّم أو نقلت عنه ، فقد تحدثت إحدى هذه الروايات عن « جزيرة الشياه » وقيل إنها كانت واقعة « بين الخزر والبلغار » وأن سلاّم قد وصل إليها بالسفينة [5] ، وتحدثت رواية أخرى عن نوع من عرائس البحر رآه سلاّم بينما كان برفقة ملك الخزر [6] ، علماً بأنه لم يرد ذكر أي من هذه الأخبار في رواية ابن خرداذبه .

وسنة أو سنتان قبل أن يصبح الواثق خليفة سببت الإطاحة بدولة الإيغور القوية (٨٤٠ م) اضطرابات شديدة في آسيا ، وقد قيل إن اشاعات عما حدث قد وصلت إلى الخليفة ، ودفعته إلى إرسال البعثة التي سلفت الإشارة إليها [7] ، وللدهش هنا هو أن سلاّم قد أمر بالتوجه إلى القوقاز ليس بشكل مباشر

---

(١) انظر من أجل خاقان ملك الخزر اليعقوبي : ٢ / ٥٠٨ .

(٢) انظر الفصل الرابع .

(٣) انظر ما سبق .

(٤) ونقرأ أيضاً في حدود العالم : ٥٠ . أن ملك الخزر قد دعي باسم طرخان خاقان.

(٥) القزويني ، نفسه .

(٦) المصدر نفسه : ٢ / ٤١٨ .

(٧) مرقوارت : ٩٠ .

من خلال آسيا الوسطى ، ورأى الخليفة أن مهمة البعثة الارتحال نحو « سد يأجوج ومأجوج » .

وقصة يأجوج ومأجوج وبناء ذي القرنين (الإسكندر الكبير ؟) لسد يمنعهم به من الخروج قد ورد ذكرها في القرآن [1] [الكريم] ، وفسّر هذا النص الغامض في تاريخ مبكر ليعني تحصينات القوقاز (تاريخها منذ ما قبل الإسلام) التي تعرف باسم سور دربند [2] ، ولهذا أرسل سلاّم أولاً إلى والي الواثق في تلك الجهات ، وهنالك رواية لدى الطبري ، قد سبق وألقينا نظرة عليها [3] ، لعلها لو كانت معروفة من قبل الواثق ، لا شك في أنها قد أسهمت في تحويل أنظاره نحو القوقاز ، وتبعاً لهذه الرواية قام حاكم فارسي لدربند قبل وصول المسلمين بإرسال بعثة نحو « سد الإسكندر » ، وقد قيل كان عبدالرحمن ابن ربيعة موجوداً عندما عاد قائد الحملة الفارسية منهكا ، بعد رحلة دامت عامين ، وعرضت شخصية هذا الرجل وكأنه قد وصل إلى السد وقام بوصفه بشكل يشبه ما جاء في رواية سلاّم عند ابن خرداذبه [4] ، ومن المحال أن

---

(١) سوره ١٨ / ٩١ – ٩٧ .

(٢) انظر الفصل الأول .

(٣) في الفصل الثالث .

(٤) إن الموجات المتتالية من سواد الضوء والظلام (الحديد والنحاس) هي الملامح الرئيسة في الروايتين ، اللتان قد تأثرتا بما جاء بالقرآن الكريم من ذكر لحديد والنحاس المذاب ، ومن المفترض أن سلام قد تحدث عن شيء قد رآه ، ولعل سلام قد وصل ، كما يرى زكي وليدي ، ابن فضلان : ١٩٦ ، الحاشية) إلى البوابة الحديدية إلى الشمال من كوجا في تيين‌شان . ووافق مرقوارت على ما ذهب إليه دي غويه من أن سور الصين المعظم هو المقصود . وذهب الكونت إيخي في تعليقاته على رحلة سلام إلى سد يأجوج ومأجوج موجود في واحد من ممرات الأورال ، لكن يبدو أن هذا غير صحيح ، هذا ونقرأ في نص من مخطوطة الاصطخري الموجودة في تشستربيتي أن السد موجود خلف أرثا (أرثا) وهي مقاطعة روسية أو شعب روسي (انظر الفصل الخامس) وروى الدميري في كتابه حياة الحيوان ، ط . القاهرة ١٢٨٤هـ : ٢ / ٤٧٨ حكاية رحلة إلى سد يأجوج ومأجوج تمت أيام النبي صلى الله عليه وسلم .

نعتبر رواية الطبري صحيحة ، ويبدو أنها كانت رائجة أيام حملة سلاّم .

ولا نعرف أصل سلاّم بشكل واضح، ومن البداهة بمكان أن نعتقد أنه كان عربياً ، لكن هذا لا يمنع من التفكير أنه كان خزرياً قد دخل في خدمة الخليفة ولربما كان خزريا يهوديا [١] ، ومهما يكن الحال ، يبد أنه بعدما وصل إلى بلاد الخزر ، كان يعرف ،أو أنه أرشد إلى حيث كان عليه أن يذهب لينفذ المهمة التي كلفه الواثق بها ، وهناك إشارة إلى أن خمسة من الأولاد – عدد كبير نسبياً ، لعله بسبب طول الرحلة– قد عيّنهم ملك الخزر لمرافقته [٢] ، ويدل هذا على أنه وجدت آنذاك بعض المعارف والاهتمامات الخزرية بآسيا الوسطى، ولسوء الحظ من الصعب تماماً أن تحصل من رواية سلاّم على معلومات حول مدى امتداد بلاد الخزر باتجاه الشمال الشرقي .

وسبق أن أشرنا إلى والي أرمينيا وأذربيجان الذي أذن في سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م إلى عدد من الأسر الخزرية بالمرور عبر (باب الأبواب) إلى ديار الإسلام ،وكان هذا الوالي هو بغا الكبير [٣] ، وقد أسكن بغـــا المهاجرين في موقع شمكور القديم ، وأعاد تسمية المكان فسمّاه المتوكلية تيمناً باسم الخليفة الحاكم ، وقد قيل أنه جلب ثلاثة آلاف أسرة من اللان (آس) عبر ممر داريل [٤] ، ولعل هؤلاء كانوا أيضاً من رعايا خاقان الخزر ، وهاجم في الوقت « الصنارية » التي كانت جماعة مسيحية تعيش في الجبال شمال تفليس [٥] ، وبعدمـــا صد هؤلاء هجومه الأول بادروا إلى الاتصال مع كل من الخاقان ، والامبراطور البيزنطي

(١) حمل اليهود اسم سلام أحياناً مثل سلام بن أبي الحقيق (اليعقوبي : ٢ / ٥١) .

(٢) ابن خرداذبه : ١٦٣ . وذكر زكي وليدي (Volkerschaften , 52) أن الرحلة من بلاد الخزر إلى السور احتاجت إلى شهرين . انظر أيضاً ابن الفقيه : ٢٩٨ .

(٣) البلاذري : ٢٠٣ .

(٤) المؤرخ الجورجي نقلا عن موقوارت ٤١٢ .

(٥) انظر مينورسكي ، حدود العالم : ٤٠٠ ...

وحاكم الصقالبة [1] (السلاف) ، ويبدو أنه ما من واحد من هؤلاء قد تدخل نتيجة لاستدعائه، بيد أن الذي استدعي وأعيد كان بغا ،وهنالك رواية واحدة تقول أنه استدعي لأنه كان موضع إتهام لقيـام روابط تآمر وخيانة بينه وبين الخزر الذين وصفوا بأنهم كانوا من أبناء جلدته [2] .

وكما سبق وأشرنا قام في سنة ٨٣٣ رسول خزري بزيارة القسطنطينية ينشد عون البيزنطيين لبناء ساركيل ، وفي أواخر القرن نفسه وصل رسول من عنـد الخاقان إلى الإمبراطور ميخائيل الثـالث ، ربما في عام ٨٦٠ ، بطلب من نوع آخر تماماً ، فقد تساءل عن إمكانية إرسال رجل يمكنه شرح المسيحية [3]، وأشار البطريرك فوتيوس على الامبراطور إرسال تلميذه وربيبه قسطنطين [4] ، ووافق ميخائيل على ذلك، ولعل فوتيوس قد أبدى اهتماماً شخصياً مباشراً ببـلاد الخزر ،لأنه كان – كما يظن – من أصل خزري ، ويمكن لهذا الظن أن يقدم أفضل شرح لما شتمه به الامبراطور في يوم كان غاضباً فيه بقوله : « الخزري الوجه [5] » .

وسافر قسطنطين إلى بلاد الخزر عبر القرم ،وأقام فترة من الزمن في كيرسون يدرس لغة الخزر ، أو تبعاً لرواية أخرى يدرس العبرية والسامرية [6] (؟) ثم ارتحل عبر طريق – الدون – الفولغا [7] حتى أتل ،وهبط إلى شاطىء بحر قزوين

---

(١) اليعقوبي : ٢ / ٥٩٨

(٢) المؤرجي الجورجي ، المصدر نفسه .

(٣) مرقوارت : ١٣ .... بري ، الامبراطورية الرومانية المبكرة : ٤٨٦ – ٤٨٧. فرنادسكي ، روسيا القديمة : ٣٨٨ .

(٤) غالباً ما يدعي سيرل رسول الصقالبه (السلاف) .

(٥) سيمون الماجستير . ط . بون : ٦٧٣ .

(٦) انظر بري ، الامبراطورية الرومانية المبكرة : ٣٩٤ . حاشية ٦ .

(٧) المدعو باسم طريق الخزر (فرنادسكي ، روسيا القديمة : ٣٥٠ ، نقلاً عن فتيا قسطنطيني السلافية) .

حتى لقي الخاقان [١] ،ربما في سمندر[٢] ، وهناك أقيمت [٣] مناظرة ،عرضت على أنها جاءت بمثابة نصر للحاجج المسيحي ، وقد روي أن مائتين فقط هم الذين جرى تعميدهم ، ومع أن قسطنطين قد ترك انطباعاً جيداً لدى الزعيم الخزري ، فمن الواضح أن بعثته لم تكن ناجحة جداً ، لذلك عاد بعد وقت قصير إلى القسطنطينية .

وقامت المناظرة الدينية بحضرة الخاقان بين يهود أجادوا معرفة الكتابات[٤] المقدسة من جهة وبين قسطنطين في الجهة المقابلة ، ومن هذا كان زاتشكوسكي Zajaczkowski محقاً فيما استخلصه أن اليهود وأتباعهم كانوا في القرن التاسع قوة هامة ، لا بل حقيقة حاسمة في بلاط الخاقان ، قال هذا وهو -يتبع دفورنك [٥] Dvornik - حريص على أن يوضح أنه لا توجد إشارة مباشرة هنا إلى أن الخزر كانوا متحولين إلى اليهودية .

هذا ولا بدّ من القول انه لمن الصعب استخدام الروايات حول بعثة قسطنطين من أجل إظهار أن تحوّل الخزر إلى اليهودية لم يحدث إلا بعد تاريخ البعثة بوقت قصير ، لأن سمات الخزر كأتراك متهوّدين كانت دائماً محفوظة في الذهن ، ولعل هذا يعني أن تهوّدهم - كان بدون شك وقفاً في جميع الأحوال على جماعة صغيرة - كان دائماً مصطنعاً ، كما أن القول انهم كانوا عرضة للعودة إلى الوثنية يمكن أن

---

(١) مرقوارت : ٢١ حيث نقل باختصار عن فيتا قسطنطيني حيث دعي فيها الخاقان باسم زاخارياس (لكن لا يوجد تأكيد لذلك في مكان آخر .

(٢) يؤكد فرنادسكي (٣٠٥) هذا بصورة قاطعة .

(٣) أو سلسلة من الخلافات ، انظر بري الامبراطورية الرومانية المبكرة : ٣٩٥ ، الحاشية ٢ .

(٤) ثقافة فصل ٤ .

(٥) انظر الحاشية ١٢٩ .

يلقى دعماً بما جاء في رد يوسف عن قيام إصلاح ديني في حوالي سنة ٨٠٠م ، في ظل ملك جديد .

وعلينا أن نفترض أن زواراً مثل « آبو » من بغداد وقسطنطين العالي الثقافة قد حصلا على انطباعات غير مرضية ولا مشجعة عن الأوضاع الوحشية لبلاد الخزر ، لكن حتى لو صح هذا ، فنحن لا نملك رواية مباشرة عما شاهده هذان الرجلان بالفعل في بلاد الخزر ، ذلك أن آراءهما عن الخزر مع سجل أعمالهما بينهم . هو ما اختاره للكتابة الذين تولّوا الترجمة لحياتهما ، لا ما اختاراه شخصياً ، وفي مواجهة توافق الروايات العربية والعبرية ، لا سيما بعدما تقصّينا البحث ، واتجهنا نحو تثبيت ما جاء بالعبرية ، نجد أن الموقف السلبي الذي يمكن استخراجه من الروايات المتعلقة « بآبو » وقسطنطين حول تأخير تهوّد الخزر إلى سنة ٨٦١ ، له قيمة ضئيلة [١] .

وهذا ويتوجب علينا دراسة مسألة العلاقات الهامة ، لكن المتداخلة بين الخزر والهنغار ، والمعلومات الأساسية حول هذا الموضوع صادرة عن فصول قليلة من فصول كتاب « الادارة الامبراطورية » لقسطنطين بورفي روجنتوس ، وقد قال هذا المؤلف الامبراطوري : حدث قبل خمس وخمسين سنة — أي في سنة ٨٩٣م ، على افتراض أن الكتاب قد كتب في سنة ٩٤٨م — أن هاجم الخزر متحالفين مع الغزّ البشناق ، ودفعوهم من ديارهم الواقعة فيما بين نهري الفولغا والأورال [٢] ، وجرى تأكيد هذا التأريخ تقريباً بواسطة مصدر مستقل هو رينالد أوف بروم Regnal of prum حيث أعطى سنة ٨٨٩ تأريخاً لهجرة البشناق [٣] ، فقد مرّوا من خلال مناطق كانت حتى الآن محتلة من قبل « الترك » ،

---

(١) يحدد فرنادسكي وآخرون تاريخ التحول النهائي للخزر إلى اليهودية بعد عدة سنوات من هـذا .

(٢) الادارة الامبرية : ٣٧ .

(٣) مينورسكي ، حدود العالم : ٣١٣ ، الحاشية ٢ .

وذلك حسبما دعي الهنغار بشكل متتابع من قبل المصادر الإغريقية ، ويمكننا على هذا الأساس تفسير كلمة « ماغيار Magyars» ، مع أنها كانت بدقة اسم واحدة من قبائلهم ، وقد أرغم الماغيار بدورهم على الهجرة ، وهذه هي التطورات نفسها التي شهدناها في فترة سابقة .

ويتحدث قسطنطين كما ولو أن الماغيار قد أرغموا على الانسحاب مرتين من قبل الشناق [1] ، أولاً من ليبيديا Lebedia (اشتق هذا الاسم من اسم الزعيم الماغياري أو من اسم فوفود ليبدياس Voevod lebedias) إلى أتلكوزو - التي من المفترض أنها تعني « بلاد ما بين النهرين [2] » – ثم من أتلكوزو إلى المنطقة التي كانت محتلة قبل الماغيار في أيام قسطنطين (وأيامنا) على الدانوب الأوسط ، ويزيدنا قسطنطين اطلاعاً أن الماغيار عندما كانوا في ليبديا قاتلوا لمدة ثلاث سنوات إلى جانب الخزر كحلفاء لهم ، وأن خاقان الخزر قد أعطى ليبدياس سيدة خزرية نبيلة زوجة له ، لكن هذه الزوجة لم تلد له أية أولاد .

وبعدما وطد الماغيار أقدامهم في أتلكوز واستدعى الخاقان ليبيدياس إلى شلنديا Chelandia (كلنشا Kalancha) في القرم وعرض عليه تنصيبه حاكماً وحيداً (أرخون) لشعبه تحت سيادة الخزر ، لكن ليبيدياس اقترح عوضاً عنه ألموتزس [3] Almutzes أن هذا قد تنازل بدوره لابنه أرباد Arpad ، ومهما يكن من أمر حمل أرباد أخيراً على ترس – تبعاً لعادات الخزر حسب قول قسطنطين ـ وأعلن ـ حسبما دعاه النص ـ زكانوس [4]

---

(١) الادارة الامبراطورية : ٣٨ .

(٢) مرقوارت : ٣٣ .

(٣) أو سلموتز .

(٤) يوائم قسطنطين هنا الممارسات بين الخزر وأتراك كوك (انظر الفصل الخامس ، الحاشية ٣٤) مع العادة القديمة في رفع القاعدة على الترسة تتويجاً لهم .

Zakanos ، التي ربمـا عنت « ما دون الخاقان »[١] ، لكن بعـــد بعض الوقت هاجم البشناق الماغيار ثانية ودفعوهم غرباً من أتلكوزو .

ولقد جرت عدة محاولات لإيضاح طبوغرافيه وأخبار هجرات الهنغـــار ولتبيان الملاقات مع الخزر التي تتسم بالتداخل ،أما عن أن هذه الملاقات كانت وثيقة في يوم من الأيام ، لا شك في ذلك،ويخبرنا قسطنطين أن الماغيار قد التحق بهم قبل هجرتهم إلى هنغاريا الحالية ثلاث قبائل من شعب عرف باسم «الكابار»[٢] Kabar من بلاد الخزر ، وليس من الواضح تمامـاً فيما إذا كانت كلمة « كابار » تمثل صيغة اسمهم الأصلي أو ما دعاهم به الماغيار ؟ فلقد انتسبوا إلى جماعة كانت قد هزمت خلال حرب أهلية ، ونجت إلى الأراضي الهنغـارية ، واستقرت هناك بوئام مع السكان المحليين ، وأظهر « الكابار » أنفسهم أكثر حباً للمغامرة وميلاً للقتال من الهنغار ، واحتلوا المقام الأول بين قبـــائلهم ، ويدعونا قسطنطين لنتصورهم على رأس المهاجرين في تقدمهم إلى هنغاريا الحالية ، ولقد اتحّد الشعبان اتحاداً وثيقاً ، أو بالحري غدا «الكابار» مؤثرين إلى حد أن الهنغار تعلموا لغة هؤلاء القادمين الجدد وقد احتفظوا بها إلى أيام قسطنطين[٣] ، ومن الأدلة على أن الخزرية قد تكلم بها حتى منتصف القرن العاشر على الأقل هو ما تأكدت منه الأبحاث في لهجة الـ « لير » التركية ، التي من المفترض أنها كانت لهجة الحديث للخزر الكابار ، وقيل ان آثارها ما زالت واضحة في الماغيار[٤].

---

(١) بالنسبة لـ « زاكانوس » يقارن فرنادسكي (روسيا القديمة : ٢١٤) بالكلمـة السلافية « زاكون » أي قانون .

(٢) يكتب آخرون « كافار » . انظر « كواري » في تاريخ ســالزبورغ (نقلاً عن غريغوري « أصل الهنغار » Z . D .. M . G , B . 91 (١٩٣٧) : ٦٤٠) .

(٣) انظر الفصل ٣٩ .

(٤) انظر . Z . Combocl , Die bulgarisch - turkischen lehnuvorter In dergarischen sprache , M . S . F , XXX 1912: وجرى الآن رفض ذلك من قبل J . Benzing , « Die angeblichen bolgar - turkischen lehnuvorter Im ungarischen » Z . D . M . G . , B . 98 (1944) 24 - 27 .

وعلينا أن نتذكر أن إمبراطورية الخزر كانت تغطي في القرن التاسع مساحات واسعة في الغرب ، كما شملت عدداً من الجماعات الدافعة للجزية ، وهكذا نقرأ في التـــاريخ الروسي [١] أن « البوليان » polians الذين كانوا يقطنون إلى الجنوب من منطقة الدينبر الوسطى قد هوجموا في إحدى المرات من قبل الخزر وذلك في منطقة الغابات والتلال الممتدة على طرف النهر وأجبروهم على دفع جزية هي سيف واحد عن كل موقد، ويقول هذا التاريخ إنّ هذه السيوف من ذوات الحدين ، وأنه عندما وصلت هذه المعلومات إلى حاكم الخزر وشيوخ القوم [٢] ماتوا قلقين لأن سيوف الخزر كانت ذات حد واحد .

وتشير الرواية هنا كما هو مفترض إلى فترة سبقت [٣] سنة ٨٥٩م ، وتبعاً لهذا التاريخ نفسه دفع في هـــذه السنة : البوليان والسفيريان Severians والفيتشيان Viatichians الجزية إلى الخزر : جلداً واحداً من الفراء عن كل بيت [٤] ، هذا ومما لا شك فيه أن الخزر قد احتلوا كييف فتبعاً للتاريخ الروسي دفع سكان هذه المدينة الجزية الى الخزر قبل سنة ٨٦٢م [٥] ، لكن بعد فترة قصيرة وطد أولغ الروسي أركانه فيها ، ولم يعد الخزر يمتلكون كييف ، كما يبدو أنهم لم يحاولوا استردادها [٦] إنما مع ذلك ترك الخزر فيها آثاراً تدل

---

(١) فصل ١٢ .

(٢) لم يرد ذكر وجود مجلس للشيوخ المسنين بين الخزر في مكان آخر ، وعبارة « شيوخ بلادنا » الواردة في رد يوسف لها أهمية عامة فقط، وانظر مع ذلك الفصل الرابع ، الحاشية ١١٢ والفصل السابع ، الحاشية ١٦ .

(٣) ويرى فرنادسكي (روسيا القديمة : ٣٣٢) أن الخزر ظهروا للمرة الأولى قرب كييف في حوالي سنة ٨٤٠ .

(٤) المؤرخ الروسي ، فصل ١٤ .

(٥) المصدر نفسه ، فصل ١٥ .

(٦) المصدر نفسه ، فصل ١٨ .

عليهم ، آثار احتاجت إلى وقت كبير حتى تختفي [١] ، ويبـــدو أن من بين الشعوب السابقة الذكر ظل الفيتشيان – على الأقل – من رعـــايا الخزر حتى سنة ٩٦٥ م ، عندمـــا أخبروا سفياتوسلاف Sviatoslav أنهم يدفعون إلى الخزر قطعة من النقود عن كل محراث [٢] .

وفيما يتعلق بهجرة الماغيار إلى هنغاريا في نطاق الظروف التي سلفت الإشارة إليها ، وذلك في أواخر القرن التاسع ، هناك اجماع عام ، أما تاريخهم السابق فقد كان موضع نقاش ، ويفترض مرقوارت أنهم وإن سبّبوا بعض المشاكل في السابق للخزر (بنى هذا على إشارة غامضة وردت لدى ابن رسته فيها أن الخزر بنوا في يوم من الأيام سوراً أو عملوا خندقاً ليدافعوا عن أنفسهم ضد الماغيار) [٣] فقد أمكن منعهم عن طريق بناء ساركيل مما أفقدهم القدرة على إلحـــاق الضرر بجيرانهم .

وبما أن الماغيار قد كانوا مستقرين إلى الغرب من نهر الدون فإنهم دخلوا تحت ظل حكم خاقان الخزر ، وقد ذكرهم أحد المؤرخين في سنة ٨٦٢ م وقد شرعوا بالظهور على أطراف نهر الدانوب لا بل حتى في داخل الأراضي الألمانية [٤] ،

---

(١) كان رجال كييف ، تبعاً لملاحظات « الملك بيلا » (القرن الثالث عشر) قد هزموا من قبل المجر الذين كانوا بقيادة زعيمهم أولوم (فرنادسكي ، روسيا القديمة : ٣٣٢) ويبدو أن أولوم هو ألموش نفسه (أليش ، أنظر الحاشية ١٧٠ ، القادمة) وألموتزس عنـــد قسطنطين بروفي . ويبدو أنه قد جرى الحديث عن قصر ألموش لدى المؤرخ الروسي ، الفصل ١٨ ، على أنه موجود على رابية قرب كييف ، كما أن كاتدرائية القديس الياس في كييف قد ربطت بالخزر لدى المؤرخ الروسي ، فصل ٢٧ ، وأتت أسطورة تأسيس كييف (فصل ١٥) على ذكر رجل اسمه خوريف أي ربما هو ريب مع إشارة إلى يهود الخزر (أنظر فرنادسكي ، روسيا القديمة ٣٣٣) وهنالك اشارة أخرى لارتباطهم بكييف أو بما عرف بباب الخزر

(٢) المؤرخ الروسي ، فصل ٣٢ .

(٣) أنظر الحاشية ٨٣ ، السابقة .

(٤) مرقوارت : ٣٣ . نقلا عن هنكمار الرهيمي ،

وحدث مرة من قبل ، في حوالي ٨٣٩م ، أن جاء ذكرهم وهم مقيمون على أطراف الدانوب [١] ، ويقول مرقوارت ان الفترة المقابلة للسنوات ٨٤٠ – ٨٦٠م هي فترة كان الماغيار فيها متحالفين مع الخزر ، واشتركوا في حروبهم إلى جانبهم [٢] ، ولقد كان على قسطنطين أن يقول عشرين عاماً بدلاً من ثلاث سنوات ، عن طول المدة التي كان فيها الماغيار يتبعون – وهم مقيمون في ليبيديا – الإمبراطورية الخزرية ، ثم دفعوا بشكل عنيف في حوالي سنة ٨٦٠م من قبل البشناق ، فتحولوا من غربي الدينبر إلى أتلكوزو ، وامتدوا من الدينبر بعيداً حتى سيرث ، Sereth ، وجاءت هذه العملية بمثابة ضربة قاسية جداً بالنسبة للخزر ، وهي توضح لماذا كان من السهل على الروس توطيد أقدامهم في كييف ، هذا ولم يكن الخاقان على استعداد للتخلي عن أمبراطوريته في الغرب من دون صراع [٣] ، فهو لم يعد يخشى الماغيار ، وقد رغب في تقويتهم ضد البشناق والروس ، ولذلك قام بعدما وطدوا أقدامهم في أتلكوزو بفترة وجيزة واستدعى ليبيدياس وعرض عليه تمليكه على الماغيار .

ويرى « بري Bury » بشكل عام الرأي نفسه [٤] ، في أن الماغيار قد هُجّروا من ديارهم في ليبيديا – وكانت منطقة واقعة بين نهري الدون والدينبر – من قبل البشناق الزاحفين من الفولغا ، وقد توجهوا أتلكوزو بين الدينبر وأطراف بروث pruth وسيرث الدنيا ، وقد جاء أول استغلال لموقعهم الجديد بالقيام بغزو أوربا الوسطى في سنة ٨٦٢م ، كما سلفت الإشارة ، ويحاجج « بري » أن هجرة الماغيار من ليبيديا لا بد قد حدثت قبل ٨٦٢ لكن بعد ٨٦٠ ، عندما قبل قابل قسطنطين الماغيار المغيرين ، وذلك عندما كان في طريقه من

(١) المصدر نفسه : ٣٠ .

(٢) انظر الحاشية ١٥٦ ، السابقة .

(٣) مرقوارت : ٣٤ .

(٤) الامبراطورية الرومانية المبكرة : ٢٣ : ٤ .

القرم إلى مملكة [١] الخزر ، وتبعاً « لبري » فإن هذا يرينا أن الماغيار كانوا في ذلك التاريخ ما يزالون مقيمين في ليبيديا موطنهم القديم ، ويقول قسطنطين بورفي روجنتوس لقد قاتلوا وهم ما يزالون في ليبيديا إلى جـانب الخزر لمدة ثلاث سنوات ،لكن هذا برأي كل من « بري ومرقوارت » وقت قصير جداً ، وتبنى « بري » التصحيح الذي قام به وستبيرغ في رفع رقم ثلاث سنوات إلى ثلاث وثلاثين سنة ،مفترضاً أن الماغيارظلوا في ليبيديا ثلاثاً وثلاثين سنة ،وأثبت بذلك تاريخ وصولهم من القوقاز فيما بين ٨٢٢ – ٨٢٦م [٢] .

زد على هذا أن بري ساير قسطنطين في قوله: تزوج ليبيدياس من سيدة خزرية نبيلة قبل الهجرة إلى أتلكوزو ، وبعد هذه الحادثة بفترة وجيزة اتصل بـه الخاقان وعرض عليه جعله حاكماً على جميع القبائل السبع للهنغاريين ، وهكذا أسس الخزر نظاماً ملكياً بين الماغيار ، ثم علق على ذلك بقوله إنه لمن الصعب رؤية السبب الذي دفع حكومة الخزر إلى القيام بهذه المبادرة [٣] ، ويقترح ربط هذه البدعة بوصول « الكابار » من مملكة الخزر ، الذين قاموا – كما رأينا – بسرعة بالإمساك بزمام القيادة في مجلس عشيرة الماغيار ، ولم يقم « بري » الاعتبار لفكرة « مرقوارت » في أن هجرة الماغيار إلى أتلكوزو قد زادت من تعرض الخزر للخطر من قبل الروس ، وأن هذه النقطة هي التي حسمت مسألة تعيين ملك هنغاري يأتي في مرتبة أدنى من الخاقان ويتبع له ، كما أنه رفض ممـا ذهب إليه مرقوارت من أن سلالة الملوك من « أبراد » كانوا من أصل خزري من « الكابار » [٤] .

---

(١) أنظر ما سبق .

(٢) الامبراطورية الرومانية المبكرة : ٤٩١ .

(٣) المصدر نفسه : ٤٢٦ .

(٤) مرقوارت : ٥٢ مع الحاشية . ويبدو أن الاقتراح ليس صحيحاً ، وينقل مرقوارت في مكان آخر عن سيمون الكيزاوي: ١٩/١/٢ ، وتبعاً لذلك كان ألموس (كذا) والد أرباد وأنه كان « De genere turul » .

وهنالك رواية أخرى عن هذه التحولات الغامضة قدمها غريغوري الذي وجد أن الماغيار قد هزموا وحل محلهم البشناق ، وأن هذا حدث مرة واحدة ربما فيما بين سنة ٨٩٤ و ٨٩٧ [١] ، وكانت ديارهم قائمة فيمـــا بين الدينبر وسيرث ، وقد دعيت بشكل متغاير ليبديا وأتلكوزو ،ولدى العودة إلى الفصل الثامن والثلاثين في كتاب قسطنطين نجده وكأنه يتحدث عن هجرات متتابعة ، وفي الحقيقة يحوي هذا الفصل روايتين متميزتين عن بعضها حول الحادثة نفسها، ولذلك ليس من الضروري البحث عن موطن أقدم للماغيار أو لمحاولة إيجادتاريخ لهجرتهم من ليبيديا إلى أتلكوزو ، التي هي مخترعة . فتبعا لغريغوي هنـــالك خطأ في قراءة « T » التي قرنت بمثابة « Treis » ، ذلك أن T تعني ثلاثمائة ، وهكذا وقع الخطأ حين قيل أن الماغيار تحالفوا مع الخزر لمدة ثلاث سنوات في ليبيديا / أتلكوزو ، والحقيقة ظل الماغيار ثلاثمائة سنة متحالفين مع الخزر وقد قاتلوا إلى جانبهم ، « في جميع حروبهم » حسبما يقول قسطنطين .

وهكذا يغدو من السهل إيضاح كيف أن الماغيار قد استطاعوا الإغارة على أوربا الوسطى في سنة ٨٣٩ ، وثانية في سنة ٨٦٢ ، فنادراً ما نسمع عنهم قبل هذا ، لكن هذا لا يمنع من القول أنهم كانوا في أحواز المنطقة نفسهـــا في ظل السلطة الخزرية لفترة طويلة كما قال غريغوري ،هذا ويلاحظ في المقابل أنـــه يبدو أن المنطقة القائمة بين الدينبر وسيرث وهي الديار التي سكنها الماغيـــار خلال الفترة كلها ، كانت متوغلة باتجاه الغرب ، ويقبل فرنادسكي استناداً إلى شواهد أثرية وإلى أسماء الأماكن أن الماغيار كانوا في جنوبي روسيا لفترة طويلة، ويرى أنهم تمركزوا في مناطق متعددة خلال أوقات مختلفة [٢] ، ويشير إلى أنه من المحتمل كثيراً أنهم قدموا من منطقة القوقاز إثر طرد البلغار (أونوغندور

---

(١) هـ . غريغوري ، أصل الهنغار . Z . D . M . G . B . 91 (1937) 633

(٢) فرنادسكي ، روسيا القديمة : ٢٤ – ٢٤٢ .

Onogundurs) من قبل الخزر في القرن السابع ، وبناء عليه يرى أن رقم « الثلاثمائة سنة » رقم تقريبي فقط ، كما أنه لا يشك في أن عملية تصحيح الرقم سليمة [1] .

وبات علينا أن نعتبر أن إشارات قسطنطين الواردة في الفصل الثامن والثلاثين من كتابه ، والتي سلفت الإشارة إليها ، تفيد أنه عندما هزم البشناق الماغيار وهاجروا بلادهم ، ذهب قسم من هؤلاء الماغيار مهاجرين نحو بلاد فارس ، وهذا القسم هو الذي احتفظ باسم الماغيار القديم وهو « سبرتي ـ أسفلي » وهو اسم كانوا جميعاً يعرفوا به سابقاً ، كما لا بد أن هنالك بعض الملاقات بين السبرتي (السفرتي) والساورديـة الذين نهبوا في حوالي سنة ٧٦٥ شمكور في جنوبي القوقاز [2] ، ومع هذا فإننا نقرأ عن خروج هؤلاء نحو بلاد فارس فقط بعد هزيمتهم من قبل البشناق ، وذلك مع نهاية القرن التاسع ، وعلى هذا هل يتوجب

---

(١) لا بد أن العلاقات بين المجر والبلغار كانت في وقت من الأوقات وثيقة . فلقد احتفظت إحدى قبائل البلغار باسم Koutourgernat – ou حتى تاريخ متأخر إلى أيام قسطنطين بورفي في القرن العاشر ، وهذا يقتضي الشرح (انظر مينورسكي ، حدود العالم: ٣١٩) حيث يبدو أن هذا الاسم هو نفس اسم كوتريغور ... الخ الذي ظهر بين البلغـار (الفصل الثالث) وجاء اسما مجر وبشكير (وبشغيرد) من بعض الجوانب متبادلان (انظر مرقوارت: ٦٨) وورود ذكر رأي نميز من قبل مينورسكي (حدود العالم : ٣١٨) من أن الأخيرين كانوا بالأصل من قبيلة بلغارية هاجرت شمالاً من بلاد القوقاز (انظر ما يلي ، وتبعاً لموافقتك (مينورسكي (المصدر نفسه) حدث هذا في الوقت الذي دفع فيه الأونوغوندور بإتجاه الغرب (انظر الفصل الثالث) ودعي الحاكم المحلي لبلغار الفولغا في أيام ابن فضلان (٣١٠ / ٩٢٢) كما يبدو ألميش الذي لا بد أنه اسم ألموترس المجري نفسه مع أن الأصل التركي المجر مرفوض (انظر J szinnyei , die herkunftder 1923 ungarn) ولا بد أن خلافاً شديداً قائماً في هذا ، في أن الجزء الأعظم من البلغار قد انسحبوا من بلاد الخزر فتحرروا في تاريخ مبكر من تأثيرهم وذلك قبل المجر ، فهناك ما لا يقل عن مائتي سنة بين التحرك غرباً للشعبين .

(٢) البلاذري : ٢٠٣ . انظر أيضاً المسعودي مروج : ٢/٧٥ . سياورديه ووقعت هذه الحادثة في الأيام التي غادر فيها يزيد بن أسيد (انظر ما سبق) أرمينية .

علينا تعديل نظرية غريغوري على أساس قوله : إن البشناق قد هزموا الماغيار مرة واحدة في حوالي سنة ٨٩٦ ؟ إن هؤلاء القوم كانوا قد هزموا من قبل ، وانشطرو إلى شطرين وأجبروا على مغادرة أراضيهم من قبل شعب آخر [١] ؟ وتبعاً لقسطنطين كان الشعب الذي هزم الماغيار وأجبر شطراً منهم على الذهاب شرقاً هو الذي عرف باسم الكنغار ، الذين كانوا أشجع قبائل البشناق [٢] ، واعتبر غريغوري أن « الكنغار » هم القبائل الخزرية التي عرفت باسم « كابار » وقد قدم أدلة متماسكة لإزالة هذا الخلاف [٣] ، فهل على هذا توجه «السبرتي - أسفلي » نحو بلاد فارس بعد الهزيمة من قبل الـ « كابار » في حوالي سنة ٧٦٠م؟ وإنه لمن المغري حقاً أن نرى في هجوم الـ « كابار » الذي أجبرهم على الهجرة من بلاد الخزر - كما أخبرنا قسطنطين - علاقة ما بتحول الفئة الحاكمة في بلاد الخزر إلى اليهودية في حوالي سنة ٧٤٠م [٤] لكن ما لم تكن هزيمة الماغيار قد حدثت بعد سنة ٧٦٠ بوقت مديد فإن « أبراد » ، الذي أصبح ، بعد ذلك بوقت قصير ، أول ملوك الماغيار لا يمكن أن يكون لديه أحفاد أحياء في أيام قسطنطين في حوالي سنة ٩٥٠ ، ذلك أنه بالنسبة لحقيقة وجود اثنين من أحفاد « أبراد » أحياء في ذلك التاريخ ليس هنالك أدنى شك معقول [٥] ، وبناء عليه إن الحوادث التي تكلم عنها قسطنطين من الصعب ربطها مع غارة « الساوردية » في سنة ٧٦٠ أو حولها . وهذا يؤكد فقط وجود الماغيار في القوقاز أو على مقربة منها في تلك

---

(١) فرنادسكي (روسيا القديمة : ٢٧١) في محاولة لاجابة هذا السؤال بإثباته على الشماليين لكن ما قاله غير مقنع .

(٢) الادارة الامبراطورية : فصل ٣٧ .

(٣) المصدر نفسه : ٦٣٨ .

(٤) الإدارة الامبراطورية : فصل ٣٨ .

(٥) ذكرت أسماؤهم في الادارة الامبراطورية .

الآونة [١] ، وأنه لا علاقة لهم بأية هزيمة لحقت بأقربائهم في سهوب روسيا ، وبالنسبة لخروج هذا الشعب بالذات نحو « بلاد فارس » الذي قال قسطنين إنه حدث فيما بعد ، يبدو أن أخباره لم ترد في المصادر الإسلامية .

أما بالنسبة للملكية بين الماغيار ، فقد وجد غريغوري أن سبب تعيين « أبراد » ليس ما ورد في الفصل الثامن والثلاثين من كتاب « الإدارة الإمبراطورية » : من أنه إما أن زوجة ليبيدياس الخزرية لم تلد له ولداً ، أو أن ليبيدياس رفض لسبب خاص به كافتراضنا مثلاً أن عزته وإباءه منعاه من قبول التبعية ، بل إن السبب في ذلك هو أن ليبيدياس قد أزيح ووضع جانباً لأنه أخفق أمام سيمون البلغاري عندما استدعاه الإمبراطور ليو السادس لحربه[٢] ، ويعارض هذه المقولة أن قسطنطين قد ذكر بشكل واضح أن ليونتس Liuntis هو الذي قاد الحملة المخفقة ضد سيمون ، وأن هذا كان ابن أبراد ، ولم يشكك « بري » في هذه القرابة [٣] ، كما ويرجح أن ليبيدياس لم يعد وقت الحملة (٨٩٥) قائداً للماغيار ، وإذا افترضنا ـ كما يقول غريغوري ـ أن الطرد النهائي للماغيار من أتلكوزو كان في سنة ٨٩٦ ، فإن البشناق ـ إذا أمكن الاعتماد على رينالد أوف برم [٤] ـ كانوا قد ظهروا في عام ٨٨٩ ، وعلى هذا يكون الوقت المناسب لتدخل الخزر المباشر (نحن نفترض أن « الكابار » كانوا التحقوا بالماغيار في وقت ما أبكر) قد جاء بعد هجوم البشناق الأول ، وذلك ليس أبعد من سنة ٨٩٠ ، أو ٨٩١ ، وخلاصة الأمر : كان على هذا أبراد وليس ليبيدياس هو الزعيم منذ ذلك التاريخ ، وبناء عليه لدينا بعض

---

(١) جاء ذكر الجر ووجودهم في منطقة القوقاز في حدود العالم (صنف ٣٧٢ / ٩٨٢) : « فصل » .

(٢) المصدر نفسه . ٦٣٥ — ٦٣٦ .

(٣) الادارة الامبراطورية : فصل ٤٠ ، الامبراطورية الرومانية المبكره : ٤٩٠ .

(٤) انظر الحاشيه ١٤١ أعلاه .

التحفظات تجاه ما قاله غريغوري ،لكن يبدو على العموم ـ بما أن قسطنطين قد تحدث عن هجرة واحدة كبيرة للماغيار ـ أن رأيه كان لا شك صحيحاً .

ويمكننا أن نستخرج بعض المقتطفات الهامة من كتاب مروج الذهب، وهو كتاب المسعودي الرئيسي الذي وصلنا ، وقد سلفت الإشارة إليه مراراً في الفصول الماضية ، وكان المسعودي قد شرع في تصنيف كتابه هذا سنة ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م وأكمله سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م [١] ، وعلى هذا أمكن للمسعودي الحديث عن الحملة الروسية داخل منطقة بحر الخزر في بداية القرن الرابع للهجرة، لكنه لم يعرف شيئاً عن الهجوم المفجع الذي تعرضت له عاصمة الخزر فيما بعد [٢]، ويقول المسعودي :

ويتأذى أهل الباب والأبواب من مملكة يقال لها خيذان [٣] ، وهذه الأمة داخلة في جملة ملوك الخزر [٤] ، وقد كانت دار مملكتها مدينة على ثمانية أيام [٥]

---

(١) بركلمان تاريخ الأدب العربي : ١ / ١٤٥ . التواريخ ٣٣٢ / ٩٤٣ . انظر الفصل الخامس .

(٢) انظر الفصل التاسع .

(٣) ليس جيد أن كما ورد في طبعة باريس ، انظر الرابع ، الحاشية ٢٨ . وتبعاً للمسعودي (مروج : ٢/٣٩) كانت خيذان أكثر ممالك القوقاز شراً ، لكنها لم تتمكن من اخضاع بعض العرب عاشوا مستقلين بينها وبين باب الأبواب منذ الفتح ، ومع أن ملك خيذان كان مسلماً ادعى النسب العربي فقد حمل لقب سيفن الذي يبدو أن كان تركياً (خزريا) وقارن مينورسكي (حدود العالم : ٤٤٠ ، الحاشية ٤) بينه وبين اللقب سليفا الوارد في المصادر الصينية ، وذلك نقلا عن شافانس ، الوثائق .

(٤) استخدمت الفقرة ذاتها ، داخلة في ملك الخزر ، تحت البرطاس وجاء في ط . باريس كلمة « ملوك » بدلاً من« ملك »والقراءةالصحيحة موجودة في مخطوطة البودليان ، مارش٣٤٢، (انظر الفصل الخامس ، الحاشية الأولى) .

(٥) كانت المسافة بين سمندر وباب الأبواب أربعة أيام فقط وذلك تبعاً للاصطخري (٢١٩) ويصح هذا لو أن سمندر هي قزلار على نهر الترك (الفصل الخامس - الحاشية ٢٦) .

من مدينة الباب يقال لها سمندر [١]، وهي اليوم يسكنها خلق من الخزر، وذلك أنها افتتحت في بدء الزمان، افتتحها سلمان بن ربيعة الباهلي[٢] رضي الله تعالى عنه، فانتقل الملك عنها إلى مدينة أتل [٣]، وبينها وبين الأولى سبعة أيام [٤]، واتل التي يسكنها ملك الخزر في هذا الوقت ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم يرد من أعالي بلاد الترك ويتشعب منه شعبة نحو بلاد البلغر، وتصب في بحر مايطس [٥]، ولهذه المدينة جانبان، وفي وسط هذا النهر جزيرة فيها دار الملك [٦]، وقصر الملك في طرف هذه الجزيرة [٧]، وبها جسر إلى أحد الجانبين من سفن، وفي هذه المدينة خلق من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية [٨].

وأما من في بلاده من الجاهلية فأجناس: منهم الصقالبة [٩]، والروس،

---

(١) أعلن المسعودي في التنبيه (٦٢) أن بلنجر كانت عاصمة الخزر، وقدم يافوت معجم البلدان مادة سمندر) المعلومات نفسها الموجودة هنا حيث نقل عن الأزهري يعني أبو منصور محمد بن أحمد كان موجوداً ٣٧٠ / ٩٨٠ (بروكلمان، تاريخ آداب اللغة العربية: ١/١٢٩) في حين أن نصير الدين الطوسي (J . Greaves Binae tabulae , 13) يتفق مع ما جاء في التنبيه في أن بلنجر كانت العاصمة، انظر الفصل الثالث، حاشية ٤.

(٢) يبدو أنه لا يوجد شيء في المصادر حول هجوم على سمندر من قبل سلمان بن ربيعة انظر من أجل انجازاته الفصل الثالث.

(٣) جاء في ط. باريس آمل بدلاً من أتل وهو خطأ تكرر وروده.

(٤) كذلك الاصطخري ٢١٩. وعنده في مكان آخر (٢٢٧) المسافة بين أتل وسمندر ثمانية أيام.

(٥) الفرع على الدون.

(٦) يتوافق المسعودي مع ما جاء في رد يوسف في أن خاقان الخزر عاش في جزيرة.

(٧) ليس من الواضح فيما إذا كان المعني بناء آخر.

(٨) يلي هذا اشارة إلى اليهود كخزر. وقدم هذا في بداية الفصل الخامس.

(٩) زكي وليدي: ابن فضلان: ٢٩٥ – ٣٣١) حيث أظهر أن كلمة صقالبة لا تعني السلاف فقط بل تطلق على الأتراك، الفنلديين وعلى الفنلديين وحتى على الشعوب الجرمانية، انظر الفصل السادس حيث استخدمت كلمة صقالبة لتعني السكسون.

وهم في أحد جانبي هذه المدينة، ويحرقون موتاهم ودواب ميتهم وآلاته والحلي، وإذا مات الرجل أحرقت معه امرأته وهي في الحياة، وإن ماتت المرأة لم يحرق الرجل ، وإن مات منهم أعزب زوج بعد وفاته ، والنساء يرغبن في تحريق أنفسهن لدخولهن عند أنفسهن الجنة [١] ، وهذا فعل من أفعال الهند . على حسب ما ذكرنا آنفاً ، إلا أن الهند ليس من شأنها أن تحرق المرأة مع زوجها إلا أن ترى ذلك المرأة .

والغالب في هذا البلد المسلمون ، لأنهم جند الملك [٢] ، وهم يعرفون في هذا البلد بالأرسية [٣] ، وهم ناقلة من نحو بلاد خوارزم ، وكان في قديم الزمان بعد ظهور الإسلام وقع في بلادهم جدب ووباء ، فانتقلوا إلى ملك الخزر ، وهم ذوو بأس وشدة ، وعليهم يعول ملك الخزر في حروبه ، وأقاموا في بلده على شروط بينهم : أحدها إظهار الدين والمساجد والأذان ، وثانيها أن تكون وزارة الملك فيهم [٤] ، والوزير في وقتنا هذا منهم هو أحمد بن كويه [٥]، وثالثها أنه متى كان ملك الخزر في حرب مع المسلمين وقفوا في عسكره منفردين عن غيرهم لا يحاربون أهل ملتهم ، ويحاربون معه سائر الناس من الكفار ، ويركب منهم مع الملك في هذا الوقت شخوص منهم سبعة آلاف [٦] ناشب بالجواشن والدروع والخوذ ومنهم

---

(١) قدم ابن فضلان (٨٧ - ٩٢) رواية شاهد عيان وصفت أحد الطقوس التي أقيمت إثر وفاة واحد من زعماء الروس على الفولغا في بلاد البلغار .

(٢) من أجل عبارة مماثلة انظر الاصطخري (الفصل الخامس) وما يلي .

(٣) جاء في طبعة باريس أشكال متعددة مثل : لارسيه ولاريسيه وأرسيه وأريسيه الخ ، ومن الطبيعي مقارنة كلمة « آس » فآس هو الاسم الذي أطلق أخيراً على اللان (ليس من عصر الغزو المغولي بل قبل ذلك منذ القرن التاسع مرقوارت : ١٧٢) . انظر الفصل الخامس ، الحاشية ٢١ .

(٤) المسعودي ربما بالغ هنا ، انظر ما يلي .

(٥) أو « غويه » « كويه » .

(٦) انظر الأرقام لدى الاصطخري وابن رسته المعطاة في الفصل الخامس ، ومن جانب آخر الأعداد الأكبر أيام الحرب التي ذكرها المؤرخون المسلمون .

رائحة أيضاً على حسب ما في المسلمين من آلات السلاح ، ولهم قضاة مسلمون ، ورسم دار مملكة الخزر أن يكون فيها قضاة سبعة [1]: اثنان منهم للمسلمين ، واثنان للخزر يحكمان بحكم التوراة ، واثنان لمن بها من النصرانية يحكمان بحكم النصرانية [2] ، وواحد منهم للصقالبة والروس وسائر الجاهلية يحكم بأحكام الجاهلية وهي قضايا عقلية [3] ، فإذا ورد عليهم ما لا علم لهم به من النوازل العظام اجتمعوا إلى قضاة المسلمين فتحاكموا إليهم وانقادوا إلى ماتوجبه شريعة الإسلام [4] .

وليس في ملوك الشرق في هذا الصقع من له جند مرتزقة غير ملك الخزر ، وكل مسلم من تلك الديار يعرف بأسماء هؤلاء القوم الأرسية ، والروس والصقالبة الذين ذكرنا أنهم جاهلية هم جند الملك وعبيده [5] ، وفي بلاده خلق [6] من المسلمين تجار وصناع من الأرسية فروا إلى بلاده لعدله وأمنه ، ولهم مسجد جامع ، والمنارة تشرف على قصر الملك ، ولهم مساجد أخرى فيها المكاتب لتعليم الصبيان القرآن ، فإن اتفق المسلمون ومن بها من النصارى لم يكن للملك بهم طاقة [7] .

---

(١) انظر الاصطخري المصدر نفسه وتبعاً لحدود العالم (٥٠) كان لدى الملك في بلدة أتل سبعة قضاة رجعوا إلى سبعة أديان ، واستخدم الاصطخري كلمة « حكيم » و « حكام » في حين استخدم المسعودي كلمة « قضاة » .

(٢) سوء فهم ، لعل المقصود بعض الطقوس اللاهوتية مثل التبصر عن طريق الكبدة في روسيا (بلاتونوف الطقوس الروسيه : ٥٢١) .

(٣) إن الكلمات المستخدمة هي : قضايا وأقليه . انظر ابن فضلان (٢٠) حيث قال عن الغز « لا يدينون لله بدين ولا يرجعون إلى عقل » .

(٤) تأكد هذا بالقضية التي ذكرها ابن حوقل ، انظر ما يلي .

(٥) لقد اعتمدت النص بدلاً من الترجمة لطبعة باريس مع بعض التردد متبنيا كلمة « وهم » بدلاً مما جاء بالكتاب « هم » .

(٦) مخطوطة البودليان (الحاشية ١٨٤) حيث زادت « كثير » .

(٧) انظر ما يلي في الاقتباس من المسعودي .

قال المسعودي : وليس إخبارنا عن ملك الخزر نريد به خاقان ، وذلك أن للخزر ملكاً يقال له خاقان ، ورسمه أن يكون في يدي ملك آخر هو وغيره ، فخاقان في جوف قصر لا يعرف الركوب [1] ولا الظهور للخاصة ولا للعامة ، ولا الخروج من مسكنه ، معه حرمه ، لا يأمر ولا ينهى ، ولا يدبر من أمر المملكة شيئاً ، ولا تستقيم مملكة الخزر لملكهم إلاّ بخاقان يكون عنده في دار مملكته ، ومعه في حيزه ، فإذا أجدبت أرض الخزر أو نابت بلدهم نائبة ، أو توجهت عليهم حرب لغيرهم من الأمم ، أو فاجأهم أمر من الأمور ، نفرت الخاصة والعامة إلى ملك الخزر [2] فقالوا له : قد تطيرنا بهذا الخاقان وأيامه ، وقد تشاءمنا به ، فاقتله أو سلمه إلينا نقتله ، فربما سلمه إليهم فقتلوه [3] ، وربما تولى هو قتله ، وربما رقّ له فدافع عنه ، لأن قتله بلا جرم استحقه ولا ذنب أتاه [هذا رسم الخزر في هذا الوقت] ، فلست أدري : أفي قديم الزمان كان ذلك أم حدث ، وإنما منصب خاقان هذا من أهل بيت بأعيانهم ، أرى أن الملك كان فيهم قديماً ، والله أعلم [4] .

---

(١) مرد هذا إما إلى مغالاة أو أنه يشير إلى عادة في العصور المتأخرة . ومهما يكن من أمر فإن الاصطخري مثله مثل رد يوسف يشيران إلى أن الخاقان شارك بالأعمال العسكرية .

(٢) انظر ما يمكن أن يكون مثالاً على هذا فيما سبق عندما وجهت خاتون الخزر نداء للتجمع العام .

(٣) تبعاً لابن فضلان (الفصل الخامس) كان بإمكان الخاقان في بعض المناسبات خلع البك أو قتله .

(٤) تحدث زكي وليدي مطولاً عن الملك المزدوج (ابن فضلان : ٢٩٢ - ٢٩٥ ، و٢٥٧ و ٢٧٢ أيضاً) كمؤسسة قائمة لدى القراخانية والآفار وقارن ذلك لدى الشعوب غير التركية مثل الشوغون إلى جانب الميكادو في يابان العصور الوسطى . ونبه شتتر أيضاً إلى التشابه بين خاقانية الخزر والميكادو (الربعية اليهودية : ٣ / ١٨٩) ويخطر بالبال أيضاً الملك المزدوج في اسبارطة ، وعلل حديثاً ألفولد مسألة الملك المزدوج بنظرية وقادها أنه وجد بين الشعوب البدوية بحكم قيادة جناحي القطيع فهذا أدى إلى شطر القبائل ، وقد لاقت هذه النظرية قبولاً واسعاً . انظر الفصل السادس ، الحاشية ١٢٣ .

وللخزر زوارق[1] يركب فيها الركاب التجار في نهر فوق المدينة يصل إلى نهرها من أعاليها يقال له برطاس، عليه أمم من الترك حاضرة داخلة في جملة ممالك الخزر، وعمائرهم متصلة بين مملكة الخزر والبلغر، ويرد هذا النهر من نحو بلاد البلغر والسفن تختلف فيه من البلغر والخزر.

والروس: أمم كثيرة وأنواع شتى، ومنهم من يقال لهم اللوذعانية[2]، وهم الأكثرون، يختلفون بالتجارة إلى بلاد الأندلس وروميه وقسطنطينية والخزر وقد كان بعد الثلاثمائة [٩١٢ – ٩١٣م] ورد عليهم نحو من خمسمائة مركب، في كل مركب مائة نفس، فدخلوا خليج نيطس[3] المتصل بنهر الخزر[4]، وهنالك رجال ملك الخزر مرتبين بالعدد القوية[5] يصدون من يرد من ذلك البحر، ومن يرد من ذلك الوجه من البر الذي شعبه من نهر الخزر[6] تتصل ببحر

---

(١) زواريق (ج زورق) ولا يمكن أن تعتبر هؤلاء مراكب صغيرة لأن بعض الحنابلة قد نقلوا من بغداد إلى عمان في زورق في سنة ٣٢١ هـ (ابن الأثير ٨ / ٨٦) انظر مايلي.

(٢) كذلك في مخطوطة البودليان، وجاء في طبعة باريس « لوذانه » أي: Lithuanians، وقد قرأها مرقوارت دوما « اللوذغانه » وبحث (٣٤٢ – ٣٥٣) عن إمكانية شرح الكلمة التي ترد ثانية لدى المسعودي (التنبيه: ١٤١) « الكوذكانه » (ويقترح دي لكلمة كوذكانه أن تقارن بفوتلاند) واستهدف مرقوارت ايجاد علاقة بينها وبين الراذانيه (انظر الفصل السادس الحاشية ٦٩) لكن مينورسكي يبدو مصيباً بتعريفه هذه الكلمة الصعبه على أنها تساوي «الأوردمانية» أي أهل الشمال (الموسوعة الإسلامية. مادة روس) وجاء في مخطوطة ليدن رقم ٥٣٧ أ (انظر مرقوارت: ٣٣٠) اللوذانيه وقد اعتمدت هذه القراءة مرة أو مرتين.

(٣) يعني الكيرتشي.

(٤) اقرأها هكذا وليس « بحر الخزر » كما جاء في مخطوطة البودليان وطبعة باريس « نهر الخزر بدلاً من بحر الخزر » واهتم المسعودي (مروج الذهب: ١/٢٧٣) في اظهار أنه لا توجد علاقة بين البحر الأسود (نيطس) وبحر قزوين (بحر الخزر).

(٥) يبدو أن المقصود تمتارخا وليس سوكيل.

(٦) المفرد هو المطلوب يعني دونه « فرع من الماء ».

نيطس ، وذلك أن بوادي الترك الغز ترد إلى ذلك البر وتشتى هنالك ، فربما يجمد هذا الماء المتصل من نهر الخزر إلى خليج نيطس ، فتعبر الغز عليه بخيولها، وهو ماء عظيم ، فلا ينخسف من تحتهم لشدة استحجاره ، فتغير على بلاد الخزر [١] ، وربما يخرج إليهم ملك الخزر إذا عجز من هنالك من رجاله المرتبين عن دفعهم ومنعهم العبور على ذلك الجمد ، وأما في الصيف فلا سبيل للترك إلى العبور .

فلما وردت مراكب الروس إلى رجال الخزر المرتبين على فم الخليج راسلوا ملك الخزر في أن يجتازوا البلاد وينحدروا في نهره فيدخلوا نهر الخزر ويتصلوا ببحر الخزر الذي هو بحر جرجان وطبرستان وغيرهما من بلاد الأعاجم على ما ذكرنا ، ويجعلوا للملك الخزر النصف مما يغنمون ممن هناك من الأمم على ذلك البحر ، فأباحهم ذلك ، فدخلوا الخليج [٢] واتصلوا بمصب النهر فيه [٣] ، وساروا مصعدين في تلك الشعبة من الماء ، حتى وصلوا إلى نهر الخزر ، وانحدروا فيه إلى مدينة اتل [واجتازوا بها وانتهوا إلى فم النهر ومصبه إلى البحر الخزري ، ومن مصب النهر إلى مدينة أتل] وهو نهر عظيم وماء كثير .

فانتشرت مراكب الروس في هذا البحر ، وطرحت سراياها إلى الجيل [٤] والديلم وبلاد طبرستان وآبسكون ، وهي بلاد على ساحل جرجان وبلاد النفاطة ، ونحو بلاد أذربيجان وذلك أن من بلاد أردبيل من بلاد أذربيجان إلى هذا البحر نحو ثلاثة أيام ، فسفكت الروس الدماء ، واستباحت النسوان

---

(١) يبدو أن المسعودي يريد أن يقول أن الحصن الخزري كان معرضاً للهجوم من جانب البر من قبل الغز قبل وصولهم إلى الأراضي الخزرية ، وهذا أمر ممكن لو أن المقصود حصن نهر الدون ، مرقوارت ٣٤١ .

(٢) يقترح مرقوارت : ٣٣٥ أن الروس قد أبحروا نزولاً من الدينبر وحول القرم .

(٣) أي من الدون .

(٤) أو جيلان .

والولدان ، وغنمت الأموال ، وشنت الغارات ، وأخربت ، وأحرقت ، فضج من حول هذا البحر من الأمم ، لأنهم لم يكونوا يعهدون في قديم الزمان عدواً يطرقهم فيه، وإنما تختلف فيه مراكب التجار والصيد [1] ، وكانت لهم حروب كثيرة مع الجيل والديلم [وساحل جرجان وبعض أهل برذعـــه . وأران والبيلقان وأذربيجان [2]] ومع قائد لابن [3] أبي الساج ، فانتهوا إلى ســاحل النفاطة من مملكة شروان المعروفة بباكة ، وكانت الروس تأوي عند رجوعها من غاراتها إلى جزائر تقرب من النفاطة على أميال منهـــا ، وكان ملك شروان يومئذ علي بن الهيثم [4] ، فاستعد النـــاس ، وركبوا في القوارب ، ومراكب التجار ، وساروا نحو تلك الجزائر ، فمالت عليهم الروس ، فقتل من المسلمين وغرق ألوف ، وأقام الروس شهورا كثيرة في هذا البحر على ما وصفنا لا سبيل لأحد ممن جاور هذا البحر من الأمم إليهم ، والناس متأهبون لهم ، حذرون منهم لأنه بحر غامر لمن حوله من الأمم .

فلما غنموا وسئموا ما هم فيه ساروا إلى فم نهر الخزر ومصبــــه ، فراسلوا ملك الخزر وحملوا إليه الأموال والغنائم [على مـــا اشترط عليهم] ، وملك الخزر لا مراكب له ، وليس لرجاله بها عادة [5] ، ولو لا ذلك لكان على المسلمين منهم افة عظيمة ، وعلم بشأنهم الإرسية ومن في البـــلاد الخزر من المسلمين ،

---

(١) كانت هنالك حملة روسية سابقة إلى بحر قزوين .

(٢) جاءت قراءة هذه الكلمات في طبعة القاهرة لسنة ١٣٠٣ هـ على هامش ابن الأثير .

(٣) أبو القاسم يوسف بن أبي الساج توفي ٣١٥ / ٩٢٨ (زمباور ١٧٩) .

(٤) قتل فيما بعد في حروب ضد الخزر (مينورسكي ، حدود العالم : ٤٠٦ نقلاً عـــن أحمد بن لطف الله ، منجم باشي ، صحائف الأخبار: ٣ / ١٧٤ ، ترجمة تركية مختصرة (استانبول ١٢٨٥ / ١٨٦٨) واستخدم مصنف كتاب « جامع الدول » وهو مصنف متأخر (توفي سنة ١١١٣ / ١٧٠٢) كتاب تاريخ باب الأبواب الذي يعود إلى القرن العاشر أو الحـــادي عشر .

(٥) يعني هذا عدم وجود اسطول في بلاد الخزر ، انظر الفصل الثامن .

فقالوا لملك الخزر: خلنا وهؤلاء القوم فقد أغاروا على بلاد إخواننـــا المسلمين ، وسفكوا الدماء ، وسبوا النساء والذراري ، فلم يمكن الملك منعهم ، وبعث إلى الروس فأعلمهم بما قد عزم عليــه المسلمون من حربهم ، وعسكروا ، وخرجوا يطلبونهم منحدرين مع الماء [1] ، فلما وقعت العين على العين خرجت الروس عن مراكبها ، وصافوا المسلمين ، وكان مع المسلمين خلق من النصارى من المقيمين بمدينة أتل ، وكان المسلمون في نحو خمسة عشر ألفاً بالخيل والعدد ، فأقـــام الحرب بينهم ثلاثـــة أيام ، ونصر الله المسلمين عليهم ، وأخذهم السيف : فمن قتيل ، وغريق ، ونجا منهم نحو خمسة آلاف ، وركبوا في المراكب إلى ذلك الجانب مما يلي بلاد برطـــاس ، وتركوا مراكبهم وتعلقوا بالبر ، فمنهم من قتله أهل برطاس ومنهم من وقع إلى بـلاد البلغر إلى المسلمين فقتلوهم ، وكان من وقع عليه الإحصاء ممن قتله المسلمون على شاطىء نهر الخزر نحواً من ثـلاثين ألفاً [2] ، ولم يكن الروس من تلك السنة عودة إلى ما ذكرنا [3] .

ويلي بلاد الخزر . واللان فيما بينهم وبين المغرب أمم أربع : ترك ترجع إلى أب واحد في بدء أنسابهم ، حضر وبدو ، وذو منعة وبأس شديد ، لكل أمة منها ملك ، مسافة مملكته أيام ، متصله ممالكهم بعضها ببحر نيطس ،وتتصل غاراتهم بمدينة رومية ، وما يلي بلاد الأندلس ، مستظهرة على سائر ما هنالك من الأمم ، وبينهم وبين ملك الخزر مهادنة ، وكذلك مع صـــاحب اللان ، وديارهم تتصل ببلاد الخزر ، فالجيل الأول منهم يقال له بجني ، ثم تليها أمـــة ثانية يقال لها [4] بجغرد [بشكلي] ثم تليها أمة يقال لهـــا بجناك [بشناق]

---

(١) يعني على البر .

(٢) بالنسبة للرقم الأصيل للروس (٥٠ ألف) اعتبر هنا ٣٠ ألفاً .

(٣) لا يعرف المسعودي شيئاً عن الحملات الروسية المتأخرة لعامي ٩٤٣ و ٩٦٥ ، انظر من أجلهم الفصل التاسع .

(٤) من المفترض أن المقصود هنا المجر ، انظر الحاشية ١٧٠ .

وهي أشد هذه الأمم الأربعة بأساً ، ثم تليها أمة ثانية يقال لهـا نوكرده [1] وملوكهم بدو .

وكان لهم حروب مع الروم بعد العشرين والثلاثمائة [2] ، أو فيها ، وقد كان للروم في تخوم أرضهم فيما يلي من ذكرنا من هذه الأجناس الأربعة مدينة عظيمة يونانية يقال لها ولندر [3] ، فيها خلق من الناس ومنعه بين الجبال والبحر ، فكل من فيها مانع لمن ذكرنا من الامم ، ولم يكن لهؤلاء الترك سبيل إلى أرض الروم لمنع الجبال والبحر إياهم ، ومن في هذه المدينة .

وكان بين هؤلاء الأجناس حروب لخلاف وقع بينهم على رأس رجل مسلم تاجر من أرض أردبيل : كان نازلاً على أرض بعضهم ، فاستضافه ناس من الجبل الاخر ، فاختلفت الكلمة [4] ، وأغـــار من في ولندر من الروم على ديارهم وهم عنها خلوف ، فسبوا كثيراً مـن الذرية ، وساقوا كثيراً من الاموال ، ونمي ذلك إليهم وهم مشاغيل في حربهم ، فاجتمعت كلمتهم ، وتواهبوا ما كان بينهم من الدماء ، وعمد القوم جميعاً نحو مدينة ولندر ، فساروا إليها في نحو ستين ألف فارس ، وذلك على غير احتفال منهم ولا تجمع ، ولو كان ذلك لكانوا في نحو مائة ألف فارس ، فلما نمي خبرهم إلى أرمنوس ملك الروم في هذا الوقت – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة – سير إليهم اثني عشر ألف فارس من المتنصرة على الخيول بالرماح في زي العرب ، وأضاف إليهم خمسين ألفاً من الروم ، فوصلوا

---

(١) ربما بالنسبة للومبارديين ، انظر « أنقيرده » (ابن عبد البر ، كتاب القصد والأمم ، ط القاهرة ١٣٥٠ : ٢٨) « النكبر دينيه » (ابن رسته : ١٢٨) لكن مرقوارت يسأل ماذا كان يعمل اللومباديون مع البشناق والمجر .

(٢) يعطي ابن الأثير الذي تابع المسعودي سنة ٣٢٢ / ٩٣٤ ، تبعاً جرجيوس موناخوس اجتاح المجر في سنة ٩٣٤ تراقيا ووصلوا حتى مدينة القسطنطينية (نقلاً عن مرقوارت : ٦٤) .

(٣) انظر ما يلي .

(٤) ان وجود تجار من الأراضي الإسلامية في شرقي أوربا ووسطها أمر مؤكد ، انظر ما يلي (ابن حوقل) والفصل الثامن .

إلى مدينة ولندر ، في ثمانية أيام ، وعسكروا وراءها ، ونازلوا القوم ، وقد كانت الترك قتلت من أهل ولندر خلقاً (كثيراً) من الناس ، وامتنع أهلها بسورهم إلى أن أتاهم هذا المدد ، ولما صح عند الملوك الاربعة من سار إليهم من المتنصرة والروم بعثوا إلى بلادهم فجمعوا من كان قبلهم من تجار المسلمين ممن يطرأ إلى بلادهم من نحو بلاد الخزر والباب واللان وغيرهم ، وفي هؤلاء الأجناس الاربعة من قد أسلم ، وهم غير مخالطين لهم إلا عند حروب الكفار ، فلما تصاف القوم وبرزت المتنصرة امام الروم خرج إليهم من كان قبل الترك من التجار (المسلمين) فدعوهم إلى ملة الإسلام ، وأنهم إن دخلوا في أمان الترك أخرجوهم من بلادهم إلى أرض الإسلام ، فأبوا ذلك ، وتواقف الفريقان في ذلك الوقت » . ثم تحدث المسعودي عن نجاح الترك واستيلائهم على ولندر وظهورهم في أطراف القسطنطينية قبل توغلهم وتوزعهم بحثا عن الغنائم .

ولقد سبق لنا أن تناولنا بالبحث بشكل واف في الفصول الاخرى محتويات الجزءين الاول والثاني من نص المسعودي ، وعلينا أن نقول شيئاً ما حول الجزء الثالث ، ويتعلق هذا الجزء بشكل رئيسي بالهجوم على بلاده ولندر في حوالي سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م من قبل أربع قبائل تركية ، ويقول المسعودي في كتابه (التنبيه) [١] تقع بلدة ولندر على الطرف الشرقي لحدود الامبراطورية البيزنطية ، وقد أعطت اسمها إلى القبائل التركية التي كانت تعيش في أحوازها وهم الذين كانوا يعرفون باسم الولندرية ، وأحصى بينها القبائل التركية الاربع كما جاء في نصه المنتزع من كتابه مروج الذهب .

ويبدو أن علينا أن نتصور أنه بعدما استولت هذه القبائل على ولندر - حسبما جاءت الرواية في نهاية النص المنقول - أصبحت تعرف بالولندريه ، وواضح تماماً من نصّي (المروج والتنبيه) أن المسعودي كان يفكر برجال

---

(١) طبعة دي غويه : ١٨٠ .

القبائل الترك وهم يعملون على الجانب الاوربي من البوسفور وفي داخل وسط أوربا ، لكن بينها هنالك أرضية لربطها بـ « وندر – وبنر – ونتر » [1] W-n-nd-r. w-b-nd-r. w-n-nt-r في منطقة القوقاز ، يبدو من غير الممكن أن العمليات الحربية التي وصفها المسعودي قد وقعت هناك [2] ، واقترح غريغوري أن ولندر هي أدرنه [3] (استولى عليها البلغار في سنة ٩٢٣) ذلك أنها توائم التفاصيل القائلة أن البيزنطيين قد زحفوا مدة ثمانية أيام (من القسطنطينية ؟) لمواجهة الترك ، وتتوافق مع حقيقة أن أعداداً كبيرة قد قيل إنها قد شاركت بالقتال ، وهناك على كل حال إجماع على أن النص متشابك ومضطرب .

ويمكن أن نضيف ملاحظة أخرى: فقد ورد في مكان آخر أن بعض الحرس الإمبراطوري من القسطنطينية قد سقط في أيدي سيمون البلغاري ، قبيل فترة وجيزة من حملة الماغيار ضده ، وهي الحملة التي تحدثنا عنها ، وكان بين رجالات الحرس بعض الخزر فقد جرت العادة على استخدامهم منذ وقت مبكر [4] ، وقد قيل أعاد سيمون بعضهم إلى العاصمة البيزنطية بعدما جدعت أنوفهم [5] ، ويبدو توضيحاً لهذا العمل الوحشي أنه رأى ، أو بالحري رأى بعض ضباطه ، أن ورود الخزر في خدمة البيزنطيين عملا خيانياً ، ويمكن أن يكون هذا هو واقع الحال لو صح أن سيمون كان معه بالفعل قوات خزرية تقاتل ضمن جيشه ، وذلك حسبما يستشف من رواية المسعودي .

---

(١) انظر الفصل الثالث .

(٢) يحمل زكي وليدي (Volkerschaften , 48) المدينة الاغريقية الكبيرة ولندر حصناً في الأبخاز .

(٣) انظر ص ٢٤٢.

(٤) انظر ما يلي ٢٣٩ .

(٥) انظر مرقوارت : ٥٢١ .

وكما سلف بنا القول [1] يتبع ابن حوقل في رواية الاصطخري عن قرب إلى حد التشابه الحرفي ، لكن من المفيد أن نذكر أن ابن حوقل قد أقحم القصة التالية بعدما أورد رواية الاصطخري عن حكام (قضاة) الخزر [2] ، فقد قال :

وربما جرى في أحكامه أشياء كالخرافة ، ومنها ما حكاه المعتضد وقد ذكر بين يديه فازدراه ذاكره فقال المعتضد : كلا انه لمروي عن النبي ﷺ أنه قال : إن الله جل اسمه لم يول رجلاً قوماً إلا وأيده بضرب من التسديد وان كان كافراً. ومن ظريف ذلك ان رجلاً من أهل خزران [3] كان له ولد قد تصرف في التجارة ومهر في الأخذ والعطاء ، فأخرجه الى بلغار الداخل ولم يزل يجهز عليه التجارة وتبنى بعد اخراج ابنه عنه عبداً كان له ، فخرجه وبصره فحسنت بصيرته فيما ندبه له من التجارة حتى دعاه بالبنوة لقربه من طاعته وقلبه ، وطالت غيبة الابن ومقام الغلام في خدمة الأب الى ان هلك الرجل وأقبل الابن على الجهاز ولم يعلم بموت أبيه ، والغلام يحصل ما يرد عليه ولا يجهز عوضاً مما يرد اليه وكاتب الابن الغلام لينفذ اليه الجهاز على رسمه ، فرد عليه الأمر بالقدوم عليه ليحاسبه عما بيده ويقبض منه ما لأبيه عنده ، فورد على الابن ما أسرع به الى مستقر أبيه من خزران وتنازعا الخصومة في ذلك والحجاج بالبينات ،فكان اذا قام لأحدهما ما قد ظنه كافياً من الحجة جاء الآخر من الشبهة بما وقف حاله واكثر أحكامهم مبني على مثل ذلك .

وطال بهما التنازع حولاً كاملاً ، وإذ طالت الخصومة وصارت الأمر في

---

(١) انظر الفصل الخامس .

(٢) ابن حوقل ، ط . دي غوية : ٢٧٩ ... ابن حوقل ط . كريمر : ٣٩١ .

(٣) المقصود الجزء الغربي من المدينة المزدوجة ، انظر ما يلي .

التشاجر والمنازعة الى حال الوقوف الى الملك الحكم بين الخصمين ، فحاس لهم وأحضر جميع الحكام [1] وأهل البلد وأعادا دعواهما منذ ابتداء الخصومة ، فلم ير الملك لأحدهما على الآخر سبيلاً لتكافؤ البينـات عنده فقال الملك للابن : أتعرف قبر ابيك على الحقيقة ؟ فقال : عرفته ولم أشهد دفنه فألحقـه . فقال للغلام المدعي : انت تعرف قبر ابيك ؟ فقال : نعم أنا توليت دفنـه . فقال عليَّ منه برمة ان وجدتموها ، فأتى الغلام القبر فانتزع منه بعض عظامه التاليـة وجيء بها اليه فقال للغلام المدعي بنوة التاجر : افصد نفسك ، ففصد ثم أمـر فألقى دمه على العظم فتسرب الدم عنه ولم يعلق بشيء منه ، وفصد الابن وطـرح دمه على ذلك العظم فنشفه وعلق به ، فأدب الغـلام بعزرة ودفعه وماله الى الابن » [2] .

ومن الواضح أنه لدينا هنا نظام بدائي حداً من الأفكار ، وكما هو الحال في حالات مشابهة ، إذا كان هذا الوصف لا يمت بالواقع الى مرحـلة التطور الثقافي التي وصل اليها الخـزر حتى عصر المعتضد (٢٧٩ – ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ – ٩٠٢ م) فإنه من الجلي يمثل ما اعتقده جيرانهم عنهم ، وعلى افتراض أن القصة لها أساس من الصدق ، فإنها تقوي الانطباع بالتفوق الذي شعر به العرب كأمة مثقفة أعلى بكثير من الخزر وتـوغه ، زد على هذا فإنها تزودنا بما يفيد أن دولة الخزر كانت بعيدة عن كونها دولة أديرت حسب القواعد التي أرساها الحاخامات ، حيث لا شك أنه لا يمكن أن ينسب الى الحاخامات حكم كالذي عزي هنـا الى الملك .

وفي جميع الأحوال إن صحة بعض التفاصيل الواردة هنا موضع شك كبير ، ولا بد أن المعتضد – اذا صحت نسبة القصة اليه – قد سمعها عن طريق راوية

---

(١) الذين من المفترض سمعوا المقدمات .

(٢) الفكرة الأساسية في القصة هي أن الابن غير الحقيقي هو الذي لديه الإستعداد لكشف قبر أبيه .

من المرتبة الثانية ، هذا وتتعارض فكرة مشاركة الملك المباشرة في إدارة الأحكام – مهما كان الأمر طبيعياً – مع ما ذكره الاصطخري ، وضمنه ابن حوقل في روايته .

هذا ونجد في المقابل أن وجود القضاة أثناء تطور الخلاف لربما قد أقحم ولهذا قيل انهم وجدوا مع أهل المدينة أثناء البت بالقضية ، كما أنه لا يوجد ما لا يؤكد ما قاله المسعودي: جرت استشارة القضاة المسلمين في القضايا الصعبة وإن الفصل فيها جرى حسب الشريعة الإسلامية [1] ، ومن الممكن القول ان الملك (البك ؟) تولى في بعض الحالات الاستثنائية البت بالقضايا ، وقد عاش أصحاب الفعاليات الرئيسة في خزران ، يعني في الجزء الأرستقراطي الواقع على الضفة للمدينة المزدوجة [2] ، ولا يمكننا أن نستخلص أنهم كانوا يهوداً ، لانه تبعاً للاصطخري لم يعش جميع المسلمين على الضفة الشرقية بل معظمهم فعل ذلك ، كما أنه في حكاية الابن الذي أرسل الى داخل بلغاريا ، ربما كان المقصود بذلك بلغاريا الحالية [3] ، فلقد رأينا من خلال ما رواه المسعودي وجود تجار مسلمين على الحدود الشمالية للامبراطورية البيزنطية .

ووجدت رواية ابن حوقل صدى لها في كتاب « تحفة الألباب » لأبي حامد الأندلسي [4] ، فقد تحدث في هذا الكتاب عن عيش ابنه الأكبر في بشغرد (بجغرد) وقال : انه هو نفسه كان هناك سنة ٥٧٥ هـ / ١١٥٠ [5] م ، ووصف

---

(١) اقتبس من قبل .

(٢) من الممكن أن اسم خزران ، مقر الملك ، الذي أطلق أحياناً على عاصمة الخزر كلها ، انظر الفصل الخامس الحاشيه ١٦ ، هذا وترد كلمة خزران من جهة ثانية بصيغة الجمع الفارسية باستخدام (آن) للدلالة على الشعب (الفصل الأول الحاشية ٦١) يعني مساوية لكلمة الخزر .

(٣) مرقوارت : ٥١٧ .

(٤) تحقيق فرناند ، المجلة الآسيوية ١٩٢٥ .

(٥) فرناند : ١٩٤ – ١٩٥ .

كتاب أبي حامد على أنه رواية رحلة معدلة [١] ، ومن الصعب – على كل حال – أن نوائم بين هذا الوصف وبعض المحتويات مثـل قوله يوجد في بشغرد ثمان وسبعون مدينة كل منها عظيم ومزدهر مثل بغداد وأصفهان [٢] ، والمبالغة هنا شديدة جداً حتى ولو أن بشغرد هنا هي هنغاريا كما اقترح فراند ، وادعى أبو حامد في التحفة أنه سافر بشكل مكثف في البلاد الواقعـة الى الشمال من دار الخلافة ، « واجتاز من سخين (سقين) الى بلاد الخزر والترك ثم الى بـــلاد خوارزم شاه [٣] ثلاث مرات [٤] » وكان قرب رومـا [٥] ، لذلك أعطى وصفاً لها ، لكن يبدو أن أبا حـامد لم يتجاوز في رحلته أبعد من سورية والعراق ، وهذا في حد ذاته فيه الكفاية لبعده عن مسقط رأسه في غرناطة .

ومن المؤكد أن كتاب « تحفة الألباب » يعطي الانطباع أنه يتـــألـف من مجموعة غير منسقة من المعلومات والروايات المثيرة جمعت من مصادر مبكرة ، أو اخترعت اختراعاً ، وعن وجود ابنه في بشغرد ، سواء قصد بذلك هنغاريا أو بلاد البشكير في روسيا [٦] ، أو منطقة أخرى ، لربما تشبه رحلته في كونها قصة مخترعة [٧] ، ومهما يكن من أمر ان فرضية مرقوارت الذاهبة الى أن رد يوسف قد اعتمد على ما جاء في تحفة الألباب ، فرضيـة لا يمكن قبولها [٨] ،

---

(١) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، الذيل : ١ / ٨٧٨ .

(٢) فرناند : ١٩٥ .

(٣) أو بالحري هذا اسم مكان هنا . انظر الفصل التاسع ، الحاشية ٥٩ .

(٤) فرناند ٨٧ .

(٥) المصدر نفسه : ١٩٥ .

(٦) بروكلمان ، المصدر نفسه .

(٧) هنالك حاجة للبحث في جميع الكتب التي تحمل اسمه حتى تصبح أوضـــاع أبي حامد واضحة تماماً ، وقد وعد بالقيام بهذا العمل الاستاذ غارسيا غومز من مدريد .

(٨) مرقوارت : ١٠ .

فهذا الكتـــاب قد كتب في سنة [١] ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م ولذا من البديهي أنه ليس مصدر الرد ، الذي كان معروفاً ـ كما رأينـــا ـ في السنوات الأولى من القرن الثاني عشر ، وذلك على أقل تقدير .

وقد أشرنا الى الخزر الذين كانوا في خدمة الإمبراطورية البيزنطيـــة الذين شوههم سيمون البلغاري ، والحديث عن وجود حرس خزري في العاصمـــة البيزنطية قديم يرقى على الأقل الى أيام ابن رسته ، فقد جرى عرضهم هنـــا وهم متمركزون عند واحد من أبواب القصر الإمبراطوري ، وهـــم يحملون قسياً في أيديهم [٢] ، وأشار ـ في فترة تالية ـ الامبراطور قسطنطين مراراً الى الحرس الخزري ، فقد شكلوا مع رجال فرغانه وحدة صغيرة [٣] مختـــارة كان كل واحد من رجالها يدفع مبلغاً معتبراً لحق التجنيد فيها [٤] ، وانه لأمـــر مثير اجتماع الخزر ورجال فرغانة ، لأننا نواجهـــه في سامراء [٥] ، ويخبرنا قسطنطين أن رجال الحرس الخزري كانوا يدعون مع رفاقهم من فرغـــانه ومن أماكن أخرى إلى عيد [٦] الختانة ، وكان للبلغار مكان السبق في هـــذا العيد وعيد الفصح [٧] على الخزر [٨] ، هذا ومن المستبعد كثيراً أن يكون الخـــزر قد مارسوا اليهودية وهم في خدمة الإمبراطور .

---

(١) بروكلمان المصدر السابق .

(٢) ابن رسته : ١٢٠ .

(٣) De caer . Aul . Byz , ed Bonn , 693

(٤) بري (الامبراطورية الرومانية المبكرة ٢٢٨ ، الحاشية ٥) وقد توصل إلى أن الخزري من الحرس قد دفع مبلغ ٣٠٢٠٨٠ دينار للقبول .

(٥) راجع الفصل الثامن الحاشيه ٦٧ .

(٦) المصدر نفسه : ٧٤٩ .

(٧) المصدر نفسه : ٧٧٢ .

(٨) يقدم ابن رسته (١٢٤) وصفاً غريباً للعرض للرسمي للامبراطور أثناء ذهابـــه إلى كنيسة آيا صوفيا حيث تبعا له صحبه ألف غلام من الترك والخزر يرتدون الدروع المذهبة ويحملون المذهبة والترسة . انظر مرقوارت : ٢١٩ .

ويمكن أن نختتم هذا الفصل بالحديث عن بعض خصوصيات علاقات الخزر برئاسات اليهود في العراق (أو بابل) كما يدعوها كتاب اليهود ، فقد جاء في رد يوسف قوله « حتى آخر العلامات ـ أي حتى ظهـور المسيح المنتظر ـ سيظل الخزر « ينظرون إلى مولانا الرب وإلى حكماء بني اسرائيل في معـاهد القدس وبابل » [1]، بيد أنه على الرغم من ذلك ، من الصعب علينا أن نظهر أن مملكة الخزر قد دخلت في نطاق سلطان رأس الجالوت ، وقد وجـــد الرحالة بنيامين الطليطلي (حوالي ١١٧٠ م) بعض الخزر في كل من القسطنطينية والإسكندرية [2]، لكن ليس لديه ما يقوله عن مملكة الخزر ككل ، وهو دليل على أن المملكة لم تكن باقية بالوجود آنذاك وذلك حسب رأي أدلر [3] ، وكان من أسباب رحلته إيجاد مأوى لليهود ، وعندما تحدث عن « جميع أراضي الترك (توغرميم) مع اللان وجرجان كرعية تدار من قبـل رأس الجالوت » من الصعب القول إن في هذا إشارة إلى يهود الخزر أيضاً .

ومن جانب آخر يروى أن الحاخام بتحيا [4] (حوالي ١١٨٥) قد رأى في بغداد رسلاً أرسلوا من قبل شعب من شعوب الشمال كان يعرف باسم « مشيس » أو « مغوغ » كان قد تحول إلى اليهودية ، وكانت له اتصالات مع رأس الجالوت، وقد رحب هذا الشعب بفقراء العلماء ليتولوا تعليم أولادهم التوراة والتلمود [5]،

---

(١) كوكوفتسوف (المدخل) حيث لاحظ أن الأكاديمية في سورا استمرت تعمل حتى حوالي سنة ٩٤٣ – ٩٥٠ ، وبناء عليه هنالك أكاديمية بابلية واحدة فقط معروضـــة في رد يوسف (النص القصير) .

(٢) انظر الفصل الثامن ، الحاشية ٦٤ .

(٣) بنيامين الطليطلي ، تحقيق أدلر ، المقدمة : ١٢ .

(٤) تحقيق بنيش ، لندن ١٨٥٦ : ٤٦ ...

(٥) ورد ذكر العلماء الذاهبين إلى مصر بشكل خاص .

ومع أن المقصود هنا لم يكن الخزر أبداً ، لكن كلا من « مشيس [1] ومغوغ » كانت لها علاقاتها مع الخزر ، وقد ذكر الحاخام بتحيا مملكة الخزر بشكل متميز ، لكنه لم يتحدث عنها أكثر من قوله : إنه اجتاز بلادها خلال ثمانية أيام ، وسمع عويل النساء ونباح الكلاب ، هذا وهنالك دليل في المصادر العبرية يبرهن على أن الخزر كانوا معروفين بالعراق ، ومن المؤكد أن سعديه غون (٨٩٢ - ٩٤٢) كان على بينة بوجودهم وقد ذكرهم أكثر من مرة [2] ، وقد أوضح أن عبارة « حيرام ملك صور » ليست اسماً شخصياً بل لقباً « مثل الخليفة بالنسبة لحاكم العرب ، وخاقان بالنسبة لملك الخزر [3] » ، وأشار سعديه أثناء وضعه لبعض التعليقات على نصوص توراتيه [4] ، إلى عادات ذكروها له عن ملوك الخزر ، من ذلك أنه عندما يقدم رجل ما على تنفيذ أمر صدر إليه لا يخبر الملك بذلك حتى يصدر إليه أمراً جديداً ، وأتى بتحيا ثانية في بعض ردوده على ذكر رجل اسمه اسحق بن ابراهيم ، ويبدو أنه كان قد ذهب من العراق إلى مملكة الخزر واستقر هناك ، وفي نص لدى يافث بن علي البصري (كان موجوداً في ٩٥٠ - ٩٨٠) وكان من القرائين ترجمت كلمة « ممزير » إلى « مدعي » والمدهش أنها أوضحت بتطبيقها على الخزر « الذين أصبحوا يهوداً [5] » ونجد لدى آخر من القرائين اسمه يعقوب بن روبن (قرن حادي عشر) إشارة إلى تحول الخزر إلى اليهودية وأنهم يشكلون « أمة واحدة » لم تحمل نير

(١) بالنسبة إلى مشيخ = سقين انظر الفصل التاسع . ويتحدث بتحيا أيضاً عن بلاد قيدار شرقي الدينبر ، ولعل الذي حدث في الحالتين استخدام تعسفي للأسماء التوراتية مثلا سفارد = اسبانيا .

(٢) انظر هاركفي مجلد ذكرى كهوت : ٢٤٤ ...

(٣) ذكر هاركفي أنه رأى ذكر الخاقان الخزر لدى البيروني (كتابه السابق : ٢٤٥) إنني لا أعرف النص الذي أشار إليه .

(٤) الخروج : ١٩ / ٩ .

(٥) أيام السبي ، هذا ما أضافه المصنف قاصداً أن ذلك وقع منذ زمن طويل .

الشتات ، بل فيها محاربون كثر لا يدفعون الجزيـة إلى أي من الأمم [1] » ، زد على هذا أن و . بشير [2] يعتقد أنه قد وقف على إشارة إلى تحول ملك الخزرفي الكتاب المدراشي تانا دي – بي – ايليا Tanna d'Be Elyah (ايليارباه Eliyah Rabbah) وهو كتاب يعود في تاريخه إلى حوالي سنة [3] ٩٧٤ م .

إن ما تقدمه النصوص العبرية قليل ، وما من واحـــد من هذه النصوص يخبرنا بالشكل القاطع أن الخزر قد أصبحوا تحت إشراف المنظمـــة اليهودية المركزية ،وقد عرضوا وكأنهم بعيدون جداً عن مراكز اليهودية ، قليـــل هو المعروف عنهم ، بحيث لم يتعد ذلك ملاحظة عابرة أو رأيـــاً منقولاً ، ومن الصعب القول إن البعد وحــده هو الذي يتحكم بموقف السلطات اليهودية كما تعكسه الأدبيات المتوفرة لنا ، لقد كمن الإهمال اليهودي الرسمي للخزر – في جزء منه على الأقل – في عدم تمسكهم ؟ الكامل باليهودية وتطبيقهم لتعاليمها .

---

(١) أخذت هذين المصدرين من مقال هاركفي نفسه .

(٢) دورية الدراسات اليهودية ٢٠ (١٨٨٩) : ١٤٤ – ١٤٦ .

(٣) من المدهش أن دروثمار الكاتب اللاتيني المبكر المتخصص باليهودية لدى الخـــزر (الفصل السادس الحاشية ١٠) سبق هذه المصادر جميعاً بسنين عديدة .

الفصل الثامن

أسباب اضمحلال شأن الخزر

من الواضح أن الخزر كانوا في يوم من الأيام أكثر قوة من جميع جيرانهم باستثناء الامبراطورية البيزنطية والخلافة العربية ، ومع ذلـــك يلاحظ أن المجموعات القومية من بلغار وسكان جورجيا التي عانت كثيراً ممـا أنزله بها الخزر ، والتي ألحقها الخزر بشكل فعلي بإمبراطوريتهم ، ما تزال موجودة، في حين أن الخزر أنفسهم قد زالوا من الوجود منذ زمن طويل ، أو أنه في أحسن الاحوال ما تزال بقاياهم ممثلة في بعض طوائف القرم والقوقاز وربما في أماكن أخرى [1] ، هذا وإن القيام برصد أسباب اضمحلال شأن شعب من الشعوب هو عمل مفيد بشكل دائم ، وبالنسبة لموضوع الخزر فإن سياق دراستنا الكامل يسوغ إيلاء الموضوع عناية خاصة ، لكن هـل تشير المصادر التي تحدثت عن دولتهم في فترة ازدهارها إلى أي من أسباب الضعف الموروثة ؟

لقد جرت عادة الذين أقدموا على دراسة تاريخ الخزر على الالحاح على أنه في

---

(١) ورد ذكر طائفة من الخزر في تشوفوت ـ قلا قرب بخشي – سراي في القرم في القرن الماضي من قبل مونك (المجلة الآسيوية ٥–٦ (١٨٦٥) ٥٤٤) ويرى زاجا تشكوسكي أن الكريات هم الممثلون المعاصرون للخزر وقد سبقت الاشـــارة إلى ذلك ، ويتحدث عن الكرشياس في العادة كجماعة قوقازية لها علاقة صميمة بالخزر (مثالاً عل ذلك أن زاجـــا تشكوسكي في الثقافة : ٦ ينقل عن ساموي لوفتش صاحب بحث« مسألة خلفاء الخزروثقافتهم بالروسية لنينغراد ١٩٢٤) وبالنسبة ليهود الجبال في القوقاز انظر مرقوارت : ٢٨٥ ، ويصف جورج سافا (وادي شعب منسي ، فيبروفيبر ١٩٤١) زيارة إلى اليهود والجبلين ولكن لايمكن الاعتماد عل التفاصيل .

الوقت الذي كانت فيه اليهودية هي ديانة الطبقة الحاكمة، وأنه كان بالامكان دعوة دولة الخزر وهي في ذروة قوتها وتطورها في القرنين التاسع والعاشر، دولة يهودية ، في هـــذا الوقت بالذات كانت هنالك ديانات أخرى تمارس بشكل واسع، ولا بد أن المسلمين الذين كانوا يشكلون قسماً هاماً من الجيش، قد مارسوا نفوذاً سياسياً كبيراً على شؤون الدولة، وسلفت الاشارة إلى السمة المزيجة في هذا المجال على أنها سمة ممدوحة ترتبط بحكامها اليهود الذين سمحوا بالحرية الدينية للجميع ، ويمكننا أن ندرك بسرعة أن درجة الحضارة التي وصل إليها الخزر يمكن المبالغة بها بكل سهولة [١] ، ومن الجلي أن فكرة الحرية الدينية لم تكن بالاصل من صنيعهم ، أو أنه كان بإمكانهم فعل ذلك ، كل مـا في الامر أنها كانت حرية قائمة بالفعل بالنسبة لجميع العقائد، وكانت أشد اتساعاً مما توفر لدى الدول المسيحية ، لا بل حتى مما كان لدى المسلمين - وهي حـــالة تشبه ما ساد في البلاد التي حكمها المغول فيما بعد - ويمكننا هنـا أن نتساءل أو لم يكن انعدام مثل هذه الوحدة الدينية مصدراً خطيراً من مصادر الضعف؟ هذا ويبدو من السخافة أن نفترض أن تهود الخزر قـد قاد بحد ذاته إلى اضمحلال مشاعر الخزر القومية [٢] ، لكن مع ذلك ان الرأي القائل إن السمة العالمية التي حملتها دولة الخزر في ظل القيادة اليهودية قد هددت وجودها وبرهنت في النهاية على أنها مأساوية هو رأي فيه الكثير من الصحة .

ويبدو من الناحية التاريخية أن الوضع بين الخزر قد جاء محصلة أسباب لم يكن لتهودهم - الذي لم يكن بأي حال من الاحوال متطوراً - أية علاقة بها،

---

(١) يقول هـ . روزنتال في الموسوعة اليهودية : « لقد تمتع اليهود الخزر بجميع حقوق الأمم المتحضرة بما في ذلك القانون والحكومة المعتدلة مع تجارة مزدهرة وجيش نظامي وذلك في وقت تحكمت به العصبية والجهل والفوضى في غربي أوربا ، ويمكن لمملكة الخزر أن تفخـــر بادارتها العادلة المتعقلة (مادة خزر) وحتى مونك قد تحدث عن الحرية والادارة الجيدة لدى الخزر.

(٢) مرقوارت : ٧ ، فصل ٥ .

وقد سبقت الاشارة إلى أوجه المقارنة مع دول المغول وممتلكاتها ، وأما فيما يتعلق بمختلف المجموعات ذات الولاءات الدينية المتباينة وتطورها الطبيعي وصيرورتها قوى سياسية ، فاننا نلاحظ أن هذه المجموعات قد دخلت تحت السيادة الخزرية منذ وقت مبكر .

وأما بالنسبة لوجود المسلمين والمسيحيين في دولة الخزر في أعداد كبيرة ، فلم يكن لتهود الخزر أية علاقة به ، كما لا يمكن القول أن هذا كان مع الأيام مميتاً ، ولم يكن سقوط دولة الخزر – كما سنرى – نتيجة لهزيمة ألحقت بها من قبل بيزنطة أو الخلافة ، ثم إنه ليس موضع بحث ، مسألة تحول مجموعات كبيرة من الخزر إلى جانب إحدى القوى المعدوة غير اليهودية ، هذا ويتوجب علينا أن نأخذ مسألة الخلافات الدينية بين شعوب الخزر بعين الاعتبار ، مع الخلافات العرقية .

ولا شك أن هذه الأمور مجتمعة قد أعطت أساساً شديد التناقضات للإمبراطورية الخزرية ، فقد كان هنالك بداة السهوب ، والسكان المدنيون للعاصمة ومدن أخرى (كل منهم يحمل سماته الخاصة) والفلاحون والصيادون من المقاطعات الغربية ، والأتراك واليهود والعرب وذلك بالإضافة إلى جماعات من الصقالبة والفلنديين أو من شعوب قريبة ، هؤلاء جميعاً كانوا ممثلين في دولة الخزر ، وعلينا أن نتصور هذا الحشد من الشعوب والعقائد وقد ترأست عليه أرستقراطية ، يمكننا أن ندعوها باسم « الخزر البيض [1] » الذين تألفوا من عدد صغير نسبياً من الأتراك الذين تحولوا جزئياً إلى اليهودية .

ويبدو أن هؤلاء هم الذين أمسكوا وجمعوا بين مختلف البلدان والمقاطعات ، التي فيما عدا ذلك قد بقيت تحت سلطة حكام محليين ، وعندما نتفحص هذه الصورة عن قرب نراها لا تشبه ما نجده في امبراطوريات أخرى ولا شك أن التباينات بين الشعوب في الأراضي التي سيطرت عليها دولة الخزر كانت عظيمة ،

---

(١) جرى النقل عن الاصطخري في الفصل الخامس .

من الصعب أن نجد لها شبيهاً في أي من الدول التي عاصرتهـا ، أو نشهد نظيراً لها في أوقات أخرى ، ويبدو أنه ليس من المغالاة القول إن غياب التماسك الديني والعرقي كان السبب الرئيسي في سقوط إمبراطورية الخزر .

وتشير معلوماتنا إلى مصادر هامة أخرى للضعف، فقد كانت الموارد المادية لبلاد الخزر محدودة، وعلى هذا الأساس نجد المقدسي يقول لدى إشارته إلى سهوب الفولغا في أحواز عاصمة تلك البلاد: إنها جرداء جافة بلا مواشي أو ثمار[1]، ولا شك أنه يوجد هنا بعض المبالغة وذلك أن لدينا من المعلومات ما يفيد أن الخزر قد امتلكوا [2] جمالاً ، لعلها كانت من نوع خاص ، صغيرة الحجم تختلف عـن الجمال «البختية» ذوات السمنين المتنوعة[3] ، والمقدسي نفسه ذكر في مكان آخر من كتابه وجود أعداد كبيرة من الأغنام في تلك البـــلاد [4] ، وكان بإمكان الخزر حشد آلاف عديـــدة من الفرسان ، ولا بد طبعاً أنهم امتلكوا موارد كبيرة من الخيول .

ونقرأ في المصادر أن مروان بن محمد قد قام خلال الحملة العربية على بلاد الخزر في عام ١١٩ هـ/ ٧٣٧ م بتدمير أعداد كبيرة من الخيول أثناء زحفه صعوداً على أطراف الفولغا [5] ، وتبعاً لمـــا رواه ابن سعيد كانت مطايا – أي الخيول كما يبدو – الإغارة كبيرة بشكل غير اعتيادي [6] ، وقد زرعت السهوب في بعض

---

(١) تحقيق دي غويه : ٣٦١ .

(٢) كما فعل البلغـــار كما يبدو (أبو حامد الأندلسي . ط . فرانـــد : ٢٣٨ نقلا عن القزويني) وامتلك البرطاس الجمال والأبقار أيضاً (ابن رسته : ١٤١) .

(٣) زكي وليدي ، ابن فضلان : ١٥ ، حاشية ٣ نقلا عن ابن الأعثم الكوفي (مخطوطة طوب قبي سراي : ٢ / ٢٤١ . ط .

(٤) تحقيق دي غويه : ٣٥٥ .

(٥) البلعمي : ٥٤٠ ، انظر زكي وليدي ، ابن فضلان : ٣٠٤ .

(٦) انظر الفصل الأول ، الحاشية ٣٥ . رواية ابن سعيد بالنسبه للمناخ البارد والرطب .

الأماكن على الأقل ، وسبق أن رأينا أن كلا من المراسلات العبرية والاصطخري قد تحدثا عن حقول ممتدة حول العاصمة إلى مسافة ستين أو سبعين ميلا، كما أن الكرديزي قد أتى على ذكر حقول مملكة الخزر [١] وعن محصولات الحبوب [٢] والرز [٣] ، ويقول المقدسي إلى الخزر قد استخدموا صنفاً رديئاً من الخبز يسمى « أثير [٤] » وأن الأسماك قد شكلت قسماً أساسياً ثابتاً في طعامهم [٥] .

أما بالنسبة لبقية أنواع منتجات البلاد فإن المقدسي [٦] والكرديزي [٧] قد ذكرا كميات كبيرة من العسل ، وذكر الكرديزي إلى جانبها شمعاً من النوع الممتاز ، لكن الاصطخري قد قال أكثر من مرة : إن العسل والشمع المجلوبين من بلاد الخزر قد استوردا من أماكن أخرى ثم أعيد تصديرهما [٨]، كما ونسمع عن جلود ثعالب خزرية [٩] ، ويذكر الاصطخري بشكل واضح أن الفراء من مختلف الأنواع مع العسل والشمع قد وصلت إلى بلاد الخزر من أراضي الروس والبلغار [١٠] .

وتبعاً لابن رسته [١١] والكرديزي [١٢] كانت هنالك كميات كبيرة من العسل

---

(١) تحقيق بارثولد : ٩٦ .

(٢) انظر الحكاية في ميرخوند نقلا عن هربيلوت ، مادة خزر .

(٣) راجع الاصطخري ، اقتبس في الفصل الخامس .

(٤) تحقيق دي غويه : ٣٦١ وانظر أيضاً ٣٥٩ .

(٥) الاصطخري ، المصدر نفسه ،

(٦) تحقيق دي غويه : ٣٥٥ .

(٧) تحقيق بارثولد : ٩٦ .

(٨) المصدر نفسه .

(٩) أبو حامد الأندلسي : ٢١٢ .

(١٠) الاصطخري (المكان نفسه) حيث ذكر الفراء في موضعين .

(١١) تحقيق دي غوية : ١٤١ .

(١٢) تحقيق بارثولد : ٩٧ .

في بلاد برطاس ، ترسل من بلاد الخزر نفسها نحو بلاد البلغار ، أما مـــا يتعلق بالفراء ، فعلى الرغم من أن الجلود البلغارية كانت مشهورة[1] وأنه كانت هنالك جلود ثعالب خاصة في برطاس [2] حيث جرى استيراد أنواع خاصة من الفراء أيضاً [3] ، ولا بد أن كميات كبيرة من الفراء قـــد جاءت من روسيا ، التي لم تكن – بالطبع – مثل المناطق السابقة الذكر ، بل وقعت خارج حـــدود إمبراطورية الخزر .

وتحدث ابن خرداذبه [4] ثم تبعه ابن الفقيه [5] ، عن جلود الخزر وجلود ثعالب سود جلبها التجار الروس إلى القسطنطينية أولاً ، ثم إلى طريـــق البحر الأسود ، فمضيق كرتش فالدون فالفولغا فعاصمة الخزر [6]، وهنا ألزم الخاقان أو من يمثله تجار الروس على دفع عشر ثمن ما كانوا يحملونه ، وتابع هؤلاء التجار رحلتهم هابطين من الفولغا إلى بحر قزوين حيث كانوا يبيعون ما جلبوه ، بما في ذلك نصال السيوف والفراء في جرجان على الطرف المقابل من البحر .

---

(١) أبو حامد الأندلسي ، الموضع نفسه .

(٢) يتحدث الاصطخري في مخطوطه تشستربيتي (الحاشية ٢٠) عن جلود الثعالب والمنسوبة إلى برطاس ، ونفهم مما أورده المسعودي (تنبيه : ٦٣) أن جلود الثعالب السوداءمن برطاس قد كانت أفضل أنواع الفراء في العالم ، وأتى المسعودي على ذكر أنواع أخرى منهاالأحمر والأبيض الخ ، وكان الخليفة المهدي أثناء اقامته في الري قبل استلامة للخلافة كان قد جرب عدة أنواع من الفراء ليجد أيها يعطي دفئاً أكثر بطريقة بسيطة بوضع زجاجات ماء باردة مغلقة ملفوفة بالفراء ، وقد كشف بالفحص أن الفراء الأسود وحده لم يتجمد الماء في قاروروته ، وكان قاضي حلب الشيخ بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢/ ١٢٣٤) يرتدي عباءة من فراء برطاس(ابن خلكان : ٢ / ٥٣٠) .

(٣) ابن رسته : ١٤١ .

(٤) تحقيق دي غويه : ١٥٤ ، راجع الفصل الخامس الحاشية ٤٤ .

(٥) تحقيق دي غويه : ٢٧٠ – ٢٧١ .

(٦) خليج مدينةالخزر تبعاً لابن خرداذ به وجاء عند ابن الفقيه « خليج الخزر » والأصح « خليج الخزر » .

وتحدث ابن الفقيه عن رماح خزرية أيضاً [1] ، لكن أن يسافر التجـــار الروس دائماً مثل هذه الرحلات الطويلة فهذا أمر بعيد الاحتمال، فلقد وجدناهم أيام ابن فضلان بين بلغار الفولغا [2] ، ولا شك أنهـــم سافروا من هناك حتى خزران – أتل– بشكل محدد ، وذلك كما ذكر كل من الأصطخري [3] وابن حوقل [4] ، وبين المسعودي أن كانوا موجودين على ضفة من ضفاف عاصمـــة الخزر [5] ، ولربما كانت السفريات مربحة ، لأنـــه وجد طلب على هذه الفراء الشمالية من قبل الطبقات الإسلامية العليا [6] ، لكن من الصعب القول إنهـا نالت تقديراً كبيراً من قبل الخزر ، إلا فيما يتعلق بأنها بضاعة يمكن تمشيرها .

وتحدث الأصطخري عن وصول بضائع أخرى إلى بلاد الخزر ، فلقد كانت هنالك تجارة بالرصاص مع الروس ، لكن ربما أمكن الحصول على هذه المادة في كييف من قبل التجار الخزر [7] ، وكان أهم من هذا كله تجـــارة الرقيق النشطة هبوطاً مع الفولغا ، وهي تجارة أتى الإصطخرى على ذكرها وأكـــد وجودها ابن فضلان [8] ، ومن المؤكـد أن الروس قد جلبوا معهم الرقيق من الشمال ، ويعني هذا وجود سوق للنخاسة في العاصمة الخزرية [9]، وغالباًماجرى

---

(١) تحقيق دى غويه : ٥٠ (نقلا عن زكي وليدى ، ابن فضلان : ٢١٠) .

(٢) انظر الفصل السابع ، الحاشية ١٩٥ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) تحقيق دى غويه : ٢٨١ · تحقيق كريمر : ٣٩٢ .

(٥) الفصل السابع ·

(٦) المسعودى ، التنبيه : ٦٣ وانظر الحاشية ٢٤ .

(٧) الاصطخرى ، المصدر نفسه ·

(٨) فصل ٧٧/٨٣ .

(٩) سبق النقل عن الاصطخرى في الفصل الخامس قوله : العبيد موجودون عند الخزر الكفار ، فهؤلاء هم الذين يبيعون أولادهم رقيقاً ، وتمت عملية الاسترقاق كما هو متوقع في خزران ، أتل ،وقد ذكر أبو الفداء (٢١٧) أنسراي (انظر ما يلي) كانت سوقاًللرقيق كبير.

من هناك نقل الرقيق إلى الأراضي الإسلامية [١] .

ولا يمكن لهذا أن يدهشنا ، لأن الرق ظل قائماً في بقية أجزاء أوروبا حتى تاريخ متأخر [٢] ، ويقول الأصطخري : إن بيع الآباء لأولادهم كرقيق كان ممنوعاً لدى اليهود والمسيحيين والمسلمين أيضاً في بلاد الخزر، ويمارس فقط من قبل الوثنيين [٣] ، ويبدو أنه لم توجد اعتراضات على هذه الممارسات ، ولم يكن تهود الحكام يدفعهم إلى منع ذلك ، بل على العكس كان وجود الرقيق أمراً مسموحاً به ، وقد جرى بيعه وشراؤه بشكل علني في الأسواق ، شأنهم في ذلك شأن بقية بضائع السوق ، وكان هنالك محطة أخرى ثانية في الشمال لبيع الرقيق في دربند (باب الأبواب) [٤] ، وكان الوضع في أوروبا الغربية وفي فرنسا وأسبانيا هو نفسه، حيث استمر تدفق الرقيق من الشمال إلى الجنوب في الفترة نفسها ، هذا والمناسبة ليس هنالك من سبب . للافتراض أن الدور الذي شغله اليهود هنا كان دوراً عدوانيا مدبراً [٥] .

وإذا جاز لنا أن نعتمد ما جاء في كتاب « دربند نامه » فإن الخزر قد أشرفوا على مناجم الفضة والذهب [٦] (أو النحاس) [٧] في بلاد القوقاز ،

---

(١) تحدث الاصطخرى تحقيق دى غويه : ٢٠٥ عن رقيق من الصقلب والخزر مع آخرين من بقية أمم الترك كانوا يصلون إلى خوارزم،انظر زكي وليدى ، ابن فضلان : ٣٠٩ ، وانظر أيضاً ابن حوقل تحقيق دى غويه : ٢٨١ حيث ذكر أن الخوارزمية قد أغاروا على بلاد البلغار والصقالبة ونهبوهم وأسروهم .

(٢) في سكوتلندا في ١١٧٨ م ثم حتى سنة ١٢٥٨ م انظر تاريخ كنيسة كننفهام لسكوتلندا (١٨٨٢) ١/١١٠ .

(٣) المصدر نفسه اعتماداً على الخبر المنقول في الحاشية ٣٧ السابقة .

(٤) انظر حدود العالم : ٣٦ / ٤٠ .

(٥) مرقوارت : ١ / ٤٢ .

(٦) تحقيق قاسم بك : ٤٧٧ حيث ذكر وجود منجم ذهب قرب قيزيلبار ومنجم فضة قرب منبع نهر التريك .

(٧) انظر قاسم بك : ٤٦٥ .

وأنهم اعتادوا أن يدفعوا من منتوجات هذه المناجم إلى عساكرهم التي رابطت على تلك الحدود ، أضف إلى ذلك : يبدو أن ولايـــة سمندر التي كانت على الجانب الشمالي لهذه الجبال . قد كانت غنية وخصبـــة ، وقد أشار كل من الأصطخري وابن حوقل إلى حدائقها وكرومها ، وأن عـدد هذه الكروم كان آلافاً مؤلفة [١] ، وحسب مـا ذكر الكرديزي كان من الممكن رؤية الحدائق في أماكن أخرى من بلاد الخزر [٢] .

ومن الواضح أنه من غير الممكن تقديم إحصاء محدد حول الموارد الماديـة لدولة الخزر ، ولا شك أن أهم هذه الموارد كان البضائع الماشية ومنتوجاتهم الزراعية ،ويبدو أنه لم يوجد فائض من أي منهذه الأنواع ، ولدينا تصريح مثير قدمه الاصطخري فيه أن الشيء الوحيد الذي صدره الخزر هو الفراء ، وذلك بصرف النظر عما جُلب الى بلادهم وأعادوا تصديره من بضائع [٣] .

ويبدو أن نشاطاتهم التجارية قد كانت على جميع الاحوال لا بأس بها ، هذا وإن ما قاله المسعودي من أن ملك الخزر لم يكن يملك مراكب وأن رجاله لم يكونوا معتادين على استعمالها [٤] مضلل في هذا المجال ، فقد أوضح (بارثولد) أن هذا القول يتناقض مع ما ذكره هلال الصابيء عن بناء سور عـــلى شاطيء بحر قزوين عند (دربند) لمنع مراكب الخزر من الدخـول [٥] ، زد على هذا :

---

(١) زاد رقم الاصطخرى (المنقول في الفصل الخامس) وهو ٤٠٠٠ في نص ابن حوقل إلى ٤٠،٠٠٠ .

(٢) تحقيق بارثولد : ٩٦ .

(٣) الاصطخرى ، المصدر نفسه .

(٤) نقل في الفصل السابع .

(٥) هلال الصابيء تحقيق أمدروز : ٢١٧ . نقل في الموسوعة الاسلامية ، مادة « خزر » ويبدو أن هذه المعلومات تشير إلى أيام الوزير المشهور علي بن الفرات (حوالي ٢٨٨ / ٩٠٠) وقد نقل هلال الصابيء (٣٩٠ / ٩٩٩) معلوماته عنه من مصادر وثيقة معاصرة له ، وهي قد تعني أن السور البحرى قد بني بالأصل ضد الخزر من قبل أنو شروان (انظر قدامه : ٢٦١ حيث تحدث عن حائط في البحر) وهذا أمر يمكن أن يكون اسطوريا (انظر الفصل الأول) فنحن لم نسمع بشكل عام بهجوم خزرى بواسطة البحر ضد شواطيء قزوين (انظرما يلي في الفصل التاسع) .

إن روايه المسعودي عن الخزر تبدي بعض التناقضات لا سيما في قـــوله بشكل واضح في مكان آخر : لدى الخزر زواريق اعتاد الناس أن يسافروا بها ذهاباً من العاصمة وإياباً إليها [1] ، وأن السفن كانت تروح وتجيء بين بلاد الخزر والبلغار [2] ، وهذا أيضاً ما ذكره المقدسي [3] .

وذكر ابن فضلان أنه عندما كانت السفينة ترسو في الأراضي البلغاريـــة قادمة من بلاد الخزر كان مقدم البلغار (يلتوار ، التبار) يصعد شخصيـــاً إلى ظهرها ليجبي عشر البضاعة بنفسه [4] ، هذا ولم يرد في المصادر أن البلغـــار قد ملكوا سفناً ، وعليه فمن الصعب أن نفترض أن المواصلات الأساسية على نهـــر الفولغا قد كانت محصورة في أيـــدي الروس فقط [5] ، وفي جميع الأحوال كان هنالك جسر من السفن عبر النهر في عاصمة الخزر وذلك حسبما ذكره المسعودي [6] ، وجاءت مقولة المسعودي عن عدم امتلاك الخزر للمراكب أثناء حديثه عن الحملة الروسية عبر الفولغا في سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م ، ولعل ما قصده هو أن ملـــك الخزر لم يمتلك أسطولاً كان يمكنه أن ينازل به الغزاة ، أو أنه حصل على معلومات مغلوطة ، وإنه لمن المدهش أن نلاحظ أن رأي المسعودي ما زال معتمداً [7] .

والحقيقة الأكثر قبولاً واحتمالاً هي أن مراكب الخزر لم تكتف بالإبحار في

---

(١) نقل في الفصل السابع ·

(٢) المصدر نفسه .

(٣) تحقيق دى غويه : ٣٦٥ .

(٤) الفصل ٧٧ .

(٥) المسعودى (التنبيه : ٦٢) حيث قال إن السفن الكبيره كانت تبحر في الفولغا (نهر الخزر) من خوارزم وأماكن أخرى تحمل البضائع والتجارات .

(٦) انظر الفصل السابع .

(٧) ذكر (انظر الحاشية ١) سافا ما قاله المسعودى في أن ملك الخزر لم تكن لديه سفن في بحر قزوين لأن الخزر لم يكونوا بحارة .

نهر الفولغا بل في بحر قزوين أيضاً، الذي يحمل اسم بحر الخزر بعد، مستخدمين الطرق البحرية التي أشار إليها الأصطخري [1]، وذلك في حال عدم تهديدهم لدربند كما رأينا في النص المأخوذ من « هلال الصابىء »، وتبعاً لما جاء عن بلاد الخزر في النص القصير من رسالة حسدي كانت السفن الخزرية تصل حتى مدينة القسطنطينية (حوالي ٣٤٠ / ٩٥٠)، لكن نادراً ما كان ذلك من العاصمة على نهر الفولغا (مستخدمة ممر الدون – الفولغا) بل غالباً من ميناء تمتارخا (فنغوريا، تمن تمتوركان) على البحر الأسود فهناك كما رأينا من قبل [2] وجد الامبراطور البيزنطي جستنيان الثاني سفينة أعادته إلى بلاده، وينبغي أن نذكر أن بحر آزوف وكذلك بحر قزوين قد دعيا أحياناً باسم بحر الخزر [3].

ونقلت تجارة الخزر براً أيضاً، ولا بد أن طرق القوافل حول رأس بحر قزوين قد استحوذت على قدر كبير من الأهمية وذلك على الرغم من أننا نستطيع فقط أن نتحدث بشيء من التأكيد عن روابط بين مملكة الخزر وخوارزم [4]، ونقرأ في رواية ابن حوقل [5] عن شركة كانت في عاصمة الخزر ولها ممثلها – كما نقول في أيامنا هذه – في داخل بلاد البلغار، أي في بلغاريا القائمة على الدانوب.

وتبعاً للرحالة اليهودي إبراهيم بن يعقوب (قرن عاشر) تحدث الخزر بلغة الصقالبة [6]، وإذا صح هذا فلا بد أنهم تعلموها من خلال السمر في بلادهم،

---

(١) تحقيق دي غويه : ٢٢٦ – ٢٢٧ .

(٢) الفصل السابع .

(٣) المسعودي، التنبيه : ١٣٨ .

(٤) أوضح ابن فضلان وجود مواصلات دائمة على طول الطريق الذي أخذته، انظر الحاشية ٣٨ .

(٥) انظر الفصل السابع .

(٦) البكري ٣٩ (نقلا عن مرقوارت : ١٩٢) .

ونقرأ لدى المسعودي عن تجار مسلمين من بلاد الخزر كانوا موجودين على الحدود الشمالية لبيزنطة [١] ، وذكر بنيامين الطليطلي - رحالة القرن الثاني عشر - أنه التقى بتجار من بلاد الخزر في القسطنطينية وفي الإسكندرية أيضاً[٢] ، وأشار اليعقوبي إلى أنـــه كان بين البضائــع التي وصلت إلى بغداد بضائع من بلاد الخزر [٣] .

وقد رأينا أن التجار الروس قد اتصلوا بشكل مباشر بديار الخلافة ، وأن التجار الراذانية اليهود [٤] قد زاروا عاصمة الخزر ، كما زاروا بغـداد ، ومدناً إسلامية أخرى ، ومن المحتمل أن بعض تجـــار الخزر قد شاركوا في هذه الحركات ، وتحدث اليعقوبي عن وجود شارع أو حي في سامراء عاش فيه الخزر والترك وأهل فرغانه [٥] ، وليس من الضروري أن نفترض أن هـــؤلاء كانوا جميعاً من العساكر المرتزقة .

أما بالنسبة للصناعة ، فقد سبق وذكرنا الفراء ، ويبدو أنـــه كان يحضر من الأسماك المصادة على شواطىء الفولغا ، ونعرف - على الأقـــل - أن الحرفيين المسلمين في العاصمة الخزرية كانوا كثرة [٦] ، ومن المدهش أنه تبعاً للأصطخري لم تنتج بلاد الخزر أية أنواع من الملابس [٧] ، فالمعاطف الطويلة مع القمصان التي اعتاد الخزر على ارتدائها كانت تستورد من الأراضي الإسلامية أومن بيزنطة[٨]،

---

(١) انظر الفصل السابع .

(٢) تحقيق ادلر : ١٢ ، ٧٦ . وحذفت طبعة أشير المصد .

(٣) كتاب البلدان : ٢٣٤ .

(٤) انظر الفصل السادس ، الحاشية : ٦٩ .

(٥) البلدان : ٢٦٢ .

(٦) المسعودى ، نقل في الفصل السابع .

(٧) انظر الفصل الخامس .

(٨) الاصطخرى (المصدر نفسه) حيث قارن الساحل الطويل أو الكامل للخزر مع ساحل الروس القصير .

كما أن الغز الذين كانوا من أتباع الخاقان قد استوردوا مـــلابسهم من عند المسلمين [1]، هذا وإن انعدام هذه الصناعة – مع أننا لا يمكن أن نصدق أنهـا كانت تامة كما يقول الأصطخري – يدل على أن الصناعات في بلاد الخزر كانت متدنية ولم تكن متطورة [2]، ولدينـــا في الوقت نفسه أدلة على أن المؤثرات الثقافية قد مورست على الخــــزر من قبل الإمبراطوريـــة البيزنطية والخلافة الإسلامية .

ووجد الآثاري ت – ج – آرني T . J . Arne أن الحضارة الخزرية كانت شديدة التأثر بالحضارة الفارسية ، ومن المؤكد أن تقليد الحرفيين الساسانيين كان كبيراً في بلاد الخزر [3]، كما أن الصحون التي قصد بها تزيين الأحزمة والتي عثر عليها في غربي روسيا والسويد تحمل سمات التصاميم الفارسية ، ولا بد أنها قد صنعت في حدود نطاق التأثير الخزري الثقافي، وأن الأنماط قد وصلت إلى الخزر من عند الفرس [4]، ويتحدث ثانية عن أبازيم أحزمة يفترض أنها من أصـــل بيزنطي قد جرى تقليدها في بلاد تحكمت بها الثقافة الخزرية بعد القرن الثامن [5]، لكن هذا كله أقل أهمية مما ادّعاه زمباور ، عالم النميات المشهور من أن معظم النقود التي عثر عليها في السويد وروسيا المضروبة على شاكلة النقود الإسلامية قد صكت في دور السكة الخزرية [6] .

ويعترض آرني على رمباور في (P) أنه لم يعثر على هذه الأنواع المقلدة في

---

(١) ابن فضلان : ٢٥ .

(٢) الاصطخرى (٢١٣) حيث ذكر وجود حركة تجارية منتظمة بين أستراباد ومملكة الخزر حيث شكل الحرير الذي أنتج في أحواز أستراباد جزئاً هاماً طبعاً بعد تصنيعه .

(٣) حرير الشرق (أرشيف الدراسات الشرقية ٨) أو بسالا ١٩١٤ : ٩٦ — ٩٩ .

(٤) المصدر نفسه : ١٥٧ .

(٥) المصدر نفسه : ١٤٣ .

(٦) افون زامباور « شرقيون في شمالي أوروبا وشرقيها » ١٩١١ .

الأراضي الخزرية ، وأنه (ب) قد عثر على قوالب الصك التي قصد منها ضرب نقود مشابهة للنقود الساسانية في مناطق كانت دائماً خارج نطاق التأثير الخزري مثل فيتبسك Vitebsk ، وقد ذكر بارثولد قوالب الصك هذه المرتبطة بـ « فيتبسك » لدى حديثه عن ضرب النقود الروسية[1] ، ولا شك أنه من المدهش حقاً عدم عثورنا على نقود خزرية محلية[2] ، ومن المحال الاعتقاد أن النشاطات التجارية في خزران – أتل قد مورست بطرائق المقايضة البدائية ، إنما في الوقت نفسه ليس هنالك من بينات تؤيد صحة ما ذهب إليه زمباور .

والانطباع العام الذي نحصله من المعلومات التي لدينا هو أن أتل كانت ثغراً هاماً للتجارة شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ، وأن ازدهار مملكة الخزر قد اعتمد على موارد البلاد بدرجة أدنى مما اعتمده على موقعها المناسب عبر طرق التجارة الهامة ، والذي نستطيع استخلاصه عن النظام المالي هو أن الضرائب كانت خفيفة على الخزر المحليين ، ولربما توجّب على الخزر البيض الخدمة العسكرية فقط ، وتبعاً للأصطخري الذي غالباً ما نقلنا عنه ، لم يمتلك ملك الخزر حق التدخل في ممتلكات رعيته[3] ، ولعل في هذا إشارة إلى البك ، لأنه قيل في مكان آخر إنه حق للخاقان الحصول على دفعات وتعويضات ثابتة جاءت من ضرائب فرضت على الشعب بأكمله[4] .

وفي جميع الأحوال كان البك هو السلطة التنفيذية الرئيسه ، ومن المفترض أن نفقاته قد شكلت البند الأساسي في ميزانية الخزر ، ويفيدنا ما ذكره الاصطخري أن موارد الملك الأساسية قد جاءت من مصدرين هما : الرسوم والعشور المفروضة

---

(١) ديكوفرتي: ١٩٦ نقلا عن ر . هننغ « النشاطات العسكرية العربيه في غربي أوربا » در – اسلام . ب : ٢٢ (١٩٣٥) .

(٢) انظر الفصل السادس ، الحاشية ١٨ .

(٣) انظر الفصل الخامس ، الحاشية ١٧ .

(٤) ابن حوقل ، تحقيق كريمر ٣٩٦ .

على التجارات القادمة عبر الطرق البرية والبحرية للبلاد، والجزية من النوع الذي يفرض في الامبراطوريات[١].

أما بالنسبة للرسوم التي ذكرها الاصطخري على أنها المصدر الأول للدخل ، فلقد سبق ورأينا التجار الروس المتاجرين بالفراء والسيوف وهم يدفعون لخاقان الخزر أو لممثليه عشر ثمن بضائعهم ، ويبدو أن جميع التجارات الروسية قد جبيت منها الرسوم بشكل مماثل[٢].

ويمكننا من ذلك أن نستنتج أن هذه العشور كانت عامة ، أي أنها طبقت أيضاً على التجار المسلمين الذين زاروا بلاد الخزر ، ومن المحتمل أنه ارتبط بجمع مثل هذه الرسوم وظهور بعض القضايا القانونية الطارئة ، العمل الذي أسند إلى اثنين من موظفي الخزر علمنا أنهما قد شغلا المنصب نفسه ، وقد كان أولهما في أيام ابن فضلان ، رجلا اسمه خز[٣] ، واسم ثانيهما أيام المسعودي أحمد بن كويه[٤] (غويه) ولا شك أن هذين الرجلين قد شغلا منصباً هاماً،لكنه لم يكن منصب البك ، فقد كانا مسلمين ، وكان البك من يهود الخزر[٥] طبعاً . كما يبدو أن أياً منهما لم يكن قاضياً مسلماً نظامياً ، وكان عدد قضاة المسلمين مثلهم مثل قضاة اليهود وقضاة اثنين[٦] ، لكن خز ومن بعده أحمد بن كويه كانا مستقلين في منصبيهما وفي مجال عملهما مهما كان نوع هذا المجال .

وأما المصدر الثاني بين مصدري الموارد فيمكن توضيحه من التاريخ الروسي، فلقد سبق وذكرنا أمم الصقالبة والبولونيين وآخرين ممن دفع الجزية للخزر في

---

(١) انظر الفصل الخامس السابق .

(٢) ابن حوقل ، تحقيق كريمر : ٣٩٢ .

(٣) الفصل الخامس ، الحاشية ٩٩ .

(٤) الفصل السابع ، الحاشية ١٩٩ .

(٥) ابن رسته والاصطخرى ، انظر الفصل الخامس .

(٦) المسعودي الفصل السابع .

القرنين التاسع والعاشر [1] ، ومن الواضح أن الخزر قــد اعتبروا الموقد أو المحراث وحدة لفرض الجزية على رعاياهم من الشعوب ، وقــدرت كمية الدفع بسيف أو بجلد فراء ، أو في بعض الحالات بقطعة من النقود على كل محراث أو رأس [2] ، لكن الأخذ بهذه الأساليب لم يكن دائماً ، إنمـا حسب الحاجة ، أو في غالب الأحيان حسب ما كان موجوداً ليجمع، كما أن زعيم البلغار (يلتوار ، التبار) قد أسهم بدفع جلد فراء عن كل بيت من بيوته [3] .

وعلى هذا وضح لنا أن الموارد الأساسية لدولة الخزر قــد جاءت من الرسوم ومن جزية الشعوب ، ولا شك أن مداخيل البــلاد ، خاصة المحصلة بشكل رئيسي من الأعمال التجارية في بيع وتصدير المستوردات ، قد كانت معتبرة ، لكن كما سبق وأشرنا لم تكن هنالك موارد طبيعية كبيرة متوفرة للتصدير ، كما لم يكن هنالك إنتاج ثابت من المصنوعات المحليــة ، وواضح أن الاقتصاد الخزري كان في مثل هذه الاحوال ، إلى حد كبير مصطنعاً ، فكل شيء كان معتمداً على السمعة السياسية والقوة العسكرية .

ومن الواضح أن دفع الرسوم الثقيلة لم يكن مرحباً به من قبل التجار، كما أن الجزية النوعية لم تكن مقبولة من قبــل الأمم التي دفعتها، وكان استخدام القوة أو التظاهر بالقوة ضرورياً لتأمين استمرار هــذين الموردين ، ويبدو مما ورد في التاريخ الروسي أن قبائل الصقالبة كانت على استعداد لرمي نير التبعية الخزري حالما تتهيأ لها الفرصة [4] .

---

(١) انظر الفصل السابع .

(٢) المؤرخ الروسي ٢٠١٢/١٤/٥١٢٠٢٢ .

(٣) ابن فضلان : ٧٧ حيث جاء : « وعلى ملك (يلطوار) ضريبة يؤديها إلى ملك الخزر من كل بيت في مملكته جلد سمور » وورد هذا النص لدى ياقوت لكن جاء عنده «جلدثور» بدلاً من « جلد سمور » وهو بلا شك تصحيف .

(٤) انظر بلاتنوف ، المصدر نفسه : ٤٩٧ - ٤٩٨ .

ونستخلص مما ذكره ابن فضلان أن سلطة الخزر المركزية لم تعــد في أيامه تتمتع بالشعبية في شرقي الامبراطورية بين البلغار والغز [1]، وعليه يمكننا القول إنه ما دام الخزر كانوا قادرين على الاحتفاظ بفتوحاتهم بقوة السلاح كان من الممكن لهذا النظام الاقتصادي أن يعمل ، لكن عندمـــا تعرضت قوتهم العسكرية للدمار مرة واحدة أصبح الاقتصاد كله عرضة للسقوط .

ومن بعض الجوانب لا شك أن هذا ما حدث بالفعل، ولا بد أن المدفوعات بالأنواع ورسوم التجارات قد توقفت نتيجة لذلك عن التدفق على الخزينة لبعض الوقت ، وهكذا سمت الفئات غـــير الراضية نحو نيل استقلالها ، ولم تستطع السلطات المركزية المبادرة إلى إرسال قوات تقوم بإعادة احتـــلال النقاط الاستراتيجية التي كانت من قبل في أيدي الدولة، أو تقوم بإعادة فرض الضرائب على الذين توقفوا عن دفعها .

وهكذا تفككت أوصال أجهزة الدولة وغدت عاجزة ، وبات من المحال إعادتها إلى العمل ثانية ، ويمكننا أن نفترض أنه لو كانت قواعد مصادر قوتهم في المنطقة الواقعة بين الفولغا والقوقاز قـد حبتها الطبيعة بثروات أعظم ، أو أنهم امتلكوا ميولاً صناعية وحرفية، عندها لربما كان بإمكان الخزر إعادة تماسك ما بقي منهم ، ومن ثم استعاده مـا فقدوه عن طريق الدبلوماسية ، أو إعادة قهر الشعوب الثائرة ، ومن ثم القيام بالتدريج باعادة تأسيس نظامهم السياسي والاقتصادي في أراضيهم السابقة ، ومهما يكن الحال لقد كانت هـذه الشروط المرغوبة منعدمة .

ومع أن الفوارق العرقية والدينية في داخل إمبراطورية الخزر لاشك قـد أسهمت في تفكك أوصالها ، يبقى علينـا أن نبحث عن السبب الاساسي لهذا التمزق في سماتها الاساسية ككتلة من الاراضي المتجاورة بدون حدود طبيعية،

---

(١) ٣٦ ، ٤٨ ، ٧٨ .

ولا تمتلك وسائل الاعتماد على الذات ، وغير قادرة على طول المدى على تشكيل وحدة اقتصادية وسياسية مستقرة دائمة ، ذلك أن الاراضي قد انتقلت الى أيدي أرستقراطية عسكرية ، تكونت من الخزر المتهودين ، الذين امتلكوا قوة لا شك بها ، ما دامت خيولهم قادرة على السيطرة على الاراضي القائمة بين مدنهم وحصونهم .

وأما ما يتعلق بالامتداد الجغرافي والاهمية السياسية ، فلقد رأينا دولة الخزر تتنافس لبعض الوقت مع أمم كانت أقوى منها في ذلك العصر ، لكن هذا الحال لم يدم طويلا ، وأصيبت السيطرة العسكرية بالدمار ، وسقطت دولة الخزر لانها لم تمتلك رباطاً لوحدتها كان أكثر ديمومة ، ومن الغرائب أن نرى بعض المجموعات الصغيرة التي امتصتها إمبراطورية الخزر أو هددتها قد استمرت بالوجود حتى أيامنا هذه ، بينما الخزر أنفسهم « الذين كانوا قوة لا يمكن مقارنتها [1] » بأي من جيرانهم باتوا من الصعب تذكر اسمهم .

ولهذا فإن عملية المقارنة مع الدول القومية في الشرق والغرب ليست بناءة بشكل خاص ، ولنأخذ بعض الامثلة حيث نجد أن تاريخ فرنسا أو إيران يمكن تتبع جذوره بشكل مستمر خلال فترات من التوسع والاضمحلال تعود إلى عصور سحيقة بالقدم ، وما تزال كل من فرنسا وإيران القديمتين حيتين يمثلهما مجتمعان هامان في أيامنا هذه .

وفي المقابل نجد الحال مع الامبراطوريات البدوية أنها كانت تظهر بسرعة مذهلة فتحتل مكاناً قيادياً على مسرح التاريخ ، ثم ما تلبث أن تختفي من الوجود بسرعة أكبر ، فمن هذا القبيل كانت إمبراطورية الهون ثم إمبراطورية المغول ، وبالنسبة للمغول نعرف بالتفصيل كيف تمكنوا من اجتياح العديد من

---

(١) هذه كلمات بارثولد (الموسوعة الإسلامية مادة بلغار) في حديثه عن الخزر مع الإشارة إلى البلغار .

حضارات العالم واستولوا على عدد كبير من الدول ذات المساحات الواسعة، ومع هذا ما لبث التيار أن انعكس وأصبح المغول أدنى من حيث المكانة من كثير من الامم مثل الفرس الذين سبق وقهروهم ، ومن الصين التي قدموا لها أسرة حاكمة .

ولقد كانت مغامرة الخزر على مستوى أدنى من مستوى المغول ، ولم يصل عدد قواتهم المسلحة والمساحات التي سيطروا عليها قط إلى حجم ما توفر لدى المغول، كما أن ظهورهم على مسرح التاريخ لم يكن لافتاً للانتباه وهائلا بالدرجة نفسها ، ومع ذلك فإن سقوط المغول بمدهم والهون قبلهم قد مكننا من فهم المصير الذي ألم بالخزر ، في القرنين العاشر والحادي عشر كما يبدو [1] .

---

(١) قام الآثاريون الروس بحفريات عديدة في مواقع خزرية لسوء الحظ ليس من السهل الحصول على المعلومات ، وقدم ت . ج ، آرتي عرضاً عن أعمال الحفريات التي تمت خلال سنوات عديدة حتى ١٩١٤ ، لا سيما الحفريات التي جرت في فرخني على الدونتز ، وقد أحال على المصادر الروسية .وتناول بولياك (بلاد الخزر : ٥) بعض ما عثر عليه بالبحث، وهنالك أبحاث أخرى هامه بالبلغارية ، انظر سمولن Po. razval, drev . Bulgara قازان١٩٢٦ (نقلا عن مينورسكي حدود العالم : ٤٦١ ، الحاشية ٢) وفي سوار ، ولا شك أنه جرى الحصول على نتائج هامة في الموقع الأخير ، ونقل زكي وليدى (ابن فضلان : ٧٥ ، الحاشية) عن أ.ب سميرنوف معلومات عن قصر مؤلف من طابقين من القرن العاشر حيث عثر عليه ووجد فيه نقود كثيرة . ولا شك أن هذه النقود ستلقي الضوء على ضرب الخزر للنقود على الطريقة العربية الأمر الذى سبق بحثه . وهنالك مادة قليلة في « الآثار السوفيتية » ٤ (موسكو١٩٣٧) ويمكن أن نضيف الآن إن هنالك شبه إجماع على أن فرخني سالتوف هوموقع خزرى(فرنادسكي، روسيا القديمة : ١٥٧ ، ٢٤١ ، ٢٦٩) .

الفصل التاسع

نهاية دولة الخزر

بعد قيامنا في الفصل السابق بالتعرف إلى مكامن الضعف المفترضة في جسم دولة الخزر ، لنحاول الآن تتبع مسار الاحداث التي قادت إلى تفكك أوصالها ومن ثم اختفائها نهائياً ، ونستخلص من روايات الاصطخري (٣٢٠/ ٩٣٢ م) والمسعودي (٣٣٢/٩٤٣) ومن المراسلات الخزرية ، أن دولـــة الخزر كانت مزدهرة في منتصف القرن العاشر ، وإذا كان من الممكن الاعتماد عــلى وثيقة كمبردج ، فقد نال الخزر في هـــذه الفترة نجاحاً عسكرياً ملموساً لاسيا ضد البيزنطيين [١] ، ومع ذلك كان هنالك خطر واضح قد نمـا مـع ازدياد قوة وتماسك الروس ، لكن منذ متى بدأت غارات الروس انحداراً مع الفولغا ؟ هذا ما لايمكن قوله بشكل واضح [٢] .

ويبدو أن الروس كانوا في فترة سابقة واقعين تحت النفوذ الخزري ، عــلى

---

(١) انظر ما سبق الفصل السادس .

(٢) جرت مناقشة نص البلعمي (تحقيق ، دورن : ٥٠٠) الذي ذكر فيـــه أن الروس كانوا يشكلون خطراً على أراضي القوقاز منذ سنة ٢٢ هـ / ٦٤٢ - ٦٤٣ ، في الفصل الثالث ، وهنالك إشارات مشابهة تحدثت عن الظهور الروسي المبكر في كتاب فتوح الشـــام المنسوب للواقدي (ت : ٢٠٧ هـ / ٨٢٣ م) والذي يمكن أن يكون قد صنف أيام الصليبيين ، فقد ذكر هذا الكتاب أن صقالبة قد قاتلوا إلى جانب الروم في معركة اليرموك (١٥/ ٦٣٦) وكانوا بقيادة الملك الروسي قناطير (ط . ١٣٣٥ هـ : ١ / ٩٧) وهذا لا شك محض خيال،ومن أجل الاسم انظر قنطال لدى نظامي (فصل ١ حاشية ٦١) .

الاقل من الجانب الثقافي [1]، فلقـــد ورد ذكر الخاقان الروسي في المصادر العربية [2]، وفي الرواية اللاتينية عن سفارة بيزنطية توجهت الى الامبراطور في الغرب في سنـــة ٨٣٩ [3] (تشاكانوس Chacanus) ، ومن الممكن أن هذا اللقب قد استعير من الخزر ، كما يعتقد مرقوارت [4]، زد على هذا أن ملك الروس قد كان له أيام ابن فضلان (٩٢٢) خليفة مثلما جرت عليه العادة لدى الخزر ، وكان هذا الخليفة يقود الجيوش ويثير الحرب ضد الاعداء، ويقدم الملك الى شعبه [5] ، ولا يشك زكي وليدي أن هذه الوظيفة عنـد الروس قد استعيرت من النظام الخزري [6] ، ويبـدو أن ابن فضلان قـد سمع عن « الفيوفودز » Voevods الروسي [7] .

وعلى جميع الاحوال لقد كان الروس مع القرن التاسع أقوياء بما فيـه الكفاية لاحتـلال جزء من الاراضي الخزرية في الغرب بما في ذلـك مدينة كييف [8] (٨٧٨ ؟) ، وقد بدأنا نسمع عن حملات روسية محددة هبوطاً مع الفولغا ، ووصل الروس في أيـام السيد حسن بن زيد حـاكم طبرستان فيما بين ٢٥١ هـ / ٨٦٤ م و ٢٧٠ هـ / ٨٥٤ م إلى بحر قزوين وقاموا بهجوم غـير ناجح

---

(١) جرى بحث هذه القضية بالروسية من وجهة نظر أرتمونون التي تفضل الحديث عن تأثير خزري على الروس .

(٢) ابن رسته : ١٤٥ . (انظر مرقوارت : ٢٠٠) .

(٣) حوليات بيرتنياني : ٨٣٩ (نقلاً عن مرقوارت : ٢٠٢) .

(٤) يرى زكي وليدي(Die schwerter der Germanen ; 32) أن لقب خاقان جاء إلى الروس من خلال علاقتهم المبكرة مع الهون ؟ .

(٥) ابن فضلان : فصل ٩٣ .

(٦) ابن فضلان : ٢٠٣ .

(٧) انظر . ن . ك . شادويك « بداية التاريخ الروسي » : ١١٥ .

(٨) انظر فرنادسكي ، « روسيا القديمة » ٣٦٨ .

على آبسكون على الشاطىء الشرقي [1] ، وعاثوا في هـذه المرة في الرساتيق المجاورة ونهبوها وقتلوا بعض المسلمين وحملوا بعضهم الآخر أسرى [2] .

ولربما يمكن لوجود هذه السفن في مياه بحر قزوين أن يوضح الفوائد التي حصل عليها الخزر من إبقاء طريق مواصلات الفولغا مفتوحاً ، فلقد رأينا أن السفن الروسية كانت أثناء مرورها في الاراضي الخزرية عرضة لدفع العشر عن حمولتها من البضائع ، فهذا ما ذكره الاصطخري ، الذي كتب في حوالي سنة ٨٤٠ م ، لكن هذه المواصلات اضطربت بعدما فقـد الخزر المناطق الغربية لصالح الروس [3] ، ولربما سيمكننا أن نفترض بشكل صحيح أن السفن التي أغارت على آبسكون قد وصلت إلى بحر قزوين بمباركة حكومة الخزر .

وكانت هذه الاحوال آخذة بالتغيير إثر الحملة الثانية - بين الحملات التي وصلتنا أخبارها - على آبسكون ، فقـد طلب من السلطات الخزرية السماح لاسطول حربي روسي باستخدام طريق الفولغا المائي [4] ، وقد كشف الروس عن نيتهم بالاغارة على شواطىء بحر قزوين وعرضوا عـلى الخزر أن يدفعوا إليهم نصف الغنائم التي أملوا بالحصول عليها ، وذلـك مقابل السماح لهـم بالمرور ، وتمت الموافقة على مطلبهم .

لقد علق جيبون مره في كتابه « في تاريخ العالم » بقوله: يمكنني أن أتصور وجود أسطولين فقط في بحر قزوين [5] ، وحين قال هذا كان يفكر بالأسطول المقدوني بقيادة الأدميرال بتروكلس Patrocles الذي قيل بأنه هبط من نهر

---

(١) ابن أسفنديار : ١٩٩ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الاصطخري ، ابن حوقل ، انظر الفصل الخامس والثامن ، الحاشية ٨٢ .

(٤) المسعودي ، انظر ما سبق .

(٥) الانحدار والسقوط : ٤٦ ، الحاشية ٢ .

جيحون من آسيا الوسطى [١] ، وبالأسطول والجيش الذي قاده بطرس الكبير من جوار موسكو إلى شواطىء بحر قزوين ، ومع ذلك كانت الحملة الروسية [٢] التي نتحدث الآن عنها مؤلفة من أسطول حربي على مستوى هائل ، فقد حوى خمسمائة سفينة في كل منها مائة رجل ، ومن الواضح أن قوة كهذه كانت بالنسبة لتلك الأيام قوة عملاقة ، وإننا لا نعرف السبب الذي جعل الخزر يسمحون للروس بالدخول إلى قلب بلادهم ، في وقت كانوا فيه أقوياء بما فيه الكفاية لمنعهم ، وذلك حسبما يوحي سياق الأحداث ، ولعل السبب هو أن السلطات الخزرية التي لم تكن تحب المسلمين ، كانت راضية بالحصول على مكاسب ضخمة بدون عمل على حسابهم ، ذلك أن الحملة الروسية كانت موجهة ضد الأراضي الإسلامية القائمة على شواطىء بحر قزوين ، ومهما يكن الحال ينبغي النظر إلى قرار قادة الخزر على أنه كان سابقة خطيرة .

وأغار الروس في هذه المناسبة (حوالي سنة ٩١٣ م) على عدد من المراكز على طول شواطىء بحر قزوين ، لا بل توغلوا حتى أردبيل في أذربيجان على مسافة ثلاثة أيام داخل البر ، وجرت رواية ما حدث في سياق الفصل السابع اعتماداً على المسعودي ، ولم يصل إلى سمع المسعودي منذ ذلك الحين تكرار لهذه المحاولة من جانب الروس ، لكن الروس كانوا من جديد في بحر قزوين في السنة التي كان يكتب بها تاريخه (٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م) إنما بنتائج أقل مأساوية - كما يبدو - بالنسبة إليهم وإلى الآخرين ، وكانت حملة سنة ٩٤٣ م في الحقيقة على مستوى كبير ، فلقد استولى الروس على برذعة واحتفظوا بها لمدة سنة [٣] ، وقد ظل

---

(١) هنالك شك الآن فيما إذا كانت هذه الحملة قد تمت .

(٢) لعل الحملة قد وقعت سنة ٣٠١ / ٩١٣ إثر اعتلاء ايغور الروسي (مينورسكي ، الموسوعة الإسلامية ، مادة روس) ويقول المسعودي إن ذلك كان بعد سنة ٣٠٠ بينما يعطي ابن اسفنديار ، المصدر نفسه ، تاريخ ٢٩٨ هـ .

(٣) ابن الأثير : ٨ / ١٣٤ — ١٣٥ . ابن مسكويه : ٢ / ٦٢ - ٦٧ . حيث يقدم رواية ثمينة مأخوذة عن شاهد عيان لزحف الروس عندما وصلوا إلى برذعة .

موضع تخيمهم خارج المدينة معروفاً حتى بعد جيل من الزمن [1] ومتذكراً ،وقد عانوا في هذه المناسبة ليس على أيدي الخزر – الذين يمكن تخمين دورهم في هذه الأعمال بشكل غير مؤكد – بل من الوباء الذي فتك بهم وأضعف قواهم وجعلهم عاجزين عن مقاومة الأمير المسافري مرزبان بن محمد حاكم أذربيجان ، الذي تمكن من طرد الباقين وملاحقتهم حتى سفنهم ، وقد رأى العلماء المسلمون فيما نزل بهم عقوبة سماوية على ما ألحقوه بالمسلمين من أذى [2] .

ويستخلص من رد يوسف أن مرحلة أخرى في العلاقات بين الروس والخزر قد قامت عندما جاء وقت توقفت – كما يبدو – عنده السلطات في أتـــل – خزران عن إعطاء الإذن بمرور مثل هذه الأساطيل الحربية الأجنبية عبر الفولغا وكما سلف بنا القول تحدث يوسف في النص المختصر من الوثيقة قـــائلاً : « إنني أعيش على فم نهر أتل ، ولا أسمح للروس الذين يأتون بسفنهم بالمرور إلى بـلاد العرب، ومثل ذلك إنني لا أسمح لأي من أعدائهم الذين يـــأتون براً بالمرور إلى بلادهم ، إني أعالج حرباً صعبة معهم ، إنني لو أذنت لهم فلسوف يجتاحـــون جميع ديار العرب وصولاً حتى بغداد » ، وجاء هذا الحديث بصورة أوسع في النص الطويل حيث قال : « أعلم وأفهم أنني أعيش عند فم النهر ، وأقوم بعون القدير بحراسة فم النهر ولا أسمح للروس الذين يأتون بالسفن بالذهاب بحراً ضد العرب ، ولا لأي عدو بالقدوم براً والوصول إلى [باب الأبواب ؟] [3] ، إنني أقاتلهم ، ولو سمحت لهم لساعة واحدة لاستطاعوا اجتياح جميع بـلاد العرب وصولاً حتى بغداد وبلاد الـ . . . » ، وهكذا علينا أن نفهم أنه مع سنة ٩٦٠ م

---

(١) حدود العالم : ٢٩ ، ١٤٤ . ويذكر ابن الفقيه أن عدداً كبيراً من القرى ، معظمها خرائب في أحواز برذعة قد احتلها الروس (مخطوطة مشهد : ١٨٩ هـ) .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة روس .

(٣) حرفيا « إلى الباب » (شعار) وجرى في مكان آخر من الرد استخدام عبارة شعآر باب الأبواب (الفصل السادس ، الحاشية ١١١) .

اعتبر الخاقان أنه من الضروري ابقاء الروس بعيداً ومنعهم من الهبوط من الفولغا إلى بحر قزوين .

ومن الواضح أن هذه الحملات قد زودت الروس بحكايات لنقص وهزائم ليثأروا لها وينتقموا ، وأكثر أهمية من هذا هو أنهم لا بد قد كونوا فكرة جيدة حول طبيعة الدفاعات الخزرية ومدى قوتها ، ومع هذا يلاحظ أن حركة المواصلات والسفر المعتادة قد استمرت هبوطاً مع الفولغا [1] ، ولعل الخزر قد قرروا من جانبهم إغلاق النهر في وجه الأسطول الحربي الروسي بعد حملة ٣٣٢ هـ/٩٤٣ م ، ولعله إذا كان لتغيير السياسة المشار إليه من نتيجة ، فإنها تبدت في قيام آخر الحملات الروسية وأعظمها في بلاد الخزر ، وهي حملة قامت بعد قرابة العشرين سنة .

وتبعاً للتاريخ الروسي هزم سفياتوسلاف Sviatoslav حاكم الروس الكيفيين الخزر بقيادة خانهم (خاقان) واستولى على مدينتهم المعروفة باسم بيلا فيزها Bielaviezha ثم أخضع الياس Yas والكاسوغ Kasogs ومن ثم عاد إلى كييف [2] ، وجرت العادة أن نقول : إن المقصود بـ « بيلا فيزها » [البرج الأبيض] [3] هو ساركيل [4] ، ويعترض مرقوارت على هذا بقوله إن عاصمة الخزر قد عرفت أحياناً في المصادر العربية المبكرة باسم « البيضاء » وأنها هي المعنية هنا [5] ، وإذا صح وكان الهجوم ضد العاصمة الخزرية فمن الطبيعي أن نفكر أنه تم بوساطة الأسطول وليس بوساطة قوات برية ، ولم يرد

---

(١) انظر الحاشية ١٣ .

(٢) المؤرخ : ٣٢ .

(٣) أو « الخيمة البيضاء » انظر مرقوارت : ٣ .

(٤) المعادل الإغريقي لساركيل هو « أسبرون هوسبشن » وهو له معنى مماثل ، انظر الفصل السابع .

(٥) مرقوارت : ١-٣ . انظر الفصل الثالث من أجل البيضاء .

في « التاريخ الروسي » أية حديث عن سفن جرى استخدامها من قبل سفياتو سلاف في سنة ٩٦٥ م ، ومع هذا هناك شهادات مستقلة تشير إلى أن خزران – أتل قد سقطت بالفعل في حوالي هذا التاريخ في أيدي الروس [١] ، وعلينا بالطبع أن نتوقع وجود إشارة ما لقضية هامة كهذه في « التاريخ الروسي » ، ومن الصعب أن نفهم لماذا نال الاستيلاء على قلعة الدون – إذا صح وكان هنالك استيلاء على ساركيل – الذكر وأهمل ذكر الأحداث الأخرى ، وبناء عليه نرى أن رأي مرقورات يحمل حظاً كبيراً من الصحة .

أما بالنسبة لتدمير خزران – أتل فليس هنالك أدنى شك ، فقد ذكر ابن حوقل وهو يعقب على رواية الأصطخري ، ذكر في أكثر من مكان أنها دمرت من قبل الروس ، وأعطى تاريخاً لذلك سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ – ٩٦٩ م ، وقد قال ابن حوقل أثناء حديثه عن بلدة بلغار الفولغا : وكانت مركزاً معروفاً لتجارات هذه البلاد [أي البلدان الشمالية] ثم نهبها الروس في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ودمروا تماماً : خزران وسمندر وأتل [٢] ، وقال ثانية وهو يتحدث عن تجارة الفراء : « ولم يزل كذلك إلى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، فإن الروس خرّبوا بلغار وخزران » [٣] ، وأشار ابن حوقل في نص ثالث إلى مصدر معلوماته عن الروس بقوله : « وكانت بها (سمندر) بساتين كثيرة يقال إنها كانت تشتمل على نحو أربعين ألف كرم [٤] ، وسألت عنها بجرجان سنة ثمان وخمسين ، رجلاً قريب عهد بها ، فقال: وليس هناك كرم أو بستان ما له على المساكين صدقة إن كان بقي هناك ورقة على ساق ، وقد أتى عليها الروسية ، ولم يبق بالبلد عنبة ولا زبيبة ، وكان يسكن هذا البلد المسلمون وطبقات أهل الملك والوثنيون فجلوا ،

---

(١) انظر ما يلي ،

(٢) تحقيق كريمر : ١٥ .

(٣) تحقيق كريمر : ٣٩٢ .

(٤) رقم الاصطخري هو / ٤٠٠٠ انظر الفصل الخامس .

ولفضل أرضهم وحسن ريعهم ، فلن تمضي ثلاث سنين إلا وقد عاد كما كان[1]،
وأوحى هذا النص إلى بارثولد أن تاريخ ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م لربما تشير إلى وقت
زيارة ابن حوقل إلى جرجان وليس إلى حملة [2] سفياتو سلاف ، ومن المؤكد
أننا إذا افترضنا أن ابن حوقل قد أعطى انطباعاً أن نهب وتدمير بلاد الخزر قد
حدث في أوائل تلك السنة ، فإننا بذلك نمتلك شرحاً للخلاف حول التأريخ .

ولقد حاول زكي وليدي أن يجد في هذا النص ما يعطي الانطباع أن الحملة
الروسية قد جرت في سنة ٩٦٥ ، حسبما جاء في التاريخ الروسي [3] ،لكن هذا
اقتضى منه إعادة صياغة كلام ابن حوقل وورطه في تغيير كلمات مصدر
معلوماته حيث غدت كما يلي : « ولفضل أرضهم وحسن ريعهم » فلم « تمض
ثلاث سنين إلا وقد عاد كما كان » ، وهذا العمل مرفوض تماماً [4] ، وواضح
التصنيع ، وعرض مرقوارت أن « اليـاس » و « الكاسوغ » الذين أتى على
على ذكرهما التاريخ الروسي . وبيّن أن سفياتو سلاف قد هزمهما بعد الإستيلاء
على « بيلا فيزها » ما هما إلا « اللان » (أس As) القاطنين في القوقاز
« والكشك » الذين عاشوا على مقربة من القوقاز ، فلعلهما كانا من رعايا الخزر[5]،
وبناء على هذا ينبغي أن نعتبر أن التاريخ الروسي لم يكتف بإعطاء التاريخ
الصحيح لحملة سفياتو سلاف الناجحة في سنة ٩٦٥ ، بل أشار إلى شيء يشبه

---

(١) تحقيق كريمر : ٣٩٣ .

(٢) الموسوعة الإسلامية ، مادة بلغار .

(٣) ابن فضلان : ٣١٩ ، الحاشية .

(٤) « فلن تمضي ثلاث سنين » هذا ما جاء بالنص .

(٥) مرقوارت : ٢ / ٧٩ : . واستخرج « كشك » و « كاسكيه » (تنبيه : ١٨٤) :
كسخيه (قسطنطين بورفي ، الادارة الامبراطورية : ٤٢) رد يوسف النص القصير « كاصا »
وقد صحح في النص الطويل « كاصا » وتبعاً لحدود العالم : ٤٨ كانت كاسك في بلاد اللان
وجاء فيه كساك أيضاً . انظر الفصل الرابع ، الحاشية ١٠٤ ، انظر أيضاً الفصل الخامس .
وانظر أيضاً مينورسكي « عبر القوقاز » المجلة الآسيوية : ٢١٧ (١٩٣٠) ٧٣ - ٩٠ .

الوصف الكامل لحملته [١] ، وبالمناسبة يمكن أن نشير إلى أن النظرية القديمة التي تربط بين الخزر والكوزاك Cossacks » [٢] هي قطعاً مسوغة إذا أمكن أن نؤكد أن الكوزاك هم الكاسوغ .

وفيما يتعلق بإغارة سفياتو سلاف التي ورد ذكرها في التاريخ الروسي ، لقد ارتأى مرقوارت فيما بعد أنها امتدت إلى ساركيل فقط ، ثم قال بعد ذلك : إنّ نهب وتدمير بلاد الخزر حسبما تحدث ابن حوقل ، قد وقع بالفعل سنة ٩٦٨م ، لكن الذين كانوا مسؤولين عنه لم يكونوا روس كييف رعايا سفياتو سلاف ، ولهذا لم يرد ذكره في التاريخ الروسي [٣] ، وبالنسبة لهذه الفرضية بات من غير المستبعد أن تكون ساركيل قد انتزعت من الخزر سنة ٩٦٥ ، وأن بلاد الخزر قد تعرضت للنهب والدمار في سنة ٩٦٨ م على أيدي أعداء آخرين ، لكن دون أن يأتي التاريخ الروسي على ذكر أي شيء حول هذا الحدث الجلل ، وعلى العموم : إن هذا الحل الأخير يدين نفسه بنفسه ، فما جاء في التأريخ الروسي حول سنة ٩٦٥ م كما أبدت تحليلات مرقوارت ، يظهر أن مجال اهتماماته كان أوسع من حصن الدون والمناطق المجاورة له ، ومن الواضح أنه كان يدون أخبار انتصارات روسية حصلت في الأراضي الخزرية الشمالية من القوقاز ، وهو مطابق تماماً لما نفهمه مما جاء عند ابن حوقل ، ولم يكن هنالك أكثر من حملة عامة مدمرة في بلاد الخزر في تلك السنوات ، والتاريخ الذي حدد لها وهو ٩٦٥ م هو تاريخ صحيح ، على الرغم من ابن حوقل ، فهذا ما نجده في نص مصدر عربي آخر .

---

(١) إن افتراض غراتز (Geschichte , v , 307) أن سفياتو سلاف قد أغار على بلاد الخزر في سنة ٩٦٥ (ساركيل) وثانيه في سنة ٩٦٨ (أتل وسمندر) لا يعتمد على مصدر .

(٢) مثالاً على ذلك فر . بودنستديت « شعوب القوقاز » فرانكفورت ١٨٤٨ : ٢٣٨ . وحديثاً . أو . برتساك « در - اسلام » ب . ٣ (١٩٥٢) : ١١٣ .

(٣) مرقوارت : ٤٧٤ .

فقد روى ابن مسكويه (ت : ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م) في تاريخه أنه قامت في سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م طائفه من الترك بالنزول على بلاد الخزر ، ولهذا طلب الخزر مساعدة أهالي خوارزم، وقد رفض الخوارزميون في البداية على أساس أنهم كانوا يهوداً ، وقد أخبروهم أنهم إذا أرادوا الحصول على المساعدة عليهم اعتنـــاق الإسلام ، ووافق الخزر على ذلك واعتنقوا جميعاً الإسلام فيما عدا ملكهم [1] ، وقد أثار تفسير عبارة « أهالي خوارزم » خلافات في الآراء ، فقـــد افترض مرقوارت [2] أن المعني هنا « الأرسية » من سكان بلاد الخزر الذين كانوا بالأصل من خوارزم [3] ، في حين رأى زكي وليدي أن المقصود بذلك أهل خوارزم أنفسهم [4] ، ومهما يكن من أمر فهناك إجماع على أن المعني « بالترك » في هذه الرواية هم الروس ، وهكذا نجـــد أن كاتباً حذراً مثل بارثولد قد أعلن أن الحديث أراد هنا حملة سفياتو سلاف [5]، ونقل ابن الأثير (ت : ٦٣ / ١٢٣٤م) خبر مسكويه هذا ، وأضاف إليه : إن ملك الخزر تبنى الإسلام فيما بعد [6] ، وبناء عليه يمكننا باطمئنان أن نعدّ هذا الخبر تأكيداً مستقلا بالنسبة لافتراض سنة ٩٦٥ السنة التي أغار بها الروس على بلاد الخزر [7] .

---

(١) تحقيق أمدروز : وجاء الخبر تبعاً لبارثولد (الموسوعة الاسلامية ، مادة خزر) من عند ثابت بن سنان ،الذي توفي سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥ (بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي : ١/٣٢٤).

(٢) مرقوارت : : .

(٣) تماماً ، تبعاً للمسعودي « من أحواز خوارزم » انظر الفصل السابع .

(٤) ابن فضلان : ٣٢٠ .

(٥) الموسوعة الإسلامية ، مادة خزر .

(٦) ٨ / ١٩٦ . وظهر الخبز أيضاً (بتاريخ ٢٥٤ هـ بشكل خاطيء) لدى الدمشقي (توفي ٧٢٧ / ١٣٢٧) تحقيق مهرن : ٢٦٣ .

(٧) ومع هذاهنالك مخرج آخر قدمه فالييف(القوط : ١٢٠) يمكنه أن ينقذ تاريخ ٩٦٨ الذي قدمه ابن حوقل بشأن دمـــار خزران ، أتل من قبل سفياتو سلاف أثناء اغارته على بيلا فيزها (ساركيل) وأسس هذا المخرج على قطعة توبراغ القوطية(الفصل الرابع، الحاشية ١٤٤)==

وينبغي معاملة رواية مسكويه بشيء من الحذر ، لكن بارتولد غير محق في رفضه لها واعتبارها رواية غير تاريخية ، فلقد سبق ورأينا من قبل حـــاكماً خزرياً قد قـــام تحت تأثير ضغط الظروف بتبني الإسلام بشكل مؤقت [1] ، وليس من غير الممكن أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث على الأقل عندما كانت المساعدة الإسلامية ضرورية لصد الغزاة الروس ، وهنالك إشارات مستمرة إلى الخزر على أنهم مسلمون بعد هذا التاريخ ، فعندما تحـــدث المقدسي عن بلدة « خزر »[2] (لا شك أنه أراد خزران) قال إن السكان قد هجروها في مرحلة من المراحل وذهبوا إلى الساحل ، لكنهم عادوا الآن (أي حوالي سنـــة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ ،عندما كان المقدسي يكتب) وهم ليسوا يهوداً لكنهم مسلمون، وينبغي أن نلاحظ أن المقدسي قد سمع عن الحملة الروسية لكن من الواضح أنه لم يربط إخلاء خزران بما حدث فيما بعد ، وعلى الرغم من أنه قد قيل إنه كان

= التي تقدم شواهد فلكية ، وتبعاً لما رآه فازلييف حاول الخزر سنة ٩٦٢ استعادة حكمهم السابق في القرم (الذي انتهى بفعل ازدياد قوة البشنـــاق والدعم الذي تلقوه من البيزنطيين في بداية القرن العاشر ، فازلييف المصدر نفسه : ١١٦) حيث استخدموا عدداً كبيراً من الخيول والرجالة وقد دمروا عشرة مدن وأكثر من خمسمائة قرية في القرم (المصدر نفسه : ١٢٩) وتوجه في شتاء ٩٦٢ قوط التوبراخ إلى كييف للحصول على المساعدة من سفياتوسلاف وروسه، ووجدوه في كانون الثاني ٩٦٣ عائداً من رحلة (المصدر نفسه : ١٣٠) (إن هذه الزيارة المدعاة إلى كييف هي نوع من أنواع المغامرات ويبدو أنها مخترعة) وبالمحصلة زحف سفياتوسلاف ضد الخزر في الموسم التالي (٩٦٣) واستولوا على مدينتهم بلا ، فيزها ، وكما يقول المؤرخ وقبل سنة ٩٦٥ زحف ضد الياس والكاسوغ ، وتمكن الروس في أواخر الستينات من القرن العاشر من سحق دولة الخزر (المصدر نفسه : ١٣٤) . وإذا صح خبر الهجوم الخزري على القرم في أنه وقع سنة ٩٦٢ فإنه من الصعب اعتباره الحادثة نفسها التي وصفت في وثيقة كمبردج التي إذا صحت لا بد أنها كتبت قبل ذلك .

(١) انظر ما سبق ، الفصل الرابع .

(٢) المقدسي : ٣٦١ .

«واحداً من أعظم الجغرافيين في جميع العصور [1]» نجد من الصعب تأكيد صحة ما ذكره عن بلاد الخزر، حيث يبدو أن مصادره لم تكن طيبة [2]، ومع هذا فإن ما ذكره المقدسي عن عملية الإخلاء هذه والعودة علينا أن نقبله، لأنه وثّق وأكد بشكل أكثر تفصيلاً من قبل ابن حوقل، الذي من المرجح أنه لم يكن مصدره، وقد أخبرنا ابن حوقل أولاً [3] أنه عندما هرب الخزر من الروس ذهب بعضهم إلى جزيرة سياه كوه على الشاطىء الشرقي لبحر قزوين، انسحب آخرون جنوباً إلى إحدى الجزر أمام ساحل «بلاد النفاطه» [4] وهو المكان الذي كان الروس قد وقفوا فيه بنجاح سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م ضد شروان شاه تلك الأيام [5]، ويبدو أن زعماء الخزر الأحيــاء قد قاموا بعد هجوم الروس لسنة ٩٦٥ م بالاتصال بشروان شاه ذلك الحين، واستطــاعوا الحصول على مساعدته، ذلك أننا نجد ابن حوقل يستطرد في خبره فيقول [6]: «ولم يبق في وقتنا هذا [حوالي سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م] للبلغار ولا لبرطاس ولا للخزر أهل الروس بقية إلا شعثة ناقصة قد جاسوها، وذلك بقصدهم الجميع وبلوغهم في سائر مجاوريهم فوق آمالهم، وقد بلغني أن كثيراً منهم رجعوا إلى أتل وخزران

---

(١) بارثولد، تركستان (سلسلة ذكرى جب) ١١ :

(٢) لقد تحدث عن البلغار «حيث الليل قصير» (انظر الاصطخري، النص المنقول أعلاه، الفصل الخامس) وبما أنهم كانوا أقرب إلى بحر قزوين أكثر منهم إلى عاصمة الخزر فقد حاول زكي وليدي (ابن فضلان : ٢٠٦) رفض ذلك لدى إشارته إلى مستوطنة جديدة للبلغار في حوض الفولغا الأدنى بعد تدمير مدينتهم التي كانت موجودة في الحوض الأعلى، لكن المقدسي لا يمتلك فكرة واضحة عن خزران أتل (انظر موقوارت : ٣) ولعله مضطرب حول موقع البلغار.

(٣) تحقيق دي غويه : ٢٨٢.

(٤) سماها ابن حوقل «جزيرة باب الأبواب» انظر مرقوارت : ٢، الحاشية ١.

(٥) انظر ما سبق، الفصل السابع.

(٦) تحقيق كريمر : ٣٠٩٧.

بإعزاز محمد بن أحمد الأزدي صاحب شروان شاه لهم[1]، وتأييدهم برجاله وقومه وهم [أي الخزر راجون مؤملون أن يعاهدوهم [الروس؟] ويكونوا تحت طاعتهم بشيء من البر يقيمونه لهم ، وهنا ربما تكون مساعدة شروان شاه قدمت مشروطة بقبول الإسلام، وليس ذلك من المستحيلات ، لا سيما أن أوضاع الخزر كانت سيئة إلى حد خطير جداً كما هو مفترض .

زد على ما سبق روى المقدسي أنه قد سمع أن المأمون قد أغار على بلاد الخزر من كركانج (الجرجانية) وبعدما هزمهم دعاهم إلى الإسلام [2]، وهذه إشارة أخرى إلى الخزر كمسلمين والأمر مرتبط مع خوارزم على أساس أنها المصدر صاحب المكانة في الموضوع وربما كان ذلك في الوقت المذكور سابقاً ، ذلك أن بارتولد الذي رفض هذا الخبر ولم يعتبره تاريخياً [3] ، أنكر أن يكون المشار إليه الخليفة المأمون العباسي ، بل المأمون بن محمد الذي كان في البداية حاكماً لكركانج (الجرجانية) ثم لجميع مناطق خوارزم بعد سنة[4] ٩٩٥م، هذا ويلاحظ أن المقدسي قد أشار أكثر من مرة إلى ما يفيد بوجود روابط بين خوارزم وتاريخ الخزر في هذه الفترة ، فقد قال : إن مدن الخزر قد جرى احتلالها أكثر من مرة من قبل حكام كركانج [5] .

---

(١) هذا واضح ومفهوم في النصوص الأخرى (دي غويه : ٢٨٦) يعني أن الملاحظات حول شروان شاه مقحمة بالأصل .

(٢) تحقيق دي غويه : ٣٦١ .

(٣) الموسوعة الإسلامية ، مادة خزر .

(٤) لا توجد إشارة في مكان آخر حول أية انجازات من جانب المأمون الخليفة العباسي . ووجد مرقوارت صعوبات جمة لدى محاولته إيجاد مكان لها في خلافة المأمون (٣ - ٤) هذا ومن المدهش أن نجد أن المقدسي كان يشير إلى المأمون بن محمد في سنة ٣٧٥ / ٩٨٥ باسم المأمون بكل بساطة وكأنما لم يكن هنالك أدنى احتمال للمزج بينه وبين آخر وذلك قبل عشر سنوات من حصوله على لقب خوارزم شاه (انظر مينورسي ، حدود العالم : ١٧٤) .

(٥) دي غويه : ٣٧١ ، الحاشية .

ومع أن شروان شاه محمد بن أحمد الأزدي هو شخصية غير معروفة[1]، فليس لدينا من سبب للشك في ظروف رواية ابن حوقل وأن الخزر قد عادوا إلى ديارهم بفضل مساعدة جاءتهم من شروان، هذا وإننا سنرى شروان شاه والخزر على اتصال مرة أخرى وأن الوصف الخاطىء للملك الخزر من قبل ابن اسفنديار باسم «شروان شاه» لم يكن من باب المباهاة[2]، كما أن الربط بخوارزم الذي جاء بعد هذا وقدمه المقدسي يمكن التمسك به، مع أننا لا نمتلك في الوقت الحاضر معلومات حول الظروف، فعلاقات الخزر مع هاتين الدولتين المسلمتين بعد الحملة الروسية ينبغي أن تبقى في الوقت نفسه مسألة اجتهادات وفرضيات، ومهما يكن من أمر، فمن الواضح أنه لا يمكننا الحديث بثقة بعد ٩٦٥ م عن دولة يهودية مستقلة قائمة على الفولغا، هذا وإن صورة بلاد الخزر كما عرضتها صفحات ابن رسته وابن فضلان والمسعودي والأصطخري وابن حوقل تتباين بشكل معتبر، لكن الخطوط الأساسية تبقى هي ذاتها، والمقصود بذلك: الملك المزدوج، وانعزالية الرأس الأسمي للدولة، واعتناق اليهودية، فهذه أمور قد أكدتها مصادر أخرى، ولا نمتلك - فيما بعد - مثل هذه الأوصاف لدى الكتاب المسلمين، كما أنه ليس هنالك أدلة مؤكدة في مصادر أخرى تبين أن السمات البنيوية لبلاد الخزر قد احتفظ بها، ذلك أن مملكة الخزر بشكلها المعهود لم تعد باقية إثر الحملة الروسية، هذا ويبدو بالمقابل أنه من المستبعد القول: إن اعتناق الإسلام قد أصبح عاماً بين الخزر الذين عادوا إلى بلادهم، كما تريد مصادرنا أن تقول، مع أن مجالس إدارتهم

---

(١) كذلك بارتولد، الموسوعة الاسلامية، مادة خوارزم شاه، انظر مينورسكي حدود العالم: ٤٠٦. هذا وإن ذكره في ابن حوقل (تحقيق دي غويه: ٢٥٠، ٢٥٤) تحت عنوان «صاحب شروان شاه» قد لا يعني لقبه بل اسم مكان هو «شروان شاه». انظر الفصل السابع، الحاشية ٢٥٣

(٢) المصدر نفسه

لا شك قد شهدت ممارسة مؤثرات جديدة ، ولم تكن هذه المؤثرات روسية ، ذلك أن سفياتو سلاف قد غادر بلاد الخزر بعد انتصاره هناك [1] - كما يقول بارثولد [2] - بغية الانضمام إلى القوات البيزنطية ضد بلغار الدانوب [3] ، وقد اعتبر بارثولد هذه الحادثة على أنها ذات أهمية عظيمة بالنسبة للتاريخ الروسي ، فلو أن الروس قد بقوا على الفولغا لكان من المؤكد - كما يرى - خضوعهم للثقافة الإسلامية [4] .

ويبدو من خلال ما جاء عند ابن حوقل وعند المقدسي أنه جرت محاولة لإعادة بناء العاصمة الخزرية ، لكن هذا أخفق في أخذ صفة النجاح الدائم ، وذلك في ضوء إشارة ورد فيها : أن أتل كانت خراباً [5] أيام البيروني (ت : ٤٤٠ هـ ١٠٤٨ م) ، ويفترض أن بلدة سقسين قد احتلت مكانها ، وهنالك احتمالات في أن سقسين هي أتل - خزران نفسها أو على الأقل لم تقع بعيدة عنها ، وأن الاسم يمكن أن يكون بعثاً لإسم سارغشين القديم [6] ، هذا

---

(١) قال ابن حوقل (تحقيق دي غويه : ١٤) إن الروس قد غادروا .

(٢) في كتابه بالروسية اكتشاف آس (١٩٢٥) (ترجمة فرنسية من قبل ب . نكتين ، باريس ١٩٢٧ : ١٩٥) .

(٣) تبعاً لجيبون (فصل ٥٥) كان برفقة سفياتو سلاف في حملته بعض الخزر .

(٤) نقل أعلاه .

(٥) انظر زكي وليدي ، ابن فضلان : ٢٠٦ .

(٦) كذلك مينورسكي ، حدود : ٤٥٣ . نقلاً عن وستبيرغ وبوليان (التحول : ٢) وقد حاول هنالك أن يرى أن سقسين كانت قائمة في أحواز ستالينغراد الحالية (تساريتسين) وافترض أنها كانت مدينة هامة قبل سنة ٩٦٥ (المصدر نفسه : ١) ومع أنه كان من الممكن وجود مركز حصين للخزر يشرف على نقطة لقاء الفولغا بالدون (خليج ، تبعـاً لفرنادسكي ، روسيا القديمة : ٢١٥) لا يوجد شيء مؤكد في مصادرنا ، وقام رأي بولياك في أن سقسين قد وجدت قبل ٩٦٥ على أساس أنه ورد ذكرها في جوسيبون وفي كتاب جسر ، وذلك اعتماداً على تحديدات ماركفي لصيغ وأشكال الأسماء في هذين الكتابين بما في ذلك صيغة سقسين ، لكن هذا كله لا يعدو الافتراضات ولا يمكن التأكد أنها تعود إلى فترة متأخرة (انظر الفصل السابع ، الحاشية ٢٧٢) .

ولسنا على يقين أن سقسين كانت موجودة في أيام البيروني ، فهو لم يـــأت على ذكرها [١] ، بيد أنه من المؤكد أنها كانت مزدهرة في القرن الثاني عشر ، عندما تحدث أبو حامد الأندلسي (حوالي ١١٥٠) عنها لدى الحديث عن خوارزم ، وأن البلغار قائمون فوقها على مسافة أربعين يوماً ، كما أن القزويني قـــد ذكرها [٢] ، أما أحمد الطوسي فقد تحدث عن سقسين على أنها بلدة كبيرة على الفولغا ، وليس هناك بلدة أعظم منها في تركستان [٣] ، وقد ورد ذكرهـــا مراراً في تاريخ وأخبار الحملات المغولية [٤] ، وأخيراً اختفت من الوجود [٥] ، ربما بفعل عوامل طبيعية ، ثم قام (باتو) حفيد جنكيزخان ببناء سراي ــ ربما سراي باتو ــ في موقعها [٦] ، ومن المحتمل أن تكون سقسين قـــد بنيت

---

(١) زكي وليدي ، ابن فضلان : ٢٠٦ .

(٢) تحقيق فيراند : ٨٧ ، ١١٧ ، انظر الحاشية ٧٣. وهنالك إشارة مشابهة في القزويني تحقيق ورستنفيلد : ٢ / ٤٠٢ حيث ذكر أن سقسين « بلدة كبيرة وكثيرة السكان بين بلدان الخزر ويحتلها أربعون قبيلة من قبائل الغز .

(٣) زكي وليدي ، ابن فضلان : ٢٠٥ . عاش أحمد الطوسي في القرن الثاني عشر .

(٤) ذكر الجويني (١ / ٣١) أن اقطاع جوجي الابن الأكبر لجنكيز خان امتد من قيليغ (قرب بحيرة بلخش ، انظر مينورسكي ، حدود : ٢٧٧) وخوارزم إلى غاية سقسين وبلغار ، ويقول رشيد الدين (تحقيق بلوخت : ١٨) عندما خلف أوغداي جنكيز خان بعث ثلاثين ألفاً من الفرسان ضد خوارزم شاه ، ثم أرسل كوكتاي وسوبتاي بها در مع قوة مماثلة ضـــد القبجـــاق ، وسقسين وبلغار (انظر الجويني : ١ / ١٥٠) وثانيـــه بعد وفاة أغدالي رفض باتوخان بن جوجي القدوم إلى المجمع المغولي من اقطاعه في سقسين وبلغار(الجويني : ١/٢٠٥) ويمكن أن نقارن أيضاً ما ذكره الجويني : ١ / ٢٢٢ قوله عندما جلس القان (أوغداي) على العرش أخضع جميع البلاد الواقعة على مقربة منه ، وهي بقـــايا القبجاق واللان والآس والروس والبلغار أيضاً وآخرون ، ويستدل من هذا أن بلغار الفولغا ظلوا موجودين حتى أيام المغول ، لكن من الصعب الحديث عن بقاء الخزر .

(٥) وكذلك بكوي (بروكلمان : ٢ / ٢١٣) .

(٦) وكذلك وصاف نقلا عن زكي وليدي ، ابن فضلان : ٢٠٤ الحاشة ١٠ كما يبدو نقلا عن الجويني (١ / ٢٢٢) .

وسميت بالأصل من قبل الخزر ، ولا يمكننا أن نغفل أهمية القول : إن أياًمن النصوص التي جاء ذكرها بها (فيما عدا القزويني الذي هو مصدر من الدرجة الثانية) قد قالت إنهم تملكوها أو كان سكانها من اليهود [١] .

ولقد قيل مراراً : إن الحملة الروسية قد أدت إلى تدمير الدولة الخزريةوعلى هذا الأساس نجد أبا الفداء (١٢٧٣ - ١٣٣١) يتحدث عن « الخزر وبلاد الخزر »وعن دمارهما من قبل الروس[٢] ، مشيراً بذلك - كما يبدو - إلى واقعة سنة ٩٦٥ م المرعبة ، وذكر في العصور الحديثة كيونك [٣] وهووورث [٤] ومرقوارت [٥] ، وهم قليل بين عدد كبير من الباحثين [٦] ، الشيء نفسه ، ولا يتعارض الخبر الذي نقلناه الآن وهو الذي يظهر أن بقايا الخزر والأحياء منهم قد عادوا إلى بلادهم ، مع الرأي المحافظ القائل إن دولة الخزر لم تعد موجودة كدولة مستقلة منذ القرن العاشر ، ويلاحظ بالمقابل أن بعض الكتاب قد شرع يقول - على الأقل منذ أيام رسموسين [٧] Rusmussen - : إن دولة

---

(١) وتبعاً لأبي حامد الأندلسي (فيران ١١٦) كان في سقسين في أيامه علماء مسلمون) ومساجد وأسواق وقصور وأسرى من سقسين في أيدي الأتراك (قبجاق أوغز ، انظر القزويني الحاشية ٦٨) وينبغي أن يكون التاريخ حوالي ٥١٥ / ١١٥٠ .

(٢) تحقيق رينو ودي سلان : ٢٠٣ .

(٣) البكري ، تحقيق كونك وروسن ، سانت ، بطرسبرغ ١٨٧٨ : ٧٣ - ٧٤ (اقتباس وسبيرغ ، إبراهيم بن يعقوب : ٧٩) وتبنى كونك فيما بعد الرأي القائل إن الخزر استمروا بالوجود .

(٤) هل كان الخزر ايغور أو ترك ؟ مؤتمر المستشرقين الثالث (١٨٧٩) : ٥ / ٢٧ .

(٥) مرقوارت : ٥ / ٢٧ .

(٦) أوضح الأستاذ مينورسكي إلى أن غياب ذكر الخزر فيما يتعلق بهجرة القبائل من بلاد المغول في القرن الحادي عشر يمكن أن يعني أن دولتهم قد توقفت عن الوجود كدولة لها أهميتها منذ النصف الثاني من القرن العاشر (مروزي : ١٠٣) .

(٧) المجلة الآسيوية : ١ / ٥ (١٨٢٤) ٣٠٦ .

الخزر قد اختفت أخيراً وزالت من الوجود في القرن الثالث عشر فقط ،وذلك نتيجة للحملات المغولية ، وناقش بولياك [١] هذا الرأي في أيامنـــا بشكل حماسي شديد .

وقبل تفحص المزيد من الروايات ، من الممكن إبداء الرأي التالي : لا شك أن المصدر الحاسم بالنسبة لمـا قيل بأن الروس قد دمروا دولة الخزر في القرن العاشر ، هو من غير شك ابن حوقل ، الذي سبق لنا أن نقلنا كلمـــاته حول الموضوع ، هذا ويلاحظ أن ابن حوقل يتحدث بشكل حاسم عن دمار بلغـار وسط الفولغا ، وهنا من المؤكد أن هؤلاء البلغار كانوا يشكلون مجتمعاً مزدهراً في أيام الحملات المغولية في القرن الثالث عشر ، فهل بعد هذا كان تدمير دولة الخزر تدميراً مؤقتاً أيضاً ؟ [٢]

فقد ذكر التاريخ الروسي أن بعض الخزر اليهود مثلوا في سنة ٩٨٦ م أمام فلادمير ، ربما في كييف ، ودعوه إلى اعتناق عقيدتهم ، وتحدث هذا التاريخ عما حدث بالتفصيل ووصف حضور جماعات من اللاتين والإغريق والمسلمين و كذلك من اليهود وتناقشهم أمام الحاكم الروسي بشأن عقائدهم [٣] ، وقد اعتبرت هذه الرواية من قبل عدد من النقاد رواية [٤] مدسوسة ، ومع ذلك إن وجود يهود خزر في كييف في تلك الآونة هو في حد ذاته ليس من الأمور المستبعدة ، وتتيح لنـا أوضاع فلادمير القول : إن شيئاً من البحث الديني ربما قام قبل تعميده ،وحاجج غراتز Gratz لصالح هذه الرواية وقال إنها صحيحة ، وقد جعل المبشرين اليهود يأتون إلى روسيا من القرم ، حيث – تبعاً له – قام الناجون من الهجوم الروسي على بلاد الخزر في عام ٩٦٥ بإعادة تنظيم أنفسهم تحت قيادة خاقان لهم

---

(١) التحول ومملكة الخزر .

(٢) انظر بولياك : التحول : فصل : ١ .

(٣) المؤرخ : فصل ٤٠ .

(٤) انظر تعقيب ليمر ، تاريخ نحلة نسطور : ٣٨٩ .

متخذين بوسبورس (كيرتش) عاصمة لهم [١] .

وبالنسبة لهذه الأقوال اعتمد غراتز على وثيقة نقل عنها ، وقد ذكرت هذه الوثيقة أنه مع عام ٤٧٤٦ للخليقة – ٩٨٦ للميلاد جاء [رسل أمير الروس و « المشك » M - sh - k] من مدينة كييف إلى « مولانا داود أمير الخزر » الذي كان كما يبدو يسكن في تمتارخا (تمان) للتباحث حول قضايا دينية ، وتبعاً للتاريخ الروسي ؛ مثل في هذه السنة نفسها اليهود الخزر أمام فلادمير ، هذا وإن التوافق بين هذه التواريخ مدهش ، ومن الصعب تجنب الشك بهذه الوثيقة التي مرت بين يدي فيركوفتش ، وتحمل – كما يقال – نغمة عصرية مع سمات الاختراع [٢] ، وبالنسبة للخاقان داود – كما يدعوه غراتز – ووجود دولة خزرية مستقلة في القرم ليس هنالك ما يؤكده في مكان آخر ، وإذا ما برهنت شكوكنا على عدم صحته ، فإن الرجل الذي أشير إليه باسم « مولانا داود » لربما كان مقدم الخزر [ولم يكن أبداً خاقانهم] [٣] في تمتارخا ، التي لربما خرجت عن أيدي الخزر في سنة ٩٨٨م وذلك عندما – تبعاً للتاريخ الروسي – تمركز فيها مستسلاف [٤] واستقر .

ولم تنقطع بعد هذا الإشارة إلى الخزر وإلى مملكة الخزر ، فتبعاً لسيدرينوس cedrenu مصدر القرن الحادي عشر ، أرسل الإمبراطور البيزنطي سنة ١٠١٦ حملة ضد بلاد الخزر تمكنت بالتعاون مع الروس من إخضاع البلاد بكل سرعة ، وإلحاق الهزيمة بحاكمها جرجس تزول Tzul في الجولة الأولى [٥] ، هذا وليس من

---

(١) Geschichte , v , 341 - 342

(٢) انظر الموسوعة اليهودية ، مادة يعقوب بن روبن (ابراهام بن سمحا الكرتشي المؤلف المعزو إليه هو شخصية مخترعة من قبل فيركوفتش) .

(٣) انظر الحاشية ٨٨ التالية .

(٤) المؤرخ : الفصل ٤٣ ، وانظر أيضاً الفصل ٥٢ .

(٥) طبعة بون : ٢ / ٤٦٤ (غروسيه ، امبراطورية السهوب : ٢٣٧) حيث تحدث عن جرجيوس تزولوس بمثابة خان للتمان .

المدهش أن نقرأ عن خزري يحمل اسم جرجس المسيحي ، ففي وقت مبكر (في القرن الثامن) كان هناك طرخان اسمه جورج [١] ، وقد ورد ذكر انتشار المسيحية بين الخزر في أكثر من مصدر ، أضف إلى هذا احتمال أن اسم «تزول» مرتبط باسم « تزور » أو « صول » وهو اسم أطلق أحياناً على ممر دربند .

والسؤال : إلى أين توجهت هذه الحملات ؟ هو سؤال يحوي بعض الأهمية ، فتبعاً لفراتز عملت هذه الحملات ضد دولة الخزر في القرم – التي برهن على وجودها من خلال الوثيقة التي سبق ذكرها – ودمرت البقية المرئية من حكم الخاقان [٢] ، وتبعاً لآخرين توجهت الحملة البيزنطية – الروسية المشتركة في عام ١٠١٦م ضد سواحل بحر آزوف [٣] ، ولم يشك كوتسشيرا Kutschera أن المقصود كان منطقة القوقاز ، ولعل مرد هذا إلى ما ذكره سيدرينوس من أنه بعد هزيمة « جرجس تزول » أرغم حاكم « صيديا العليا على تقديم الطاعة » وافترض كوتسشيرا أن هذا الحاكم واسمه في نصنا سنحريب [٤] ، كان خزرياً يحكم في منطقة من مناطق القوقاز ، لكن في جميع الأحوال من الصعب أن نتصور يهودياً يحمل هذا الإسم [٥] ، وعلى العموم ، لعله من المسوّغ لنا أن نعتقد أن الحملة البيزنطية – الروسية ضد بلاد الخزر كان هدفها الرئيسي القوقاز ، لكن علينا أن نعلم أن الوضع في تمتارخا – اعتباراً من عام ٩٨٨م عندما استقر فيها مستسلاف – ظل غامضاً [٦] .

---

(١) ترجمة ستيفن أسقف سوداك ، نقلاً عن بولياك ، التحول : فصل ٢ .

(٢) Geschichte , v , 342 .

(٣) انظر بولياك ، التحول : الفصل الأول . خزاريا : ٢١٠ .

(٤) انظر سنحريب بن سواده الصناري (الفصل السابع . حاشية ١٢٦) الذي كان أميراً مسيحياً يحكم في القوقاز في القرن العاشر (و . مينورسكي دورية معهد الدراسات الآسيوية والافريقية : ١٩٥٣ ، القوقاز ٤ ، ١٥ / ٣ / ١٩ ، ٥١٩ ، ٥٢٢ ، ٥٢٦) .

(٥) بالنسبة للموقف التلمودي تجاه سنحريب ، انظر سنهرين : ٩٤ ط .

(٦) انظر فازلييف ، القوط : ١٩٤ .

وورد ذكر الخزر في أحداث سنة ١٠٢٣م في التـــاريخ الروسي ، حيث زحف كما قيل مستسلاف ضد أخيه جاروسلاف Jaroslav ، فقد صاحبه في زحفه بعض الخزر [١] والكاسوغ [٢] ، ومن الممكن أن المعني هنـــا كان خزر تمتارخا .

ولدينا أيضاً إشارة عند ابن الأثير في عنوان من عناوين أحداث سنة ٤٢١هـ ١٠٣٠ حيث جاء « ذكر غزو فضلون الكردي الخزر [٣] » وقال بارثولد : إن فضلون هذا هو الفضل بن محمد من الأسرة الشدادية التي حكمت في كنجة [٤] واسمها الان « اليزافتبول Elizavetpol » في ما وراء القوقاز ، وتبعاً لابن الأثير بينما كان فضلون عائداً إلى بلاده بعد حملته على الخزر انقضّ هؤلاء عليه على حين غرة وقتلوا أكثر من عشرة آلاف من قواته ، وأضاف ابن الأثير : إنهم استردوا جميع الغنائم التي كان قد أخذها منهم « وغنموا أموال العساكر الإسلامية وعادوا » ويرى بولياك أن العبارة الأخيرة لها أهمية خاصة [٥] ، لأنها تدل على أن الخزر لم يكونوا من المؤمنين ، تماماً كما كانوا في الأيام الخالية ، وقبـــل مرقوارت هذا التأويل كما هو ، واعتبر هذه الحادثة هي آخر مرة يظهر فيهـا الخزر في التاريخ [٦] ، وشكك بارثولد بهذا التأويل وافترض أن الخزر لم يكونوا هم المقصودين بل أهالي جورجيا أو الأبخار ، هذا وإن حقيقة اشتراك أعداد كبيرة في العملية يمكن أن يستبعد وجود الخزر بعد تشتتهم في عام ٩٦٥م .

وتبعاً للتاريخ الروسي كان أولغ Oleg حفيد جاروسلاف في تمتارخـا في

---

(١) انظر الحاشية ٦٣ أعلاه .

(٢) المؤرخ ، فصل ٥٢ .

(٣) ٩ / ١٤٢ .

(٤) الموسوعة الإسلامية ، مادة خزر .

(٥) التحول : ١ (انظر خزاريا : ٢١٨) .

(٦) نقلاً عن بارثولد ، المصدر نفسه.

سنة ١٠٧٨ م ، وقيل إنه أسر في العام التالي من قبل الخزر ، وحمل بحراً إلى القسطنطينية ، ويظهر هذا بيزنطة وكأنها تنشط بين الفريقين من روس وخزر ، المتنازعين على السلطة في تمتارخا وتثيرهما ضد بعضهما وتستغل ذلك لصالحها ، وفي حوالي الوقت نفسه قتل رومان أخو أولغ من قبل البولوفتسي Polovtsi ثم عاد أولغ من بيزنطة عام ١٠٨٣م فانتقم لأخيه من « الخزر لأنهم تآمروا على قتله وثاروا عليه[١] » ومن الممكن بالنسبة لنا أن نفهم أن الخزر هنا هم الذين قاموا بتوجيه أعمال البولوفتسي ، وبالتالي كأنهم كانوا يتحكون بعدد من الجماعات الأجنبية كما فعلوا في الأيام السالفه ، وعلى جميع الأحوال لم يمكن التعرف إلى الفئتين المذكورتين هنا ، وفي عام ١١٠٦م قيل تم صد غارة قام بها البولوفتسي من قبل زعيم روسي كان يعمل مع « إيفان الخزري[٢] » .

وهكذا لقد ذكر الخزر وبلاد الخزر بعد كارثة سنة ٩٦٥م التي أصيبوا بها ، ووجد بارثولد الذي قام بتمحيص الروايات أن النص الروسي « يشير إلى الخزر كرعايا للروس » ، وأضاف أن الاخضاع يمكن أن يقال قد شمل قطعة من شبه جزيرة القرم وشبه الجزيرة المقابلة لها[٣] ، ويشبه هذا الرأي من حيث المرتكزات رأي كلابروث Klaproth الذي افترض منذ زمن بعيد أن الخزر قد فقدوا القرم في السني الأولى من القرن الحادي عشر ، ومن ثم حصروا في منطقة قزوين وأسفل الفولغا[٤] ، وبناء عليه هل علينا أن نتصور أنه حيث لم يوجد ذكر للتحكم الروسي خاصته في المقاطعات المركزية لدولة الخزر القديمة ، أن الخزر قد احتفظوا هناك باستقلالهم ؟ الحقيقة هي أننا لم نسمع شيئاً مؤكداً

---

(١) المؤرخ ، الفصلان : ٧٠ - ٧١ .

(٢) المؤرخ الروسي ، نقلاً عن ن . ك تشادوك ، بداية ورقة ١٢٨ من المخطوطة ومن المؤكد أن تشادوك على صواب في تبيانه أن المجموع هام . انظر ما يلي الحاشية ١٥١ .

(٣) بارثولد ، المصدر السابق .

(٤) المجلة الآسيوية : ١ / ٣ (١٨٢٣) ١٥٥ .

عنهم فيما بين الفولغا والقوقاز بعد الحملة الروسية لعام ٩٦٥ م اللهم فيما عـدا أن الناجين قد عادوا [١] ، ومن الواضح أنه لمغامرة أن نفترض بما أنه ليس هنالك ما يوحي أن أسفل الفولغا كان في أيدي الروس ، فالدولة الخزريـــة لم تختف بل استمرت وهي ضعيفة حقاً صغيرة الحجم سقسين عاصمة لهـــا حتى احتلت أخيراً من قبل المغول ، إن جميع الروايات في هذا المجال - لا نقول مضطربه - بل منعدمة .

وفي المقابل إن استمرار وجود الخزر حتى أواخر القرن الثاني عشر مؤكد من قبل روايات عدة مصادر من الممكن ذكر مجموعتين رئيستين منها : وتتألف المجموعة الأولى من وثيقتين عبريتين من جنيزا القاهرة ، وهما ذواتا أهمية متميزة بالنسبة لتطور اليهودية في بلاد الخزر في الفترة السابقة لعام ٩٦٥ عندما كانت دولة الخزر مزدهرة سياسياً ، وكما قلنا عدد الوثائق اثنتان ، الأكثر أهمية منهما قد نشرها مان [٣] ، وهي تتضمن النص التالي : « في أيام الحاكم الذي كان اسمه الأفضل ، قـــام المظلومون من شعب بني إسرائيل في سبيل تأسيس نبوءة ، وتلعثموا بكلماتهم ، ففي الجبال الموجودة في بلاد الخزر قام يهودي كان اسمـه سليمان بن دوغي ، وكان اسم ابنه مناحيم وكان معهما رجل فصيح اسمه إفرايم ابن عزريا وهو من القدس يعرف بابن سهلن [٤] (سهلون ؟) ، قاموا فكتبوا رسائل إلى جميع اليهود القريب منهم والبعيد ، في جميع البلاد التي حولهم ... وقالوا

---

(١) الرحالة اليهودي ابراهيم بن يعقوب الذي تحدث عن الخزر وكأنهم ما زالوا مزدهرين في أيامه (ربما ٩٧٣) كما رأى كونك (البكري ، تحقيق كونك وروسن : ٧٤ ، نقلا عن وستبيرغ ، إبراهيم بن يعقوب : ٧٩) .

(٢) كذلك وستبيرغ : ٢٨٨ - ٢٩٢ .

(٣) مجلة الدراسات اليهودية : ٧١ (١٩٢٠) : ٨٩ - ٩٣ ، إنني لم أر مقال مان في هاتقفاه : م ٢٤ نقلا عن بولياك ، خزاريا : ٣٣٩ .

(٤) اقتراح بولياك ، انظر الحاشية التالية .

جميعاً إن الوقت الذي سيجمع الله فيه شعبه من بني إسرائيل من جميع الأراضي في القدس المدينة المقدسة ، قد حان وإن سليمان بن دوغي هو إتليا وابنه هو المسيح » ، ولاحظ بولياك [1] أن مان قد قال إن مناحيم بن سليمان بن دوغي هو مناحيم بن سليمان الروحي أو داود الروي ، المسيح المزيف ، وهو بطل إحدى روايات دزرائيلي ، وقد قيل بأنه ولد في العمادية في كردستان ، وهلك في ثورة هناك في حوالي سنة ١١٦٠م . وأوضح مان أن اسم داود هو اسم واحد ادعى أنه ملك بني إسرائيل،ولفظة الروي أو الروحي هي تصحيف لكلمة الدوغي ، وقالت وثيقة الجنيزا إن بداية هذه الحركة الدينية التنبؤية [القائمة على فكرة المسيح المنتظر] كانت في دولة الخزر ، ويعتقد بولياك أن داود الروي كان بلا شك يهودياً خزرياً ، قدم مع مؤيديه إلى العماديه في طريقهم نحو القدس ، والتأريخ الوحيد المتوفر لهذه الوثيقة هو ما ذكرته عن الحاكم المسلم الأفضل ، الذي بدأت الحركة الدينية التنبئية في أيامه ، واعتبر مان الأفضل الوزير الفاطمي المشهور الذي حكم مصر فيما بين ١٠٩٤ و ١١٢١ ، هذا وبسبب هذا التأريخ المبكر نسبياً بعض المصاعب لكن لا شك أن اقتراحات بولياك تميل نحو توضيح الغموض الذي يكتنف المشاكل في العماديه قبل موت داود الروي وذلك بتوفير بعض الضوء عن أصلها الممكن وأهميتها .

وتشير وثيقة الجنيزا الثانية أيضاً إلى قيام حركة دينية تنبئية في بلاد الخزر كما يبدو في عام ١٠٩٦م ، ونشر نصها أولاً من قبل نيبور ، وهو غامض إلى درجة لا يسمح بالوصول إلى نتائج مؤكدة ، وهو يتضمن ما يلي : « وأصاب الهلع جماعات المصلين كلها ، فعادت إلى المولى وشرعت بالصوم وتقديم الصدقات وهكذا انطلق من بلاد الخزر كما قيل سبع عشرة جماعة إلى برية الشعوب ولا نعرف إذا كانت هذه الجماعات قد التقت بأي من الأسباط أم لا [2] » ، وواضح

(١) خزاريا : ٢٣٢ وانظر : ١٥ .
(٢) الربعية اليهودية : ٩ (١٨٩٦ - ١٨٩٧) ٢٧ .

أن المسيرة نحو القدس مرآية هنا أيضاً ، ولاحظ بولياك أن عبارة « بريـة الشعوب » هي عبارة توراتيه [1] ، تبين المكان الذي سيقوم الرب فيه بصنـع ميثاق جديد مع شعبه ، قبل أن يعيدهم إلى أرض إسرائيل ، وبما أنه تبعاً لمـا جاء في الوثيقة الثانية هذه قام مؤيدوا الحركة بنقل أخبارها إلى بيزنطة ، فان العلاقات بين الخزر ويهود بيزنطة كانت موجودة ، زد على هذا لقد كان هنالك نطاق من التأثير أوسع ، شمل بشكل مباشر يهود وسط أوربا ، وفي هذا التأثير إشارة إلى يهود الخزر ، إذا صحت نظرية في أن اتخاذ « ترس داود » شعـاراً جديداً شعبياً لدى اليهود هناك قد حصل نتيجة للحركة التنبئية الدينية في بلاد الخزر .

ولا شك أن بولياك محق في لفت الانتباه إلى الأدلة حول الحركة الدينيـة التنبئية في بلاد الخزر في أواخر القرنين الحادي عشر والثاني عشر [2] ، وعندما نحاول تقديرها (مفترضين أنها كانت على مستوى معتبر) علينا أن نفكر في أن مشاكل جديدة قد حلت بديار الخزر ، وهذا واضح في القرن الحادي عشر بظهور قبائل القبجاق (البولوفتسي) المتوحشة [3] .

وجاءت في المقام الثاني الأدلة المبرهنة على استمرار وجود الخزر في شعر كتب بالفارسية في القرن الثاني عشر ، فلقد سبقت الإشارة إلى ملحمة نظامي (حوالي ١١٤١ - ١٢٠٣) حول الإسكندر الكبير ، حيث أتى - بشكل غير متوقع - على ذكر الروس والخزر [4] ، وذكر الخاقاني (حوالي ١١٠٦ - ١١٩٠) وهو معاصر له أسن منه ، الروس والخزر في مديحه لأخستان الذي كان شروان شاه

---

(١) إزك : ٢٠ ، ٣٥ ، انظر خزاريا : ٢٣٢ .

(٢) خزاريا : ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٣) ما بناه لاندو على هذا العنوان موجود في نقده لبحث بولياك « خزاريا » (فيريات سفر : ٢١ (١٩٤٤) ١٩ ، وجاء هذا النقد حاداً .

(٤) بالنسبة للتاريخ انظر مينورسكي ، حدود العالم : ٣١٦ (١٠٥٤ م) .

في القرن الثاني عشر ، حيث أوقع الهزيمة بهم [١] ، وكان الشاعران على اطلاع الأوضاع المحلية في منطقة القوقاز ، ذلك أنهما أمضيا شطراً كبيراً من حياتيهما في خدمة حكام كنجة (اليزافتبول) قرب باكو ، ووجد خـــانكوف الذي درس شعر الخاقاني أن الروس قد شاركوا في غزوة ضد شروان شاه كحلفـاء للخزر ، ولم يستطع أن يؤرخ لهذه الغزوة بشكل محدد ، وقـدر أنها تمت فيما بين [٢] ١١٣٥ و ١١٩٣م ، واعتبر بارثولد تاريخ الحادثة سنة ١١٧٥م ، وخيل إليه أن الغز أو القبجاق هم من عني هنا [٣] ، لكن يلاحظ أن الخاقاني قدذكر القبجاق بشكل واضح في مكان آخر من شعره [٤] ، وليس هنالك من شك أن النظامي الذي تعتبر ملحمته عن الإسكندر (سكندرنامه) بشكل عام ، آخر أعماله ، قد أكملت قبل وفاته بفترة وجيزه في حوالي سنة ١٢٠٣ ، ويفترض أنه عندما كتبها كان يفكر بأوضاع مشـــابهة لأوضاع الروس والخزر ، وهو لذلك يعد شاهداً معاً حراً آخر يثبت وجود الخزر وانتشار اسمهـــم في تلك الفترة ، وربما يمكننا من خلال مواد الخاقاني أن نتصور الغزاة ضد شراون وهم يزحفون براً من خلال ممرات القوقـاز [٥] ، وذلك مع أسطول روسي — ورد ذكر اثنتين وسبعين سفينه [٦] — مؤيد لهم ، ومن المهم في هذا المجال أنه أتى في

---

(١) انظر . ف مينورسكي « خـــاقاني وأندورونيكوس كومينوس » دورية معهد الدراسات الآسيويه والأفريقيه ١٩٤٥ ، ١١ / ٣ / ٥٥٠ - ٥٧٨ .

(٢) رسالةم.خانكوف ٨ / ٢٠ أيار ١٨٥٧ في « المجلة الآسيوية » ٣ / ١٢٠-١٢١.

(٣) الموسوعة الاسلامية ، مادة دربند ، انظر المصدر نفسه ، مادة خزر .

(٤) خانكوف ، المصدر نفسه : ١١٧ ، ١٢١ .

(٥) أو من دربند ، انظر مينورسكي « خاقاني و . . . » ٥٥٧ ، حيث اعتمد اقتراح باخوموف في أن الغارة على شروان من قبل الروس والخزر جاءت بمبادرةمن بكير بن مظفر أمير دربنـــد المستقل .

(٦) خانكوف ، المصدر نفسه : ١٢٥ .

أحد النصوص على ذكر اسم اللان مع الخزر [١] ، هذا وإن قيام الحكام المسلمين المحليين في جنوبي القوقاز بتولي شؤون صد الغزاة من الشمال في الفترات المتأخرة قد بات أمراً عادياً ، وذلك بعدما كان هذا من مسؤوليات ولاة الخلافة من قبل ، وجرى إيضاح الوضع من خلال الحديث عن وفاة شروان شاه سابق اسمه علي بن الهيثم ، ومن خلال الحادث الذي سبب اشتراك فضلون الكردي [٢] ، ثم من خلال حملة قام بها شروان شاه الذي تولى مدحه الخاقاني ، ومن المثير أنه ورد ذكر اسم الخزر في جميع هذه الأحداث التي وقعت بعد سنة ٩٦٥م .

وتبقى الحقيقة الكبرى بالنسبة لتاريخ منطقة الفولغا - القوقاز في الفترة التي سبقت الاحتلال المغولي هي ظهور القبجاق أو الكومان (يعتقد أنهم البولوفتسي الذين ورد ذكرهم في التاريخ الروسي) وهي الحقيقة الوحيدة التي يمكن الحديث عنها بشكل مؤكد ، وهناك خلاف في الرأي حول الموضع الذي تمركزوا فيه [٣] ، لكن المهم أن سيادتهم على السهوب أصبحت كاملة [٤] ، فهم - وليس الخزر - كانوا العدو الرئيسي الذي توجب على المغول الصراع معه في تلك المنطقة ، فهذا

---

(١) المصدر نفسه : ١٢٧ ، واشارة أخرى (المصدر نفسه : ١٣٢) : هرب الروس والخزر حيث نزلت بهم الفوضى في بحر الخزر وكان ذلك لصالح العصابات المنتصرة . انظر مينورسكي . دورية معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية (١٩٣٠) ٩٠٥ ، وبالنتيجة (المصدر نفسه : ١٣٣) فرض باكو أثناء وجوده الجزية على الخزر والري وزبرهفران ، ومن المحتمل أن الإسم الأخير هو زربرغران (مينورسكي ، حدود العالم : ٤٥٠ في القوقاز الشرقية .

(٢) بالنسبة إليها انظر ما سبق .

(٣) تبعاً لمرقوارت (الأتراك الغربيون : ١٠٢ ، نقلا عن بارتولد - الموسوعة الإسلامية ، مادة قبجاق) في القرن الثاني عشر .

(٤) تماشيا مع هذا نجد في مصادر الفترة المغولية « داشتي قبجاق » أي « صحراء القبجاق » وقد ظهرت مراراً معادلة لعبارة « داشتي خزر » أي « صحراء الخزر » التي كانت ترد في المصادر القديمة .

ما تظهره قصص سنجار الخوارزمي [1] والبشمان [2] ، لكن ما الذي كان قد حدث قبل وصولهم [3] ؟ إن هنالك غموضاً عاماً يحط بتاريخ الخزر ، فتلك كانت فترة مظلمة وستبقى كذلك ولا يمكن توضيحها الان ، كمـــا أنه من الصعب جداً التفكير بوجود دولة خزرية ، أو إذا وجدت فإنهـــا لم تعش بعد ذلك طويلاً .

ولقد كان كوتشيرا [4] Kutschera أول من افترض وجود علاقة بين ظهور السلاجقة ـ واضمحلال شأن دولة الخزر ، وقد برهنت هذه الفرضية على احتمالات كبيرة للصحه ، كما يمكن تمتينها أكثر ، فقد لفت زكي وليدي [5] الانتباه إلى نص موجود في كتاب « تفضيل الأتراك » لأبي العلاء بن حسول ،فقد ورد في هذا النص أن سلجوق (أو سرجوق) جد السلاجقة الأتراك قد تحدى ملك الخزر شخصياً وأهانه [6] ، ويرى زكي وليدي أن هذه الإشارة تفسح المجال بشكل واضح إلى احتمال قيام حرب في يوم من الأيام بين الخزر والغز ، الذين انتسب السلاجقة إليهم ، وكان ابن حسول موظفاً لدى الغزنويين في الري وقت

---

(١) تاريخ جلال الدين ، تحقيق هوداس ، النص : ٤٨ ، الترجمة : ٨١ .

(٢) رشيد الدين ، تحقيق بلوشت : ٤٤ ـ ٤٥ . انظر الجويني : ٢ / ٩ - ١١ . توجد الآن ترجمة انكليزية في بحث مينورسكي « قوقازيا ٣ » ، دورية معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية (١٩٥٢) ١٤ / ٢ / ٢٢٥ .

(٣) بالنسبة لما جاء عند القزويني (انظر الحاشية ٦٨) في أن سقسين قد انتقلت في وقت من الأوقات إلى أيدي الغز ، لكن لا شك أن القبجاق غدوا مسيطرين عليها ضمن سيطرتهم على غيرهـــا .

(٤) الخزر : ١٠٤ .

(٥) ابن فضلان : ١٧ ، الحاشية .

(٦) حقق النص العربي من قبل عباس العزاوي ، وقد ترجمت مع المقدمه من العربية من قبل الأستاذ س . يلتكايا في بولتان رقم ١٤ ـ ١٥ (استانبول ١٩٤٠) .

قيام دولة السلاجقة [1] ، وجرى تقديم كتابه إلى طغرلبك من قبل الوزير عميد الملك [2] ، ربما ليس بعد سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، ولهذا من غير المحتمل أن يكون المصنف قد تصرف ببعض الحقائق المقبولة حول تاريخ الأسرة الحاكمة الجديدة ، وجاء في هذا النص كما نقله زكي وليدي : إنه بالنسبة لنسب السلطان [طغرلبك] نصره الله ، يكفي للبرهنه على أصالته أنه لا ينتهي مثل الاخرين إلى عبد غير معروف ، فلقد كان من بين أجداده سرجوق (سلجوق) الذي ضرب ملك الخزر بسيفه ورماه بدبوسه الذي كان بيده حتى أنهك حصانه ورماه على الأرض منكباً على وجهه ، وهذا ليس من فعل العبيد بل من فعل أحرار الروح والنفس التي هي فوق الثريا ، فمن سلجوق بدأت دولتهم وصحت دعوتهم [3] .

والغمز هنا كان من قناة الغزنويين الذين انحدروا من صلب سبكتكين الذي كان عبداً ، لكن من المقدر أن يكون ابن حسول قد عزا إلى سلجوق عملاً كان قد قام به أبوه ، فنحن نقرأ لدى ابن الأثير قصة مشابهة كان [4] المتورط فيها تُقاق أبو سلجوق « وملك الترك الذي يدعى يبغو » ، ولم يكن هذا الأخير خاقان الخزر بل يبغو الغز ، وهو لقب ورد عند ابن فضلان [5] ، وينقل ابن العبري عن كتاب [6] « ملك نامه » ما يفيد أن تُقاق كان واحداً من قادة خاقان

---

(١) تفضيل : ١٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٥ .

(٣) المصدر نفسه : ٤٩ - ٥٠ .

(٤) ٩ / ١٦٢ حوادث سنة ٤٣٢ .

(٥) فصل ٣٣ .

(٦) سمي من قبله « ملك نامه » التسمية التي تبنيتها (زكي وليدي ، ابن فضلان ، جوانب من المشكلة الخزرية ، الجمعية الآسيوية لجامعة غلاسكو ١٣ (١٩٥١) ٤٢) وقارن كلود كاهن ، ملك نامه ، تاريخ عن أصل السلاجقة الشرق : ٢ / ٣٢ - ٣٣ - الحواشي - ١٩٤٩) الشاه نامه يملك نامه واقترح أن الكتاب قد صنف لألب أرسلان عندما كان يحمل لقب ملك قبل أن يصبح سلطاناً إثر وفاة طغرلبك سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م

الخزر ، وعندما توفي أخذ ابنه الصغير سلجوق وربي في بلاط الخاقان ، وفيما بعد غضبت الخاتون من سلوكه تجاه الخاقان مما استدعى مغادرته [1] ، ومرة أخرى هنالك إشارة لدى ابن العديم في كتابه تاريخ حلب جاء فيها أن الأمير سلجوق بن تقاق قد كان واحداً من مقدمي الخزر الأتراك [2] ، وبناء عليه لعل السبب غير المعروف لدى بارتولد [3] لهجرة الغز بقيادة السلاجقة أولاً نحو المجرى الأدنى لنهر سيحون (سرداريا ثم إلى منطقة بخارى ، قد كان انفصال سلجوق نهائياً عن الخزر [4] .

ولقد حمل أبناء سلجوق الأسماء التالية : ميكائيل ويونس وموسى وإسرائيل ، وحمل أخو طغرلبك في الجيل التالي اسم داود ، ولقد اعتقد بعضهم أن الأسماء التوراتية التي حملها بعض أوائل السلاجقة توحي بأن الأسرة كانت بالأصل مسيحية [5] ، ويبدو أن حقيقة الحال لم تكن كذلك ، ففيما يتعلق بالأسماء إن اسمي ميكائيل وإسرائيل أو ما يوازيهما هي أسماء يهودية كانت شائعة الاستخدام لدى اليهود في العصور الوسطى [6] ، وعندما نشهد مثل هذه الأسماء بين المسلمين فإنها تشير إلى أصل أجنبي [7] ، أضف إلى هذا أن اسم إسرائيل ليس اسماً

---

(١) المؤرخ السرياني ، تحقيق بدج ، النص ورقة ٦٩ ، العمود ١ ، الترجمة : ١٩٥ .

(٢) زكي وليدي ، ابن فضلان : ١٤٣).انظر أيضاً الفخري، تحقيق ديرنبورغ: ٣٩٢.

(٣) تركستان (سلسلة ذكرى جب) : ٢٥٦ .

(٤) في المقال الذي ورد ذكره في الحاشية ١٣٧ . وقد استنتجت أن ملك الخزر قد أخذ رهائن من الغز (انظر ابن فضلان : ١٤٣) من الواضح أنه من غير الممكن القول أن السلاجقة في أيام ابن فضلان كانوا واحداً من هؤلاء ،

(٥) انظر الموسوعة الإسلامية ، مادة سلاجقة .

(٦) زونز ، الأسماء اليهودية : Gesammelte schriften ، برلين ١٨٧٥ .
ب ٢ : ٤ ٢١، ٢٥ .

(٧) كاهن (المصدر السابق : ٤٢) حيث تناول هذه الأسماء السلجوقية وذكر (٥٧) اسم زعيم تركماني دعي الحاج إسرائيل ، ولربما يمكن ربط هذا الإسم باسم اسرائيل بن سلجوق أو بأصل مماثل .

مسيحياً ، وفي ضوء ما قيل حتى الآن يمكننا أن نفترض أن مرد هذه الأسماء هو وجود تأثير ديني محدد بين أسر الزعامة الغزية التي كانت تـــابعة للخزر ، هذا ومن الممكن أن «بيت العبادة» الذي تحدث القزويني[1] عن وجوده بين الغز قد كان كنيساً يهودياً .

هذا وفي الوقت الذي وجدنا فيه بعض الأسس للربط بين السلاجقة والخزر في القرن العاشر ، لا شك أنه لخطأ جسيم أن نفترض أن السلاجقة قد أنجزوا ما عجز الروس عن إنجازه عام ٩٦٥م وأنهم هم الذين تولوا حقاً قهر دولة الخزر ، ذلك أن الاندفاع السلجوقي الرئيسي كان أولاً في الشرق في بلاد ما وراء النهر ثم في خراسان ، وفيما بعد فقط أخذ اتجاهاً غربياً ، فلو كان قـــد حدث وحقق السلاجقة الانتصارات العظيمة على الخزر ، لتوجب أن يأخذ تطور السلطـــة السلجوقيه منحاً آخر وذلك في غربي بحر قزوين ، ولا شك أن عـــدم تحرك السلاجقة في هذا الإتجاه هو وجود قوة على الفولغا تملك من القدرة مايكفي لمنعهم ، ومن المؤكد أننا نواجه هنا دليلاً آخر على أن دولة الخزر كانت موجودة في أواخر القرن العاشر ، وبناء عليه يمكننا من جديد أن نؤكد أن دولة الخزر قد استمرت بالوجود بعد الحملة الروسية ، لكننا ما نزال في الظلام بالنسبة لمجرى الأحداث الذي جلب سقوطهم النهائي ، وكما سلف بنا القول يبدو أنه كان حاصلاً بشكل كامل قبل الحملات المغولية للقرن الثالث عشر .

وبقي علينا الآن أن نولي أهمية خاصة النظرية القائلة إن يهود أوربا الشرقية ، وعلى الأخص يهود بولنـــدا هم منحدرون من خزر العصور الوسطى[2] ، ومن

(١) تحقيق وستنفيلد : ٢ / ٣٩٥ .

(٢) كوتشيرا ، الخزر : ١٣ - ١٧ نقـــلا عن اللغوي لـ . فوغت ، وقد أثارت هـــذه القضية اهتمام بولياك بشدة وعمق ، انظر كتابه « خزاريا » المقدمة وخاصته : ٢٥٥ - ٢٧٠ ، وقد أشير من قبل إلى رأي زاجا تشكوسكي حول « قرائي » بولندا والقرم على أساس اعتبارهم ممثلين للخزر القدماء .

الممكن التعامل مع هذا الموضوع بشكل موجز فقط لأن هنـــالك أدلة قليلة تتعلق به مباشرة ، وهي بلا مواربة تحمل سمات الافتراض البحت ، ولا شك أن وجود أغلبية من ذوي البشرة الشقراء والشعر الأشقر والعيون الملونة بين يهود أوربا الشرقية ينبغي أخذه بعين الاعتبار وإيجاد تفسير له، والقول إن مرد ذلك إلى تزاوج واسع النطاق مع عناصر غير يهودية من السكان لا يمكن قبوله ومشكوك فيه ، وقد قيل إن مرد ذلك تجنيد كميات كبيرة من يهود الشرق الأقصى وأن هؤلاء هم أصل يهود شرقي أوربا ، لكن ليس هنالك مـا يؤكد ذلك [1] ، وأما من الجانب اللغوي فقد برهنت الأبحاث على انعدام المؤثرات الغربيـة على « اليدش » [2] مع أنه قيل بالمقابل بوجود ما يشير إلى مؤثرات لهجات جرمانية من الشرق والجنوب الشرقي[3] ونجد من الجانب التاريخي أنه بالإضافة إلى الخزر الذين ذهبوا إلى هنغاريا [حيث قيل إن « الماغيـــار » – كانوا لبعض الوقت مزدوجي اللغة يتكلمون اللغة الخزرية ولغتهم الخاصة ـ [4] من المؤكـد وقوع أعمال انتقال هامة للسكان وتحويل من أراضي الخزر السابقة [5] ، خـاصة

---

(١) و . إ ، د . ألن « تاريخ شعب جورجيـــا »(لندن ١٩٣٢) : ٣٢٣ نقلا عن ريبلي « أجناس أوروبا » .

(٢) ميسس « تاريخ نحو اليدش » (١٩٢٤) نقلا عن الأستـــاذ هـ . سمث « أعـــال الجمعية الشرقية لجامعة غلاسكو » : ٥ / ٦٧ .

(٣) هـ . سمث ، المصدر نفسه .

(٤) انظر الفصل السابع .

(٥) قيل إن الدوق الهنغاري تاكسوني قد وجه الدعوة إلى الخزر للاستقرار في مملكته (فازلييف ، القوط : ١٠٠) وقدم بعض الخزر إلى مملكة فلادمير للعثور على المأوى فراراً من الكومان (القبجاق ، البولوفتسي) وبنوا بلدة سموها بيلا – فيزها على مقربة من شيرنكوف (كوتشيرا – شاسرن : ١٧٥) . (وإذا صح هذا فإن هؤلاء الخزر قد عاشوا في بيلا فيزهـا (ساركيل) وقد استقروا الآن (١١١٧) في شيرنكوف ، وهذا ما جاء في الموسوعـة اليهودية ، مادة خزر) وقبل هذا من المحتمل أن بعض الخزر جاءوا إلى كييف (انظر ن . ك . تشادوك ، البدايات : ١٢٩) .

أيام الحملات المغولية [1] ، وحين نتفحص النظرية القائلة بالأصـــل الخزري في محاولة للبرهنة على صحتها ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار الأوصاف التي وصلتنافي أكثر من مصدر ، والتي تثبت أن الخزرأنفسهم كانوا شقراً [2] ، وسواء أصحت هذه الروايات أم لا ، فلا شك أن امبراطورية الخزر قد حوت أناساً من مختلف الأعراق والأشكال والأجسام ، وأنه بين هؤلاء شقت – بدون شك – ديانـــة الحكام طريقها وانتشرت . هذا وإن القول إن يهود شرقي أوربا منحدرون من الخزر يقود إلى إدخال « الاشكنزم » جميعاً وشمولهم بشكل عام [3] ، ويعني ذلك أيضاً شمول الغالبية العظمى من يهود عـــالم اليوم ، وهذا أمر كبير فوق طاقة ما تبيحه مصادرنا الناقصة من معلومات .

(١) مع اقتراب باتو المغولي اقترح الكومان على بيلا ملك هنغاريا أنه ينبغي السماح لهم بدخول بلاده على شرط أن يصبحوا نصارى ، وقد سمح لهم بذلك ، وقيل كان تعدادهـــم ٤٠،٠٠٠ : / مع عبيدهم ، وإذا انضم هؤلاء القوم فيما بعد إلى المغول ضد المجر (رافرتي ، طبقات ناصري : ١١٦٢ ، الحاشية) ويبقى الاحتمال الأكبر هو أن يهود شرقي أوربا قد ازداد عددهم في هذه الآونة بشكل كبير بالتحاق أبناء دينهم بهم .

(٢) انظر الفصل الأول الحاشيتان : ٣٤ و ٣٥ .

(٣) ن . شلوتز (مجلة هـ . ديرنبورغ : ٧٥) حيث يعتقد بوجود طائفة سبتية انحدرت من هؤلاء الخزر .

المصادر والروامز

- أبو الفداء ، الجغرافية[1] تحقيق رينو ودي سلان ، باريس ١٨٤٠ .
- أبو حامد الأندلسي ، تحفة الألباب ، تحقيق فيراند ، المجلة الآسيوية ، مجلده ٢٠٧ (١٩٢٥) .

Arme – la suede et l'ovient , archives d'etudesoriemtales up – sala 1914 .

Assemani , Bibliotheca orientalis , Rome 1719 - 1728 .

- البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق دي غويه ، ليدن ١٨٦٦ .
- البلعمي ، تاريخه ، تحقيق دورن ، الأكاديميه الروسية ١٨٤٤ .
- ابن العبري ، التاريخ السرياني ، تحقيق وترجمة السير إ . أ . وللس بدج . اكسفورد ١٩٣٢ .
- بارثولد ، اكتشاف آسيا ،ترجمة فرنسية من قبل ب. نكتين(باريس١٩٤٧) .
- بومستارك ، تاريخ الأدب السرياني . بون ١٩٢٢ .
- برتشنيدر ، أبحاث وسيطة من مصادر شرقي آسيا ، ١٩١٠ .
- بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، وبيار ١٨٩٨ – ١٩٠٢ . ليدن ١٩٣٧ .
- براون ، تاريخ الآداب الفارسية ، لندن وكمبردج ١٩٠٢ – ١٩٣٠ .
- بري ، تاريخ الامبراطورية الرومانية المتأخرة ، لندن ١٨٨٩ ، ١٩٢٣ .
- بري ، تاريخ الامبراطورية الرومانية المبكرة ، لندن ١٩١٢ .

(١) احتفظت بعناوين الكتب كما أوردها المؤلف وكذلك بترتيب المصادر .

– جيبون ، الحدار وسقوط الامبراطورية الرومانية،تحقيق . ج . ب بري .
– بوكستورف ، كوسري ، تحقيق بوكستورف ، بازل ١٦٦٠ .
– كارمولي ، الخزر في رحلات القديسين . بوسل ١٨٤٧ .

Carra de vaux - le livre de l'avertissement et de la revision, paris 1896.

– شابوت ، تاريخ ميخائيل الكبير ، تحقيق وترجمة . ج . ب . شابوت . باريس ١٨٩٩ ...
– شادوك ، البدايات، مخطوطة . ن . ك . شادوك ،بدايات التاريخ الروسي، كمبردج ١٩٤٦ .
– شافانس ، الوثائق ، إ ، شافانس . وثائق تاو ، كيف الغربية . سانت بطرسبورغ ١٩٠٣ .
– المؤرخ ، المؤرخ الروسي ، ترجمة ليغر ، نشر مدرسة اللغات الشرقية السلسلة الثانية : ١٣ (١٨٨٤) .
– قسطنطين بورفي ، قسطنطين بورفي روغنتوس .
– دربندنامه ، تحقيق قاسم بك . في ذكرى الأكاديمية الروسية ، ١٨٥١ .
– اكتشاف ، انظر بارثولد .
– دورن ، دورن بلعمي . في ذكرى الأكاديمية الروسية ، ١٨٤٤ .

Dubnov, Geschichte - weltgeschichte des judischen volkes, Berlin. n. d.

– الموسوعة الإسلامية .
– الموسوعة اليهودية .
– فيراند ، انظر أبو حامد الأندلسي .

– قطعة – وستمبيرغ – قطعة قوط توبارخا – في ذكرى الأكاديمية الروسية ١٩٠٢ .
– فرهن – الخزر ، في ذكرى الأكاديمية ، الروسية ١٨٢٢ .
– كرديزي ، تحقيق بارثولد ، في ذكرى الأكاديمية الروسية ١٨٩٧ .
– جب ، الفتح العربي ، هـ . أ ر . جب . الفتح العربي في آسيـــا الوسطى . الجمعية الملكية الآسيويه ١٩٢٣ .
– غريغوري ، هـ ، غريغوري ، تسمية وأصل الهنغار .Z . D . M . Q. B 91 (1937)
– غراتز ، تاريخ اليهودية ، الطبعة الثالثه .
Harkavy , Denkmaler - Altjudische denkmaler aux der krim
في ذكرى الأكاديميه الروسية ١٨٧٦ .
– تاريخ غلوسن ، انظر مرقوارت ، تاريخ غلوسن .
– حدود ، انظر مينورسكي ، حدود .
– ابن الأعثم الكوفي ، كتاب الفتوح ، مخطوطة سراي ٢٩٥٦ ، نقلاً عن زكي وليدي ، ابن فضلان .
– ابن الأثير ، ط . القاهرة ١٣٠٣ هـ .
– ابن فضلان ، رحلة . تحقيق زكي وليدي .
– ابن الفقيه ، تحقيق دي غويه ، المكتبة الجغرافية العربية .
– ابن حجر ، الإصابه في تمييز الصحابه ، ١٨٥٦ – ١٨٧٣ .
– ابن حوقل ، ط . أولى تحقيق دي غويه ، المكتبة الجغرافية العربية . ط . ثانية ، كريمر ١٩٣٩ .
– ابن اسفنديار ، تاريخ طبرستان ، ترجمه . إ . ج براون ، سلسلة ذكرى جب .
– ابن خلدون ، ط . بولاق ١٢٨٤ هـ .
– ابن خرداذبة ، تحقيق دي غويه ، المكتبة الجغرافية العربية : ٤ .

- ابن قتيبه ، معارف ، كتاب المعارف ، وستنفيلد ، كوتنجن ١٨٥٠ .
- ابن رسته ، تحقيق دي غويه ، المكتبة الجغرافية العربية : ٧ .
- ابن سعد ، طبقات . تحقيق إ . سخاو ، ليدن ١٩٠٤ - ١٩١٧ .
- الاصطخري ، تحقيق دي غويه ، المكتبة الجغرافية العربية : ١
- المجلة الاسيوية .
- مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية .
- الموسوعة اليهودية .
- الدورية الربعية اليهودية .
- مجلة الجمعية الملكية الآسيوية .
- الجويني ، تاريخ فاتح العالم ، تحقيق ميرزا محمد ، في سلسلة ذكرى جب .
- ك ، مجموعة الأستاذ كاهل في مخطوطات تشستربيتي من الاصطخري .
- قاسم بك (بي) دربندنامه (تحقيق) في ذكرى الأكاديمية الروسية١٨٥١ .
- كموسكو ، « العرب » ، العرب والخزر ١٩٢٤ - ١٩٢٥ .
- كموسكو ، روايات الاصطخري عن الخزر ، ١٩٢١ .

Kokovtsow , Evreisko - Khazarskaya perepiska V x veke Leningrad 1932 .

- كوتشيرا ، الخزر ، فينا (ط - ٢) ١٩١٠ .

Landu . Beitrage , Beitrage zum chazarenproblem , Breslau I938

- لاندو ، الوضع الحالي ، الوضع الحالي لمسألة الخزر ، بالعبرية ، ١٩٤٢ .
- مان ، نصوص ودراسات ، نصوص ودراسات في تاريخ اليهود وآدابهم .
الجلد الأول ، سنسناتي ١٩٣١ ، الجلد الثاني ، فيلادلفيا ١٩٣٥ .

Marquart , Eranchahr - Eransahr nach der Geographie des ps .
Moses x orenac'i , Abhanldungen derkonig lichen Gesellsch . aft

der wissens chaften zugottingen , neue floge , III 2 Berlin 1901 .

Marquart , Histovische glossen - « Historische glossen zu den alttur kischen inschriften » Vienna oriental . Journal (wiener zeitschrift fur die kunde des morgenlandes) x11 , 1898 .

Marquart , streifzuge / streif z / str — osteuropaische und ostasiatische streifzuge Leipzig 1903

– المسعودي ، مروج الذهب ، تحقيق بربير دي مينارد وبافت دي كورتيل) باريس ١٨٦١ – ١٨٧٨ .

– المسعودي ، التنبيه ، تحقيق دي غويه ، المكتبة الجغرافية العربية : ٧ . مينورسكي ، حدود ، حدود العالم ، سلسلة ذكرى جب .

– مينورسكي ، مروزي شرف الزمان طاهر مروزي ، حول الصين والترك والهند . الجمعية الملكية الاسيوية ١٩٤٢ .

– مينورسكي ، تميم ، رحلة تميم بن بحر إلى الايغور . دورية معهد الدراسات الاسيوية والأفريقية ، ١٩٤٨ ، ١٢ / ٢ / ٢٧٥ ، ٣٠٥ .

Mon . Germ . ser - Monumenta Germaniae Hestorica scriptores.

– مقدسي ، تحقيق دي غويه . المكتبة الجغرافية العربية : ٣ .

– نيبور ، أين القبائل العشر ؟الدورية الربعية اليهودية ١ (١٨٨٩).نقفوروس ط . بون .

Noldeke , Beitrage zur Geschichte des Alexander Romans , Denkschriften der wien . Akad , xxx v111 , 5 .

– بلليوت . أسماء الأتراك ،بول بلليوت ،لهجات أسماء الأتراك . باريس ١٩٥٠.

Platonov , Russie chretienne - S F . Platonov , La Russie chretienne in Avaignac , Histoire du monde . T . VLL (Paris 1931).

– بولياك « تحول » ، تحول الخزر إلى اليهودية ، ١٩٤١ ، بالعبرية .

– بولياك خزاريا ، خزاريا ، تل أبيب ١٩٤٤ ، بالعبرية .
– القاموس المحيط للفيروز أبادي أربع مجلدات ، القاهرة ١٣٥٣ / ١٩٣٥ .
– قزويني ، الجغرافية ، مجلدان ، تحقيق وستنفيلد ، كوتنجن ١٨٤٨ .
– قدامه ، تحقيق دي غويه ، المكتبة الجغرافية العربية : ٦ .
– رشيد الدين ، تحقيق بلوشت ، سلسلة ذكرى جب .
– دورية الدراسات اليهودية .

Schultzc - Das Martyrium des heiligen Abo von taflis . texte und centersuchungenzur Geschicdte der altchristlichen Literatur , neve Folge x111 (1905) .

strashe - Firkovitih und seine Entdeckungen , Lepzig .

– الطبري ، تحقيق دي غويه وآخرون ، ليدن ١٨٧٩ – ١٩٠١ .
– تفضيل ، كتاب تفضيل الأتراك ، تحقيق العزاوي . إعادة اصدار من بلتكيا – بولتان رقم ١٤ – ١٥ ، استانبول ١٩٤٠ .
– صلة ثيوفانس ، ط . بون .
– فازلييف ، قوط ، القوط في القرم ، كمبردج ١٩٣٦ .
– فرنادسكي ، روسيا القديمه ، ييل ١٩٤٣ .

Mestberg , Beitrage - stadt und volk saksin , Beitrage zur Klarung orientalischer Quellen uber osteu ropa , Bulletin of the Russian Academy 1899.

– وستبيرغ ، ابراهيم بن يحيى ، رحلة ابراهيم بن يحيى ٩٦٥ . في ذكرى الاكاديمية الروسية ١٨٩٨ .

W . Z . K . M . - Wiener zeitschrift fur die kunde des morgenlandes .

- اليعقوبي ، التاريخ ، تحقيق هو تسما ، ليدن ١٨٨٣ .

- اليعوبي البلدان ، تحقيق دي غويه ، المكتبة الجغرافية العربية ، ٧ .

- ياقوت ، بلدان ، معجم البلدان، تحقيق وستفيلد ، لايزبغ ١٨٦٦-١٨٧٠.

- زاجا تشكوسكي . الثقافة الخزرية وميراثها - برسلو ١٩٤٦ .

- زاجا تشكوسكي ، مشكلة لغة الخزر ، جمعية برسلو العلمية : ١٩٤٦ .

- زاجا تشكوسكي ، دراسات حول مشكلة الخزر ، الأكاديمية البولندية، كراسكو ١٩٤٧ .

- زمباور ، معجم الأسر الحاكمه ، هانوفر ١٩٢٧ .

Z . D .M . G . Zeitshcrift der Deutschen morgenlandı schen Gesellschaft .

- زكي وليدي ، ابن فضلان ، رحلة ابن فضلان ١٩٣٩ .

- Zeki walidi , volkerschaften - « volkerschaften des chazaraenreiches im neunten jahrhundert » , Korosi cosoma-Archivum . 1940 .

- Zeki walidi , « Die schuverter der Germanen » in Z . D . M . G , B . 90 (1936) 19 - 37 .

- Zeuss , Die Deutschen - Die Deutschen und die Nachbars-tamme , Munich 1837 .

- Z h . M . N . P .See Z . M . N . P .

- زخي ، رحلة سلاّم الترجمان ، الوثائق الخزرية العالمية ١٩٢١ .

Z . M . N . P . Zhurmal Ministertva Narodnogo prosveschenia .

- زوتنبيرغ ، تاريخ الطبري ، باريس ١٨٦٧ - ١٨٧٤ .

فهرس تاريخ يهود الخزر